الصراع بين الحق والباطل

كما يعالج في

سورة الأعراف

تأليف الدكتور

عادل محمد صالح أبو العلا

الصراع بين الحق والباطل
كما جاء في
سـورة الأعـراف

(الأعمال المحكمة « ٩ »)

الصّراع بين الحق والباطل
كما جاء في
سورة الأعراف

تأليف الدكتور
عادل محمد صالح أبو العلا
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية الآداب ـ جامعة الملك عبد العزيز

مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض

ح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابو العلاء، عادل محمد صالح

الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف.

٧٩٠ص؛ ١٧×٢٤ سم؛ (الأعمال المحكمة؛ ٩).

ردمك ٤ - ٠٦ - ٦٢٤ - ٩٩٦٠

ردمد ٠٩٣٨ - ١٣١٩

١ - القرآن - سورة الأعراف - تفسير ٢ - قصص الأنبياء

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٦، ٢٢٧ ١٥/٠٢٢٤

رقم الإيداع: ١٥/٠٢٢٤

ردمك: ٤ - ٠٦ - ٦٢٤ - ٩٩٦٠

ردمد ٠٩٣٨ - ١٣١٩

الطبعة الأولى - الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م

مكتبة الملك عبد العزيز العامة

ص. ب ٨٦٤٨٦ - الرياض ١١٦٢٢

هاتف: ٤٩١١٣٠٠

ناسوخ: ٤٩١١٩٤٩ - برقياً: ٤٠٦٤٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

أهـدي ثمـرَة جُهـدِي هذا إلى من أرضَعاني بحُب الشّرع، وَغـرسَـا فيّ محبّـة العلم والمعرفة: وَالِديَّ العـزيـزين أطَال الله في عمرهما، وَمتعهما بالصحَّة والعَافية، وأنالنِي رِضاهُما. إنّه سَميع مُجيب.

أصل هذا الكتاب رسالة «دكتوراة» تقدم بها المؤلف عادل بن محمد صالح أبوالعلا لقسم الدراسات العليا بجامعة أم القرى بكلية الدعوة وأصول الدين، وذلك بإشراف سعادة الدكتور مسعد عبدالمعطي الحفني النبراوي - حفظه الله -، وقد نوقشت بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٤٠٩هـ، الموافق ٣٠/ ٥/ ١٩٨٩م وأُجيزت بدرجة «امتياز».

(مكتبة الملك عبدالعزيز العامة)

التقـديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد**:

فإن الصراع بين الحق والباطل صراع أزلي قديم؛ بدأ منذ نشأة الخليقة، وهو سُنة كونية من سنن الله - تعالى - في أرضه، ولن تجد لسُنةِ الله تبديلاً، فمن الناس من اتبع الحق فآمن، ومنهم من اتبع الباطل فكفر، وهذه حكمة واجبة نافذة في الوجود الذي نحياه.

فمن لا يتعرف على أشواك ووهاد الباطل، وينال منه الأذى؛ فإنه لم يدرك ثمرة الحق، وسبل الخير، وبهاء الجمال، فالحق والباطل بينهما صراع شاق وطويل، ومهما تعثر الطريق بالحق، وظنَّ الباطل - بزعمه - أن جولته قد انتهت لصالحه؛ فإن الحق لا محالة منتصر؛ لأنه اسم من أسماء الله الحُسنى، فدائمًا وأبدًا يثبت الحق ويضمحل الباطل؛ ومن هنا قيل: للباطل جولة ثم يضمحل، قال تعـالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة الإسراء: الآية (٨١)].

وعلى مَرِّ العصور والأزمنة لاقى الأنبياء والمرسلون والمصلحون الكثير في سبيل نشر دعوتهم «الحق» من أعدائهم - الباطل - ووجدناهم يضربون أروع الأمثلة في الثبات، والفداء، والإباء بعزيمة لا تلين، وكان النصر مع الصبر، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الأنبياء: الآية (١٨)].

واستجلاءً لهذا الصراع القديم تقدم مكتبة الملك عبد العزيز العامة تاسع

أعمالها المُحكّمة كتاب: «**الصراع بين الحقِّ والباطل كما جاء في سورة الأعراف**» بداية من صراع آدم ـ عليه السلام ـ مع إبليس وانتهاءً بصراع الرسول الخاتم محمد ﷺ مع قومه، مرورًا بالمرسلين الذين ذكرتهم السورة الكريمة.

والحق أن إصدار المكتبة لهذا العمل القرآني لهو من صميم أهدافها السامية في نشر الثقافة العربية والإسلامية الأصيلة ومساهمة منها في إعادة تشكيل شخصية المسلم العامل والنافع لمجتمعه ووطنه، وصياغته بما يتلاءم وشريعته الغرّاء، واستردادًا لدور أمته المفقود، والعودة إلى سالف عهدها الرشيد.

والله نسأل أن ينال استحسانكم، وتعم به الفائدة، وأن يجعله الله في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكتبة الملك عبد العزيز العامة
بالريـــاض

شكـر وتقديـر

الحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافيء مزيده، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـد حمد الله حق حمده، والثنـاء عليه كما يحب ويرضى، أتقدم بعظيم الشكر والتقدير لفضيلة الدكتور/مسعد عبد المعطي الحفني النبراوي. الذي تولى الإشراف على هذه الرسالة، ومنحني من وقته وعلمه الكثير الكثير، حيث كان إشرافه لا يتقيد بساعات الإشراف الرسمية فحسب بل تعداها إلى أكثر من ذلك، كما غمرني طيلة مدة الإشراف على هذا البحث بنصائحه القيمة، وإرشـاداتـه النـافعة، وتوجيهاته الصائبة، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأمد عمره، ومتعه طيلة أيام حياته بالصحة والعافية.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع المسئولين العاملين المخلصين في جامعة الملك عبد الغزيز، وعلى رأسهم معالي مدير الجامعة الدكتور/رضا محمد سعيد عبيد، وسعادة عميد كلية الآداب الدكتور/عبد الوهاب بغدادي الذين أتاحوا لي ولـزملائي فرصة التحضير للدراسات العليا في رحاب أقدس بقعة ـ مكة المكرمة ـ في جامعة أم القرى وبذلوا لنا كل أسباب الراحة المادية والمعنوية.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على أمر جامعة أم القرى، وعلى رأسهم معالي مدير الجامعة الدكتور/راشد الراجح، وعميد كلية الدعوة وأصول الدين الـدكتور/علي بن نفيع العلياني الذين وفروا لنا الجو العلمي، واستقطبوا لنا جهابذة العلماء والمفكرين.

وأخيراً أتقدم بخالص الشكر والتقدير للقائمين على شؤون مكتبة الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ الذين كان لهم الفضل بعد الله ـ عز وجل ـ في طباعة هذا الكتاب وإخراجه بهذه الصورة الجيدة. فجزاهم الله عني خير الجزاء فلهم ولكل من قدَّم لي يداً بيضاء لإتمام هذا البحث واستكمال جوانبه من المشايخ والزملاء والأهل والأصدقاء، إلى كل أولئك أتقدم بخالص شكري وعظيم تقديري. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائل في محكم التنزيل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾(١) وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وكرمك ياأرحم الراحمين.

أما بعد:

فإن أكرم ما تمتد إليه أعناق الهمم، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم، العلم الذي حوى على جميع القيم، والذي كان تبليغه لنا على ألسنة الأنبياء والرسل ـ ذوي الفضل والكرم ـ ألا وهي علوم الشريعة؛ فهي العروة الوثقى التي من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم، والجادة الواضحة التي من سلكها فقد هدي إلى صراط مستقيم، ومن أعظم علوم الشريعة علم التفسير فهو أعلاها شأناً، وأقواها برهاناً، وأوثقها بنياناً، وأوضحها تبياناً، كيف لا وموضوعه الكتاب المجيد الذي هو عمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة؟ قال الإمام الراغب

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨١).

الأصفهاني[1] في بيان شرف علم التفسير: «أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله، وذلك أن الصناعات إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء:

إما بشرف موضوعاتها، وهي المعمول فيها، نحو أن يقال: **الصياغة** أشرف من **الدباغة**.

وإما بشرف صورها، نحو أن يقال: طبع السيوف أشرف من طبع **النقود**.

وإما بشرف أغراضها وكمالها، كصناعة الطب التي غرضها إفادة الصحة، فإنها أشرف من الكناسة التي غرضها تنظيف المستراح.

فإذا ثبت ذلك، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث وهو أن موضوع التفسير: كلام الله ـ تعالى ـ الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة. وصورة فعله: إظهار خفيات ما أودعه مُنزّله من أسراره ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب؛ وغرضه: التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها، ولهذا عظم الله محله بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٦٩﴾﴾[2] قيل: «هو تفسير القرآن»[3].

ونظراً لذلك فقد وقع اختياري بفضل الله ـ ولله الحمد والمنة ـ على موضوع: **«الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف»**.

---

(١) الحسين بن محمد بن المفضل أبوالقاسم الأصفهاني، المتوفى سنة نيف وخمسمائة، المعروف بالراغب أديب، من الحكماء العلماء سكن بغداد ومن أشهر مؤلفاته: محاضرات الأدباء ـ ط. مجلدان ـ والأخلاق، وجامع التفسير والمفردات في غريب القرآن، وغيرها. ا.هـ. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، (٢/٢٩٧)؛ والأعلام للزركي، (٢/٢٥٥)؛ وكشف الظنون لحاجي خليفة، (١/٣٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦٩).

(٣) القاسمي، محمد جمال الدين. محاسن التأويل. ترقيم وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الفكر، ١٣٩٨هـ)، ١/٣٤٩.

وبالإضافة إلى ما سبق أن بينته عن أهمية علم التفسير، هناك العديد من الحوافز التي جعلتني أختار هذا الموضوع:

أولاً : شغفي الشديد منذ بداية دراستي الجامعية بالقرآن الكريم وما يتصل به، ولاشك أن التفسير هو أشرف العلوم ـ كما أسلفت ـ لأنه يجلّي معاني كتاب الله ـ عز وجل ـ الذي شغفت به منذ الصغر.

ثانيًا : إن بحثي في مرحلة الماجستير كان موضوعه: «خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها» وهذا البحث من صميم علوم القرآن الكريم، فأردت ـ بفضل الله وعونه ـ أن يكون بحثي في رسالة الدكتوراه موضوعه متصلٌ بتفسير الكتاب العزيز؛ ولأتمكن بهذه الدراسة من الإحاطة بهذين الأصلين العظيمين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر.

ثالثًا : لقد تأملت في سورة الأعراف وما ذكرته عن آدم ـ عليه السلام ـ وتكريم الله له بأن أسجد له ملائكته، وامتناع الشيطان عن السجود لآدم كما أمره الله ـ عز وجل ـ وتبجحه بقوله لربه: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[1] وتوعده بني آدم بما حكاه الله ـ عز وجل ـ عنه بقوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[2] ووسوسته لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بأكلهما من الشجرة، وقد فعلا ذلك لحكمة أرادها الله ـ عز وجل ـ فكان إغواء الشيطان لآدم وبنيه من بعده، وأكل آدم وحواء من

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٦، ١٧).

الشجـرة هما مبـدأ الصراع بين الحق والبـاطـل الـذي هو موضوع الدراسة، فاندفعت بهمة عالية، وعزم أكيد، مستعيناً بعون الله وتوفيقه إلى دراسة سورة الأعراف التي ذكرت ذلك الصراع في أوائل آياتها.
ثم كررت ذكره متمثلاً بدعوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أقوامهم إلى الحق، وتشبث أقوامهم ـ إلا من رحم الله ـ بالباطل، فكان صراعاً مريراً سطرته سورة الأعراف وانفردت به بشكل مميز. ولقد تعرضت سور أخـرى مكية ومـدنية لهذا الصراع، إلا أن بعضهـا طويل له خصائص أخرى كسورة البقرة التي يقتضي تفسيرها ودراستها جهدًا أكبر، ووقتًا أطول، واتجاهـًا آخر يخالف الاتجاه الذي من أجله جعلت سورة الأعراف موضع بحثي، كما أن السور المكية التي ذكرت هذا الصراع وفصلت فيه لم تستوعب من القصص القرآني ما استوعبت سورة الأعراف، ولذا اخترتها موضوعاً للدراسة.

رابعًا : ومن الحـوافـز التي جعلتني أختار سورة الأعراف؛ أنها اشتملت على قصص الأنبياء المصطفين والتي بلغت ثماني قصص، وهي بالترتيب كما يلي:

قصـة آدم عليه السـلام، وقصـة نوح، وهـود، وصـالـح، .ولوط، وشعيب، وموسى، وخاتمهم نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ آملاً من خلال دراستي لهم الوقوف على أساليبهم الحكيمة في دعوتهم لأقوامهم، وتصديهم للباطل، وصبرهم على ما يلاقونه من استهزاء وقذف وتعدٍ وتهكم. والقصص القرآني أعظم بيان لذلك، وسـورة الأعراف باعتبارها قد اشتملت على أغلب القصص الذي تكرر ذكره في القرآن الكريم خير بيان لذلك.

خامسًا: لقد اشتمل قصص النبيين في القرآن الكريم على دروس وعبر مهمة لكل داعٍ ومصلح من المسلمين؛ ليخرج الرحيق الذي يشفي النفوس من عللها، وتكون له منهجًا سويًا يقتفي أثره لدعوة أهل زمانه للحق، وينشلهم مما وقعوا فيه من الباطل، ويوصلهم إلى معرفة خالقهم - جل وعلا - بإخلاص العبادة له - عز وجل. وسورة الأعراف خير مثال لذلك.

سادسًا: ومن الحوافز التي جعلتني أختار هذا الموضوع أنني تطلعت في واقع عالمنا الإسلامي فوجدت أن المسلمين مغلوبون على أمرهم، تُغتَصب حقوقهم، وتُهدر كرامتهم، يُقتَّلون ويُشرَّدون، ولا يُسمَع لاستغاثتهم، وقد تسلطت عليهم قوى البغي والعدوان، وقد تداعت عليهم الأمم كتداعي الأكلة إلى قصعتها كما أخبر الصادق الأمين[1] - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس أمام الأمة الإسلامية من حَلٍ للتخلص من ورطتها إلا برجوعها إلى كتاب ربها وسنة رسوله ﷺ، وإمعان النظر في قصص القرآن الكريم الذي يقص طبائع الكافرين وأخلاقهم المبنية على الشر والعدوان، وتدبير المكائد للمؤمنين؛ ليحملوهم على الكفر إن استطاعوا، أو ليصرفوهم عن دينهم ببعض الصرف إذا عجزوا عن تكفيرهم. والله أسألُ أن يحفظَ على الأمة الإسلامية دينها ويحفظها من أعدائها.

كل تلك الأسباب جعلتني أختار هذا البحث، وعلى الرغم من قلة زادي، وقصر باعي؛ فقد استعنت بالله تعالى في كتابة هذا البحث وأرجو من الله عونه

---

(١) أخرج أبوداود في سننه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» الحديث... سنن أبي داود، باب تداعي الأمم على الإسلام (٢/٤٢٦) ورواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه (٥/٢٧٨).

وتوفيقه وأن يتقبل جهدي هذا، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يغفر لي ما كان فيه من تقصيرٍ، ولستُ أدَّعى تَمَيُّزًا في البحث ولا كمالا فيه فالكمال لله وحده، وكيف يصدر الكمال في الإنسان وهو يخطيء ويصيب؟ فما كان في بحثي هذا من خير وصواب فهو من الله وحده لا شريك له، وما كان فيه من قصورٍ فهو مني أعتذر إلى الله عنه والله حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العَليِّ العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

منهجي في هذا البحث

أولاً : استعنت بكتب التفاسير المشهورة، لاسيما الأمهات منها: كتفسير الطبري، والتفسير الكبير للإمام الرازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وروح المعاني للألوسي، والكشاف للزمخشري. وما من كتاب من كتب التفسير أخذت منه إلا نسبت إليه موضع مأخذي بالجزء والصحيفة.

ثانيًا : استعنت بكتب السنة فيما ذكرته في البحث من الأحاديث النبوية الشريفة، وقد اعتنيت بنسبة هذه الأحاديث الشريفة إلى الكتب التي أخذتها منها، فما أخذته من الصحيحين رددته إليهما بالجزء والصحيفة، وكذلك ما أخذته من بقية الكتب الستة نسبته إلى جزئه وصحيفته، وما أخذته من المسانيد بَيَّنتُ مكانه في المسند الذي أخذته منه، وقد راجعت الحكم على الأحاديث والآثار في الكتب المعتمدة عند أهل الحديث.

ثالثًا : اقتضى بحثي هذا الرجوع إلى كتب اللغة: ككتاب لسان العرب لابن منظور، وتهذيب اللغة للأزهرى، وكتاب تاج العروس للزبيدي، وكتاب المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

رابعًا : رجعت إلى كتب السيرة النبوية والتاريخ فأخذت منها ما احتجت إلى ذكره في هذا البحث.

خامساً: ترجمت لبعض الأعلام الذين ذكرتهم في هذا البحث، وقد رجعت في ذلك إلى المراجع الأصلية التي اعتنت بتراجم العلماء، كما رجعت إلى مراجع حديثة ترجمت لبعض من ذكرتهم من الفلاسفة في الفصول الأخيرة.

سادسًا: ما نقلته نصاً من المراجع وضعته بين قوسين، وذكرت مرجعه في هامش الرسالة، وما نقلته بتصرف أو عبرت عنه أشرت إلى ذلك في الهامش بقولي: «انظر ص كذا».

سابعًا: اقتضى البحث منى في معظم الفصول أن أقدم له تمهيدًا رأيت من وجهة نظري حاجة تلك الفصول إلى ذلك التمهيد. هذا وقد أسست بحثي على مقدمة، وتمهيد، واثنى عشر فصلاً، وخاتمة، وقسَّمتُ الفصل إلى مباحث، وقسمت المبحث - في بعض الفصول - إلى مسائل؛ ليسهل على القاريء التعرف على هذه المسائل والوقوف على مكانها في البحث، وجعلت في آخر الرسالة ثلاثة فهارس، وهي فهرس الأعلام، وفهرس المراجع، وفهرس الموضوعات.

وقد كانت خطتي في هذا البحث على النحو التالي:

أما المقدمة: فبينت فيها سبب اختياري للموضوع. ثم تتوالى الفصول على النحو التالي:

الفصـل الأول

صراع إبليس مع آدم ـ عليه السلام

المبحث الأول : مسائل مهمة لابد من توضيحها .

المبحث الثاني : الآيات التي يدور عليها الصراع في قصة آدم ـ عليه السلام .

الفصـل الثانـي

الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمـة :

المبحث الأول : دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه .

المبحث الثالث : موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين .

الفصـل الثالـث

الصراع بين هود ـ عليه السلام ـ وبين قومه

مقدمـة :

المبحث الأول : دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : أ ـ موقف الكافرين المعاندين من دعوة ـ هود عليه السلام .

ب ـ دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه .

المبحث الثالث : موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين والمعاندين :

أولاً : مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ورده لشبهاتهم .

ثانيا : مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد .

الفصـل الرابـع

الصراع بين صالح ـ عليه السلام ـ وبين قومه

الفصـل الخامـس

الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وبين زوجته خاصـــة وقومـــه عامـــة

الفصـل السادس

الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وبين قومه

الفصل العاشر

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة: نشأة النظريات القديمة والحديثة.

نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع:

هيجل، كارل ماركس، داروين، لامارك . . . .

الفصل الحادي عشر

موقف الإسلام من الصراع

ويتضمن

الرد على النظريات الحديثة

الفصل الثاني عشر

عاقبة الصراع بين الحق والباطل

المبحث الأول: النصر محتم من عند الله للمؤمنين.

المبحث الثاني: تعدد وجوه النصر الإلهي للمؤمنين.

الخاتمة

وفيها ذكرت النتائج التي توصلت إليها من المبحث

التمهيـــد

ويشتمل على :

أ ـ مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما.

ب ـ بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية.

ثم بيان المقاصد العامة لسورة الأعراف، وهي :

أولاً : الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ عز وجل.

ثانيـًا : الآيات الزاجرة عن الشرك.

ثالثـًا : الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه.

رابعـًا : الآيات الخاصة بصدق الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

(أ) مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما

الصَّرْع: بفتح الصاد وسكون الراء من الثلاثي في الأصل هو: الطرح على الأرض للإنسان[١] تقول: صارعه فصرعه يصرعه صَرعاً وصِرعاً فهو مصروع وصريع... والمصارعة والصراع معالجة الرجل لصاحبه أيهما يصرع صاحبه[٢].

ومن معاني الصراع: معالجة القرنين[٣] أيهما يصرع صاحبه[٤].

ومن خلال ما سبق يتضح أن المادة من الثلاثي والرباعي تدور على معنيين:

المعنى الأول: الغلبة، سواء أكانت الغلبة بالحجة مثل الحجة بالقرآن الكريم والكتب السماوية والمعجزات النبوية، أم كانت الغلبة بالانتصار بالقوة الذاتية والحروب.

وهذا ما تحقق للأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم على أعداء الله فقد انتصروا عليهم؛ غلبوهم بالحجة أولاً، ثم بالسيف والقوة ثانياً.

---

(١) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. تهذيب اللغة. (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت)، ٢/٢٤.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم. لسان العرب. (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٨/١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) الند المناويء.

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي (٥/٤١١ ـ ٤١٣).

المعنى الثاني: الفنون المبتكرة، التي بها ينتصر أحد المتصارعين على صاحبه.

فمفهوم الصراع بين الحق والباطل إذن هو غلبة الحق على الباطل بالبراهين والحجج التي لاتدع مجالاً لذي لب في ظهور الحق على الباطل، ومدافعته له بالشرائع الإلهية(١) التي أنزلها الحق - عز وجل - في كتبه على أنبيائه - صلوات الله وسلامه عليهم - أو ألهمهم إياها فيما يروى عنهم.

وسيمر بك أيها القارىء الكريم - بمشيئة الله - لذلك نماذج كثيرة فيما يعرضه القرآن الكريم في هذه السورة الكريمة من الحجج البالغة التي دمغ بها الأنبياء الباطل وأصبحت قرآناً يتلى.

الحق: لقد ورد الحق بمعان كثيرة، والذي يتلاءم مع البحث ويتناسب معه معان أربعة:

أ - الحق: هو الشيء الثابت المتحقق.

ب - الحق: ضد الباطل.

جـ - الحق: بمعنى الصواب(٢).

د - الحق: القرآن وما جاءت به السنة المطهرة(٣).

إن كلمة الحق إنما تولد من ميزان العقل السليم، المتحرر عن أنواع التبعات والأهواء والعصبيات كافة.

الباطل: هو نقيض الحق، وهو الذي لا يقره الشرع. وقد جاءت مادة الباطل في لغة العرب على معان مختلفة يدور أغلبها على ما يلي:

أ - بطل الشيء يبطل بطلاً وبطولاً وبطلاناً: ذهب ضياعاً وخسرا(٤) فكل ما لا يقره الشرع مما هو فاسد شرعاً وعقلاً وعادة ضائع ذاهب، لا يعول

---

(١) التي من جملتها مجاهدة أهل الباطل بالمال والنفس والنفيس لإعلاء كلمة الله.

(٢) لسان العرب، (١٠/ ٥٠).

(٣) تاج العروس (٦/ ٣١٥).

(٤) انظر: لسان العرب، (١١/ ٥٦).

عليه، ولا ينبني عليه حكم شرعي.

ب ـ الباطل نقيض الحق، أي: الذي جاء على خلافه. وجمع الباطل: أباطيل وبواطل.

جـ ـ أبطل، أي: جاء بالباطل واجتهد فيه.

د ـ والشيء باطل، أي: بيّن البطول والبطلان، أي: لاحق فيه البتة.

هـ ـ وتبطلوا بينهم، أي: تداولوا الباطل، واجتهدوا في نشره.

و ـ التبَطل فعل الباطلة ـ بفتح الباء ـ وهو اللهو والجهالة.

ز ـ وأبطلتُ الشيء جعلته باطلاً، أي: ذاهباً.

ح ـ وأبطل فلان، أي: جاء بكذب، وادَّعى باطلاً[1].

إن كلمة الباطل إنما تولد في غمار ما يمكن أن يعلق بالإنسان من شوائب الشهوات والأهواء والعصبيات والأغراض الشخصية المتنوعة، والجامع لهذه المعاني كلها هو أن الباطل عارٍ عن الخير، وأن أهل الحق يجتهدون في إذهاب الباطل بما يظهرونه من أحقية الحق وإبطال الباطل.

وهذا هو ما يهدف إليه عنوان الدراسة هذه: «**الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف**» فكما أن للحق أهله المجتهدين في نصرته، القاذفين فيه على الباطل بُغيةَ دمغه وطمسه، كذلك للباطل أعوانه الذين يحاولون إعلاءه على الحق، وإغراء الناس به بشتى الوسائل المتاحة لهم، قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[2]

ولولا أن الله يدافع بأهل الحق أهل الباطل، وينصر أهل الحق على معاديه لفسدت الأرض بانتشار الشرور فيها والمفاسد التي هي من طبائع أهل الباطل. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ

---

(١) لسان العرب، (٥٦/١١) بتصرف.
(٢) سورة الكهف: الآية (٥).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾(١).

ولذا يجب أن يبقى جند الحق على قوة قوية، لا تضعف ولا تهن في مدافعة أهل الباطل، يبذلون نَفَسهم ونفيسهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، ويتمثل ذلك بالإقناع بالحجة البليغة، وبامتشاق الحسام إذا لم يكن سبيل لنصر الحق إلا بذلك، مع العلم بأن أهل الباطل كانوا وما يزالون متربصين بأهل الحق، مُهتبلين كل فرصة تتاح لهم، لا سيما عندما يشعرون بضعف أهل الحق وإعراضهم عن التمسك به، وعندما يحاكون ـ أهلُ الحق ـ أهلَ الباطل فيما عندهم من الشرور. فالصراع الذي أُمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل فيما يلي:

أولاً : مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق، وأن يظل الانتصار له قوياً في نفوسهم لا يضعف.

ثانياً : مجاهدة أعدائهم بالحجة والبرهان، فإن عجزت الوسائل الإقناعية وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ اللجوء إلى القوة ـ السيف ـ لإزاحة الطغاة هؤلاء، وتأمين تبليغ دعوة الناس، وإقامة العدل والأمن والسلام. وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. وقد قصر الله ـ عز وجل ـ الإيمان والصدق على الملتزمين بهذا الجهاد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾(٢).

وهو المعبر عنه في القرآن بالتجارة الرابحة المنجية من العذاب الأليم، والمحققة لمغفرة الله ورضوانه، ودخول المؤمن جنات تجري من تحتها الأنهار مقيماً

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥١). (٢) سورة الحجرات: الآية (١٥).

فيها أبداً، وذلك الدخول هو الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾[١]..

وهو الجهاد الذي أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمته أن عزهم فيه، وأنهم إن تركوه ضرب الله عليهم بالذل فلا يرفعه عنهم إلا بعودتهم إليه، عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا تبايعتم بالعينة[٢] وأخذتم أذناب البقر[٣] ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً[٤] لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**[٥].

ويقابل هذا الصراع صراع أهل الكفر لأهل الحق من أجل باطلهم وانتصارهم له بكل وسيلة متاحة لهم: بأموالهم، وأنفسهم، واستعباد الشعوب وتسخيرها في أغراضهم وأهوائهم، وبذل كل طاقاتهم لشيوع الفواحش والمحرمات فيها، مستخدمين في ذلك وسائل ابتكروها لنشر ضلالهم، استهوت أغلب البشر، وصرفتهم عن الحق.

ومن أجل هذا الصراع بين الحق والباطل قامت حروب وحروب، وأُبيدت دول وظهرت أخرى، والتاريخ يستبطن ذلك كله، ويحتفظ به لمن أراد الرجوع إليه.

---

(١) سورة الصف: الآيات من (١٠) إلى (١٢).

(٢) أي: إذا وجهتم هممكم للبيع والشراء: والمراد بالعينة: المال الحاضر من النقد.

(٣) أي: اتخذتم الماشية للحرث والري وتربية نتاجها، وعكفتم على الأعمال التجارية.

(٤) أي: ضعفاً وامتهاناً.

(٥) السجستاني، الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي. السنن، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ)، ٢/٢٦٤.

غاية الصراع في الاسلام

إن غاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية، ودلالتها على سعادتها في الدنيا والآخرة، وترغيبها في الخضوع لربها، وأن تعبده بما شرعه لها، وأن تنبذ العداوات، ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس، وغاية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية، وإضلالها عن الحق، وتجهيلها بربها - عز وجل - وتجهيلها بآخرتها؛ دار القرار التي هي إليها صائرة، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن.

ولقد كان الكفار قديماً يتبجحون بهذه الغاية، ويعلنون عنها بلا حياء، وكان هذا التبجح يلهب حماس أهل الحق دائماً، وكانت الحروب هي أهم وسيلة لتأكيد هذه الغاية.

ولكن أعداء الحق وجدوا أنفسهم أمام دين عظيم هو دين الإسلام؛ الدين الخالد إلى آخر الدهر، وقد جربوا في إضعافه وإضعاف أهله وسائلهم التقليدية فأخفقت مراراً، لكنهم لم يعتبروا بهذا الإخفاق، فسلكوا وسائل جديدة يقدمونها على ما هو قديم عندهم لتكون تمهيداً لذلك، على رأسها تزيين المحرمات، وإغراء أنفسهم والمسلمين بها ما أمكن، وصنعوا لذلك وسائل كثيرة لنشرها وبثها كأجهزة الإعلام من التلفاز والفيديو والسينما والمسرح والمجلات، وغير ذلك مما انطلى علينا نحن المسلمين كثيرٌ منه، وخفي علينا المقصود به وغاية أهل الباطل من ورائه.

وكما أسلفت أن كلمة الحق إنما تولد من ميزان العقل السليم، المتحرر عن أنواع التبعات، والأهواء، والعصبيات كافة، ومن ثم فإن للحق وأهله سلاحاً

واحداً يعتمد عليه في مجال صراعه للباطل وهو اللجوء إلى حكم الله ـ عز وجل ـ وسنة نبيه ﷺ، ولاشك أنهما لا يتنافيان مع حكم العقل المجرد من التبعات، والأهواء والعصبيات.

وإن كلمة الباطل ـ وكما أسلفت ـ إنما تولد في غمار ما يمكن أن يعلق بالإنسان من شوائب الشهوات، والأهواء، والعصبيات، والأغراض الشخصية المتنوعة، ومن ثَمَّ فإن سلاح أهل الباطل هو ستر هذه الشوائب بقناع الحقيقة العقلية، ومن ثَمَّ فإنك تلاحظ ذلك عند تعرضي لمواقف الكافرين المعاندين من دعوة أنبيائهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لهم، وكذلك عند تعرضي للنظريات الحديثة حيث إنها تنطوي على مفاهيم غامضة، وأساليب غير واضحة، لا تصلح لأن تكون منهجاً للبشرية أو دستوراً يكفل لها الأمن والسعادة والاستقرار.

(ب) بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية

تعد سورة الأعراف أطول سورة مكية في القرآن، وهي السورة السابعة في الترتيب المصحفي، وعدد آياتها مائتان وست آيات، واستُثني منها الآيات التالية فهي مدنيات من قوله تعالى[(١)]: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴿١٧١﴾ ﴾[(٢)].

وسورة الأعراف كغيرها من السور المكية التي قررت أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله ـ عز وجل ـ وإقامة الأدلة على وحدانيته، وإثبات النبوة والرسالة لمن اصطفاهم الله من الناس للنبوة والرسالة، والتي اشتملت السورة على ذكر بعضهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وعلى تأكيد البعث والجزاء[(٣)].

---

(١) الزركشي. الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٩١هـ)؛ وانظر أبو العلا، عادل محمد صالح. خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها. رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٦٣) إلى (١٧١).

(٣) الزرقاني، الشيخ محمد عبد العظيم. مناهل العرفان، الطبعة الثالثة؛ (القاهرة: البابي الحلبي، د.ت) ١/١٨٩-١٩٦.

ويمكن أن نُقسِّم مقاصد السورة إلى أربعة أقسام:

أولاً: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ عز وجل.

ثانيًا: الآيات الزاجرة عن الشرك.

ثالثًا: الآيات الخاصة باليوم الآخر، وأن وقوعه لاريب فيه، وأنه ممكن عقلاً غير مستحيل.

رابعاً: الآيات الخاصة بصدق الرسول ﷺ.

أولا: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ جل وعلا:

إن الدارس لهذه السورة الكريمة المكية، يجد أنها كغيرها من السور المكية دعت إلى تثبيت الإيمان في النفوس، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة، لذلك أمرنا تعالى في الآية الثالثة من هذه السورة، أن نتبع ما أنزل من ربنا، مجانبين أن نتبع من دونه أولياء هُم وسيلة الشيطان إلى الإغواء، ويبين تعالى في هذه الآية أن تلك الحقيقة بشقيها تغيب عن كثير من الناس، وأن أغلب البشر في ذهول عنها، وأنهم لا يتذكرونها إلا تذكرًا لا يوصلهم إلى المطلوب.

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾[1] ولاشك أنه باتباع ما أنزل الله، واجتناب ما نهى عنه، تتحقق السعادة والطمأنينة مع ملاحظة أن تلك السعادة الدنيوية والأخروية تدرك بأعمال ميسورة ليس فيها مشقة ولا عنت، وباستطاعة النفس تقبلها، قال

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[١] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[٢].

فجزاء الإيمان الخلود في الجنة؛ دار أهل الإيمان، لا يدخلها غيرهم بحال من الأحوال ـ وهذا حسب مشيئته ـ وإن سلوك سبيل الشيطان لا يدخل أصحابه إلا النار.

ومن وسائل هذه السورة في الترغيب في الإيمان والحض عليه، وأنه سبب اليسر والسعادة في هذه الدنيا، وإنزال البركات على المؤمنين المتقين، قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[٣].

فلو أنهم آمنوا بالله وبما أنزله على أنبيائه ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أي: ما حرم الله ـ تعالى ـ عليهم: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿لَفَتَحْنَا﴾: النون نون العظمة، والآية الكريمة ربطت حصول ذلك بالإيمان والتقوى، والمراد من الآية: أي ليسَّرنا عليهم الخيرات من كل جانب: بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالمال والأولاد والنبات والثمار وكثرة المواشي والأنعام وخصوبة الأرض وحصول الأمن والسلامة.

ولا يغيب عن بالنا أنّ الإنسان حريص بطبعه على الاستكثار من عرض الدنيا، غير مبالٍ بما يضره منه وبما ينفعه، وقد بيّن الله في هذه الآية أن ما يفتحه على الإنسان من بركات السماوات والأرض هو خير خالص لا تكدير فيه ولا

---

(١) الوسع: ما يقدر الإنسان عليه في حالة السعة والسهولة لا في حال الضيق والشدة. انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٧٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٩٦).

مضرة، فصدق الإيمان ولزوم التقوى يحققان للإنسان ما يبتغيه من كثرة الأشياء لديه، ويجعلان تلك الأشياء مباركة نافعة.

أما اتساع الأرزاق لبعض الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم فإنه فتنة في الدنيا، واستدراج لهم عن الطاعة إلى المعصية، بل الكفر في بعض الأحيان، والمباغتة بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة.

قال الله ـ تعالى ـ في بيان حال من نسوا ما ذُكِّروا به في كتاب الله وعلى ألسنة رسله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾(١) أي: فلما غفلوا، ولم يتعظوا، ولم ينزجروا بما حل بهم من النقم وبما جاءتهم من البينات ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وذلك استدراجاً لهم، فغمروا بالنعم، وتضاعفت عليهم الخيرات بمختلف أشكالها ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ من الخير والنعمة ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون متحسرون(٢).

ويتضح مما تقدّم أن الإنسان في ظل الإيمان الصحيح مكفولة حاجته الجسمية والنفسية بوفرة وكثرة، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سمى ما يؤتيه المؤمنين بركات، فلا حدود لهذا الجمع، وغير خافٍ أن البركة هي النماء والزيادة، وأن الشيء المبارك هو النامي الزائد، فما بالنا إذا كانت بركات ووفرة خيرات فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقوا؟ ولكن أهل القرى لم يصغوا لدعوة ربهم، بل أمعنوا في الكفر والتكذيب، وكان متوقعاً منهم بعد هذا الإغراء المادي الذي

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٤٤، ٤٥).

(٢) النسفي، الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد. تفسير النسفي. (بيروت: دار الكتاب العربي).

تهواه نفوسهم أن يدخلوا في الإيمان لكن الله نفى عنهم ذلك، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾(١) وعقوبة التكذيب والكفر بالله الجدب والقحط ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ يعني: الرسل ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بالجدوبة والقحط، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعصية(٢).

ولقد اهتمت السورة الكريمة بدعوة أهل الأديان السماوية من اليهود والنصارى إلى اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فإن هم آمنوا حق الإيمان بهذين الكتابين فسيؤمنون جزماً بهذا النبي العظيم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبالكتاب الذي جاء به.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٣).

وقد رغبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الآية السابقة بما يحملهم على الإيمان بسيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يأمرهم بالمعروف ولم يكن أحد غيره ﷺ وقت بعثته يأمر بذلك، ويجاهد عليه باسم النبوة والرسالة، وأنه هو الذي ينهاهم عن المنكر ويحضهم على تركه. بينما اصطلح البشر وهمَّ بعضه ـ اليهود والنصارى ـ على إلف المنكر الذي حرمته سائر الأديان وعلى السعي فيه، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحل لهم الطيبات

(١) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

(٢) الرازي، الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين. التفسير الكبير. الطبعة الثانية (طهران: دار الكتب العلمية، د.ت)، ١٤/ ١٨٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

التي لا يُعرض عنها إلا مطموس الفطرة، ويحرم عليهم الخبائث التي لا يُقبِل عليها إلا من تمكن منه الشيطان فسلب عقله، وحقّر له آدميته، فرغبت نفسه في الخبائث، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذي سيحط عنهم إصرهم[1] والأغلال التي كانت عليهم والتي عاقبهم الله ـ تعالى ـ بها لما اكتسبوه من الإثم، مثل قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[2].

وقوله تعالى في شأن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾[3].

ولذلك بين الله ـ سبحانه ـ في آية الأعراف أن من آمن بهذا النبي الخاتم ﷺ وعـزّره، ونصره، واتبـع القـرآن الذي أنزل معه هم بأعيانهم لا غيرهم المصيبـون للفلاح المحكوم لهم به، الحقيقون بأن يسموا مفلحين: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ[4] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[5].

---

(١) ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ أي الأمور التي تثبطهم وتقيدهم عن الخيرات وعن الوصول إلى الثواب. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب ت ٥٠٢هـ. المفردات في غريب القرآن. (مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع)، ص١٩.

(٢) سورة النساء: الآيتان (١٦٠، ١٦١).

(٣) سورة المائدة: الآية (١٤).

(٤) عزّروه: أي وقّروه وعظّموه.

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

وأختم هذا المبحث عن الآيات التي حضت على الإيمان بالله ـ تعالى ـ بالآية الكريمة التي حضت على ذلك صراحة، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[1].

ثانيا: الآيات الزاجرة عن الشرك:

إن القارىء لهذه السورة الكريمة سيجد فيها آيات كثيرة تذم الشرك، وتنفر منه، وتتوعد معتقديه، شأنها في ذلك شأن السور المكية.

وتجنبا للإطالة اخترت من هذه السورة نصين[2] رأيت أنهما وافيان بالغرض الذي لأجله سقتهما، ويغنيان عن نصوصها الكثيرة في هذا الغرض:

النص الأول:

قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٨).

(٢) النص يشمل أكثر من آية.

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (١٩١) إلى (١٩٥).

في هذا النص الكريم ينكر ـ سبحانه وتعالى ـ على عبدة الأصنام إشراكهم أصنامهم في ألوهيته ـ سبحانه وتعالى ـ مبيناً أن الإلـه الحقيقي الجدير بأن تخلص له العبادة لابد أن يكون متصفاً بصفات عليا، استحق بها أن يكون إلـهاً، وهي:

أولاً: أن لا يكون هذا الإلـه مخلوقاً.

ثانياً: أن يكون قادراً على خلق الأشياء وإيجادها من العدم دون سبق مثال.

ثالثاً: أن يستطيع الإلـه نصرة من ينتصر به، بجلب الخير له، وبدفع الضر عنه.

فكيف تخلع صفات الإلـهية على تلك الأصنام المخلوقة، العارية من تلك الصفات، العاجزة عن دفع الضر عن نفسها عندما يقصدها قاصد بكسرها أو بإهانتها؟! فمعنى الآيتين الأوليين من هذا النص: إنكم أيها المشركون للأصنام في الألوهية تسلكون سبيلاً فاسداً غير صحيح؛ لأنكم أشركتم مع الله عجزة عن خلق شيء ما مهما تناهى عن الصغر والبساطة، وأن معبوداتكم مخلوقة مربوبة، لا وجود لها في ذاتها، وأنها لا تستطيع لكم نصراً إذا انتصرتم بها، لأنها عاجزة عن نصرة نفسها فضلاً عن غيرها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾(١).

ثم بَيَّنَ تعالى في الآية الثالثة من هذا النص الأول أن تلك الأصنام إن دُعيت إلى خير وهدى لا تجيب ولا تستجيب؛ لأنها فاقدة الإحساس بغيرها، ولو كان فيها شعور لاتَّبَعَتْ من يدعوها إلى الهدى؛ لأن الهدى مرغوب محبوب لأهل

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٩١، ١٩٢).

العقول، فكونها لا تَتّبع، دليل على إنعدام الإحساس فيها بمن يدعوها إلى خيرها فكيف تُتَّبع؟! وإن الأمر سواء بالنسبة لدعوتها من عدمها، والمعنى: وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى هدى ما أو خير ما لا يتبعوكم، لأنهم لا يسمعون دعاءكم، فدعاؤكم لهم وصمتكم عن ذلك سواء.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[1].

وفي الآية الرابعة من هذا النص يبين ـ جل وعلا ـ أن هذه الأصنام غاية ما يقال فيها: إنها عباد أمثال عابديها، وإن كان هذا الوصف أكبر منها؛ لأنها جمادات، ولكن القرآن يتنزل مع عابديها في الحوار، ويفترض فيها العقل والإدراك، فهَبْهَا أنها عاقلة مدركة، فأي شيء فضّلها عليهم فجعلها معبودة وهم لها عَبَدة؟! ثم عاد القرآن إلى بيان حقيقتها وأنها مع مخلوقيتها، فالبَوْنُ بينها وبين عابديها بعيد؛ فهي إن دُعيت لا تجيب، وإن خوطبت لاتدرك، ولذا أمرهم الله بأن يدعوها ويطلبوا منها نفعهم وخيرهم فلتستجب لهم إن كان لها صفة النفع والإفادة؛ ليدعوها إن كانوا صادقين في دعوى ألوهيتها، ولتجبهم إن كانت مستطيعة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[2] أي: في الإدراك والعقل على حد زعمهم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: ادعوا هذه الأصنام إن كانت كما زعمتم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فلتستجب لكم أصنامكم أيها الداعون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما وصفتموها به، وما خلعتموه عليها كذبا من صفات الألوهية.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٩٤).

وفي الآية الخامسة ينبه الله عابدي الأصنام إلى أمور بديهية لا تحتاج إلى تنبيه، لكن عابديها لما ألغوا عقولهم احتاجوا إلى هذا التنبيه. هذه الأمور هي خلو أصنامهم من الأعضاء ذات القوى المؤثرة التي تعين المعبودين على المشي والبطش والسمع والبصر، أي: على التوصل إلى جلب الخير ودفع الشر، ولم يلجأ القرآن إلى الأسلوب الخبري في بيان تجريد الأصنام عن هذه الأوصاف بل لجأ إلى أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي هو بمعنى النفي لغرضين:

أولهما: تنبيه المخاطبين وإيقاظهم.

ثانيهما: نفي تلك الأوصاف عنهم بأبلغ وجوه النفي.

فحال الأصنام هذه هو الواقع المشاهد الذي لا خلاف عليه:

قال تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾؟ أي: ليس لهم ذلك وأنتم به موقنون. وتأمل قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ بِهَآ﴾ فكم من أرجل لا تمشي؛ لأن الله لم يجعل فيها قوة المشي، وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾؟ بمعنى: ألهم أيدٍ يبطشون بها؟ فهو تدرج من العضو الحامل لسائر الجسد إلى بقية الأعضاء الأخرى المركبة فيه، والمعنى: ليس لهم ذلك.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾؟ ليس لهم ذلك يقينا فكيف تتخذ آلهة؟ وكيف يعبدها من فيه هذه الأعضاء بقواها المؤثرة؟! إن صح أن تخلع صفة الألوهية على مخلوق فالعابدون أولى بها، لكنهم لم ينسبوها لأنفسهم لشعورهم بالعجز عن إدراك أرواحهم، وعجزهم عن السيطرة عما حولهم، فإذا استشعروا في أنفسهم أنهم لا يصلحون آلهة، فأولى بذلك تلك الأصنام المعبودة زوراً وإفكاً. وكان المشركون يُخوِّفون رسول الله ﷺ من سطوة أصنامهم، وانتصارها لأنفسها ولهم منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأمر الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقول للمشركين ادعوا شركاءكم ولا تتوانوا

في دعوتهم لتدفع عنها وعنكم ما تكرهون؛ إمعاناً في تعجيزهم وتوبيخهم.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي: لتفعل ما زعمتم أنها قادرة على فعله ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أنتم وهي بشتى أنواع المكائد، ﴿ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي: ولا تمهلوني إن كان لأصنامكم قدرة ما كما تزعمون، ثم بين بعدها صفات الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده بقوله: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾[1].

النص الثاني:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾[2].

في الآية الأولى من النص الثاني يُذكِّر الله نبيه ﷺ بما هو معلوم عنده من الميثاق الأول، الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه على هيئة الذر، وجعل فيهم من العلم والإدراك ما مكنهم من الإقرار لله بالربوبية والوحدانية.

والمعنى: واذكر يامحمد ﷺ الوقت الذي أخرج فيه ربك من صلب آدم بنيه، وأخرج من كل ابن منهم ذريته إلى يوم القيامة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فسَلِّ نفسك به، وهوّن عليها ما تلقاه من جحود المشركين وإنكارهم للوحدانية، فإنك تخاطبهم بأمر معروف لكن بعدهم عن الله أنساهم ذلك. لتعلم أن العلة فيهم، وأنك لم تقصر في

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٦).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٧٢) إلى (١٧٤).

البلاغ ، وقد أشهد الله ذرية آدم على أنفسهم حيث خاطبهم بقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ فأجابوا بما هو صريح في نفي النفي ، فقالوا : ﴿بَلَىٰ﴾ أي : أنت ربنا خالقنا وموجدنا ، وكل نعمة فينا من فيض رحمتك ، شهدنا على أنفسنا بذلك ، وأقررنا لك بالربوبية والوحدانية . وأقوى الشهادات ما يُقرّ به المرء على نفسه ، ثم ذكَّرهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ بأنهم سيغفلون عن هذا الميثاق ، وأن ذلك ليس عذراً لهم يوم القيامة ، إذ هم المتسببون فيه ، فأقروا على أنفسهم مرة أخرى أن تلك الغفلة إذا حصلت لا يعذرون بها لما حصل لهم من يقين بربوبية الله ـ تعالى ـ عند أخذ هذا الميثاق .

وفي الآية الثانية من هذا النص ذكَّرهم ـ جل وعلا ـ بعذر آخر سيتذرعون به وهو قولهم : ﴿ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ فالتبعية عليهم لا علينا .

ثم ذكَّرهم بقول ثالث وهو: أتؤاخذنا فتهلكنا بما فعل المبطلون والمعطلون لآيات الله ـ تعالى ـ التي أوصلتنا إلى الشرك؟ فأقروا بأن ذلك كله لا يصلح عذراً لهم لتمام اليقين الحاصل لهم عند أخذ الميثاق .

وفي الآية الثالثة يبين الله ـ تعالى ـ وضوح هذا الميثاق وظهوره بحيث صار أصلاً يشبه به غيره ليتضح ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي : كذلك نفصِّل آياتنا كلها تفصيلاً واضحاً بليغاً كوضوح هذا الميثاق ، فاصبر عليهم فلعلهم يرجعون بهذا التفصيل الواضح في آياتنا .

ولقد حاول بعض العلماء أن يحملوا هذه الآية على التمثيل لاستغرابهم وقوع هذا الأمر ومنهم المعتزلة . لكن لم ألتفت إلى هذا المسلك ولم أشتغل بالرد عليه ؛ ذلك لأنه ليس من صميم بحثي ، ولأن الله لا يعجزه شيء .

ومن هذا النص يتضح لنا أن الإيمان بالله وحده هو فطرة الإنسان التي فطره الله عليها ، وأن الشرك هو خروج عن هذه الفطرة وليس لمنتحليه أي عذر يوم

القيامة حين يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

ثالثا: الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه:

إن الناظر في سورة الأعراف يجدها قد تعرضت لليوم الآخر، ووجوب الإيمان به وما فيه من أحداث، وتقريب وقوعه للأذهان بصور مختلفة وأساليب شتى، الغرض منها كلها حصول اليقين للمؤمنين باليوم الآخر وما فيه، وإقامة الحُجة على الكافرين والمُكذِّبين؛ حتى لا يبقى لهم عذر يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فمن هذه الآيات قَسمُه[2] تعالى على أنه سيسأل الذين أرسل إليهم سؤال إهانة وتوبيخ. كما سيسأل المرسلين سؤال إعزاز وتكريم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾[3] كما بين تعالى أنه لا يغيب عنه شيء من أحوال خلقه مع كثرتها وتعددها كثرة يستحيل على الآدميين بل والعقلاء قاطبة مهما أوتوا من أسباب العلم أن يقدروا على حصرها والإحاطة بشيء منها.

قال تعالى مقسماً على إخبار خلقه يوم القيامة بكل ما كان منهم: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾[4].

ومما ذكرته هذه السورة تجسيد الأعمال ووزنها يوم القيامة، وأنها إن كانت صالحة فستثقل موازين أصحابها، وأنهم بحسن أعمالهم مدركو الفلاح بفضله

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٨٤، ٨٥)، انظر: تفسير الآلوسي (٩/ ٩٩ - ١٠٩).

(٢) القسم في الآية محذوف، ودليله لام القسم ونون التوكيد ﴿لَنسألنَّ﴾ وقد صرح بالقسم في سورة الحجر: ﴿فوربِّك لنسألنَّهم أجمعينَ * عمَّا كانوا يَعملونَ﴾ سورة الحجر الآيتان (٩١، ٩٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧).

ورحمته لا محالة، وأنها إن كانت سيئة فستخف بها موازين أصحابها، وأنهم لا محالة خاسرون الخسران المبين، في جهنم خالدون؛ لأنهم ظلموا وأمعنوا في الكفر بعد ما جاءتهم آيات الله التي تهديهم إلى سلامتهم لكنهم جعلوها سبباً للتكذيب، قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾(١).

ومنها إخبار الله ـ تعالى ـ لآدم وحواء وذريتهما وإبليس بما قضاه الله في الأزل بأنهم في الأرض يحيون، وفيها يموتون، ومنها يخرجون﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾(٢) أي: للثواب والعقاب.

ومن هذه الآيات التي جاءت في السورة الكريمة مؤكدة لوقوع اليوم الآخر الحديث عن الظلمة عندما تأتيهم رسل الله يتوفونهم، وهم يسألونهم في هذه اللحظة الحرجة لحظة الموت: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٢) فلا يملكون جوابا إلاّ إلقاء التبعة على كبرائهم الذين أضلوهم، ثم تبرّأوا منهم وندمهم في يوم لا ينفع الندم بقولهم:﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٣) أي: وشهدوا على أنفسهم بالكفر بعد ما يسر الله لهم أسباب زواله من بعث الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾(٤) أي: ما

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٥).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٧).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٧).

قـدر الله لهـم من أعمار وأرزاق فإنهم يستوفونها لتقوم بها حجة الله عليهم مع أنهم أظلم الخلق، ولئلا يقولوا يوم القيامة لم نعطَ الفرصة لنفكر فيها هديتنا به. وهذا هو الراجح في معنى هذه الجملة[١].

قولـه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا ﴾ أي: ملك المـوت وأعوانه، الموكلون لقبض أرواحهم ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ﴾ أي: الرسل[٢].

﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؟! ﴿ قَالُواْ ﴾ «أي: الكفار» ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ ﴾[٣].

وعندئذ قال الله لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ وأُدخلت النار قبل أن تدخلوها، فأنتم مندرجون فيها لا محالة، ونائلكم ما نالهم من العذاب، لا من بني جنسكم فقط بل من الجن والإنس.

وهـذا يشعر بأنه تعالى لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة بل يدخل الفوج بعد الفوج، فيكون فيهم السابق والمسبوق، ليصح هذا القول، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقها ». ا. هـ[٤].

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ٣٨ ﴾[٥] أي: قرينتها في ملتها، فيلعن أهل كل دين باطـل بعضهم بعضـاً؛ فيلعن المشركون أقرانهم، وكذلك اليهود تلعن اليهود، والنصارى تلعن النصارى، وكذا القول في المجوس والصابئة وسائر أديان الضلالة، ويتبرأ بعضهم من بعض[٦].

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/٥٢).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/٥٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٧).

(٤) تفسير الرازي: (١٤/٧٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٣٨).

(٦) انظر: تفسير الرازى، (١٤/٧٣).

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: توالى دخولهم النار فوجاً بعد فوج، وتلاحقوا حتى لم يبق منهم أحد، ويئس الأولون والآخرون من الرحمة.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ وفي تفسير: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ قولان:

الأول: أخراهم يعني آخرهم دخولاً في النار لأولاهم دخولاً فيها.

والثاني: أخراهم منزلة وهي الأتباع والسفلة لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء.

والإضلال يقع من المتقدمين للمتأخرين على وجهين:

أحدهما: بالدعوة إلى الباطل وتزيينه في أعينهم، والسعي في إخفاء الدلائل المبطلة لتلك الأباطيل.

ثانيهما: بأن يكون المتأخرون مُعظِّمين لأولئك المتقدمين، فيقلدونهم في تلك الأباطيل والأضاليل التي لفقوها، ويتأسَّون بهم، فيصير ذلك تشبيهاً بإقدام أولئك المتقدمين على الإضلال[1] أي أنهم كانوا من أسباب صيرورة الآخرين إلى هذا المصير السيء.

قوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ضاعف العذاب عليهم مرات كثيرة، إذ الضعف كما يقول الأزهري: «أقله مثل الشيء، وآخره لا حد له»[2].

ولا شك أن الطالبين يقصدون الثاني: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: لكم ولهم العذاب المضاعف لما كان من إضلالهم لكم واتباعكم لهم من بعد ما جاءكم الهدى ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[3]؛ لأن كلاً منهم مشغول بسوء ما هو فيه عما يحدث لغيره ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ فلما سمعت أولاهم ما نسبته إليها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (١/٤٨١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٨).

أخراهم تبرأت من قولهم، وقالت للآخرين: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ في ترك الكفر والرغبة عنه، بل كنا وأنتم في الإقبال عليه سواء. وهكذا أخذت كل فرقة تحيل عن نفسها وتتهم غيرها، يلفُّهم جميعاً الندم والأسف الذي لا يغنيهم عما هم فيه شيئاً والذي يزيدهم في حسرتهم؛ ولذا بيَّن الله للجميع أنهم ماكثون في هذا الهوان وأنهم ذائقو هذا العذاب الأليم، الذي لا ينفك عنهم بتحسر ولا باتهام فريق لفريق[١] قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ والخطاب يعود إلى أخراهم: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[٢].

ومن المناظرات العجيبة الشأن التي تناولتها هذه السورة ما يكون من تذكير المؤمنين للكافرين أن المؤمنين قد وجدوا ما وعدهم ربهم من الثواب العظيم والنعيم المقيم حقاً لا ريب فيه، فهل وجد الكفار ما وعدوه من الجحيم والعذاب المقيم حقاً؟ فأجاب الكفار عن هذا التساؤل بنعم، وليس المقصود من هذا السؤال اكتشاف ما خفي عن المؤمنين، وإنما هو سؤال تحزين وتبكيت؛ فما أسوأ اعتراف المنهزم على نفسه بهزيمته، وإقراره لما يعتبره عدوه بخيبة أمله!

فلما أَقرَّ الكفارُ على أنفسهم بسوء مآلهم نادى منادٍ من الملائكة[٣] بين الفريقين بلعنة الله الدائمة للظالمين. قال ابن عباس: «وذلك المؤذن من الملائكة هو صاحب الصور»[٤].

---

(١) كما قال تعالى في سورة ص: ﴿إن ذلك لحَقٌّ تخاصمُ أهل النار﴾ سورة ص: الآية (٦٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٩).

(٣) انظر: تفسير الألوسي (٨/١٢٣).

(٤) النيسابوري، الحسن بن محمد. تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق إبراهيم عطوة عوض، (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٨١هـ)، ٦/١١٦.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[(١)].

وتأمل معي قوله: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فسترى أن هذا النداء حصل بعد استقرار كل فريق فيما أعد الله لهم من الجنة أو النار. وتأمل قول المؤمنين: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ فإنهم يتحدثون عن موجود حقيقي يتنعمون فيه وبه؛ ولذا أضافوا أنفسهم إلى جناب الرب ـ تبارك وتعالى ـ تعبيراً عما هم فيه من مسرة وإكرام. والمراد بالظالمين على ما هو الراجح في هذه الآية هم الكافرون.

وقد وصف الله هؤلاء الظالمين بصفات ثلاث:

أولاً: صدهم غيرهم عن سبيل الله ودينه، وبذل غاية مجهودهم في ذلك، وقطع أوقاتهم وأعمالهم فيه، واستعمالهم كل السبل والحيل من زجر وقهر.. إلخ.

ثانيا: إنهم يبغون سبيل الله عوجاً وميلاً عن الحق إلى باطلهم، فهم يتمنون قرآناً يمجد أصنامهم ويقرهم على ما هم عليه من ضلال.

ثالثاً: إنهم بالدار الآخرة ـ التي تأكدت الأدلة على مجيئها، وأنها لا محالة تعقب الدنيا، والتي فيها الثواب والعقاب ـ كافرون ممعنون في الكفر، يصرفون أنفسهم عن الإيمان بها مهما سقت لهم من الأدلة على حصولها[(٢)].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾[(٣)] وهذه الآية بيان لحالهم التي كانوا عليها في الدنيا، وأنهم المتسببون في حلول لعنة الله عليهم.

---

(١) سورة الأعراف: آية (٤٤).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٤/٨٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٥).

وقد بين الله ـ تعالى ـ أن بين الفريقين من أهل الجنة والنار أو بين الجنة والنار حجاباً أي: سوراً عظيماً[1] يستحيل معه لعظمته أن يتسرب من ريح الجنة وروحها شيء إلى أهل النار، كما أنه لا يتسرب من عذاب النار ولهيبها ودخانها شيء إلى أهل الجنة، فيطمئن أهل الجنة بما هم فيه، وييأس أهل النار أن ينالوا من هذه الرحمة شيئاً.

ثم جعل الله على أعالي هذا السور رجالاً هم، خيار الخلق على ما رجحته بعض كتب التفسير[2] فهم إما الأشراف أو الشهداء أو الصالحون الذين أوتوا

---

(١) وهو ما عبر عنه في سورة الحديد بقوله تعالى: ﴿فضُرب بينهم بسور له باب باطنُه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ سورة الحديد: الآية (١٣). انظر: تفسير القرطبي (٧/٢١١).

(٢) الأعراف في الآية يفسر بالمكان تارة، وبغيره أخرى.

أما الذين فسَّروه بالمكان ـ وهم الأكثرون ـ فقالوا: إن الأعراف أعلى أعالي السور المضروب بين الجنة والنار، ويروى عن ابن عباس، وعنه أيضاً أن الأعراف شرف الصراط. وعلى هذا التفسير فالذين هم على الأعراف مَن هم؟

فيه قولان:

أحدهما: إنهم أقوام يكونون في الدرجة العليا من الثواب.

ثانيهما: إنهم في الدرجة النازلة.

وعلى الأول فيه وجوه:

أ ـ قيل: هم ملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار. قاله أبومجلز(*) ورد عليه قوله بأن قيل له: إن الله تعالى يقول: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ وأنت تقول: إنهم ملائكة. فقال: الملائكة ذكور لا إناث: فرد عليه: إن الرجل يطلق على من يصلح أن يكون من نوعه أنثى بل يطلق على الذكر من بني آدم.

ب ـ وقيل: إنهم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أجلسهم الله ـ تعالى ـ على ذلك المكان العالي إظهاراً لشرفهم، وليكونوا مشرفين على الفريقين، مطَّلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم.

جـ ـ وقيل: إنهم هم الشهداء؛ لأنه تعالى وصف أصحاب الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد =

. . . .

من أهل الجنة وأهل النار. ورد على هذه الوجوه الثلاثة ملائكة وأنبياء وشهداء ـ بأن الله قال في صفة أهل الأعراف: ﴿إنهم لم يدخلوها (أي: الجنة) وهم يطمعون﴾.

وأجيب عن هذا الاعتراض بأنه تعالى أخّر دخول أهل الأعراف إلى الجنة، والسبب في ذلك أنه ميَّزهم عن أهل الجنة وأهل النار، وأجلسهم على تلك الشُّرفات العالية ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأهل النار، وبعد ذلك ينقلهم إلى أمكنتهم العالية في الجنة. فثبت أنّ كونهم غير داخلين في الجنة لا يمنع كمال شرفهم وعلو درجتهم.

وأما قوله: ﴿**وهم يطمعون**﴾ فالمراد بهذا الطمع: الطمع اليقيني. ألا ترى أنه ـ تعالى ـ قال حكاية عن إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾ وذلك الطمع كان طمع يقين، فكذا هنا.

وعلى القول الثاني ـ إنهم في الدرجة النازلة ـ أيضاً فيه وجوه:

أ ـ إنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا جرم ما كانوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، فأوقفهم الله ـ تعالى ـ على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة والنار، ثم يدخلهم الله ـ تعالى ـ الجنة بفضله ورحمته، وهم آخر قوم يدخلون الجنة. وهذا القول قول حذيفة وابن مسعود، واختاره الفراء.

ب ـ وخصصه بعضهم فقالوا: هم قوم خرجوا إلى الغزو بغير إذن أمهاتهم، فاستشهدوا، فساوت معصيتهم طاعتهم، فحبسوا بين الجنة والنار. وهذا القول داخل في القول السابق؛ لأن هؤلاء تساوت معصيتهم مع طاعتهم. فلا معنى لتخصيص هذا الوجه وقصر لفظ الآية عليه.

جـ ـ وقيل: إنهم مساكين الجنة.

د ـ وقيل: إنهم هم الفُسَّاق من أهل الصلاة، يعفو الله عنهم ويسكنهم الأعراف.

وأما الذين فسَّروه بغير المكان وهو قول الحسن والزجاج؛ فقد قالوا: إن المعنى: وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يميزون البعض من البعض، إما بالإلهام وإما بتعريف الملائكة. قال الحسن: والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا.

وعلى جميع التفاسير: فهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار. قيل: يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة مبيضة، وأهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم.

نوراً في قلوبهم وأبصارهم ، فعرفوا به في الدنيا أهل الإيمان من أهل الكفر، فلا تغيب عنهم معرفتهم في الآخرة ، يجلسهم الله على الأعراف ليشهدوا ما كانوا يعرفون في الدنيا سروراً وقرة عين بأهل الجنة ، وتشفِّياً وشماتة بأهل النار، الذين طالما اتخذوا المؤمنين الداعين إلى ربهم سخرياً ، فهم يعرفون كلاً من الفريقين بسيماهم التي كانت لهم في الدنيا على ما هو الراجح ، لأنها هي التي تظهر فيها فراسة المؤمنين لا سيما الفريقين في الآخرة ، لأنها معلومة للجميع يوم القيامة .

ونـادى أهل الأعراف أصحاب الجنة مهنئين ومسلمين عليهم ، فهم وإن دخلوا قبلهم فذلـك لا يعني أن مكـانتهم أرفـع من أهـل الأعـراف ؛ لأن اختصـاص الله أهلَ الأعراف بهذه المكانة وبهذه الشهادة دليل على أنهم من أرفعهـم منـزلـة . ومـا قررتـه في الأعـراف وأهلهـا هو مـا رجحـه بعـض

= قال المحققون : إنهم كانوا يعرفون أهل الخير والإيمان والصلاة ، وأهل الشر والكفر والفساد ، وهم كانوا شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة ، وعلى أهل الكفر والمعصية ؛ فهو ـ تعالى ـ يجلسهم على الأعراف ليكونوا مطَّلعين على الكل ، يشهدون على كل أحد بما يليق به .
وقال الفخر الرازي : «وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم من أشراف أهل القيامة»(**) .

(*) أبو مجلز، لاحق بن حميد بن سعيد السَّدوسي البصري أبو مِجْلَز بكسر الميم وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي مشهور بكنيته ، ثقة من كبار الثالثة ، مات سنة ست وقيل تسع ومـائة ، وقيل قبل ذلك . انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١١/ ١٧١) ط الأولى سنة ١٣٢٧هـ في الهند، بيروت دار صادر ١٩٦٨م وانظر: تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني . ت: عبدالوهاب عبد اللطيف ؛ (بيروت : دار صادر، ١٩٦٨م) . (المدينة المنورة ، المكتبة العلمية ، دار المعرفة ؛ ١٩٧٥) ٢/ ٣٤٠ .

(**) بتصرف واختصار من تفسير الرازي ، (١٤/ ٨٧ ـ ٩٠) ؛ وتفسير النيسابوري غرائب القرآن ، (٨/ ١٢٠ ، ١٢١) .

المفسرين[١] وارتاحت إليه نفسي. والله أعلم بالصواب.

قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: لم يدخلها أهل الأعراف بعد ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾[٢] أي: يوقنون[٣] بدخولها، ولكن الله عبر عن يقينهم بـ﴿يَطْمَعُونَ﴾ إشارة إلى كمال عبوديتهم وكمال أدبهم، وإن علت درجتهم لا يأمنون مكر الله - عز وجل - فهم في فضله طامعون.

وإن أهل الأعراف ليديمون النظر إلى أهل الجنة سروراً بما تقع عليه أبصارهم، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء وجهة أهل النار أصابهم من الفزع والذهول ما جعلهم يضرعون إلى ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: خالقنا ومالكنا ومفيض الرحمة علينا لا تتخلَّ عنَّا في هذا الموقف الصعب، ولا تجعلنا بما بدر منَّا من تقصير مع القوم الظالمين، فإنك إن فعلت فذاك عدلك. وهذا أيضاً من كمال العبودية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصار أهل الأعراف ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾[٤].

ثم ذكر تعالى توبيخ أهل الأعراف لفريق من أهل النار وهم الكبراء

---

(١) منهم: الفخر الرازي (١٤/ ٩٠) قال - رحمه الله: «وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل القيامة». ا. هـ. وقال - رحمه الله: «﴿وعلى الأعراف رجال﴾: من أفاضل المسلمين» ا. هـ. وقد ذكر هذا القول في مقدمة بقية الأقوال، انظر: تفسير النسفي (٢/ ٥٤) ومن أراد التوسع فليرجع إلى تفسير النيسابوري: غرائب القرآن، (٨/ ١٢٠) وتفسير القرطبي، (٧/ ٢١١)؛ وتفسير الألوسي، (٨/ ١٢٣-١٢٤)؛ وتفسير أبي مسعود، (٣/ ٢٣٠)؛ وفتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٦).

(٣) انظر تفسير النيسابوري: غرائب القرآن، (٨/ ١٢٠).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٤٧).

والسادة، الذين كانوا يستضعفون فقراء المؤمنين، ويستهينون بهم، يعرفهم أهلُ الأعراف بسيماهم؛ لأن الله يميز هؤلاء الكبراء بمزيد من القبح ليكونوا أعجوبة أهل الموقف فيصبُّون عليهم اللعنات قائلين لهم: ما أغنى عنكم اجتماعكم على محاربة الدين واحتقار المؤمنين، أو ما أغنى عنكم ما جمعتموه من الدنيا فإنكم فارقتم ذلك كله[1] وما أغنى عنكم استكباركم وتأبيكم على الاستجابة لرسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2].

ثم ذكّر أهل الأعراف هؤلاء المستكبرين ببعض أحوالهم في الدنيا، فقد كانوا يحتقرون المؤمنين وضعافهم خاصة، ويمعنون في هذا الاحتقار مُقسمين بأن هؤلاء الفقراء من المؤمنين لن تنالهم من الله رحمة، ولن يكونوا من أهل الجنة، فإذا بهؤلاء الفقراء اليوم في بحبوحة الجنة وفي رحمة الله، وإذا الكبراء في الهوان الدائم والعذاب المقيم، فيُذكِّرهم أهل الأعراف بمآلهم ومآل من كانوا يحتقرونهم، قائلين لهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري ـ الذي يقصد به الإمعان في توبيخهم وتحسيرهم؛ فإن من أهم أسباب عذابهم بعد الكفر احتقارهم لهؤلاء الضعفاء ـ قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾؟

ولـمَّا فرغ أهل الأعراف من المهمة التي جعلها الله لهم يوم القيامة قال لهم ربهم: ادخلوا الجنة فأنتم أحبابي وخلصائي، لا خوف عليكم من مكروه يصيبكم ولا أنتم تحزنون في هذه الدار؛ لأنها دار كرامة ورحمة. ويجوز أن يكون هذا القول[3] من أهل الأعراف للمؤمنين الذين أقسم المستكبرون أن لا تنالهم رحمة بقصد

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٩١).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (٤٨).
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٩١، ٩٢).

تهزئتهم بما أكرمهم الله وما جازاهم على صبرهم، وتحملهم ما تحملوا من سفاهة المستكبرين، وليزيد أهل الأعراف بقولهم هذا للمستكبرين من أهل النار حسرةً وحزناً، قائلين لهم ماقصه الله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(١).

ولمَّا فرغ القرآن من الحديث عن أهل الأعراف ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة طالبين منهم أن يفيضوا عليهم بعضاً من الماء؛ ليطفئوا به ما في أجوافهم من حرارة ولهيب، أو بعض الثمار والأرزاق الحسنة التي يخففون بها ما يلقون بها من طعام الزَّقوم. وأهل النار وهم يطلبون ذلك يعلمون أنهم لن ينالوه لكن اليائس أحياناً يطلب ما يعلم أنه لن يُمكَّن منه كالغريق يتعلق بالزبد؛ فيجيبهم أهل الجنة أن الله حرَّم ماطلبتم؛ لأنكم كافرون، وقد أبعدتم أنفسكم بكفركم عما طلبتم فلا سبيل لكم إليه؛ وأنكم اتَّخذتم دين الله الذي أكرمكم به لهدايتكم لعباً وهزواً وسخرياً. وهو السبيل إلى الجنة وإلى نعيمها؛ وقد فقدتم السبيل، فكيف تصلون إلى مبتغاكم؟! كما أنكم نسيتم الآخرة بل كفرتم بها، وغرَّتكم الحياة الدنيا فاطمأننتم إليها. وحتى تنقطع آمالهم فيما يطلبون، يقول الله لهم قول إهانة وتحقير- وهو العلي العظيم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ أي: نهملكم ونترككم، ولا نجيبكم إلى مطالبكم ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ بإمعانكم في الكفر، وإثارة الشكوك في وقوع هذا اليوم مع واضح الحجج التي سيقت لكم لتخرجكم من الشبه التي سولها لكم الشيطان مع كونكم كنتم مصرين على تكذيب آيات الله وجحدها، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تكرّموا علينا بشيء ما فلا نشترط عليكم ولا نلزمكم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٤٩).

ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا(١) وَلَعِبًا(٢) وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(٣).

وإذا كانت سورة الأعراف قد حدثتنا عن أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة، وعن أهل الأعراف الذين لا ذكر لهم إلا في هذه السورة، فإنها لم تغفل الحديث عن إثبات البعث، وإمكان وقوعه بقياسه على أمور مشاهدة محسوسة، توجد ثم تعدم، ثم توجد ثم تعدم ما بقيت هذه الدنيا.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾(٤).

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة، يجد أنها تبرهن على قدرة الله على البعث بدليل محسوس؛ فمن قدر على إرسال الرياح، وحمل السحاب، وإنزال الماء، وأخيراً إخراج النبات بشتى أنواعه، وعلى اختلاف أشكاله، في سهولة ويسر، قادر على أن يعيد الحياة إلى الأجساد، ويبعثهم من قبورهم. وهو أمر لا ينكره إلا من ينكر خروج الثمرات من الأرض بعد سقيها بالماء.

ولقد أشار الفخر الرازي إلى مناسبة الآية لما قبلها(٥) وتتلخص في أمرين:

---

(١) أي: استمتاعاً أنساهم التفكير في الآخرة فضلاً عن الإيمان بها.

(٢) أي: هزلاً وعبثاً، لذا لا يُفرِّقون بين حلال وحرام.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٥٠، ٥١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

(٥) قوله تعالى: ﴿إنَّ ربكم الله الذي خلق السمٰواتِ والأرض في ستة أيام ثُمَّ استوى على العرش يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين﴾ الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

أولاً: إنه تعالى لما ذكر دلائل الإلـهية، وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهـو السمـوات والشمس والقمر والنجوم، أتبعه بذكر الدلائل من بعض أحـوال العـالم السفـلي. واعلم أن أحوال هذا العالم محصورة في أمور أربعة: الآثار العلوية، والمعادن، والنبات، والحيوان. ومن جملة الآثار العلوية الـرياح، والسحـاب، والأمـطار، ويترتب على نزول الأمـطار بعض أحوال النبات، وذلك هو المذكور في هذه الآية.

ثانياً: في تقرير النظم: إنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر، والبعث والقيامة؛ ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد[١].

وتلفت الآية الكريمة أنظار منكري البعث إلى إمكانية البعث بدليل مادي محسـوس مشـاهد، فلما كان ـ جل وعلا ـ هو المحرك للرياح، والمتصرف في أحوالها؛ فمنها ما يرسلها للعذاب، ومنها ما يرسلها تبشر بالمطر والرحمة، ولما كان في أغلب الأحوال أن الرياح تتقدم المطر أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ حتى إذا حملت تلك الرياح سحابا ثقيلا لحمله كميات كبيرة من الماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: بالماء قال تعالى: ﴿سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾[٢] وبعد أن تتحمل تلك الرياح ذلك السحاب المشبع بالمياه يسوقه ـ جلَّ وعلا ـ إلى بلد ميت، قاحل لا حياة فيه ولا نبات ولا زرع، فأنزل الله من السحاب ماءً عذبا منهمراً، ومن رحمته ـ جل وعلا ـ جعله كذلك، فلو كان أجاجاً شديد الملوحة لما انتفع فيه، وحصلت به المضرة، ووقع

(١) تفسير الرازي، (١٤/١٣٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

به الهلاك. فأخرج الله ـ جل وعلا ـ شتى أنواع الثمرات بواسطة إنزال المطر.

وكما أنه ـ تعالى ـ خلق النبات على اختلاف أشكاله من ذلك الماء الذي أنزله من السماء على تلك الأرض الميتة، فأخرج الثمر والشجر، ولم يكن لهما وجود من قبل، فأي غرابة في أن يبعث الله الموتى من قبورهم بعد وجود سابق؟

وإن العقـول لتقـر بأن إعادة المعدوم المسبوق بوجود أهون وأسهل لسبق صورته من المعدوم الذي لم يسبق بوجود، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[2] وإنما سمى ذلك هيناً عليه باعتبار ماهو متأمل في فطر المخاطبين لا بالنظر إلى قدرته ـ تعالى ـ فهو ـ جل وعلا ـ قادر على إحياء الموتى، ولاشك أن من قدر على إحداث الجسم، وخلق الرطوبة، والطعم فيه؛ فهو أيضاً قادر على إحداث الحياة في بدن الميت، فمن يقدر على إنبات الثمار والأشجار ومختلف أنواع الأزهار في الربيع، ثم تصير ميتة عارية في الشتاء، ثم يعيد إليها نضارتها وأزهارها وثمارها؛ فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها. فيجب تذكر أنه لما لم يمتنع هذا المعنى في إحدى الصورتين وجب أن لا يمتنع في الصورة الأخرى[3].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[4].

---

(١) سورة الروم: الآية (٢٧).

(٢) سورة يسٓ: الآية (٨٢).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ١٤٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

وكما اهتمت سورة الأعراف بإثبات البعث، وسهولة وقوعه، فإنَّا نراها وقد شارفت على آخرها تذكر إلحاف الكافرين وإلحاحهم في استدامة السؤال عن وقت وقوعها.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾[1].

والسائلون هم اليهود أو قريش أو هما معاً، والغرض من تكرار هذا السؤال التوصل بذلك إلى تكذيب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنهم كانوا يستعجلون وقوع العذاب عليهم تارة، ويستعجلون مجيء وقوع الساعة تارة أخرى قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ (١٨)﴾[2].

وقد بين الله ما يسألون عنه: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى وقوعها ومجيئها؟ وهم يعبرون عن المجيء بالإرساء؛ لأن الشيء إذا جاء ثبت، وكما يُسأل بأين عن المكان، فإنه يُسأل بأيان عن الزمان.

وقد أمر الله حبيبه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يقول قولاً مطلقاً، يعم العلم به جميع الخلائق لا السائلين فقط: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ أي: علم وقت وقوعها غيب، اختص الله به، فهو عنده وحده، لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً ـ وهذان هما أكرم خلقه عليه ـ فأولى أن لا يطلع على ذلك من دونهما، وإنما قال الله: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾؛ لأن في إخفاء وقت وقوعها رحمة عظمى

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٧).

(٢) سورة الشورى: الآية (١٨).

بالمكلفين، وتربية عظيمة لهم، فإنهم لو كوشفوا بوقت وقوعها، لأقعدهم همها عن كل عمل ديني أو دنيوي، وفي إخفائها تخفيف عليهم؛ لأن الأمر المطروح وإن كان صعباً؛ فكثير ما يهون على المكلفين في زعمهم، ولذا نهانا الله عن الاغترار في الحياة الدنيا بعد تذكيرنا بأن وعده بالساعة وما وراءها حق.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾[1]. وقال للكافرين: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: العذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ أي: مستحيلاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[2] أي: كائناً لا محالة[3].

ثم أكد ـ سبحانه ـ انفراده بعلمها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[4] أي: لا يظهرها، فهي في خفاء دائم حتى يحين أوانها، فتفاجيء الناس؛ وأحدهم يحلب ناقته؛ وآخر يبيع ثوبه. إلى آخر ما صح في الحديث الصحيح، قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾[5].

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يبلغ به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: قال: **«تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة[6] فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يَلِط[7]**

---

(١) سورة لقمان: الآية (٣٣).

(٢) سورة المعارج: الآية (٧).

(٣) تفسير النسفي (٤/ ٢٩٠).

(٤، ٥) سورة الأعراف: الآية (١٨٧).

(٦) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ـ انظر لسان العرب (٢/ ٥٨١).

(٧) الرجل يلط في حوضه ـ بفتح الياء وكسر اللام وتخفيف الطاء ـ وفي بعض النسخ وردت: يليط، وفي بعضها: يلوط. ومعنى الجميع واحد وهو أن يطينه ويصلحه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٩١).

في حوضه فما يصدر حتى تقوم»[(١)].

ثم بين ـ تعالى ـ أنها ثقلت في السموات وفي الأرض، أي: ثقل أمرها على السموات والأرض وأهليهما، فبمجيئها تنفطر السماء، وتتشقق وتمد الأرض، وتلقي بكل ما في بطنها، كما أن فيها عناء الملائكة والثقلين وكل شيء.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[(٢)] ثم زاد الأمر تأكيداً فخاطب جميع العقلاء، فقال: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي: فجأة دون تحسب منكم لوقوعها، ودون أمارات يتعرفون على قرب وقوعها.

والأمارات التي جاءت في حديث جبريل هي للمؤمنين خاصة، أما الكفار فهم عن ذلك في عمى، بل إن الكثير من المسلمين الآن في ذهول عن أماراتها ما ظهر منها وما لم يظهر بعد، غير أنهم إذا حُدثوا عنها لا ينكرونها.

ثم ذكرت الآية سؤالهم عنها مرة أخرى، والسؤال في هذه المرة عن أهوالها، وما يقع فيها، وهو كسابقه لا يقصد به الوصول إلى الإيمان، وإنما يقصد به الإمعان في الإنكار والكفران، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي: مهتم بأخبارها، ومحاولة استكشاف وقوعها، أو: كأنك مُلحٌ في طلب ذلك. وحاشاه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يتجاوز في سؤاله لربه ما رسم له.

فـ﴿حَفِيٌّ﴾ على وزن فعيل، مأخوذ من الحفاوة أو من الإحفاء بمعنى: الإلحاح، وهم يريدون أن يظفروا منه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بجواب يخالفه الواقع، فيطعنون بذلك في نبوته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فرد الله الأمر إلى علمه بقوله لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وذكر في هذا الجواب اسم الجلالة ليبين أن أمر الساعة عظيم، ولا يصح

---

(١) صحيح مسلم وبهامشه شرح النووي (١٨/ ٩١) وأخرجه كذلك البخاري صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري ، (١٦/ ٢٠٢).

(٢) سورة القصص: الآية (٨٨).

السؤال عنها، وعما يقع إلا مع الإشفاق والوجل، فأمرها جد صعب وخطير، وإن دلائل وقوعها لأوضح من أن تكذب، وإنها لكافية في دلالة من يريد أن يعرف عنها شيئاً ما، لكن جهل الخلق بالله، وضلالهم عن هدايته، أعماهم عن وضوح هذه الحقيقة؛ ولذا قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فالسبب في استغراب من يستغرب وقوعها، ووقوع ما فيها، هو الجهل التام، لا شيء آخر وراء ذلك[1]. والله أعلم.

رابعا: الآيات الواردة في صدق الرسول ﷺ:

من المعلوم يقيناً أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان رجلاً أُمِّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، لم يتعلم من أستاذ، ولم يطالع كتاباً، ولم ينقل إلينا أنه كان يجالس العلماء، ولم يغب عن مكة غيبة طويلة يمكن أن يقال: إنه في تلك المدة تعلم العلوم الكثيرة. والمتأمل في سورة الأعراف ـ وهي من أطول السور المكية كما هو معلوم ـ يخبر فيها صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه ـ جلَّ وعلا ـ بالعديد من قصص الأنبياء مع أقوامهم مع تباعد هذه الأزمان عن زمنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يخبر عنهم وعن أحوالهم مع أقوامهم، وهلاك أقوامهم لما عاندوا وكذبوا، دون أي تعارض لما ذكر في السور الأخرى، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على صدقه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يخبر به عن ربه ـ جل وعلا ـ والأمثلة على ذلك كثيرة.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ٧٩ ـ ٨٢).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وأشباه ذلك من الأنبياء الذين ذكرتهم سورة الأعراف، وبدء الخلق، وكيف امتنع إبليس عن السجود، وحال آدم وزوجته في الجنة، وكيف أزلهما إبليس، وهبوطهم إلى الأرض. . . إلخ.

وما ذكرته التوارة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه علماؤهم، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا لذلك.

ومع هذا لم يحك عن واحد من اليهود والنصارى ـ على شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه ـ أنهم خالفوه في أي نص جاء به وأخبر فيه عنهم من أحوالهم، وانتقام الله منهم بأشد أنواع العذاب، مع ما في تلك الآيات من فضح وتشنيع عليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[2]

أي: فأرسلنا عليهم عذاباً أليماً لما فعلوه من غير تأخير؛ بسبب ظلمهم المستمر. والإرسال مشعر بالكثرة بخلاف الإنزال.

وقال تعالى: ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٥٩) إلى (٦٤).

(٢) سورة الأعراف: آيتان (١٦١، ١٦٢).

يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[2].

والمراد من الآيات: واسأل اليهود الذين كانوا بالمدينة عن هذه الحادثة، أعني عدوان آبـائهم يوم السبت الذي اختاروه بأنفسهم يوماً لعبادتهم ففرضه الله عليهم، وأنهم لما ظلموا فيه بالاصطياد، ولم يمتنعوا عما نهوا عنه أخذهم الله ومسخهم قردة وخنازير. فإنهم لما سُئلوا عن تلك الحادثة لم ينكروها واعترفوا بما ذكره القرآن الكريم. وهذا من أقوى الأدلة على صدق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ بين زمانه وزمان هذه الحادثة قرون متطاولة[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾[4] المراد بالجبل: الطور، ونتقـه: قلعه من مكانه ووضعه فوق رؤوسهم كأنه ظلة. وسلك القرآن هنا أسلوب التشبيه؛ لأن الجبل لم يكن ظلة حقيقية يُطمأن إليها، والظلة كل ما أظلـك من سقيفة أو سحاب[5].

وسبب ذلك أن بني إسرائيل في عهد نبيهم موسى - عليه السلام - لما أبوا أحكـام التوراة لشدتها عليهم كما يزعمون فعل الله بهم ذلك ليحملهم على

---

(١) سورة الأعراف: آية (١٦٣).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٦٦).

(٣) وسأعود إلى تفصيل هذه القصة باعتبارها جزءًا من الصراع بين الحق والباطل في مكانها المحدد لها من الرسالة. انظر ص (٥٧٠) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

(٥) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٨٤).

أخذها، والعمل بها حتى تتحقق لهم التقوى. وكما يروي المفسرون[1] أنهم لما رأوا الجبل بهذه الهيئة سجدوا على حاجبهم الأيسر؛ ليبصروا الجبل بعينهم اليمنى خشية أن يسقط عليهم. وقد سمع اليهود هذه القصة مراراً من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - آيات تتلى في سور مختلفة، بين نزول كل آية منها زمن، فما استطاعوا إنكارها ولا معارضتها، وهذا دليل عظيم من أدلة صدقه - عليه الصلاة والسلام - فيما يخبر عن ربه - عز وجل - وذكر الله هذه الحادثة في البقرة مرتين، وفي النساء مرة، وفي الأعراف مرة تبكيتاً لليهود المعاصرين له - صلى الله عليه وآله وسلم - وبياناً بأنهم في الظلم والفسوق والتمرد على أحكام الله كآبائهم وأشد[2].

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٨٤) وتفسير الرازي (١٥/ ٤٥).

(٢) الآيات التي تناولت هذه الحادثة غير آية الأعراف: .

قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكُم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكرُوا ما فيه لعلَّكم تتقون﴾ سورة البقرة: الآية (٦٣).

وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوةٍ واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ سورة البقرة: الآية (٩٣).

وقال تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ سورة النساء: الآية (١٥٤).

فالكلام قبل كل آية من هذه الآيات وبعدها مع بني إسرائيل لا يعوز القاريء أن يجد ذلك صريحاً بلا كلفة.

الفصــــل الأول

صراع إبليس مع آدم وحواء

عليهما الســـلام

الفصل الأول
صراع إبليس مع آدم ـ عليه السلام

* **المبحث الأول:**
* **مقدمة:**

وفيها ذكر المواضع التي ذكرت فيها قصة آدم في القرآن الكريم والحكمة من تكرارها.

* مسائل مهمة لابد من توضيحها لبيان حقيقة الصراع بين إبليس وآدم أبي البشر ـ عليه السلام.

- **المسألة الأولى:** أطوار خلق آدم ـ عليه السلام.
- **المسألة الثانية:** خلق حواء ـ عليها السلام.
- **المسألة الثالثة:** من الملائكة؟: حقيقتهم، عصمتهم، أصنافهم، أوصافهم، وصف قدرتهم.
- **المسألة الرابعة:** السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك.
- **المسألة الخامسة:** حقيقة إبليس؛ هل كان من الملائكة أم من الجن؟
- **المسألة السادسة:** مسألة الكلام عن الجنة والاختلاف في المراد بها، وفيها الرد على المعتزلة ودحض شبههم.
- **المسألة السابعة:** مسألة الكلام عن الشجرة واختلاف المفسرين في المراد بها.

* **المبحث الثاني:** الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام.

المبحث الأول
الصراع بين إبليس وآدم أبي البشر عليه السلام

* **مقدمة:**

لقد أمر الله ـ جل وعلا ـ عباده باتِّباع رسله ـ عليهم السلام ـ فيما يبلغونه عنه، وسوف يسأل الكل عن عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾[1] ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾[2] فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ سيحاسب عباده كلاً بعمله، وذلك بعد وزن عمله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾[3].

ثم بعد ذلك رغّبهم في قبول دعوة الأنبياء، وذلك بتذكيره بكثرة نعمه عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، ومكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ﴾ والمراد من المعايش وجوه المنافع بمختلف أشكالها[4].

ثم أعقب ذلك بنعم أخرى، وهي خلقنا وتصويرنا في أجمل خلقة، يتمثل

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦).

(٢) سورة الحجر: الآية (٩٢، ٩٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨، ٩).

(٤) انظر: تفسير الرازي (١٤/٢٨).

ذلـك في آدم ـ عليه السلام ـ وسجود الملائكة له. والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن[(١)].

ولقـد ذكـر الله ـ جل وعلا ـ قصة آدم ـ عليه السلام ـ وحسد إبليس له بامتناعه عن السجود لآدم، وقسمه بعزة الله بين يدي الله بأنه سيحتنك[(٢)] ذريته إلا قليلاً، وإغوائهم أجمعين إلا عباد الله منهم المُخلصين، ليفطن بنو آدم لعداوة إبليس لهم، واجتهاده في تلك العداوة؛ حتى لا يسمعوا له أو يطمئنوا لوعده، فإنه لايعد إلا بما لا ينفع، ولا يأمر إلا بالفحشاء؛ لذا نجد هذه القصة قد تكررت في القرآن الكريم سبع مرات لأسباب كثيرة أهمها في نظري ماذكرته آنفاً.

وإليك هذه المواضع التي ذكرت تلك القصة فيها:

أولاً: في سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾[(٣)] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٩).

(٢) أشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿فأنظرني إلى يوم يُبعثون * قال فإنك من المنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المُخلَصين﴾ سورة ص: الآيات من (٧٩) إلى (٨٣)، وقوله تعالى: ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيـامـة لأحتنكن ذريتـه إلا قليـلاً﴾ سورة الإسراء: الآية (٦٢) والمراد بقوله: ﴿لأحتنكن﴾ يجوز أن يكون من قولهم: حنكت الدابة باللجام والرسن فيكون نحو قولك: لألجمن فلاناً ولأرسننه. ويجوز أن يكون من قولهم احتنك الجراد الأرض، أي: استولى عليهـا بحنكـه، فأكلها واستأصلها، فيكون معناه: لأستولين عليهم. انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (١٣٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٨).

والغرض من ذكر هذه القصة تقبيح الكفر من الكافرين.

ثانياً: في سورة الأعراف:

من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾(١) إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾(٢)

والغرض من ذكرها هنا حمل الناس على اتباع النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما جاء به عن ربه ـ جل وعلا.

ثالثاً: في سورة الحجر:

من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣) إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾(٤).

والغرض من ذكرها بيان معصية إبليس، وإصراره على إغواء بني آدم إلا المخلصين منهم.

رابعاً: في سورة الإسراء:

من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾؟(٥) إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾(٦).

والغرض من ذكرها تقبيح الكفر والتنديد بمشركي مكة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

(٣) سورة الحجر: الآية (٢٦).

(٤) سورة الحجر: الآية (٤٠).

(٥) سورة الإسراء: الآية (٦١).

(٦) سورة الإسراء: الآية (٦٥).

خامساً: في سورة الكهف:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾[1] والغرض من ذكرها التخويف من الحساب يوم القيامة، وحمل الكافرين على الإيمان بالآخرة، وتخويفهم، وتقبيح اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله.

سادساً: في سورة طه:

من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[3].

والغرض من ذكرها بيان ضعف الإنسان، وأنه لا يثبت على العهد في كثير من الأحيان، وأن معصية آدم ـ عليه السلام ـ لم تكن عن عمد، وإنما كانت عن نسيان.

سابعاً: في سورة ص:

من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾[4] إلى قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[5].

والغرض من ذكرها بيان صفاقة إبليس، وإصراره على معصيته،

---

(١) سورة الكهف: الآية (٥٠).

(٢) سورة طه: الآية (١١٥).

(٣) سورة طه: الآية (١٢٣).

(٤) سورة ص: الآية (٧١).

(٥) سورة ص: الآية (٨٥).

واستخدامه القياس الفاسد الذي أدى به إلى الطرد، وهذا غرض مشترك لذكر هذه القصة في معظم المواضع.

ولقد أوجزت سورة النساء والأعراف والزمر والرحمن الكلام عن خلق آدم وحده تارة، وعن خلقه مع زوجته تارة أخرى، دون التعرض لشيء من التفاصيل المذكورة في المواضع السبعة التي أسلفناها لحكم وأسرار تعرف عند التعرض لتفسير تلك السور، وسأتعرض لموضوع واحد من تلك المواضيع التي ذكرت فيه القصة بإجمال في حينه باعتبار أنه مذكور في سورة الأعراف التي تدور الدراسة حول الصراع فيها.

المسألة الأولى: أطوار خلق آدم - عليه السلام:

آدم:

آدم - عليه السلام - أبو البشر، اشتق اسمه من أدمة الأرض وأديمها، وهو وجهها، حيث قد خلق منها[1].

ولقد مر آدم - عليه السلام - بأطوار شتى تناولها القرآن الكريم بالبيان والتوضيح:

الطور الأول: خلقه من تراب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[2] قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ۝٥﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ۝١١﴾[5] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[6].

---

(١) انظر: لسان العرب، (١٢/١٢).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٥٩).
(٣) سورة الحج: الآية (٥).
(٤) سورة الروم: الآية (٢٠).
(٥) سورة فاطر: الآية (١١).
(٦) سورة غافر: الآية (٦٧).

فالمفسرون مجمعون على أن المقصود بهذه الآيات هو خلق أبينا آدم ـ عليه السلام ـ وجاءت السنة المطهرة موضحة لذلك.

أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: «**إن الله تعالى خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، والسهل والحزن، والخبيث والطيب**»[1].

الطور الثاني: مزج التراب بالماء حتى صار طيناً، ثم انتخب آدم ـ عليه السلام ـ من هذا الطين:

لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[2] والسلالة: هي ما يستخرج من الشيء ويسل منه، ولذلك قيل: إنها الخلاصة. والمراد بها القطعة التي أخذت من الطين وخلق منها آدم ـ عليه السلام[3].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾[4] والمراد بالإنسان آدم عليه السلام[5].

الطور الثالث: خلقه من حمأ:

أي: من طين منتن ظاهر الرائحة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[6].

(١) سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَورة (٥/٢٠٤) باب تفسير سورة البقرة.
(٢) سورة المؤمنون: الآية (١٢).
(٣) الكلبي، العلامة محمد بن أحمد. التسهيل لعلوم التنزيل. الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ)، ٣/٤٩.
(٤) سورة السجدة: الآية (٧)
(٥) المصدر السابق، ٣/١٣٠؛ وانظر: الشنقيطي، محمد الأمين. أضواء البيان. (بيروت: عالم الكتاب، د.ت)، ٥/٧٧٨.
(٦) سورة الحجر: الآية (٢٦).

قال النسفي : «﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ أي : آدم ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفة لصلصال أي : خلقه من صلصال كائن من حمأ ، أي : طين أسود متغير ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصوَّر»[(١)] .

الطور الرابع : تصويره من الصلصال :

وهو الطين اليابس كما ذكرت ، ولا تفهم من ظاهر هذه الآية كان صلصالاً قبل أن يكون طيناً من حمأ مسنون بل معناها أن الصلصال هو نتيجة الحمأ المسنون ، قال النسفي : «وفي الأول كان تراباً ، فعجن بالماء فصار طيناً ، فمكث فصار حمأ ، فخلص فصار سلالة ، فصور ويبس فصار صلصالا . فلا تناقض» ا. هـ[(٢)] .

الطور الخامس: خلق الحياة فيه وذلك بنفخ الروح فيه :

وبهذا الطور أصبح إنساناً يتلقى عن ربه ، ويشعر بها يشعر به من الصفات الظاهرة والباطنة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾[(٣)] .

فالسجود والتعليم لم يقعا له إلا بعد تمام خلقه وإدراكه .

المسألة الثانية : خلق حواء ـ عليها السلام :

إن القاريء لكتاب الله ـ عز وجل ـ يجد نصوصاً صريحة في أن حواء ـ عليها السلام ـ خُلقت من آدم ـ عليه السلام ـ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهي آدم ـ عليه السلام ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[(٤)] وهي حواء ـ عليها السلام ـ خلقت من ضلعه الأيسر وهو نائم ،

---

(١) تفسير النسفي ، (٢/٢٧١).

(٢) تفسير النسفي ، (٢/٢٧٢).

(٣) سورة الحجر: الآية (٢٩).

(٤) سورة النساء: الآية (١).

فاستيقظ فرآها بجواره، فأنس بها وأنست به[١].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[٢] وهي حواء ـ عليها السلام.

ولقد اختلف في خلق حواء في قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ومرجع الخلاف هو اختلافهم في قوله: ﴿منها﴾ هل (من) لابتداء الغاية أو للجنس. هل خلقت حواء من جزء من أجزاء آدم أو من جنس المادة التي خلق منها؟ الأرجح والذي عليه الأكثرون أنها خلقت من جزء من أجزاء آدم ـ عليه السلام.

ويؤيده الأثر الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي قال: أُخرج إبليس من الجنة وأُسكن آدم الجنة، فكان يمشي بها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها ما أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولم خُلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. قالت له الملائكة: ـ ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها ياآدم؟ قال: حواء قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي[٣].

فالشاهد في الأثر قوله: «وإذا عند رأسه امرأة خلقها الله ـ عز وجل ـ من ضلعه».

ويؤيده الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٩٧)، (القاهرة، دار الفكر، د.ت). وإسناده حسن؛ انظر: تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق حمد بن أبي بكر (١/ ٧١).

فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

قال ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله: فقوله: «**خلقن من ضِلع**» بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام وقد تسكن ـ كان فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحٰق في المبتدأ عن ابن عباس: «إن حواء خلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم....». فكان المعنى أن النساء خلقن من أصلٍ خُلق من شيء معوج[2].

والرأي الثاني لأبي مسلم الأصفهاني من المعتزلة: «أنكر خلقها من الضلع؛ لأن الله قادر على خلقها من التراب. وقال: أيُّ فائدة في خلقها من ذلك؟ وزعم أن معنى ﴿مِنْهَا﴾ أي: من جنسها».

ويرد عليه: إن فائدة ذلك ليس سوى الحكمة التي خفيت عنا لإظهار أنه ـ سبحانه ـ قادر على أن يخلق حياً من حي لا على سبيل التوالد، كما أنه قادر على أن يخلق حياً من جماد. ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة. وأعجبني كلام القاضي[3] قال: القول الأول أقوى لكي يصح قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (١١/١٦٢).

(٢) فتح الباري، (١١/١٦٢).

(٣) القاضي: هو عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار بن أحمد بن خليل القاضي أبوالحسن الهمزاني الأسدآباذي، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف منها (التفسير) عاش دهراً طويلاً وسار ذكره، كان فقيهاً شافعي المذهب، ولي قضاة الري وأعمالها، ورحلت إليه الطلبة. مات في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة. أ. هـ. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ص٥٩، ص٦٠؛ وطبقات المفسرين للداودي، (١/٢٦٢، ٢٦٣).

وَٰحِدَةٍ﴾ إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة. والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1].

المسألة الثالثة: من الملائكة؟

أ ـ الملائكة:

جمع مَلَكْ، أصله مألك بتقديم الهمزة من الألوك وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل: ملك، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا ملائكة وملائك[2] وهم أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة، مسكنها السموات[3].

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي: من سكان السموات وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يعيون ولا يكلون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[4] أي: إن تسبيحهم متصل، دائم في جميع أوقاتهم، لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر، فتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا بل أسرع[5] وهم كلهم سامعون، مطيعون، مشتغلون بعبادته ـ سبحانه وتعالى ـ رطاب الألسن بذكره وتعظيمه، يتسابقون في ذلك منذ خلقهم، لا يستكبرون عن عبادته آناء الليل والنهار ولا يسأمون، لا يحصي أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إلا الله ـ تعالى[6] وهم من الكثرة

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٩/١٦١).

(٢) انظر: لسان العرب (١٠/٤٨١، ٤٨٢) وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية تحت إشراف مجموعة من الباحثين، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٣هـ) (٢/٨١٠).

(٣) تفسير الرازي (٢/١٦٠).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان (١٩، ٢٠).

(٥) تفسير النسفي بتصرف (٣/٧٥).

(٦) تفسير الرازي بتصرف (٢/١٦٢).

ما لا يحيط بهم إلا الله، فسبحانه من إله أحصى كل شيء عدداً.

أخرج الترمذي[١] وابن ماجة[٢] والإمام أحمد[٣] في مسنده عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال - عليه الصلاة والسلام: «أطت[٤] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد»... الحديث.

ب - عصمة الملائكة:

ولقد اتفق الجمهور الأعظم من علماء الدين على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب ما عدا الحشوية[٥] وكلامهم مردود عليهم؛ لأنهم تمسكوا بأحاديث موضوعة وإسرائيليات واهية في قصة هاروت وماروت[٦]، كما حاولوا استنباط وقوع المعصية منهم من نصوص مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٧] وغير ذلك من الآيات.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الزهد (٤/٥٥٦).

(٢) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد (٢/١٤٠٢).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/١٧٣).

(٤) أطّت السماء: الأطيط صوت الأقتاب، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها، أي أن كثرة الملائكة، في السماء قد أثقلها حتى أطت، وهذا كناية عن كثرة الملائكة، وأريد بذلك تقرير عظمة الله فقوله: «أطت السماء» أي: صوتت. انظر: النهاية لابن الأثير بتصرف (١/٥٤).

(٥) الحشوية: فرقة من المعتزلة تَمسَّكوا بظواهر القرآن، وقعوا في التجسيم، وهم منسوبون إلى الحشو أي رذائل الناس. دائرة معارف القرن العشرين، وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ)، ٣/٤٤٦.

(٦) انظر: الفصل في الملل والنحل للإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي (٤/٢٦، ٥٦) وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

(٧) سورة البقرة: الآية (٣٠).

والرد على متمسّكهم الأول أن استشهادهم بأحاديث موضوعة وإسرائيليات واهية لا يصلح الاستشهاد بها لاسيما في العقائد، إذ الإيمان بالملائكة وتعظيمهم وتوقيرهم أحد أركان الإيمان، أما الرد على متمسكهم الثاني فالآية لا تصلح دليلاً لما أرادوه؛ لأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ سألوا متعجبين من حكمة اختيار آدم وبنيه لخلافة الأرض مع ما ظهر لهم مما يتنافى في ظاهر الأمر مع الخلافة، فكان السؤال عن الحكمة التي لا يهتدي إليها مهتدٍ بعقل لا اعتراضاً ولا غيبة لبني آدم كما يقولون[1].

وللجمهور أدلتهم الواضحة فيما ذهبوا إليه من عصمة الملائكة عن الذنوب منها قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2].

وقوله ـ عز وجل: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3] وقوله ـ عز من قائل: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[4] فمنهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول.

جـ ـ أصنافهم:

ولقد بين لنا القرآن الكريم بعض أصنافهم:

الصنف الأول: حملة العرش:

قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[5].

---

(١) من أراد التوسع فليرجع إلى التفسير الكبير للفخر الرازي، (٢/١٦٦).

(٢) سورة النحل: الآية (٥٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٥) سورة الحاقة: الآية (١٧).

الصنف الثاني: الحافُّون حول العرش :

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾(١) .

الصنف الثالث: أكابر الملائكة:

أمثال جبريل وميكائيل - عليهما السلام .

قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾(٢) .

الصنف الرابع: ملائكة الجنة:

قال تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(٣) .

الصنف الخامس: ملائكة النار :

قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أي : على نار جهنم ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾(٤) . . . الآية .

الصنف السادس: الحفظة الموكلون ببني آدم لحفظهم والكاتبون لأعمالهم :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾(٥) . وقوله عز من قائل : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾(٦) .

---

(١) سورة الزمر: الآية (٧٥) .

(٢) سورة البقرة: الآية (٩٨) .

(٣) سورة الرعد: الآيتان (٢٣، ٢٤) .

(٤) سورة المدثر: الآيتان (٣٠، ٣١) .

(٥) سورة الانفطار: الآيات من (١٠) إلى (١٢) .

(٦) سورة الطارق: الآية (٤) .

وأقتصر على هذه الأصنـاف الستة مع العلم بأن أصنافهم لا يحصيها إلا خالقهم ـ جل وعلا ـ واكتفيت بما ذكرته خشية الإطالة.

د ـ أوصافهم :

وهذه أيضاً بعض أوصافهم اقتصرت على ثلاثة منها:

أولاً: أنَّ الملائكة رسلُ الله، قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾[١].

ثانياً: قُربُهم من الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[٢].

ثالثاً: دوام التسبيح والتقديس، قـال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٣].

هـ ـ وصف قدرتهم :

لقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ عرشه بالعِظَم، ومع عظمه فحمَلته من الملائكة يوم القيامة بنص القرآن ثمانية، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ[٤] وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾[٥].

ومما ورد في بيان عظيم قدرتهم وكبر هيئتهم ما أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ رأى جبريل ليلة أسري به له ستمائة جناح[٦] وهم مع ما هم عليه من الشدة والعظم دائمو الخوف من الله ـ

---

(١) سورة فاطر: الآية (١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (١٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٤) أي: نواحي السماء وجوانبها.

(٥) سورة الحاقة: الآية (١٧).

(٦) انظر: صحيح البخاري، على هامشه فتح الباري، كتاب بدء الخلق (٧/١٢٤) وكتاب التفسير ـ تفسير سورة النجم، (١٠/٢٣٣)؛ وانظر: تفسير القاسمي ـ سورة فاطر (١٤/٤٠).

عز وجل ـ مشفقون من أن يغضب الله عليهم، قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴿٥٠﴾ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾(٢).

المسألة الرابعة: السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾(٣) هنا يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو: هل كان السجود لآدم ـ عليه السلام ـ بوضع الجبهة على الأرض كهيئة سجودنا في صلاتنا؟

الجواب: اختلف المفسرون في المقصود من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ على ثلاثة أقوال، وذلك بعد إجماعهم على أن السجود لم يكن عبادة، بل كان تحية؛ إذ السجود لغير الله بقصد التأليه كفر لاشك فيه، فأما إذا كان لغير التأليه، فهو كبيرة من كبائر المعاصي، لايجوز فعلها بحال ويعلّم مَن فعلها إن كان جاهلاً، ويعزّر إن كان قاصدا؛ فإن ديننا الحنيف الذي أمر بإشاعة التحية بين المسلمين، قد حددها بالسلام، ثم الابتسام ولطف الكلام، وهو يمقت المبالغة في كل شيء لأنها إفراط ولا خير في الإفراط. وإليك خلاصة الأقوال الثلاثة:

القول الأول:

إن السجود كان لله، وآدم قبلتهم كالكعبة للمصلي وقد ضعف هذا الرأي لمخالفته لظاهر النص إذ لو كان آدم قبلة لقيل: «اسجدوا إلى آدم» ولكن هذا التعليل ضعيف إذ يقال: صليت لكذا، وإلى كذا بمعنى استقبلته، ومنه قوله

(١) سورة النحل: الآية (٥٠).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٨).
(٣) سورة البقرة: الآية (٣٤).

تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾[1] وعن ابن عباس قال: «دلوكها زوالها»[2].

القول الثاني:

إن السجود كان لآدم ـ عليه السلام ـ حقيقة بوضع الجبهة على الأرض بقصد تعظيمه ـ عليه السلام.

القول الثالث:

السجود في اللغة معناه الخضوع والانقياد، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ أي: استبطنوا تعظيمه، واستشعروا فضله وشرفه عليكم. وبهذا التفسير لا يكون السجود حقيقياً.

والقول الأول، والقول الثالث ضعيفان لمخالفتهما لظاهر النص، ولإمكان حصول السجود على حقيقته دون منافاة، مادام الله قد أمر به، فهو مفعول في الحقيقة امتثالاً لأمر الله، وتعظيم المسجود له يأتي تبعاً، ولقد كان السجود بمعنى الخرور مشروعاً تحية في شرائع من كان قبلنا بدليل قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[3] أي: خرَّ أبناء يعقوب ليوسف سجداً، وقيل: خروا ومعهم أبواهم، فهذا صريح في جواز السجود في شرعهم وإلا لمنعه يعقوب ويوسف بحكم نبوتهما، هذا على القول بأن الأسباط لم ينبأوا إلى هذا الحين، وعلى القول بأنهم نبؤا قبل ذلك فالسجود حصل منهم وهم أنبياء، والتعبير عنه بالخرور قاطع في أنه كان بوضع الجبهة على الأرض. وما اخترته هو ما رجحه غالب

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٨).

(٢) انظر: تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، تأليف د. عبدالعزيز الحميدي (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي كلية الشريعة)، ٢/٥٥٨ ـ ٥٦١.

(٣) سورة يوسف: الآية (١٠٠).

المفسرين[1] والذين ضعفوه ومنهم الألوسي[2] نسوا أنه أمر الله وأن لله أن يأمر بما يشاء لا معقب لحكمه.

وقول الألوسي: «ولا أراه حل في عصر من الأعصار»[3] يصادم قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[4].

قال الألوسي: «حكمة هذا السجود إظهار الاعتراف بفضله ـ عليه السلام ـ والاعتذار عما قالوا فيه مع الإشارة إلى أن حق الأستاذ على من علمه حق عظيم»[5].

وهذا يرجِّح ما اخترته، إذ لا تظهر هذه الحكمة إلا بحقيقة سجود الملائكة لآدم؛ لأن الملائكة ساجدون راكعون، مسبحون الليل والنهار، لا يفترون قبل هذه القصة وبعدها لله رب العالمين.

فَجَعْلُ مالَه اختصاصاً لآدم في لحظة من اللحظات تكريماً أبلغ في ظهور تعظيمه وتفضيله عليهم. فلم يكن السجود عبادة بل كان تحية، ولا يضر أن تؤدى التحية بما تؤدى به العبادة مادام الله قد أمر بذلك، كما أن ترك الحقيقة إلى المجاز بلا داع قوي مما يتحاماه العلماء.

ـ المسألة الخامسة: حقيقة إبليس ـ أعاذنا الله منه:

هل كان من الملائكة أم من الجن؟

اختلف العلماء هل كان إبليس من الملائكة أم من غيرهم أم من الجن،

(١) انظر: تفسير الطبري، (١/ ٢٢٨، ٢٢٩).
انظر: تفسير ابن كثير، (١/ ٧٧).

(٢) تفسير الألوسي ٦٤، (روح المعاني) (١/ ٢٢٨).

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) سورة يوسف: الآية (١٠٠).

(٥) روح المعاني، (١/ ٢٢٩).

وسبب هذا الخلاف نظرهم إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] فالاستثناء هنا تام مثبت، وهذا يعني في الأغلب الأعم أن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه، وقد ذهب إلى هذا كثير من الفقهاء، وقالوا: إن إبليس من الملائكة جرى عليه حكم الله، فأخرج عن طبيعته الملكية وتأبلس. وقال المتكلمون: إنه لم يكن من الملائكة. فالاستثناء عندهم منقطع إذ لا مانع عندهم من أن يكون الكلام تاماً مثبتاً، والاستثناء فيه منقطع على حد قول النحاة: قام القوم إلا حمارا.

وسأبدأ بذكر أدلة المتكلمين على ماذهبوا إليه ثم أثنى بأدلة الفقهاء محاولاً ترجيح ما ظهر لي:

أدلة المتكلمين:

أ - ١ - قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾[2] فكان هنا إخبار عن الماضي لا عن الحاضر، وهذا صريح في بيان أصله، وإذا ثبت ذلك وجب أن لا يكون من الملائكة.

٢ - وأيضاً قالوا: لا مانع أنه جني خالط الملائكة طويلاً فخوطب بما خوطبوا به.

٣ - إنه خُصَّ بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[3] ولم يدخل في عموم خطاب الله للملائكة.

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).
(٢) سورة الكهف: الآية (٥٠).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢).

ب ـ إن إبليس له ذرية لصريح قوله تعالى في نفس الآيـة: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠ ﴾(١) فهذا نص في أن إبليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم. وإنما قلنا لا ذرية لهم لانتفاء وصف الأنوثة عنهم بدليل قوله تعالى في بيان بعض الافتراءات التي قالها المشركون بغير علم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾(٢) فهذا صريح في نفي الأنوثة عنهم حيث وبَّخهم الله على ذلك القول، وتوعدهم بشديد السؤال.

جـ ـ إن الملائكة خلقوا معصومين؛ ولذا بادروا إلى الامتثال أول ما أمروا خلافاً لما حصل من إبليس.

د ـ إن إبليس مخلوق من النار والملائكة خلقوا من النور، يدل على خلقه كذلك صريح قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ ﴾(٣) والقائل هو إبليس، ولقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ ﴾(٤) فهو إذن من الجن لا من الملائكة، والدليل على خلق الملائكة من النور ماروي عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**» (٥).

---

(١) سورة الكهف: الآية (٥٠).

(٢) سورة الزخرف: الآية (١٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٤) سورة الحجر: الآية (٢٧).

(٥) صحيح مسلم بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/٢٢٩٤)؛ كتاب الزهد والرقائق، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار إحياء التراث الإسلامي، ١٩٧٢م).

وقيل: خلقوا من الروح أو الريح. فعلى الرأيين تُغاير طبيعتُهم طبيعةَ إبليس - أعاذنا الله منه.

هـ - سمى الله الملائكة رسلاً في قوله تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾[1] والرسل يستحيل منهم وقوع المعصية، لحصول العصمة فوجب أن لا يكون إبليس منهم لوقوعه في المعصية.

أدلة من ذهب من الفقهاء إلى أن إبليس من الملائكة:

أ - إن الله استثناه من الملائكة، والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل أو لصح دخوله، وذلك يوجب كونه من الملائكة.

ب - قالوا: لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ متناولاً له، ولو لم يكن متناولاً له لاستحال أن يكون تركه للسجود إباءً واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور، علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله، ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة.

ردود القائلين من الفقهاء بأن إبليس من الملائكة على المتكلمين القائلين بأن إبليس من الجن:

الرد الأول:

- على قول المتكلمين: إنه كان من الجن، أي: بأصل خلقته وتكوينه:

قالوا: إن هذا الاستدلال ضعيف؛ لأن مادة الجن والاجتنان والجنة والجنون تدور على معنى الستر والخفاء[2] ولما كانت الملائكة مخفيين مستورين عن أعيننا لانراهم، ولا نقدر على مخالطتهم إلا بقوة إلـهية يمنحها الله رسله - عليهم

---

(١) سورة فاطر: الآية (١).

(٢) انظر: لسان العرب، مادة جنن (٩٢/١٣).

السلام - ومَن خصّهم مِن خلقه، وجب أن يطلق عليهم لفظ الجن باعتبار اللغة، فثبت أن هذا الاستدلال بهذه الآية لا يوصل إلى مقصود المستدلين بها.

كما يجوز أن يكون معنى كان من الجن، أي: صار بتمرده عن السجود منهم بانقلابه من الخير إلى الشر، نظيره قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] أي: صار لأنه لم يكن كافراً قبل امتناعه عن السجود، وإنما صار إلى الكفر بالامتناع.

ودعوى المتكلمين بوجود الاستثناء المنقطع في القرآن في أكثر من آية لا ننكره ومع ذلك فهو لا يفيد المطلوب؛ لأن المتكلمين قد عوَّلوا على عمومات يمكن تخصيصها، ومعلوم لو قلنا بأن الاستثناء منقطع للزمنا تقديم هذا القول على التخصيص، مع أن تخصيص العام مقدم على جعل الاستثناء منقطعاً؛ لأن الأصل تناول العام لجميع أفراده، ومهمة التخصيص قصره على بعض أفراده، فالخارج بالتخصيص أصله من العام، وهذه هي الحقيقة، ولايُعدَل عنها إلا للضرورة، ولذا كان المصير إلى التخصيص أولى. وأيضاً فمعنى الاستثناء الثني والصرف، ولولا هذا الصرف لدخل الخارج بالاستثناء في جنسه. هذا هو الأصل ولا يُعدَل عنه - كما قلت - إلا للضرورة.

أما قولهم: كان جنياً ضمن كثرة من الملائكة فخُوطِب بما خوطبوا فمردود، لأن إفراد القرآن إياه بالحديث، وتكرار ذلك في مواضع كثيرة يتنافى مع قولكم بأنه جني خوطب بما خوطبت به الملائكة، لأن تكرار الحديث عنه يدل على أنه مقصود من أول الأمر بالخطاب، لا أنه تابع لغيره، وإنما يجوز إجراء حكم الكثير على القليل إذا كان ساقط العبرة، أما إذا كان مقصوداً بالخطاب فذلك ينفي كونه خارجاً عن الملائكة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).

الـرد الثاني :

قالـوا: لو لم يكن إبليس من المـلائكة لما كان قوله: ﴿وإذ قلنا للملـئكة اسجدوا لآدم﴾(١) متناولاً له، ولو لم يكن متناولاً له لاستحال أن يكون تركه للسجود إباءً واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور علمنا أن الخطاب لا يتناوله إلا إذا كان من الملائكة، ولا يقال: إنه ليس من الملائكة، لكنه نشأ معهم، وطالت مخالطته لهم، فلا مناص من تناول الخطاب له.

لا يقال ذلك لأن المخالطة لا توجب خطاب المخالط، بدليل أن الخطابات الخـاصة بالذكور لا تتناول الإناث وبالعكس مع شدة المخالطة؛ فوجب أن يكون من الملائكة لتناول الخطاب له. ولا يقال أيضاً: إنه خُص بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾(٢) لا يـقـال ذلـك لأن هـذه الآية مبينة لأمره بالسجود في آية البقرة(٣) على أنه من الملائكة لا أنها خطاب مستقل له بدليل قوله: ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ وهو لم يؤمر إلا في آية البقرة وما على شاكلتها.

كما أن ترتيب الحكم على الوصف مُشعر بعلية ذلك الوصف لذلك الحكم فيكون قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٤) دالاً على أن ذلـك وقع منه بعد الأمر بالسجود للملائكة الذين استثنى منهم إبليس، فكان هذا الأمر هو العلة في حصول تلك الأوصاف لا أمر آخر.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) آية البقرة هي: ﴿وإذ قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوآ إلآ إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين﴾ سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٤).

الرد الثالث :

أما قولهم بأن إبليس له ذرية، والملائكة لا ذرية لهم، فوجب أن لا يكون منهم، فمردود بأنه لما كان منهم قبل الخطاب لم تكن له ذرية، فلما تأبلس وخلع عنه ثوب الملائكية تغير بأوصافه الحادثة عنهم فكان له من الذرية ما ليس لهم.

الرد الرابع :

وأما قولهم بأن الملائكة معصومون وأنهم رسل، فلاشك في ذلك ما داموا باقين على ملائكيتهم، فالعصمة والرسالة بالنسبة لهم أو لغيرهم من الأنبياء ليستا بأمور ذاتية لا تقبل التبدل، بل هما مكرمتان من الله ـ عز وجل ـ أفاضهما بفضله على من يشاء، ولا يستحيل عقلاً رفعهما عمن يشاء، ويستأنس لذلك بقول الله تعالى عن نبيه يونس ـ عليه السلام: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾[1] فخروج إبليس عن ملائكيته إلى إبليسيته حجب عنه الفضل، ورفع عنه العصمة.

الرد الخامس :

وأما قولهم بأن الملائكة خلقوا من نور وإبليس مخلوق من النار فقد أجاب عنه الألوسي بقوله: «وكونه مخلوقاً من نار وهم مخلوقون من نور غير ضار أيضاً، ولا قادح في ملكيته لأن النار والنور متحدا المادة بالجنس واختلافهما بالعوارض، على أن ما في أثر السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ من خلق الملائكة من النور جارٍ مجرى الغالب......»[2].

واستطرد الألوسي قائلا: «وأفهم كلام البعض أنه يحتمل أنّ ضرباً من

---

(١) سورة القلم: الآيتان (٤٩، ٥٠).

(٢) تفسير الألوسي، (١/ ٢٣٠).

الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات ـ كالبررة والفسقة من الإنس ـ والجن يشملها ـ وكان إبليس من هذا الصنف فعدَّه ما شئت من ملك وجن وشيطان. وبذلك يحصل الجمع بين الأقوال. والله أعلم بحقيقة الحال»ا. هـ[1] وبعد. . . فقد عرضت لك أدلة الفريقين. وجمع الألوسي بين هذه الأقوال، وقد نسب القول بأنه من الملائكة إلى جمهور العلماء من الصحابة والتابعين[2].

المسألة السادسة: الكلام عن الجنة:

قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3].

اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأُهبط منها، هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى في موضع عالٍ من الأرض؟ على أربعة أقوال:

القول الأول ـ وهو قول المعتزلة:

قالت المعتزلة: إنها كانت في الأرض، خلقها الله لآدم امتحاناً له، وكانت بستاناً في الأرض. وأوَّلوا الإهباط بمعنى الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾[4] واحتجوا لقولهم ذلك بأدلة:

١ ـ إن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد، ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٢٩)، وانظر: تفسير الرازي، نقل بتصرف، (٢/ ٢١٣ ـ ٢١٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٥).

(٤) سورة البقرة: الآية (٦١).

وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[١]، ولما صح قوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٢] فدل ذلك على أنها لم تكن جنة الخلد.

٢ ـ إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٣] وقد أخرج آدم منها، وقال في صفتها: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[٤] وقد لغا فيها إبليس وكذب، فدل ذلك على أنها لم تكن جنة الخلد.

٣ ـ إن إبليس لما امتنع عن السجود لُعن وطرد، فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد.

٤ ـ إن الجنة التي هي دار الثواب لا يغني نعيمها، لقوله تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[٦] أي: غير مقطوع. فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم ـ عليه السلام ـ لما فنيت، وذلك بإخراجه منها، لكنه أخرج منها وانقطعت تلك الراحات.

٥ ـ إنه لايجوز في حكمته ـ تعالى ـ أن يبتديء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف؛ لأنه ـ تعالى ـ لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل، ولأنه لا يهمل عباده، بل لابد من ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد.

---

(١) سورة طه: الآية (١٢٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٣) سورة الحجر: الآية (٤٨).

(٤) سورة الطور: الآية (٢٣).

(٥) سورة الرعد: الآية (٣٥).

(٦) سورة هود: الآية (١٠٨).

٦ ـ إنـه لا نزاع في أن الله ـ تعـالى ـ خلق آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء، ولو كان ذلك لكان ذلك أولى بالذكر؛ لأن نقلَه من الأرض إلى السماء من أعظم النعم، فدل ذلـك على أنه لم يحصل، وذلك يوجب أن المراد من الجنة التي قالها الله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(١) جنة أخرى غير جنة الخلد.

القول الثاني ـ وهو قول الجبائي :

إن تلك الجنة كانت في السماء السابعة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا ﴾(٢) ثم إن الإهبـاط الأول كان من السـماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض.

القول الثالث ـ وهو قول جمهور المفسرين :

إن هذه الجنة هي دار الثواب، والدليل عليه أن الألف واللام في لفظ الجنة لايفيدان العموم؛ لأن سكنى جميع الجنان محال، فلابد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها.

القول الرابع :

إن الكل ممكن، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقف وترك القطع(٣).

الرد على المعتزلة :

ذكرت المعتزلة ستة أدلة على قولهم بأن الجنة التي أسكنها الله آدم كانت في

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٣٨).

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي (٣/٣، ٤).

الأرض. وسأشرع في الرد عليهم سائلاً المولى التوفيق والسداد:

الرد على الشبهة الأولى:

قالوا: لو كانت الجنة المشار إليها في الآية هي دار الثواب - دار الخلد - لما لحق آدم الغرور من إبليس بقوله: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ولما صح قوله: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾.

وجوابي على هذه الشبهة: إنه لا مانع من وقوع الوسوسة لآدم في دار الخلد ليترتب عليها ما أراده الله من إسكان آدم وذريته في الأرض، ليتخلف عن الرجوع إلى الجنة من لا يستحقها وهم الكفار الذين لم يجيبوا في عالم الذر حين خاطبهم ربهم بقوله: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[1] وقد أشرت إلى ذلك سابقاً[2] ولا يترتب على قول إبليس لآدم: ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ أن لا تكون الجنة دار خلد لأن آدم لم يك يعلم بخلوده فيها.

وأما قولكم يمتنع أن تكون الجنة هي دار الخلد لحصول الغرور لآدم فيها بقول إبليس فليس بممتنع، إذ يجوز أن تكون الجنة قد جعلت كذلك، واختصت بهذه الأحكام التي هي عدم خروج من دخلها منها وغير ذلك مما هو لها بعد حصول الوسوسة لآدم وحواء - عليهما السلام - وخروجهما منها.

والخلاصة:

إن أوصاف الجنة وما اختصت به هي من بعد هذه القصة ولا مانع في ذلك.

الرد على الشبهة الثانية:

قالوا: إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لصريح قوله تعالى: ﴿وما هم

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧٢).

(٢) راجع ص (٤٩) من رسالتنا هذه.

منها بمخرجين﴾ وقد أخرج منها آدم، وقال في صفتها: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ وقد لغا فيها إبليس فدل على أنها لم تكن جنة الخلد.

والرد عليهم: أما قولكم: إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لصريح قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾(١) فذلك بعد العودة إليها من دار الدنيا، واجتياز المكاره التي حفت بها الجنة لصيانة الأمانة التي حملها الإنسان، أما قبل ذلك فقد يحدث الدخول والخروج، وقد دخلها النبي ﷺ يوم المعراج ثم خرج منها؛ لأن دخوله فيها لم يكن لأجل الاستمرار إنما كان للتكرمة والتشريف فهذه عموم مخصوص.

وقس على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣﴾(٢) كذلك أيضاً، فإن ذلك بعد العودة إليها من الدنيا. على أن الوسوسة على ما هو الراجح لم تكن فيها بل كانت في الأرض؛ لأن هبوط إبليس من الجنة أو من الملأ الأعلى كان متقدماً على هبوط آدم وحواء، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝١٣﴾(٣) فكان ذلك جزاء له على امتناعه عن السجود واعتراضه على الله - عز وجل - في اختيار المفضول في زعمه، وترك الفاضل في زعم نفسه.

الرد على الشبهة الثالثة:

قالوا: إن إبليس لما امتنع عن السجود لعن وطرد، فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد:

---

(١) سورة الحجر: الآية (٤٨).
(٢) سورة الطور: الآية (٢٣).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣).

الرد عليهم : أما قولكم : إن إبليس بلعنه وطرده لا يقدر أن يصل إلى الجنة فهو كذلك وأنا أقول به. وقد أجبت بأن الوسوسة كانت في الأرض ووصلت إلى آدم حيث هو وليس في ذلك محال عقلي ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد ذلك وقدره وما أراده فهو كائن. قال الحسن: «كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله ـ تعالى ـ له»(١).

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن طاوس قال: سمعت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى: ياآدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فقال النبي** ﷺ: **فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»(٢) واللفظ لمسلم.

الرد على الشبهة الرابعة :

قالوا : إن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها، لقوله تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ وقال تعالى: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي: غير مقطوع. فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم ـ عليه السلام ـ لما فنيت وذلك بإخراجه منها، لكنه أخرج منها وانقطعت تلك الراحات.

والرد عليهم: فجوابي على هذه الشبهة: إنكم وحدكم القائلون بفناء الجنة، أما أهل الحق فعندهم من الأدلة الصحيحة ما يمنع من القول بفناء الجنة وقد قالوا ـ أهل الحق ـ : إن قوله تعالى :﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(٣)

---

(١) تفسير الرازي: (٤٦/١٤).

(٢) صحيح البخاري ومعه فتح الباري، كتاب القدر، (٣٠٧/١٤ ـ ٣١١) وصحيح مسلم بشرح النووي ، (٢٠٠/١٦).

(٣) سورة القصص: الآية (٨٨).

عموم مخصوص بآيات وأحاديث أخرى دلت على بقاء أشياء لا يلحقها الفناء كالعرش، والكرسي، والجنة، والنار، واللوح، والقلم، والأرواح، وعجب الذنب(١) وذكر الأدلة على ذلك يطيل البحث فليرجع إليه من أراده، ولكني أعجل لك ببعضها إراحة لقلبك: فأحد هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾(٥) فإنك إذا تمعّنت في هذه الآيات وجدت الانفطار والانشقاق والفزع والصعق، كلَ ذلك وجدته مختصاً بالسموات وبمن فيها إلا من استثناهم الله ـ عز وجل ـ من الفزع والصعق. فالآيات لم تتعرض للجنة ولا النار ولا للعرش ولا للكرسي. . . . إلخ، مما يؤكد تخصيص العموم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾(٦).

الرد على الشبهة الخامسة:

قالوا: لا يجوز في حكمته ـ تعالى ـ أن يبتديء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف. . . . . إلخ.

---

(١) انظر: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، (٣/ ٢٣٠).

(٢) سورة الانفطار: الآية (١).

(٣) سورة الانشقاق: الآية (١).

(٤) سورة النمل: الآية (٨٧).

(٥) سورة الزمر: الآية (٦٨).

(٦) سورة القصص: الآية (٨٨).

الرد عليهم: وأما قولكم: لا يجوز في حكمته أن يبتديء خلقاً في الجنة لايكلفهم فيها لحاجة المكلف إلى وعد ووعيد وترغيب وترهيب فتحكّمٌ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحجرٌ عليه ـ وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وأما حاجة المكلفين إلى الوعد والوعيد فذلك بعد خروجهم منها ليحملوا بذلك على الاجتهاد فيما به يعودون إليها، أما آدم فما كان بحاجة إلى وعد ووعيد، وإن قولكم هذا ليتعارض مع صريح قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[1] فعلى مذهبنا فإنا نؤمن أن الجنة التي كان فيها آدم هي دار الخلد، وأنها باقية، وأنه وزوجه اختصا بالتكليف فيها.

الرد على الشبهة السادسة:

قالوا: إنه لا نزاع في أن الله خلق آدم في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء... إلخ.

الرد عليهم: قولكم هذا فيه نزاع، فالذي في القرآن هو ذكر خلقه دون التعرض لمكان الخلق، بل لعل قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[2] يستأنس به على أن خلقه لم يكن في الأرض بل كان في الملأ الأعلى.

أخرج الطبري في تاريخه عن ابن عباس قال: «ثم أمر ـ يعني الرب تبارك وتعالى ـ بتربة فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ واللازب اللزج الطيب من حمأ مسنون منتني، قال: وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب، قال: فخلق منه آدم بيده» ا. هـ[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩).

(٢) سورة ص: الآية (٧٥).

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٩٠).

ومما ينتصر به لرأي الجمهور أن الجنة في القرآن إذا أطلقت أو ذكرت على جهة الجزاء لا تنصرف إلا إلى دار الخلد كما أن قوله تعالى في شأن إبليس: ﴿قال اهبط منها﴾ مُشعرٌ بأن الهبوط كان من الجنة، وقوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا﴾ دليل على أنهم كانوا في مكان أرفع فاستنزلوا عنه إلى مكان أدنى، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ فلو كانوا في الأرض ففي أي مكان منها؟

وعلى زعم المعتزلة ـ أئمة القول ـ بأن جنة آدم كانت في الأرض ما كان لقوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ فائدة، إلا أن يراد أن الله سيختار لهم كوكباً آخر غير الأرض، وهذا منفي بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] ولو كانت الجنة أرضية لما كان لهذا العقاب تأثيره الشديد، فانتقالك من مكان في الأرض إلى مكان آخر فيها لا يترتب عليه عقوبة كبيرة، وأما قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾[2] فهو صريح في أمر بني إسرائيل لنزولهم مصر وهي أخفض من أرض التيه، تجري فيها الأنهار، وتصلح لزراعة ما طلبوه، فهو أيضا صريح في النزول من مكان عالٍ إلى ما هو أخفض منه.

فاستدلال المعتزلة بهذه الآية على أن الهبوط كان من الأرض إلى الأرض لا يصلح إلا أن يقال إن تلك الجنة كانت فوق قمة جبل أو ربوة. وهذا يحتاج إلى نص، وليس عندهم نص ظاهر في هذا الموضوع، وصرف الألفاظ القرآنية عن ظاهرها وحقائقها إلى شيء آخر لا يكون إلا بقطعي مساو لها، أو بخبر مشهور عن النبي ﷺ، لا بأمثال تلك الشبه التي ساقها المعتزلة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠)

(٢) سورة البقرة: الآية (٦١).

كما أن قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (١) دليل على أنهما كانا في دار الخلد، إذ ليس من المعهود ممن يعصي في الأرض أن تتبرأ منه ثيابه وتنفر منه فتنكشف عورته، وهذا هو الذي حدث لأبوينا ـ عليهما السلام ـ حيث انكشفت عورتهما ولم يكن لهما بذلك عهد، وفارقتهما ثيابهما مما اضطرا إلى أن يخصفا عليهما من ورق الجنة ما يحاولان به أن يسترا عورتهما، ولما كان للمنة في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ (٢) معنى، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لباس بني آدم منزلاً من السماء مع أنه مصنوع في الأرض؛ لأنه ينسج مما يتسبب عن الماء النازل من السماء؛ وقد عرف بنو آدم لصلبه حاجتهم إلى اللباس لسد حاجتهم الجسدية والدينية وأعني بها ستر العورة.

كل ذلك يدل على أن الجنة التي أسكنها آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ كانت دار الخلد لا جنة أرضية كما يقول المعتزلة. ولا جنة في السماء غير جنة الخلد كما يقول الجبائي، ومما يقوي ما ذهبت إليه أن معظم المفسرين قد قرروه في كتبهم، وإن كان بعضهم قد آثر التوقف كالألوسي(٣) والفخر(٤) إلا أن القرطبي قد أجمل شبهة المخالفين ورد عليها، وإليك ما قاله في تفسيره: الجنة: البستان. . . ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخلد، وإنما كان في جنة بأرض عَدَن.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) تفسير الألوسي، (١/٢٣٣).

(٤) تفسير الرازي، (٣/٤).

١ ـ واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليها إبليس فإن الله يقول: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ وقال: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا﴾ وقال: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلامًا سلامًا﴾.

٢ ـ وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾.

٣ ـ وأيضاً فإن جنة الخلد هي دار القدس، قدست عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها، وقد لغا فيها إبليس، وكذب، وأخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما.

٤ ـ وقالوا: كيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلى؟

والجواب:

١ ـ إن الله تعالى عرَّف الجنة بالألف واللام، ومن قال: أسأل الله الجنة. لم يفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد، ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم. وقد لقي موسى آدم ـ عليهما السلام ـ فقال له موسى: «أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة» فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم، ولو كانت غيرها لرد على موسى، فلما سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التي أخرجهم الله ـ عز وجل ـ منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة.

٢ ـ ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها، وقد يخرج منها من قُضي عليه بالفناء. . . . وقد دخلها النبي ﷺ ليلة الإسراء ثم خرج منها، وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقاً.

٣ ـ وأما قولهم: إن الجنة دار القدس، وقد طهرها الله ـ تعالى ـ من الخطايا فجهل منهم، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي الشام، وأجمع أهل الشرائع على أن الله ـ تعالى ـ قدسها، وقد شوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي، وكذلك دار القدس.

وقال أبو الحسن بن بطال[١]: وقد حكى بعض المشايخ على أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم ـ عليه السلام ـ فلا معنى لقول مَن خالفهم.

٤ ـ وقولهم: كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد؟ فيُعكس عليهم ويقال: كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء؟ هذا لا يجوز على من له أدنى مسكة من عقل فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلا؟!»ا. هـ[٢].

وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية القائلين بخلاف ما قررته من المبتدعة الملحدين في الدين[٣] وقد استوفى ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه حادي الأرواح هذا الموضوع بإسهاب وتفصيل حسن، فذكر رأي أهل السنة في باب مستقل، كما ذكر رد أهل السنة على مخالفيهم في باب مستقل، وهو وإن ذكر أقوال المخالفين بلا تعليق عليها إلا أنه كشيخه ابن تيمية يرى أن القول بأنها

---

(١) أبوالحسن بن بطال: هو علي بن خلف بن بطال البكري. القرطبي ـ ويعرف بابن اللجام، كان من المالكية، وكان من أهل العلم والمعرفة، عني بالحديث عناية تامة، وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار، توفي في صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة، انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٤٧).

(٢) بتصرف من تفسير القرطبي، (١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٣) انظر: تفسير القاسمي، (١/ ١١٢).

جنة أرضية وبأنها غير موجودة الآن من الابتداع المذموم الذي يعتمد على العقليات مع إهمال النصوص، وإذا كان للمخالفين من النصوص التي قد يُفهم منها سلامة قولهم فإفراده باباً للرد عليهم وذكر الصواب في المقصود بهذه النصوص يؤيد ما قررته. وبالله التوفيق[1].

المسألة السابعة: الكلام عن الشجرة:

وردت عدة أقوال عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ في بيان الشجرة التي نُهي آدم من الاقتراب منها في قوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[2].

وقد ذكر هذه الأقوال ابن كثير وغيره من المفسرين، وإليك هذه الأقوال:

١ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «الشجرة التي نهي عن الأكل من ثمرها آدم هي السنبلة».

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها السنبلة الحنطة الحبةُ منها ككلى البقر، ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وعن ابن عباس أنه كان يقول: «الشجرة التي نهي عنها آدم البر» قلت: والسنبلة والحنطة والبر بمعنى واحد.

٢ ـ وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس: إنها الكرم.

٣ ـ وقيل: إنها النخلة.

٤ ـ وقال ابن جرير عن مجاهد: إنها التينة.

وقد حسم الأمر ابن جرير الطبري، وقال ـ رحمه الله: «الصواب في ذلك أن يقال: إن الله ـ جل ثناؤه ـ نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار

---

(١) انظر: حادي الأرواح، الصفحات من (١٩) إلى (٣٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٩).

الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله - جل ثناؤه - به، ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة فأنَّى يأتي ذلك؟ وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا عُلم لم ينفع العلمُ به عالمه، وإن جهله جاهلٌ لم يضره جهله فيه»[1].

وكذلك رجَّح الإمام الرازي الإبهام في تفسيره[2] والألوسي[3] - رحمهم الله جميعاً قال ابن كثير: «وهو الصواب»[4].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٣).
(٢) تفسير الفخر الرازي (٣/ ٥).
(٣) تفسير الألوسي (١/ ٢٣٤، ٢٣٥).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٧٩، ٨٠).

المبحث الثاني(*)
الآيات التي يدور الصراع عليها
في قصة آدم ـ عليه السلام

* مقدمة :

أولاً : تكريم الله لآدم وبنيه بإسجاد الملائكة له.

ثانياً : امتناع إبليس عن السجود لآدم ـ عليه السلام.

ثالثاً : توعد إبليس لبني آدم بالإغواء.

رابعاً : عجز إبليس عن إغواء عباد الله المُخلَصِين.

خامساً : كيد الشيطان للإنسان ـ وفيه يتجلى الصراع بينهما.

سادساً : تكريم الله لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة، ونهيهما عن الأكل من الشجرة.

سابعاً : بداية كيد الشيطان لآدم وزوجته ـ عليهما السلام.

ثامناً : عتاب الله ـ جل وعلا ـ لآدم وزوجته بعد أن أكلا من الشجرة، وقبول اعتذارهما ـ عليهما السلام.

تاسعاً : استقرار آدم وزوجته في الأرض بعد أن تاب الله عليهما.

عاشراً : دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم ـ عليه السلام ـ وبين إبليس ـ لعنه الله.

الحادي عشر: التعري، ومفاسده، ووسائل الشيطان إليه.

الثاني عشر: في التحذير من فتن إبليس ومكايده.

الثالث عشر: براءة آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ مما نسب إليهما من الشرك.

المبحث الثاني

الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام

* **مقدمة:**

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(١)
وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾(٢)
قال القرطبي ـ رحمه الله: «المعني بالخليفة هنا ـ في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهـل التأويل ـ آدم ـ عليه السلام ـ وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول رسول إلى الأرض كما في حديث أبي ذر قال: قلت: يارسول الله أنبياً كان مرسلاً؟ قال: نعم... الحديث»(٣).

ويقال: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟

فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا كما قال تعالى: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

(٣) انظر: الدر المنثور للسيوطي (١/١٢٦). وقد ورد بنحوه مع اختلاف المتن؛ انظر: الفتح الرباني (٢٢/٣٧٢).

الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونسآءً﴾[١]. . . »[٢].

وصحح ابن حبان من حديث أبي أمامة: «إن رجلا قال: يارسول الله أنبياً كان آدم؟ قال: نعم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون»[٣].

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾[٤] أي: إن الله اختار من الناس لرسالته ونبوته آدم ـ عليه السلام. . . إلخ. وهو أول الأنبياء المذكورين في هذه السورة ـ سورة الأعراف ـ، وسأشرع ـ بإذن الله في دراسة الآيات الكريمة التي جاءت موضحة للصراع منذ أن كان في الجنة إلى أن استقر في الأرض. والله أسأل التوفيق والسداد.

---

(١) سورة النساء: الآية (١).

(٢) تفسير القرطبي (١/٢٦٤).

(٣) انظر: فتح الباري، (٧/١٨١)؛ انظر: الهيثمي، الحافظ نور الدين. موارد الظمآن على زوائد ابن حبان، حققه ونشره محمد عبد الرزاق حمزة (٥٠٩)، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي، (١/١٢٦).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

تفسير الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام

أولا: تكريم الله لآدم وبنيه بإسجاد الملائكة له:

والآن وبعد ما أسلفته من مسائل مهمة حول الصراع بين آدم وإبليس في سورة الأعراف أعود فأفسرّ هذه الآيات مركزاً على جوانب الصراع بين إبليس وآدم ـ عليه السلام ـ وبنيه من بعده، محاولاً إجمال السبل التي يتوصل بها إبليس إلى صرف بني آدم عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾[١].

اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على أقوال أخلقها عندي بالقبول قولان[٢]:

القول الأول:

ولقد خلقنا أباكم آدم من تراب الأرض، ثم ألبسناه تلك الصورة الفريدة التي تميز بها عن سائر المخلوقين، والتي لا يتمنى آدمي أن يكون على غيرها، أو أن تنتقص فيه هذه الصورة بنقص ما ولو كان يسيراً؛ والسبب في الجنوح إلى هذا التأويل أن سجود الملائكة لآدم متقدم على خلقنا في الزمان، فلايجوز أن يرتب عليه بـ(ثم) التي هي للترتيب والتراخي، ولا غرابة أن يخاطبنا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٣/٢٩، ٣٠، ١٠١).

الله ـ تعالى ـ بها لأبينا؛ لأن صورته ـ عليه السلام ـ تتكرر في خلقنا إلى أن تقوم الساعة، فخلقنا هو إعادة لصورته ـ عليه السلام ـ ومخاطبة الأبناء بها للآباء في القرآن الكريم كثيرة وشائعة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾(١) فهو خطاب لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ مع أن النجاة وقعت لآبائهم إذ لولا نجاة الآباء ما كان للأبناء المخاطبين وجود.

ونظيره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾(٢) وقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾(٣) وغير ذلك. والكلام في هذه الخطابات وأمثالها وزان الكلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فربنا ـ جل وعلا ـ يمتن علينا نحن الذرية بخلق أبينا آدم ـ عليه السلام ـ الذي هو أصلنا، وتصويره في أحسن صوره، وسجود الملائكة له ـ عليه السلام ـ مع رفيع شأنهم عند ربهم، فالمنة بذلك كله منة علينا، لاسيما وأن خلقنا وتصويرنا على هيئة أبينا ماضيان فينا إلى يوم القيامة.

القول الثاني:

إن الله يربي نفس الإنسان على الطاعة والامتثال بالترهيب والترغيب، وقد سلف في أول السورة ذكر الترهيب في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾(٤) ثم جاء الترغيب في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٩).
(٢) سورة البقرة: الآية (٦٣).
(٣) سورة البقرة: الآية (٧٢).
(٤) سورة الأعراف: الآيتان (٤، ٥).

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾(١)

ونلاحظ هنا أن القرآن لا يهتم بالترتيب الزمني في وقوع هذه الأحداث لأن الغرض هو التذكير بها لا بأزمانها؛ ولذا ذكر التمكين، وما جعله فيها من معايش، قبل الحديث عن خلقنا وتصويرنا، ولأجل ذلك حسن عطف سجود الملائكة لأبينا آدم على هذه المنن بـ (ثم) لأن المقصود التذكير بها مجتمعة ومنفردة بغض النظر عن الترتيب الزمني، ولذا فـ (ثم) هنا لذكر الرتبة لا لذكر الترتيب.

فهو ترقٍ بنا من الفاضل إلى الأفضل، ولاشك في أن المنة بسجود الملائكة لأبينا آدم تكرمة له ولنا؛ لأن ما هو شرف للآباء هو شرف للأبناء، مع ملاحظة أنَّا كنا في صلبه حال السجود له، فنالنا من شرف هذا السجود باعتبارنا كنا في صلبه ـ عليه السلام.

ولقد أقسم ـ تبارك وتعالى ـ على خلقنا وتصويرنا مصدرًا جواب القسم بـ (قد) التحقيقية مع أنك لو سألت أكفر الكافرين عمن خلقه لا يسعه إلا أن يقول: الله، أي: خلقني. فإن قال بغير ذلك كالدهريين والشيوعيين ـ قاتلهم الله ـ فمكابرة ومعاندة مع انعقاد قلوبهم على خلاف ما تقول به ألسنتهم؛ لأن أكثر بني آدم ضلوا عن سبيل الله، واجتالتهم الشياطين عن الدين الحنيف، فكانوا بمنزلة من نسي أن الله هو الذي خلقه وصوره، لذا جاء التعبير بأسلوب القسم، وما في جوابه من قد ونون العظمة في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ و﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ و﴿قُلْنَا﴾ لهذا الملحظ الآنف الذكر.

والمعنى على ما أسلفنا في القول الثاني: ولقد خلقناكم نطفاً في أصلاب آبائكم، ثم صوَّرناكم في أرحام أمهاتكم ذكوراً أو إناثًا أو هما معاً بقدرتنا

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٠، ١١).

ومشيئتنا، لا يعلم بعلمنا فيكم علماً ذاتياً أحد سِوانا، ثم شرفناكم وكرمناكم قبل أن تخلقوا بأن جعلنا أباكم مسجوداً للملائكة، فهل يليق بكم وهذا شأننا معكم أن تعبدوا غيرنا، وأن تتخذوا إلهاً غيرنا، أو تشركوا معنا في ألوهيتنا أصنامكم ومعبوداتكم الباطلة؟ وهل يصح أن تنسوا هذه المنن، فتتبعوا الشيطان الذي ناصبكم وآباءكم العداوة التي أفضتُ لكم في ذكرها، لتتخذوا هذا الشيطان عدواً؟ فإذا بأغلبكم على خلاف ذلك. فما أعجب ذلك منكم!

وقد امتثل الملائكة أمر ربهم لهم بالسجود لآدم إلا إبليس. وقد مرت في الفصل الأول مسائل قدمت بها لتفسير هذه الآيات في بيان أقوال العلماء في كيفية هذا السجود والراجح منها[1].

وقد امتنع إبليس من السجود لآدم حسداً واستكباراً، ويدل على ذلك التعبير بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2] في أي وقت من الأوقات، محاولاً إظهار الندم على ذلك، لاختياره جانب المعاندة والمكابرة على العبودية الحقة لله ـ تعالى ـ. التي يدل عليها امتثال الأمر واجتناب النهي.

والمقطوع به أن إبليس كان مأموراً بالسجود لآدم مع الملائكة بصريح قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[3] إلا أن المفسرين ـ رحمهم الله ـ اختلف نظرهم في الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هنا وفي البقرة، فقال بعضهم: إنه متصل وإن إبليس كان من الملائكة، والملائكة وإن كانوا معصومين عن المعصية فبعصمة الله لهم يكونون معصومين، وبدونها لا يكونوا معصومين إذ عصمتهم ليست أمراً ضرورياً لا يتخلف بدليل تخلفها في إبليس ـ

---

(١) انظر: ص (٦٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢). وفي سورة البقرة: ﴿وإذ قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوآ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ الآية (٣٤).

أعاذنا الله منه، وقال بعضهم: إنه منقطع وإن إبليس كان معهم وليس منهم، وقد أمر بها أمروا بناءً على أن العصمة ضرورية؛ لأن فطرتهم خلقت تأبى المعصية، فيستحيل وقوعها منهم لأن ذلك يستلزم التناقض في خلقهم، بمعنى أنهم خلقوا معصومين غير معصومين، وهذا محال بالنسبة ـ لله تعالى. وقد أفردت لهذا الموضوع مسألة برأسها ضمن هذا البحث[1] كما أفردت في هذا البحث الكلام بإيجاز عن الملائكة[2] كما تكلمت عن أطوار خلق آدم ـ عليه السلام ـ وأهميته[3] وأشهر المواضع التي ذكرت قصته فيها من القرآن الكريم[4].

ثانياً: امتناع إبليس عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[5] معناه: ما منعك عن ترك السجود لآدم وقت أمر الله لك به، والسؤال بها عن الترك لا عن نفس السجود، والاستفهام هنا إنكاري توبيخي؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم بواعث موانعه عن السجود قبل أن يخلقه، لكن لما كانت معصية الله في نفسها أمراً عظيماً، لاسيما وأن العاصي قد خوطب بالطلب وكُلّم به، استدعى ذكر هذا الاستفهام، وليعلم آدم وبنوه خطر إبليس عليهم فلا يستجيبوا له البتة، ويناصبوه العداوة على الدوام، وقد بين إبليس سبب امتناعه عن السجود لآدم بما حكاه الله عنه: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ أي: أنا أعلى وهو أدنى، ومن كان كذلك لايصح له في حكم العقل أن يسجد لمن هو أقل منه، ثم أقام الدليل ـ

---

(١) انظر: ص (٥٩) من بحثنا هذا.
(٢) انظر: ص (٥٣) من بحثنا هذا.
(٣) انظر: ص (٥٨) من بحثنا هذا.
(٤) انظر: ص (٤٩) من بحثنا هذا.
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٢).

في زعمه ـ على كونه خيراً من آدم بما قصه الله في قوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾(١).

قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية: «استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ، كأنه قيل: فماذا قال اللعين عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ متجانفاً عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول: منعني كذا، مدعياً لنفسه بطريق الاستئناف شيئاً بيِّن الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه، ومشعراً بأن مَن شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه، فكيف يحسن أن يؤمر به؟ كما ينبيء عنه ما في سورة الحجر من قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾(٢) فهو أول من أسس بنيان التكبر واختراع القول بالحسن والقبح العقليين.

وقوله تعالى: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ تعليل لما ادعاه من فضله عليه، ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وزل عنه(٣) ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(٤) أي: بغير واسطة على جهة الاعتناء به، وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾(٥) وما من جهة الغاية، وهو ملاك الأمر، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له ـ عليه السلام ـ حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة، وأنه له خواص ليست لغيره»(٦).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).
(٢) سورة الحجر: الآية (٣٣).
(٣) أي: غاب عنه.
(٤) سورة ص: الآية (٧٥).
(٥) سورة الحجر: الآية (٢٩)، وسورة ص: الآية (٧٢).
(٦) تفسير أبي السعود (٣/٢١٦).

وقال القرطبي في تخطئة إبليس في تفضيل النار على الطين التي هي أصله والتي بسببها زعم أنه خير من آدم ـ عليه السلام ـ ما نصه: «﴿قَالَ: أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾(١) فرأى أن النار أشرف من الطين لعلوها وصعودها وخفتها؛ ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس، فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس»(٢).

قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق، فإن الطين أفضل من النار من وجوه:

أحدها: إن من جوهر الطين الرزانة، والسكون، والوقار، والأناة، والحلم، والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم ـ عليه السلام ـ بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية، ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب، وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء» قاله القفال.

ثانيها: إن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه، وليس التراب سبباً للعذاب(٣).

ولم يشأ الله ـ سبحانه وتعالى. أن يبيِّن لإبليس خطأه في ما اعتقده، بل ردَّ الله ـ تعالى ـ عليه ردًا بليغًا بأن صرف الجواب عن قضية العناصر ـ النار،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٨/ ٨٩).

(٣) نقل بتصرف من تفسير القرطبي (٧/١٧١).

والطين ـ إلى العلة الحقيقية في عدم سجوده وهي الكبر فقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أما قضية العناصر فبينة البطلان، وما هي إلا ستار تستر به إبليس ليبرر جريمته.

فمقالة إبليس هذه التي أجاب عنها ربه قد انطوت على عظائم أولها: الكفر، وثانيها: التكبر، وثالثها: احتقار الغير، ورابعها: ظن السوء بالله ـ عز وجل ـ وتخطيئه، وأنه ليس بحكيم ـ تعالى الله عن ذلك وغير ذلك من الجرائم والأخلاق السيئة، التي انتشرت في البشر الذين طاوعوا إبليس فيها بعد، فجميع الانحرافات البشرية عن الحق من الكفر فما دونه انتظمها قول إبليس اللعين: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1] وما كشف الله لنا من هذه المحاورة إلا رحمة بنا، وتنبيهاً على خطورة هذا العدو، وتحذيرًا من مطاوعته واتباع خطواته.

ثم بين ـ تعالى ـ شديد غضبه عليه، وإنزال نقمته به بقوله: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[2] والمعنى: اهبط من السماء مطروداً، مسخوطاً عليك من جنابنا، لا تنالك رحمتنا أبداً؛ فإن السماء مسكن ملائكتي؛ الذين فطروا على تسبيحي وتحميدي ودوام عبادتي، إلى الأرض التي جعلتها لك مستقراً زمناً ما تمارس فيها غواياتك وضلالك، ثم تعود إلى جهنم؛ دار سخطي وهواني لمن عصوني.

ويجوز أن يكون المعنى: اهبط من الجنة إلى الأرض؛ فإني جعلتها داراً لمن أطاعني. وهذا يعني أن إبليس كان يسكن الجنة مع من شاء الله من الملائكة،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣).

وقد يقوى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[٢] أي: ما يصح لك وما ينبغي لمثلك أن يتكبر في السماء أو في الجنة[٣].

وقوله تعالى: ﴿فاخرج﴾ تأكيد بالأمر بالهبوط، وبيان لحكم الله الذي لا يرد، وأنه لو كان خيراً من آدم كما زعم ما حُكم عليه بذلك.

ومعنى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[٤] أي: من المحقرين المهانين، المبعدين عن الرحمة، الذين لا تليق بهم سكنى السماء أو الجنة.

واعلم أن كلام الله ـ تعالى ـ لإبليس لايفيده شرفاً، ولا ينيله كرامة؛ لأنه ـ تعالى ـ كلمه بما كشف عن لؤم طبيعته، وفساد عقيدته، وسوء أخلاقه، فكان كلامه لإبليس ككلامه لأهل النار على جهة التأنيب والتوبيخ، بعكس كلامه لموسى ـ عليه السلام ـ فإنه عين التكريم ونهاية الرضى؛ لأنه ـ تعالى ـ كلّمه على جهة الإكرام والتفضيل والاصطفاء، ككلامه ـ تعالى ـ لأحبابه في الجنة.

ولو كان في إبليس خير ما تبجح بين يدي الله ـ عز وجل ـ بما قال، ولذا فمتابعته خطر عظيم، لأن من يتبعه فكأنه متبجح معه ـ أعاذنا الله بفضله ورحمته من تسلطه علينا ومن متابعته.

ولما علم إبليس سقوطه وهوانه قال مكراً وجهلاً بإحاطة الله بما في نفسه: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[٥] مراده ـ لعنه الله ـ أن يبقيه الله حيا إلى يوم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣).
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٦/٣) وتفسير النسفي (٤٦/٢)؛ وانظر: تفسير القاسمي (٢٦/٧).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤).

البعث؛ لأنه علم أنه لا موت لحي بعث يوم القيامة، فإذا انظر إلى يوم القيامة فقد نجا من الموت، فيكتسب بذلك مزية على بني آدم، لأن الله حكم على صالحيهم وطالحيهم بالموت بل وعلى سائر الخلائق إلا ما استثناه الله [1] بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [2] فيكون بقاؤه إلى البعث مزية على سائر الخلائق.

ولعله في زعمه بعد موت بني آدم المسلط عليهم والذين بموتهم ينقطع مجال إغوائه يتوب إلى الله ـ عز وجل ـ فتدركه الرحمة، ولذلك طلب الإنظار إلى النفخة الثانية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دليل على أنه كان يعلم أن بني آدم يموتون ويبعثون ويسألون. والمعنى: أخرني وأمهلني إلى يوم تبعث الخلائق، فأجاب الله بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي: ليس الإنظار مختصًا بك، ولا هو إجابة لطلبك بل أنت واحد من المنظرين، الذين أخرناهم في علمنا إلى الوقت المعلوم وهو وقت النفخة الأولى، فهو في هذا الإنظار تابع لغيره، فأكد له ـ تعالى ـ تأخيره إلى الوقت الذي أراده، لا إلى ما يرجوه.

وقد بين ـ تبارك وتعالى ـ في سورتي الحجر و ص الوقت الذي أُنظِرَ إليه وهو وقت النفخة الأولى حيث قال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ

---

(١) وهي ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيّز العدم

هي العرش والكرسي ونار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

انظر: تفسير الجمل ـ الفتوحات الإلهية (٣/٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) سورة القصص: الآية (٨٨).

ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [1] أي: وقت النفخة الأولى التي يموت عندها كل حي من الخلائق.

ويرى بعض المفسرين أن معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي: إلى الوقت الذي أردناه، وأن اللعين لا يعلم أجله، وأنه مهدد بالموت في كل لحظة؛ لأنه لو علم تحديد أجله، لتاب إلى الله عند قربه فتخلّص بالتوبة مما أحدث.

والرأي الأول أرجح؛ لأن إبليس علم أنه من الصاغرين، وأن عليه اللعنة إلى يوم الدين، وهو اليوم الذي تنقطع عنده التكاليف، ويكتب إلى أوانه على المسيء إساءته وعلى المحسن إحسانه، فلا ضرر من أن يؤجل إبليس إلى النفخة الأولى وأن يعلم ذلك؛ لأنه آيس من رحمة الله وأنه بمقتضى ذلك لا يلهم التوبة، ولا تقبل منه لو فعلها [2].

ثالثاً: توعد إبليس لبني آدم بالإغواء:

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [3] استئناف أجيب به عن سؤال، فُهم من سياق ما قبله، تقديره: فماذا قال إبليس بعد أن علم خيبة أمله في الإنظار إلى يوم الدين كما كان يتمنى؟ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى....﴾ إلخ الآيات.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ فاء الترتيب، مقالته هذه على قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [4] و(الباء) [5] إما حرف قسم، بتقدير: أقسم

(١) سورة الحجر: الآيتان (٣٧، ٣٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/٣٦)؛ وانظر: تفسير الألوسي (٨/١٩)؛ وتفسير أبي السعود (٣/٢١٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥).

(٥) انظر: تفسير الرازي (١٣/٣٨).

بإغوائك لي، وقدرتك عليَّ في هذا الإغواء الذي لا أملك دفعه عني ﴿لأقعدن لهم﴾ وقد أقسم صراحة بعزة الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] أي: بقدرتك، وإما سببية، والتقدير: قال: فبسبب إغوائك لي لأقعدن لهم. وهذا منتهى العناد والتبجح بين يدي ملك الملوك الذي دكَّ الجبل من هيبته لما تجلى عليه.

وقد أذن الله لإبليس ليقول ما يقول، لبيان عِظم فتنته، ولنتأكد من عداوته فلا نهادنه بحال من الأحوال، ولئلا تكون لنا حجة على الله ـ عز وجل ـ بعد بيانه ـ تعالى ـ ووضوح قرآنه.

والإغواء هنا هو الإضلال، وذلك بقذفه في قلب إبليس اللعين، لعلمه ـ تعالى ـ بأنه ليس أهلاً لطاعته، بدليل امتناعه ـ لعنه الله ـ عن تنفيذ أمره ـ تعالى ـ بالسجود لآدم ـ عليه السلام.

وهذه الآية صريحة في احتجاج أهل السنة على المعتزلة بأن الأفعال كلها مخلوقة لله ـ تعالى ـ بخلاف قولهم: إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية. ولا حجة للجبرية في هذه الآية؛ لأن إغواء إبليس نشأ بسبب معصيته، فهو لم يقل لربه: أردت السجود فلم تطاوعني أعضائي لفعله، بل قال مستكبراً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[2] فهذا صريح في أنه ترك ما أمر به قصداً واختياراً لا إجباراً، فهو لم يغو بظلم ـ تعالى الله عن الظلم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة ص: الآية (٨٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) سورة فصلت: الآية (٤٦).

وقوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾[1] جواب القسم بتقدير أن الباء للقسم، أو هو جواب قسم محذوف بتقدير: رب بسبب إغوائك لي، وحقك ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ وليس لإبليس في هذا القسم شرف؛ لأنه أقسم على فعل الشر، وشعر أنه شيء، وأنه يستطيع أن يؤثر بنفسه في آدم وبنيه، ولو استشعر قدرة الله ـ تعالى ـ عليه وعلى سائر الخلق لتضاءل لعظمته، ولعلم أنه أعجز من أن يحدث أثراً في مخلوق لولا أن ما يحدثه في بني آدم هو مراد الله ـ تعالى ـ المبني على الحكمة التامة.

وقوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ مجاز، أُريد به صرف بني آدم عن الحق واجتهاده في ذلك بلا كلل، وصور هذا بقعود القاعد في الطريق يترصد من يمر به ليوقع به ما يوقع[2].

﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دينك القويم.

والمعنى: لأصدنهم عن دينك بتجهيلهم بشرعك، أو بصرفهم عن معرفة دينك، كل بحسب تأثيره عليه.

وقد وصف الله ـ تعالى ـ الصراط بالمستقيم على لسان عدوه ليعلم بنو آدم أن سبل إبليس وطرقه في ما يغويهم به لا خير فيها، ولا استقامة لها، بدليل أنه وصف صراط الله فقط بالمستقيم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢١٩).

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

رابعا: عجز إبليس عن إغواء عباد الله المخلصين:

وقد ذكرت سورة الأعراف قعوده لآدم وبنيه كلهم بلا استثناء لجهله بقدرة نفسه واستشعاره طغياناً وكبراً أنه يستطيع أن يفعل الإغواء بهم جميعاً، لكنّ سورتي الحجر وص قد بينتا أن عباد الله المخلصين من الأنبياء والصالحين لا سلطان له عليهم البتة، وأنه أعجز وأذل من أن ينال منهم: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

فقد بينت هذه الآية ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ عجزه عن التسلط على عباد الله الذين اصطفاهم لحضرته.

وفي صورة ص استثنى إبليس بنفسه عباد الله المخلصين من إغوائه بما حكاه الله عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

ولقد فتح الله ـ تعالى ـ أبواب رحمته لكل خلقه متى رجعوا إليه، وعرفوا خديعة إبليس لهم، فقال في شأن الكافرين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[3] وقال لعامة المؤمنين: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[4].

وضاعف الحسنة لفاعلها عشر مرات، أو سبعمائة ضعف، أو أكثر من ذلك بما لا ينتهي عند حد ولا عد، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ

---

(١) سورة الحجر: الآيتان (٤١، ٤٢).
(٢) سورة ص: الآيتان (٨٢، ٨٣).
(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٨).
(٤) سورة النساء: الآية (١١٠).

أَمْثَالِهَا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[3].

ورغم قبح السيئة فإنه - تعالى - لم يضاعفها، ولم يكتبها على المؤمن فور عملها، بل يمهله لعله يتوب عنها، فإذا لم يتب عنها فور فعلها، وكتبت عليه، فإن التوبة متى تحقق بها بددتها بل بدلت سيئاته حسنات دون أن يفعلها؛ لأن توبة العبد من الذنب حسنة قد فعلها العبد في نفسه، فهي ماحية للسيئات، ومستدعية لأن يُعطى التائب مكانها حسنات؛ فبعد أن أثنى ربنا - تبارك وتعالى - في سورة الفرقان على المؤمنين بأنهم لا يدعون مع الله إلهًا آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون؛ وبعد أن توعد من يأتِ هذه الموبقات بمضاعفة العذاب يوم القيامة، وخلود الفاعلين ذلك فيه مهانين، استثنى التائبين فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾[4] وقد دلت هذه الآية[5] على أن إبليس - لعنه الله - إنما ضل على علم، وأنه كان يعرف الحق من الباطل، ولذا كان أمره عجيبا، فقد يعذر من فعل الباطل إذا غلب على ظنه أنه حق، لكن كيف يعذر من عرف

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٦٠).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦١).

(٣) سورة النمل: الآية (٨٩).

(٤) سورة الفرقان: الآيتان (٧٠، ٧١).

(٥) أي التي نحن بصدد تفسيرها وهي قوله: ﴿قال فبمآ أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾.

الحق تمام المعرفة ثم جافاه عمداً وقصداً إلى سلوك الباطل والاجتهاد فيه؟ ولذا كان كفره عناداً، فإنه لم يكن يجهل الحق بدليل قوله: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾.

خامسا: كيد الشيطان للإنسان وفيه يتجلى الصراع بينهما:

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾(١). تفصيل وبيان للإغواء المجمل في قوله: ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾(٢) وفي قوله تعالى: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾(٣).

و﴿ ثُمَّ ﴾ هنا خارجة عن معنييها المعروفين لها ـ الترتيب والتراخي ـ إلى المبالغة التي تعني بذل غاية مجهوده في إغواء بني آدم وإضلالهم، وقوله تعالى: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ جواب قسم محذوف كقوله تعالى: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وإتيانه الإنسان من الجهات حقيقي، يشعر المأتي من بني آدم بأثره، وإن كان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد حجبنا عن رؤيته حين يأتينا؛ لأنك إذا رأيت عدوك ليل نهار يجاريك ويجتهد في ذلك ضعفت قواك عن مقاومته، وحصل لك اليأس من مغالبته؛ ولذا قال الله ـ تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾(٤) وقد نظر المفسرون في إتيانه بني آدم من هذه الجهات الأربعة نظرا فاحصا دقيقاً، فبعضهم حمل مجيئه من هذه الجهات الأربعة على حقيقته، وأنه لا يستطيع أن يأتي الإنسان إلا من هذه الجهات التي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧).
(٢) سورة ص: الآية (٨٢).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

حددها[1] وبعضهم يرى أن المراد بهذه الجهات المذكورة في الآية الغلبة والتمكن وإتيانه الإنسان من أي جهة شاء، كما أنهم ـ رضي الله عنهم ـ فسروا كل جهة من هذه الجهات بتفسيرات لا يعارض بعضها بعضاً ـ في نظري ـ ولا مانع من إيرادها كلها لأن النص يحتملها وأفضل ما اطَّلعتُ عليه ما كتبه الإمام الفخر الرازي في تفسيره، وسأنقله بشيء من التصرف، قال ـ رحمه الله : «في ذكر هذه الجهات الأربع قولان :

القول الأول :

إن كل واحد منها مختص بنوع من الآفة في الدين. والقائلون بهذا القول ذكروا وجوهاً :

أحدها : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ يعني : أشككهم في صحة البعث والقيامة ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ ألقي إليهم أن الدنيا قديمة أزلية.

وثانيها : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ والمعنى : أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ يعني : أقوّي رغبتهم في ذات الدنيا وطيباتها، وأُحسّنها في أعينهم.

وعلى هذين الوجهين، فالمراد من قوله : ﴿ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ الآخرة، لأنهم يردون عليها، ويصلون إليها، فهي بين أيديهم، وإذا كانت الآخرة بين أيديهم كانت الدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها.

وثالثها : وهو قول الحاكم والسدي : ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ يعني : الدنيا ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ يعني : الآخرة.

وإنما فسرنا ﴿ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ بالدنيا؛ لأنها بين يدي الإنسان يسعى فيها ويشاهدها، وأما الآخرة فهي تأتي بعد ذلك.

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/٤٧)؛ وتفسير الألوسي، (٨/٩٥)؛ وتفسير أبي السعود، (٣/٢١٩).

ورابعها: ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ في تكذيب الأنبياء والرسل الذين يكونون حاضرين ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ في تكذيب من تقدم من الأنبياء والرسل.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: ﴿عن أيمـنهم﴾ في الكفر والبدعة ﴿وعن شمائلهم﴾ في أنواع المعاصي.

ثانيها: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ في الصرف عن الحق ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ في الترغيب في الباطل.

ثالثها: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ يعني: أفترهم عن الحسنات ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ أقوى دواعيهم في السيئات. وهذا القول الأخير يبين حاله ـ نعوذ بالله منه ـ مع المؤمنين. ثم استطرد الإمام الفخر ـ رحمه الله ـ قائلاً: قال الأنباري: وقول من قال الأيمان كناية عن الحسنات والشمائل عن السيئات قول حسن؛ لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك. يريد: اجعلني من المقدَّمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين[1].

القول الثانـي:

إنه ـ تعالى ـ حكى عن الشيطان ذكر هذه الوجوه الأربعة، والغرض منه أنه يبالغ في إلقاء الوسوسة ولا يقصر في وجه من الوجوه الممكنة البتة.

وتقدير الآية: ثم لآتينهم من جميع الجهات الممكنة بجميع الاعتبارات الممكنة»[2].

وعلى القول الذي خصص طرق الشيطان إلى الإنسان بهذه الجهات الأربعة يرد سؤال: لِمَ لَم تذكر الآية مع هذه الجهات الفوق والتحت؟ فأجيب عن ذلك

---

(١) انظر: الفخر الرازي، (١٤/ ٤٠، ٤١).

(٢) المصدر السابق، (١٤/ ٤٢).

بأن جهة الفوق هي جهة الدعاء، وأن جهة التحت هي موضع السجود، وقد علم الشيطان أنه لا يتمكن من الإنسان وهو يدعو ربه، ولا منه وهو ساجد له - سبحانه وتعالى - ولذا قال الله - تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[2] وجاء في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»[3].

ومن لطائف المفسرين التي ذكرها الفخر: الفرق بين ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ حيث ذكرت الآية الجهتين الأوليين بمن، والثانيتين بعن، لأن ملائكة الحسنات والسيئات يجلسون عن يمين الإنسان وشماله، فعندما يأتي الشيطان للإنسان من هاتين الجهتين لا يلتصق به خوفاً من الملائكة، وإنما يأتيه منها مع نوع من التباعد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ يحكي حقيقة أغلب بني آدم فإنه في ذهول عن الشكر، وقد عرف إبليس ذلك؛ لأن الأمر جاء كما قال، إمّا لاطِّلاعه على بعض أحوال الإنسان وهو بالملأ الأعلى، فعرف ذلك فحكاه، وإما بطريق الظن[4] والتخمين، لعلمه أن من أسوأ نتائج الشهوات التي يحركها في الإنسان ترك الشكر، إذ فعل الشهوة كفران بنعمة الله - عز وجل - ولو عقل الإنسان نعم ربه عليه، واستشعر حاجته إليه على الدوام ما كفر كافر ولا عصى عاصٍ.

---

(١) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٧٧).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤/ ٢٠٠).

(٤) انظر: الفخر الرازي، (٤٣/٤).

وهذا القول الكريم يدل بذكره هنا على أن أعلى العبادات شأناً وأوصلها إلى الله ـ عز وجل ـ شكره ـ تعالى ـ على ما تفضل به وأنعم، واستدامة ذلك شعوراً في القلب، ونطقاً باللسان، وفعلاً بالجوارح. وفقنا الله لحسن الشكر واستدامته.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾[1] وإزاء توعد إبليس بترصده لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة، وصرفهم عن الإيمان بالله، خاطبه ـ جل وعلا ـ زاجرا ومحقرا بقوله: ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أي: من الجنة أو من السماء﴿مَذْءُومًا﴾ أي: محقوراً ومهين الشأن، مهما بذلت في إفساد بني آدم فإني أحبط كيدك عمن عبدني، ورجع إليَّ مهما كانت إساءته، ومن معاني (الذأم) في اللغة الاحتقار، أي: أنت محقر بما هددت به بني آدم، لاتُرفع به أبداً أو مذءوماً أي: مذءوماً بأبلغ الذم وأشده، فإن أي كافر أو عاصٍ مع قبح ما أتى به لايذم بمثل ما تذم به في الدنيا[2].

﴿ مَّدْحُورًا ﴾ أي: مبعداً محقراً[3] والقصد من تقييد خروجه في هذه الآية بهذين الوصفين الإمعان في مذمته، ونفي أن يكون له شأن بما أبداه بين يدي الحق ـ جل وعلا ـ مما أسلفت ذكره في الآيات السابقة[4]. ثم توعده هو ومن

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/٤٣، ٤٤) وتفسير الألوسي (٨/٩٦) وتفسير أبي السعود (٣/٢١٩).

(٣) نفس المراجع السابقة.

(٤) من قوله: ﴿قال فبمآ أغويتني لأقعُدنَّ لهم صراطك المُستقيم * ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمآئلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ سورة الأعراف: الآيتان (١٦، ١٧).

تبعه بأن يملأ جهنم منه ومنهم أجمعين، قادراً على ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحول بينه وبين ما أراد من النكال بإبليس ومن تبعه حائل ليتبين الفرق بين القدرتين؛ قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي لا يثبت أمامها شيء ولا يقاومها مقاوم، وبين قدرة اللعين على إغواء بني آدم التي مَكَّنه الله ـ تعالى ـ منها بحكمته وإرادته، ولبيان أن هذا الإغواء منه لمن يغويهم، شر عليه وعليهم، يقودهم إلى أوخم العواقب.

وقوله تعالى: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي: انقاد لك واستسلم بلا رجعة استسلام التابع المنزوع الإرادة والعقل للمتبوع. واللام فيه لام القسم[١] والتقدير: وحقنا لمن تبعك من بني آدم. وقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ جواب هذا القسم والمعنى: لأملأن جهنم منك ومنهم، قادرا على ذلك، لا يمنعني منه شيء، وأنت ومن معك أعجز من أن تدفعوا ذلك الوعيد عنكم.

سادسا: تكريم الله لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة ونهيهما عن الأكل من الشجرة:

وقوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ خطاب منه ـ تعالى ـ لآدم وزوجه بسكنى أشرف دار، خلقها الله لتكريم أحبابه، وهذه الآية في مقابل ما حصل لإبليس من التحقير والتبعيد والطرد من رحمة الله ـ تعالى ـ أبداً، والجنة التي أمر بسكناها هي جنة الخلد على ما رجحته في المبحث الذي أفردته لذلك[٢] ثم نهاه ـ سبحانه وتعالى ـ عن الاقتراب من الشجرة، والمراد بالشجرة المنهي عنها، إما شجرة بعينها، أو أنها جنس لنوع واحد. وقد نقلت

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/٤٤).

(٢) انظر: الصفحات من (٧٢) إلى (٨٤) من بحثنا هذا.

أقوال العلماء في المراد بها في مبحث خاص[١].

وقد رتب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وصف آدم وحواء بالظلم إذا هما أكلا من هذه الشجرة، فالنهي عن الاقتراب منها في الحقيقة نهي عن الأكل منها، وهو أبلغ مما لو قيل: لا تأكلا من هذه الشجرة، إذ النهي عن الاقتراب يستلزم النهي

وقد رتب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وصف آدم وحواء بالظلم إذا هما أكلا من هذه الشجرة، فالنهي عن الاقتراب منها في الحقيقة نهي عن الأكل منها، وهو أبلغ مما لو قيل: لا تأكلا من هذه الشجرة، إذ النهي عن الاقتراب يستلزم النهي عن الأكل، وليس العكس كذلك، والدليل على أن المقصود بالنهي عن الاقتراب النهي عن الأكل أن إخراجهما من الجنة، وظهور سوءاتهما لهما، قد ترتبا على نفس الأكل كما سيمر بنا، وقد اختلف المفسرون في المراد بهذا النهي كما اختلفوا في المراد بالأمر في هذه الآية.

قال قتادة: إن الأمر في هذه الآية أمر تكليف لا أمر إباحة، أي: إن سكنى آدم وحواء الجنة، وإباحة أكلهما رغداً حيث شاءا منها، ونهيهما عن الاقتراب من الشجرة، كان تكليفاً من الله لهما بذلك، لا تنعيماً، ولذا لما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وأُهبطا من الجنة.

وقال آخرون: إن الأمر هنا للإباحة، والنهي للتنزيه لا للتحريم، ومخالفة الأمر الذي هو للإباحة بفعل ما نهيا عنه لايعد ذنباً، بل غاية ما يقال فيه: إنه ترك ما هو الأولى. والذين قالوا ذلك بنَوا قولهم على أن المعصية لاتصدر من الأنبياء لا قبل نبوتهم ولا بعدها، وما ورد مما يفيد ظاهر ذلك فمُؤوّل.

وإن معنى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسكما باستبدال

---

(١) انظر: ص (٨٣، ٨٤) من بحثنا هذا.

الذي هو أدنى بالذي هو خير. كمن طُلب للوزارة فعافها واشتغل بالحياكة كما يقول الفخر[١] وأصحاب هذا الرأي يقولون: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾[٢] أي: فعل غير اللائق به، وأن الله سمى فعله معصية باعتبار أنه غفل عن عداوة الشيطان له، وعما توعده به وبنيه، وكان اللائق بآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أن لا يغفلا عن ذلك.

وجـزى الله ساداتنـا العلماء خيراً لما قدموه لنا من فهم طيب لمثل هذه الآيات، وإن كنت أميل إلى أن النهي وإن كان حقيقة مشتركة بين القدرين ـ التحريم والتنزيه ـ كما يقوله بعض الأصوليين بالتحريم[٣] بدليل تسميته معصية وتسميته ظلماً في الآية، وبدليل ما ترتب عليه من الهبوط إلى الأرض، وبدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾[٥] ولقد قيل: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين فالأولى أن يسمى خلاف الأولى من المقربين؛ معصية. وسقوط الإنسان في المعصية، لا ينافي الاجتباء ولا الاختيار لنبوة، بل إن من مقـاصـد قصة آدم ـ عليه السلام ـ في القرآن ألا توصل الزلات من بنيه إلى اليأس، وأن كثرة المعاصي لا تحول بينهم وبين رحمة الله، مادامو مؤمنين تائبين، ومـذهب أهـل الحق أنهم لا يقـطعون بعذاب غير التائبين من المؤمنين، بل يفوِّضون أمرهم إلى الله ـ عز وجل. وعندي أن آدم ـ عليه السلام ـ لم يكن نبياً

---

(١) بتصرف من الفخر الرازي (٦/٣) وانظر: تفسير الألوسي (١٠١/٨).
(٢) سورة طه: الآية (١٢١).
(٣) انظر: شرح المحلى على جمع الجوامع بحاشية البناني (٣٩٢/١) ط مصطفى الحلبي.
(٤) سورة طه: الآية (١٢٢).
(٥) سورة البقرة: الآية (٣٧).

وقت الأكل من الشجرة، فلا يقدح أكله في نبوته بدليل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾(٢).

وأكل ادم وحواء من الشجرة كان أمراً واقعاً لامحالة؛ لأن الله خلقه ليكون خليفة في الأرض، لا ليستقر في الجنة من أول الأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٣) وحديث موسى الذي أسلفته فيما مضى وفيه «أتلومني على أمر قدره الله عليَّ»(٤) فحج آدم موسى فغلبه، كما قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

الخلاصـــة:

إن دفاع القائلين بأن الأمر للإباحة، وأن النهي للتنزيه دفاع مشكور لهم، لكن تأويل النصوص وصرفها عن حقائقها أمر ليس بالسهل كما مرّ بنا آنفًا.

سابعا: بداية كيد الشيطان لآدم وزوجته ـ عليهما السلام ـ

وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(٥) الوسوسة هي الكلام الخفي المكرر، وهذا معناه أن الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ ظل يلح عليهما بوسوسته، ويرددها في نفوسهما حتى وصل إلى مقصده، وهذا يدل على إباء آدم وحواء عليه في أول الأمر، وأنهما لم ينصاعا لما ألقى في نفوسهما من أول الأمر؛ فذِكرُ إبليس

---

(١) سورة طه: الآية (١٢٢).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).
(٣) سورة البقرة: الآية (٣٠).
(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٠٠).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

بالوسوسة نوعٌ من ذمّه، وبيانٌ للسبيل الذي يسلكه لإغواء بني آدم، وهو في نظري شبه مدح لآدم وحواء، ومما يؤكد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾[1].

و«الشيطان» وصف لإبليس، غلب عليه حتى صار علماً له وكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان، ومعناه: المبعد المطرود. من قول العرب: شطنت داره إذا بعدت، والشاطن: البعيد عن الحق، أو المعذب المنكل به. من قولهم: شاط يشيط إذا هلك واحترق[2] ولا يقال: كيف وسوس إبليس لآدم وحواء وقد أُخرج إبليس من الجنة؟ لأن الله أعطاه القدرة على وصول وسوسته إلى آدم وبنيه مهما بعدوا عنه، قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله له»[3] وأما ما يذكر من قصة الحية ودخول إبليس فيها ودخولها إلى الجنة حاملة له . . . إلخ . فكلام مدحوض من الإسرائيليات التي أقحمت في كتب التفاسير والتي لا يصح أن تروى إلا لدحضها وبيان كذبها كما أشار إلى ذلك الفخر وابن كثير وغيرهما[4].

وقوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾[5] معناه: ليظهر لهما ما أخفى عنهما من عوراتهما التي لا يصح النظر إليها، وهذا الكلام يحتمل الحقيقة ويحتمل المجاز: فعلى كونه حقيقة فالمراد به تعريف بني آدم خطورة انكشاف العورات وأن التهاون في ذلك يؤدي بهم إلى السقوط في جميع

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢١).
(٢) انظر: لسان العرب (١٣/٢٣٨).
(٣) تفسير الرازي (١٤/٤٦).
(٤) انظر: الفخر الرازي (١٤/٤٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٠٦).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

المعاصي؛ فانكشاف العورة سبيل لإبليس يقود منه بني آدم إلى ما يرغب، ويوقعه في المهالك والشرور، وعلى المجاز فالمعنى بالسوءات هنا، سوءات النفوس وانحرافها، وأن متابعة أهوائها لا يوصل إلى خير أبداً، ولذا لما مالت نفسي آدم وحواء إلى الأكل من الشجرة سقطت حرمتها، ووقعا فيما حذرهما الله منه.

واللام إما للعاقبة وإما للغرض[١] في قوله: ﴿ليبدي﴾ فعلى كونها للعاقبة فمعناها أن إبليس لم يكن قصده انكشاف عورتهما، وإنما كان قصده وقوعهما في المعصية، وعلى كونها للغرض فانكشاف عوراتهما مقصود له من أول الأمر لما علمه من أحوال بني آدم مما سطر في اللوح المحفوظ كعلم الملائكة المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ؟﴾[٢] فقد رأى في اللوح المحفوظ أنهما إذا أكلا من الشجرة فارقهما لباسهما، ووقعا في حرج عظيم برؤية سوءاتهما، وهذا يدلك على أن انكشاف العورة أمر قبيح، مركوزٌ في الفطرة قبحُه، والمراد بالسوءة هنا الفرْج. وإذا كان الشرع بعد ذلك قد توسع في عورة الرجل والمرأة فما ذلك إلا لحمايتهما.

وأميل إلى كون اللام للغرض، وإلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾[٣] هو انكشاف العورة حقيقة؛ لأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته ما لم تأت قرينة قوية تحمل على صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/٤٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

قال الفخر عند تفسير هذه الآية: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كأنهما قد ألبسا ثوباً يستر عورتهما، فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب»(١).

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾(٢) أي: ما منعكما من قربانها والأكل منها إلا لينفي عنكما الوصول إلى درجة الملائكة وأن تلبسا طبيعتهم. ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ أي: الماكثين وقتاً وطيلاً لا يلحقكما موت، أو الباقين لا تموتون.

وهـذه المخـاطبة من إبليس، تحتمل المشافهة وتحتمل الوسوسة، فكما يسمى التلفظ كلاماً كذلك يسمى ما يقذف في الفؤاد كلاماً، وللمفسرين في إغراء الشيطان لهما بأن يكونا ملكين كلام طويل تركت ذكره لطوله(٣).

والمعنى الذي استخلصته من قراءاتي أن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ كانا متواضعين تواضعاً كبيراً، على الرغم من سجود الملائكة لآدم، شأن المؤمن المجتهد في الطاعة؛ فإنه كلما قوي اجتهاده زادت خشيته، ونظر إلى من دونه على أنه أفضل منه؛ ولذا ظنَّ آدم أن الملائكة أفضل منه، وأنهم على حال أرضىٰ لله من حاله، وهو يريد غاية القرب من ربه، فإذا انضم إلى ذلك نسيانه أنه سيكون من الظالمين إذا أكل من الشجرة سهل على إبليس أن يسهل عليه الأكل من الشجرة بهذا الإغراء، بالإضافة إلى علم آدم بما عليه الملائكة من قوة وعِظم في الخلق، وهو دونهما بلا شك.

وأما إغراؤه بالخلود بمعنييه السابقين فمرده إلى أن الإنسان بجبلته يخاف الموت ويرهبه مهما استعد له، ولذا سلك الشيطان في إغرائه هذين المسلكين،

---

(١) تفسير الرازي (١٤/٤٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/٤٦)؛ وانظر: تفسير الألوسي (٨/٩٩).

ولا غرابة في ذلك لما قدمته من تعليل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾[1] معناه: إنه حلف لهما، واجتهد في ذلك غاية اجتهاده، وهذا هو المعنى الذي تحمل عليه المفاعلة، لأنه أكد دعوته لهما بالأكل وذلك بالاجتهاد في القسم، ولعلهم لم يصدقاه في أول الأمر مما حمله على القسم.

وقد استغل إبليس تقدمه عليهما في الخلق، جاعلاً ذلك ذريعة إلى العلم بما لم يعلما، اجتهاداً منه في تهوين نهيهما عن الأكل من الشجرة، وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[2] أي: فأطمعهما في ما لا يكون لهما بحال؛ إذ يمتنع أن تتحول طبيعتهما إلى طبيعة الملائكة، وقد خلقهما الله على ما هما عليه، ولو أراد الله لهما ذلك لخلقهما ملكين من أول الأمر، كما يمتنع أن يكونا من الخالدين؛ لأنه لا خلود لحي أراد الله خلوده إلا بعد موته وبعثه.

ولقد أغرى إبليس آدم وحواء بما منعه الله منه، حين قال لربه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3] أي: لا تُمتني ـ كما سبق تفسيره[4] ولعل آدم وحواء ظنا أنه ـ أعاذنا الله منه ـ لم يحصل له ذلك لمعصيته ونسيا ـ كما قلت ـ أن مخالفة النهي معصية، فإذا لم توصله معصيته إلى ما طلب فمعصيتهما كذلك لا توصلهما إلى ما أغراهما به.

أو معناه: جرّأهما على الأكل من الشجرة بحيلة وغرور سهل عليهما ذلك. ومؤدى المعنيين واحد، إذ لم يحدث لهما شيء مما أغراهما به من أن يكونا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤).

(٤) انظر: صفحة (١٠٠) من بحثنا هذا.

ملكين أو يكونا من الخالدين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾(١) أي: استطعماها ودخل منها في جوفهما بدت لهما عوراتهما فور ذوقهما منها بلا مهلة، وظهر أول ما سيبتليان به لمخالفتهما ما نهاهما الله عن فعله، وهو الأكل من الشجرة.

وقد بَيَّن الله حقيقة ذوقهما الشجرة، في سورة طه فقال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾(٢) وهذا يدل على أنه لم يكن مجرد ذوق باللسان، وإنما كان أكلاً حقيقياً، و(الفاء) تدل على وقوع الأكل من الشجرة عقب إغراء اللعين لهما بذلك، ولعلهما لو تريثا لتذكّرا النهي، فتجنبا الوقوع فيه. والإنسان في أحيان كثيرة يعجل في أموره ولا يتريث في فعله، فتأتي العواقب على غير ما يحب، ويندم حيث لا ينفع الندم.

قوله تعالى: ﴿... فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا(٣) يَخْصِفَانِ(٤) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾(٥) ومعنى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة؛ أي: شرعا وأخذا يضعان عليهما من ورق الجنة ليسترا بذلك ما انكشف من عورتهما(٦).

وإنك لتستشعر من قوله: ﴿يخصفان﴾ أن ورق الجنة ما كان يطاوعهما في تحقيق مرادهما من ستر العورة وهما يحاولان تثبيته بوضع بعضه على بعض.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٢) سورة طه: الآية (١٢١).

(٣) طفقا: قال صاحب اللسان: «طفق طفقاً، لزم. وطفق يفعل كذا، يطفق طفقاً أي: جعل يفعل وأخذ... وهو من أفعال المقاربة» لسان العرب (١٠/٢٢٥).

(٤) يخصفان: قال صاحب اللسان: «خصف النعل يخصفها: ظاهر بعضها على بعض وخرزها» لسان العرب (٩/٧١).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٦) انظر: تفسير الألوسي (٨/١٠١).

ومنه قيل لمن يرقِّع النعال خصَّافا؛ لأنه يحاول تثبيت ما يرقع به الخيط حتى لا تنفلت.

ثامنا: عتاب الله - جل وعلا - لآدم وزوجته بعد أن أكلا من الشجرة وقبول اعتذارهما - عليهما السلام -

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ عقب أكلهما من الشجرة، نداء عتاب وتوبيخ مع لطف دل عليه قوله[1]: ﴿رَبُّهُمَآ﴾ فإن من سخط الله عليه السخط كله لا يناديه ولا يعاتبه، بل يشقيه ويطرده، كما فعل بإبليس حيث قال له: ﴿أخرج منها﴾ فلم ينادِه كما نادى آدم وحواء، ولم يقل له: كيف تمتنع عن أمري وقد خلقتك؟ بل سأله عن سبب امتناعه ليظهر له عتوه واستكباره حتى لا ينخدع بنو آدم بإغوائه وإضلاله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[2] هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ أو هو مقول قول محذوف، والاستفهام هنا إنكاري وفيه معنى التقرير، إذ المعنى: قد نهيتكما عن تلكما الشجرة، فكيف وقعتما في حبائل الشيطان، وأكلتما من هذه الشجرة الخبيثة؟ التي أشار الله إليها بكلمة ﴿تلك﴾ الدالة على البعد، وعلى أن من يقربها يُصبه التعب والشقاء.

وعطف على هذا العتاب قوله لهما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة[3] لا يكف عن الإساءة إليكما وصرفكما عن سعادتكما ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[4] أي: بالغت في إخباركما بعداوته حتى لاتغفلا

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٨/١٠١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٣) انظر: تفسير، الألوسي (٨/١٠١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

عنها، فقد ذكرت هذه الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾، كما تكرر فيها﴿لَّكُمَا﴾ مرتين مع ذكر صفة العداوة، وكل ذلك يدل على أنهما علما عداوته لهما من ربهما علماً لا يدع لهما عذراً في مطاوعته، وقد نبههما إلى عداوته صراحة في سورة طه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾(١).

ولقد اعتذرا إلى ربهما بما علّمهما إياه من كلمات تصلح عذراً لهما بين يديه. فسبحان الهادي إلى ما يستجلب به رضاه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(٢) فقالاها: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الواسع التوب العظيم الرحمة، المختص بذلك وحده، والذي لا يحرم عبده رحمته وتوبته متى اعتذر إليه، وقد طوى في آية البقرة توبة حواء في توبة آدم؛ لأن المرأة تابعة للرجل وهي كذلك في أغلب خطابات القرآن الكريم. ولقد اختلف المفسرون في الكلمات التي قالاها(٣) ولعل أقرب آراء المفسرين إلى الصحة ما فسرته آية الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٤) فهذه الآية صريحة في أنهما اعتذرا إلى ربهما بهذه الكلمات كما أنها تفسير للإبهام في سورة البقرة، وقد ذكرها الله ـ جل وعلا ـ مرة مبهمة وأخرى محددة لتعظم في نفوسنا، ولئلا نكف عن الاعتذار بها إلى ربنا ـ عز وجل.

ومعنى ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي: آذيناها بفعل ما نهينا عنه، وبإخراجها من الجنة لشؤم المعصية، قال البقاعي: «أعربت الآية عن أنهما فزعا إلى الانتصاب

(١) سورة طه: الآية (١١٧).
(٢) سورة البقرة: الآية (٣٧).
(٣) انظر للأقوال في: المراد من الكلمات، وتفسير الرازي، (١٩/٣).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٣).

بالاعتراف وسميا ذنبهما ـ وإن كان إنما هو خلاف الأولى؛ لأنه بطريق النسيان كما في سورة طه[1] ظلمنا، كما هي عادة الأكابر في استعظام الصغير منهم، ولم يجادلا كما فعل إبليس، وفي ذلك إشارة إلى أن المبادرة إلى الإقرار بالذنب من فعال الأشراف، لكونه من معالي الأخلاق، وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر، وأن الجدال من فعال الأرذال، ومن مساويء الأخلاق، وموجبات الغضب المقتضي للطرد»[2].

ومعنى ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: هذه الزلة ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ أي: تُدِم رحمتك علينا بفضلك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الهالكين الذين آيستهم من رحمتك كإبليس وجنوده.

وقد علمتنا هذه الآية حسن الاعتذار لربنا، والإمعان في ندائه واستغفاره بقول الداعين: ﴿رَبَّنَا﴾ وبتقديم الداعين ذكر زلاتهم وهم مستشعرون الضعف والحاجة. وفعل ذلك لدى الكرام من الخلق كثيراً ما يؤدي إلى عفوهم، فكيف بأكرم الأكرمين ورب العالمين؟

كما ينبغي للداعي أن يكثر من طلب المغفرة والرحمة معا؛ فإن الإنسان مهما اجتهد في طاعة الله فلن يقوم بشكر نعمة واحدة، فلا ينال ما عند الله إلا برحمة الله أخرج البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخل أحدًا الجنة عملُه. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن**

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولقد عهدنآ إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ سورة طه: الآية (١١٥).

(٢) تفسير البقاعي المسمى نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ (٧/ ٣٧٥، ٣٧٦).

يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»[١].

تاسعاً: استقرار آدم وزوجه في الأرض بعد أن تاب الله عليه:

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾. [سورة الأعراف: الآية (٢٤)].

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي: قال ذلك لإبليس وآدم وحواء، وهو دال على استمرار العداوة بين الشيطان وبني آدم، وهي من إبليس لا تهدأ ولا يهادن فيها البتة، أما هي من بني آدم فقد خفيت تلك العداوة على أغلبهم، فضلوا عن سبيل الله ضلالاً مبيناً، ومن تنبه إليها منهم فهم فيها على درجات: منهم من لا سلطان للشيطان عليه البتة، وهم يصرعونه ويخزونه بطاعتهم وعبادتهم وهم الأنبياء ومن يليهم في الرتبة كالصديقين وخواص المؤمنين، ومنهم من يطيعه حيناً، ويعصيه أحياناً، ومنهم العكس.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: استقرار وحياة ومعايش وشئون مختلفة، تباشرونها أنتم وإبليس على ظهر هذه الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولكم فيها تمتع وتلذذ بما أودع الله فيها من النعم، وخبأً فيها من الثروات والأقوات التي أقدركم على استخراجها والتمتع بها، وتمتع إبليس في هذه الدنيا وسرور قلبه بإغواء بني آدم، وصرف بعضهم عن الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وكل ذلك من الاستقرار والتمتع مُغَيّا[٢] بأجل كل واحد منهم الذي ينتهي بالموت، والدنيا كلها مغيّات بأجلها الذي ينتهي بالنفخة الأولى التي يموت عندها كل حي من المخلوقين.

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل، (القاهرة: طبعة البابي الحلبي، (د.ت)) ، ١٤/٧٩.

(٢) غيًّا: أي جعل له غاية ونهاية فهو مغيًّا. انظر: المعجم الوسيط (٢/٦٦٩).

ولما كان الاستقرار والتمتع في الأرض قد ينسيان العاقبة، وقد يظن بعض الظانين أن لهما شأناً في حياتهم؛ لذلك نبههم - تبارك وتعالى - إلى أنهم يحيون فيها بقدرته وإرادته، ولو شاء خلاف ذلك لكان، وأنهم يموتون فيها ليكون موت السابقين عبرة للاحقين، ودليلاً على انقضاء هذه الحياة، وعلى أن هناك حياة أخرى أسمى منها لمن آمن واتبع الهدى، وأشقى لمن كذب بآياته. وقد بيَّن الله ذلك في سورة البقرة فقال تعقيباً على أكل آدم من الشجرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1].

كما بين لهم خروجهم حتماً إلى حسابهم وملاقاة ما قدموا، لتتحد مصائرهم تبعاً لإيمانهم أو كفرهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2] والضمير يعود إلى الأرض بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[3] وقد تكرر حديث القرآن عن هذا الهبوط في سورة البقرة والأعراف وطه لأسرار كثيرة أهمها - والله أعلم - أن يعلم الإنسان خطورة الوقوع في المعصية، وأنه لا يجني من ورائها إلا التدني والضعة، وأن لا يغفل الإنسان عن عداوة الشيطان في حياته الدنيا، فلا يطيعه بحال، ولا يطمئن إليه البتة، ويجلي هذا المعنى عتاب الله لبني آدم يوم القيامة عن غفلتهم عن تلك العداوة مُقيماً حجته عليهم وقاطعاً أعذارهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٣٨، ٣٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾(١)

عاشرا : دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم وإبليس - أعاذنا الله منه -

وبعد أن فرغ القرآن من قصة آدم وإبليس في سورة الأعراف والصراع الذي وقع بينهما عقب بذكر نصيحتين لبني آدم كافة :

النصيحة الأولى :

تحذيرهم من فتنة الشيطان أن يفعل بهم ما فعل بأبويهم فلا يردُون إلى الجنة بل يكون مصيرهم إلى النار وبئس القرار، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾(٢).

فقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ خطاب للآدميين بهذه المنة من لدن أبيهم آدم إلى أن تقوم الساعة.

وقوله : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾(٤) المراد بالسوءات العورات، والمعنى : أي قد خلقنا لكم ذلك، بأن سهّلنا لكم الأسباب التي تؤدي إلى تمكينكم منه، كنزول الماء من السماء فتنبت لكم ما تصنعون به ألبستكم، أو تطعمون به أغنامكم التي تغزلون من صوفها فتلبسون. والإنزال هنا مجازي لا حقيقي.

---

(١) سورة يس: الآيات من (٦٠) إلى (٦٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

ويرى الجبائي أن إنزال اللباس على بني آدم من الجنة حقيقي، وقد ناقشه الألوسي في قوله هذا قائلاً: «لم نقف في ذلك على خبر كسته الصحة لباساً»(١).

والمعنى: إن الله قد مكنكم مما تسترون به عوراتكم، وإنه جنبكم ما أصاب أبويكم من الاضطرار إلى خصف الورق على عوراتهما حين انكشفت لما أكلا من الشجرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾(٢).

فأنتم يابني آدم قد كفيتم ذلك بما خلقه الله لكم من اللباس، فاحذروا من التفريط في كشف عوراتكم، ولا تطاوعوا الشيطان فيما يغريكم به من الوقوع في ذلك، حتى وإن زيّنه لكم بالقربى والطاعة، كما فعله مع العرب في الجاهلية، كانوا يطوفون بالبيت عراة، بزعم أنهم لا يصح أن يطوفوا بالبيت في ثياب عصوا الله فيها، أو أنهم كانوا يفعلون ذلك تفاؤلاً بالتعري عن الذنوب!

وكما يفعله الكثيرات من أهل عصرنا تحت دعوى الجمال، أو التخفف أثناء القيام بالألعاب الرياضية وغير ذلك، مما أوقع الكثيرات من نساء المسلمين والكثيرين من شباب المسلمين في هذا الأمر تشبهاً بالكافرين، ومما سهل ذلك على نفوس الرجال نزع الحياء من القلوب، وموت الغيرة أو ضعفها في النفوس، وكما مر بنا ذلك سابقاً(٣)، أن الشيطان يجتهد في ذلك؛ لأنه الباب الواسع، الذي يقود للوقوع في أخطر المعاصي.

---

(١) تفسير الألوسي (١٠٣/٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٣) انظر: ص٥٨، ٥٩ من بحثنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالنصب. والمعنى يكون على هذه القراءة: يا بني آدم قد أنزلنا عليكم اللباس الذي يواري عوراتكم في أحوالكم العادية، وألهمناكم، وعلمناكم، وأنزلنا عليكم لباس التقوى الذي تتقون به ربكم، فاللباس الثاني هو اللباس الأول كقول القائل: الصدق من أنواع البر، والصدق خير لك؛ فالصدق الثاني هو عين الصدق الأول، وقد كرّره ليبطل به تعبد الجاهلية بالتعري - كما أشرت إليه آنفاً - أو أن اللباس الثاني يراد به ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرهما مما يُتقى به في الحروب، والمعنى: قد أنزلنا عليكم اللباس الذي يقيكم بأس عدوكم عند تحاربكم، فهو خصوص بعد عموم جيء به لأجل هذا المعنى.

وإنزال اللباس الذي تستر به العورات في أوقات السلم وما يلبس في أوقات الحرب من آيات الله ودلائله على رحمته بعباده ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ نعمته عليهم فيشكرون ولا يكفرون.

فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد قراءة النصب جملة مستأنفة جيء بها لتأكيد هذه المنة، ولا مانع من إرادة ما ذكرت سابقاً من قراءة الرفع التي هي قراءة العامة.

وقد حمل بعضهم: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ على معان مجازية متقاربة قال الفخر: «قال قتادة والسدي وابن جريج: لباس التقوى: الإيمان، وقال ابن عباس: لباس التقوى: العمل الصالح، وقيل: هو السمت الحسن، وقيل: هو العفاف والتوحيد. . . .» وقال معبد: هو الحياء، وقيل: هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخبات والعمل الصالح، وسمى الله هذه الأشياء

﴿لباس التقوى﴾ لأنها تواري عورات الباطن كما يواري اللباس عورات الظاهر فهي استعارة بالكناية.

فقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على قراءة الرفع مبتدأ وخبره ﴿خَيْرٌ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ صفته، أو بدل عطف بيان للباس، والغرض من ذلك مدح لباس التقوى، ووصفه بالخيرية، ترغيباً فيه وحضـًا عليه، وتبييناً لمسيس الحاجة إليه.

فكما ركز في طباعنا ستر الظاهر باللباس وتجنيبه المضار بترك العري فيجب أن نعلم أن بواطننا في أمسِّ الحاجة إلى كسوتها وتجنيبها العري، بل إن عري الباطن أفدح خطراً من عرى الظاهر، فقد يباح كشف العورة لضرورة مرض أو غيره، كما سطره الفقهاء في كتب الفقه لكن أحداً لم يبح كشف عورات الباطن من كفر، ونفاق، وأخلاق رديئة، وإن اضطر المؤمن إلى شيء من ذلك فهو بلسانه، ولا حقيقة له البتة في قلبه. وقد أحسن الإمام الفخر إذ قال: «إن المؤمن لا تبدو عورته وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر لا تزال عورته مكشوفة وإن كان كاسياً»[1] ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون عظيم النعمة فيه.

النصيحة الثانية:

تحذيرهم من فتنة الشيطان أن يفعل بهم ما فعل بأبويهم فلا يردون الجنة بل يكون مصيرهم إلى النار، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

(١) نقل بتصرف من تفسير الفخر الرازي (١٤/٥٢).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

فقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ نداء من الخالق - جل وعلا - لبني آدم، وقد تكرر في هذه السورة بالذات أربع مرات، ولم يرد بهذه الصورة في غيرها من سور القرآن، وفيه تكريم للآدميين حيث خصهم بندائه دون سائر مخلوقاته وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ أي: لايصرفنكم الشيطان عن الدين، كما فتن أبويكم بإخراجهما من الجنة.

قال أهل التأويل: هذا خطاب للذين يطوفون عراة من أهل الجاهلية والمعنى: لا يخدعنكم ولا يضلّنكم بغروره، فيزين لكم كشف عوراتكم، كما أخرج أبويكم من الجنة بغروره، وأضيف الإخراج ونزع اللباس إليه لأنه السبب[1].

ولقد لفت - جل وعلا - أنظار عباده بتحذيرهم من فتنة الشيطان ومخادعاته التي طالما فتن بها بني آدم، لأنه إن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة، فلأن يقدر على ذلك في حق بني آدم فمن باب أولى، لذلك حذر تعالى بني آدم، بالاحتراز من وسوسته، لأنه كان سبباً في إخراج أبويهم من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها.

وقوله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ جملة حالية من أبويكم، أي: أخرجهما من الجنة حال كونهما نازعاً عنهما لباسهما، وأسند النزع إلى الشيطان لأنه كان متسبباً فيه، قال الفخر: «﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ اختلف في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم: إنه النور، وبعضهم: التقى، وبعضهم: اللباس الذي هو ثياب الجنة، وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي، (١٨٤/٣).

يقتضيه. والمقصود من هذا تأكيد التحذير لبني آدم، لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره إلى هذا الحد، فكيف يكون حال آحاد الخلق؟»[1]؟

ثم أكـد تحذيرهم من الشيطان وجنـوده بجملة تعليلية فقـال ـ جل وعلا ـ: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ أي: الشيطان وجنوده يرونكم يا بني آدم وأنتم لا ترونهم، فالجملة الكريمة تعليل للنهي السابق وهو قوله: ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ﴾ وتأكيد للتحذير؛ لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشـد وأخوف، ولذا قال مالك بن دينار: «إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على مَن عصمه الله»[2].

وقوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ أي: على صورهم الحقيقية التي خلقهم الله عليها، وهذا من رحمته ـ جل وعلا ـ بعباده، لما هو مستقر في الأذهان من قبح صورهم، وقد شبه الله ـ جل وعلا ـ ثمار شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم برُؤوس الشياطين، لما علم من قبح صورهم وأشكالهم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾[3] وتعليل عدم رؤيتهم يرجع إلى لطافة أجسادهم أو عدم ألوانهم، قال صاحب تفسير الجمل:

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٥٣).

(٢) انظر كتاب: تفسير سورة الأعراف للدكتور أحمد الكومي والدكتور محمد سيد طنطاوي، ص٤٣، ٤٤.

(٣) سورة الصافات: الآيتان (٦٤، ٦٥).

«فأجسادهم مثل الهواء نعلمه ونتحققه ولا نراه، وهذا وجه عدم رؤيتنا لهم، ووجه رؤيتهم لنا كثافة أجسادنا، ووجه رؤية بعضهم بعضا أن الله ـ تعالى ـ قَوَّى شعاع أبصارهم جداً حتى يرى بعضهم بعضاً، ولو جعل فينا تلك القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها لنا»[1].

أما أن يروا على غير صورهم الحقيقية فهذا ثابت لا خلاف فيه، منها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: **يا أبا هريرة؛ ما فعل أسيرك البارحة؟** قال: فقلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالاً فرحمته، فخليت سبيله، قال: **أما إنه كذبك وسيعود**، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ أنه سيعود. فرصدته فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال لا أعود، فرحمته فخلَّيتُ سبيله، فأصبحت، فقال لي النبي ﷺ: **يا أبا هريرة؛ ما فعل أسيرك؟** قلت: يارسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخلَّيتُ سبيله. قال: **أما إنه كذبك وسيعود** فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أُعلِّمْك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟ قال: إذا أَوَيتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخلَّيتُ سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: **ما فعل أسيرك البارحة؟** قلت:

---

(١) انظر: تفسير الجمل (٢/١٣٣).

يارسول الله زعم أنه يعلّمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله. قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: **أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاثة ليالٍ يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذاك شيطان**»[1].

فهذه القصة فيها دلالة واضحة على رؤية الشيطان بغير صورته الحقيقية وأن من أعظم الأذكار التي ينتصر به عليهم ويكتفي به أذاهم تلاوة آية الكرسي.

قال السيوطي: «أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[2] وأقبل إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين، فلما رأى جبريل انتزع يده، وولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: ياسراقة إنك جار لنا؟ فقال: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾»[3].

فالأثر السابق عن ابن عباس فيه دلاله على تصور إبليس على غير صورته

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الوكالة (٥/٣٩٢ - ٣٩٥).
(٢) سورة الأنفال: الآية (٤٨).
(٣) الدرر المنثور (١٠/٧٧، ٧٨).

الحقيقية، وقد قرر غالب المفسرين نزول الآية في هذا الشأن[1].

«وقد يتشكل في صورة حيوان: جمل أو حمار أو بقرة، أو كلب أو قط خاصة الكلاب السود، لذا أخبر رسول الله ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة وعلل ذلك بأن الكلب الأسود شيطان، يقول ابن تيمية: «الكلب الأسود شيطان الكلاب، والجن تتصور بصورته كثيراً، وكذلك بصورة القط الأسود؛ لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره، وفيه قوة الحرارة»[2] وقد يتشكل على صورة حية من حيات البيوت. وحدث أن قتل أحد الصحابة حية من حيات البيوت فكان في ذلك هلاكه.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي السائب أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته. قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكاً في عراجين من ناحية البيت، فالتفت فإذا حية، فوثبت لأقتلها، فأشار إليّ أن أجلس. فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم، قال: كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً. فقال رسول الله ﷺ: «**خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة**» فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى: «كما روي أنه تصور في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة هل يقتلوا الرسول أو يحبسوه أو يخرجوه؟ كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾» [سورة الأنفال: الآية ٣٠] الفتاوى لابن تيمية، (١٩/ ٤٥).

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية، (١٩/ ٥٢).

وأصابته غيرة فقالت: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار، فاضطربت عليه. فما يدري أيهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا، فقال: **«استغفروا لصاحبكم»** ثم قال: **«إن بالمدينة جناً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان»**[1].

وقوله تعالى: ﴿إنا جعلنا الشيـٰطين أولياء للذين لايؤمنون﴾ وفي ختام الآية الكريمة بيَّن ـ تبارك وتعالى ـ أن الشياطين لا تتسلط على المؤمنين بإفساد عقائدهم وجرهم إلى الكفر؛ لأن الله حماهم بإيمانهم، وقد تتسلط على المؤمنين بنوع من الأذى في البدن، كما أشرت إليه في حديث مسلم[2] فأما الكافرون فإن الله قد جعل الشياطين لهم أولياء، عقوبة لهم على كفرهم، فهم لم يكفروا لاستصعاب إيمانهم على الله ـ عز وجل ـ بل الله هو الذي صرفهم إلى ما اختاروه بتسليط الشياطين عليهم فهو حكم من الله لا ينقض، ولذا أكَّده بـ (إن) و(نون العظمة)، وبكلمة (الجعل) التي تفيد الصيرورة وتوحي بلزوم ذلك واستمراره على الكافرين؛ لأن ما جعله الله لا ينقضُ إلا بالله ـ عز وجل ـ. وقوله تعالى: ﴿أولياء﴾ جمع ولي، وكل من ولي أمر واحد فهو وليه، فالشياطين يلُون أمر الكافرين ويتصرفون فيهم في معصية الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويتصرفون فيهم كما يتصرف الولي في موليه. إذا أدركنا هذا وتحققنا منه فلنحذر من موالاة الكافرين فكثير من المسلمين يفتنون بآراء الكافرين،

---

(١) صحيح مسلم بترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، (١٧٥٦/٤).

(٢) انظر: الصفحة السابقة.

ويحاولون أن يفرضوها على أممهم، وهذا كله لعدم تدبرهم للقرآن وجهلهم به؛ إذ لو علموا هذا الحكم الإلهي المجعول على الكافرين ما اتخذوهم قدوة بحال من الأحوال في أمر من أمور الدنيا فضلاً عن أمور الآخرة. قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾(١)

فقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة وإبطان المعاداة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاته فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مصيركم إليه، والعذاب معد لديه، وهو وعيد آخر(٢).

ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾(٣) أي: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة في تعذيبكم واستمرار غضبه عليكم لاتخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين؟ إن ذلك لا يرومه مؤمن.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٢٨).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (١/١٥٢، ١٥٣).

(٣) سورة النساء: الآية (١٤٤).

وفي التحذير من موالاة اليهود والنصارى خاصة يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1] أي: لاتتخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهي بقوله: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ وكلهم أعداء المؤمنين وفيه دليل على أن الكفر ملة واحدة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي: من جملتهم، وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لايرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة[2].

وهذا واقعنا المؤسف في هذه الأيام، لا نلتفت إلى هذه الآيات البينات وكأنها لم تنزل، ونلهث وراء الكافرين، نظن أن العلاقة بهم تكسب عزاً أو تحقق مجداً، وما كان ذلك ليكون لو وقفنا على هذه الآيات والأحاديث المطهرة الزاجرة عن ذلك، ولكن السائد في زماننا هذا هو الافتتان بأحوال الكافرين، والتأثر بكل ما عندهم، فَهُنًا على الله وهُنًا على أنفسنا، وذهب ريحنا، وضاعت هيبتنا، وأصبح الكافرون منصورين علينا برعبنا منهم لاستقرار الوهن في قلوبنا الذي فَسَّره النبي ﷺ بحب الدنيا وكراهية الموت؛ فقد أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتداعيهم علينا كتداعي الأكلة على قصعتها، أخرج أبو داود في سننه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةَ إلى قصعتها فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟! قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن. قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟**

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥١).

(٢) تفسير النسفي، (١/٢٨٧).

قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[١].

وقد أخبر الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى، بأن أمته في آخر الزمان ستتبع مناهج الكفار، واليهود والنصارى بخاصة، لا يحيدون عن هذه المناهج قيد أنملة، أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»**[٢].

وأختم هذا الموضوع بوعد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي لا يخلف الميعاد بنصر كل من يكون في حزبه ـ جل وعلا ـ، وحزب رسوله والمؤمنين: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٣].

الحادي عشر: التعري ومفاسده ووسائل الشيطان إليه:

من خلال تفكري وتأملي لقصة آدم ـ عليه السلام ـ في هذه السورة الكريمة ودراستي لآياتها البينة لفت انتباهي تكرار لفظ (السوءة) ثلاث مرات خلال أقل من عشرة أسطر وفي غضون ست آيات، وذلك في قوله تعالى:

١ ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[٤].

---

(١) سنن أبي داود، باب تداعي الأمم على الإسلام (٢/٤٢٦). وفي مسند أحمد بلفظ: **«يوشك أن تداعى عليكم لأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها... الحديث»** (بيروت، دار صادر، د.ت)، ٥/٢٧٨.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الاعتصام (١٧/٦٣، ٦٤) وصحيح مسلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبدالباقي، (٤/٢٠٥٤).

(٣) سورة المائدة: الآية (٥٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

٢ ـ ﴿يـبني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا﴾[1].

٣ ـ ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾[2].

السوأة: قال ابن كثير: «السوأة في الأصل الفرج، ثم نقل إلى كل ما يُستحيا منه إذا ظهر، من قول وفعل»[3].

ولا داعي للخوض في شرح الآيات الكريمة فقد سبق الكلام عنها بالتفصيل والذي أريد أن أنبه إليه، وألفت نظر القارىء الكريم نحوه هو حرص شريعتنا السمحة كل الحرص على ستر العورة؛ لأنه مزلق من مزالق الشيطان، بل يعد من أخطر مزالقه، ولا يخفى ما فيه شرع اللباس من تمييز للإنسان عن بقية الحيوان، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[4].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس.

﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي حاز صفات الكمال الدالة على فضله ورحمته لعباده.

ولذا أمر الشرع الحنيف بوجوب ستر العورة، وحرم التكشف في جميع الأحوال، إلا ما دعت إليه الضرورة، التي بينها الفقهاء في كتب الفقه، كالاستحمام عرياناً ـ مع خلاف فيه ـ وكشف العورة عند قضاء الحاجة، وكمعالجة العلة الحاصلة في العورة، إلى آخر ما ذكروه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٣) لسان العرب (١/ ٩٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

وكما أمر الله ـ جل وعلا ـ بستر العورة فقد حرم رسول الله ﷺ النظر إلى العورات، أخرج مسلم في صحيحه في باب تحريم النظر إلى العورات عن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**»[1]، قال النووي: «فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه، وكذلك نظر الرجل إلى عورة المرأة، والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع . . .

والزوجان لكل واحد منهما النظر إلى عورة صاحبه جميعها، إلا الفرج نفسه ففيه ثلاثة أوجه لأصحابنا الشافعية: **أصحها** أنه مكروه لكل واحد منهما النظر إلى فرج صاحبه من غير حاجة، وليس حراماً.

والثاني: أنه حرام.

والثالث: أنه حرام على الرجل، مكروه للمرأة والنظر إلى باطن فرجها أشد كراهية وتحريماً»[2].

ولأجل الاحتياط في حفظ العورة من أن تُرى كان صلوات الله وسلامه عليه إذا اغتسل استتر، وإذا قضى حاجته استتر عن أعين الناس، وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تدل على ذلك أذكر منها:

أخرج البخاري بسنده عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستره فقال: «**من هذه؟**» فقلت: أنا أم هانيء[3].

---

(١) صحيح مسلم (حديث رقم ٣٣٨) ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي (١/٢٦٦).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٤/٣٠) باب تحريم النظر إلى العورات.

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١/٤٠٠) باب من اغتسل عرياناً وحده في خلوة ومن تستر فالتستر أفضل.

وأخرج مسلم[١] في صحيحه عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسرّ لي حديثا لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل[٢] قال ابن أسماء في حديثه: يعني: حائط نخل.

ولما كان ستر العورة عند قضاء الحاجة بالثياب أمراً غير ممكن فقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى ما يصون عوراتنا عن أعين الجن ونحن في الخلاء؛ أخرج الترمذي[٣] وابن ماجة[٤] عن علي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ واللفظ لابن ماجة: «**ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: بسم الله**».

وكما أمر الشرع بالتستر عند قضاء الحاجة، أمر بستر العورة عند الجماع، لئلا يبدو الإنسان في هذه الحالة بهيئة ذكور الحيوانات عندما تنزو على إناثها، أخرج ابن ماجة عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ولا يتجرد تجرد العيرين**[٥]»[٦].

ولا شك أن المحافظة على التستر والحياء من سماتِ التقوى، وفي ذلك الخير كل الخير؛ وكما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٧].

---

(١) صحيح مسلم، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي (٢٦٩/١) باب ما يستتر به لقضاء الحاجة.

(٢) (هدف أو حائش نخل) الهدف: ما ارتفع من الأرض، وحائش نخل: بستان نخل.

(٣) سنن الترمذي (٥٠٣/٢، ٥٠٤) ط المكتبة الإسلامية.

(٤) سنن ابن ماجة، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢هـ)، ١٠٩/١.

(٥) العيرين: تثنية عير وهو حمار الوحش.

(٦) سنن ابن ماجة (٦١٨/١، ٦١٩).

(٧) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

وإن الشياطين وأعوانهم من الإنس والجن يعملون جاهدين دعاة إلى العري والفجور، ومما لا يختلف فيه اثنان، أن كل داعٍ للفجور والسفور هو في الحقيقة جندي من جنود إبليس؛ لأنه تلبس وتخلق بما كان عليه إبليس الذي وصفه الله بقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾[1] ومما هو معلوم أن أهم المبادىء التي تدعو إليها الصهيونية العالمية ـ كما أشير إلى ذلك في بروتكولات صهيون ـ الدعوة إلى العري والفجور بشتى الطرق، من خلال وسائل الإعلام العالمية المعروفة في زماننا الحاضر، وهذا ليس مستغرباً فقد ورثوا هذا من أجدادهم منذ القدم، وعرف تهاونهم في عوراتهم مما فتح عليهم أبواب الشر، وسهَّل عليهم الوقوع فيه، وتركوا لنسائهم الحبل على الغارب، فكن أول فتنتهم كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[2].

ويكفي أن نعلم أن الحياء والتستر والإمعان في المحافظة على العورات وحمايتها من أن تُرى من أخلاق الأنبياء[3] والصالحين.

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض. وكان موسى يغتسل وحده**[4] **فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرقاق (١٧/٥٥).

(٣) سبق أن أشرت في حديثي عن التعري ومفاسده عن تحفظه وحرصه ﷺ على ستر عورته، وذكرتُ حديث أم هانيء، وحديث عبدالله بن جعفر فلا داعي لإعادته. انظر: ص (١٦٨) من بحثنا هذا.

(٤) هذا هو الشاهد في الحديث.

آدر[1] فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمح[2] موسى في أثره يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً. فقال أبو هريرة: والله إنه لندب[3] بالحجر ستة أو سبعة، ضرباً بالحجر»[4].

الثاني عشر: في التحذير من فتن إبليس ومكايده:

لقد ميَّز الله ـ جل وعلا ـ الإنسان عن سائر مخلوقاته بالعقل وهو بمثابة المؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وإلى جانب ذلك ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه، ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه. وبعث ـ جل وعلا ـ الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ دعاة وهداة إلى الحق فمن تبعهم فاز وسعد، وخلق الشيطان محرضاً على الباطل، ومحبباً فيه، فمن سلك سبيله ضل ضلالاً بعيداً ـ والعياذ بالله ـ لذلك حذرنا منه ـ جل وعلا ـ في أكثر من موضع في كتابه الكريم:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (١٦٩) ﴾[5].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ﴾[6].

---

(١) آدر: قال الجوهري الأدرة نفخة في الخصية، انظر فتح الباري (١/٤٠١).

(٢) جمح موسى: أي جرى مسرعاً.

(٣) ندب: أي أثر.

(٤) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، باب من اغتسل عرياناً وحده ومن تستر فالتستر أفضل (١/٤٠٠).

(٥) سورة البقرة: الآيتان (١٦٨، ١٦٩).

(٦) سورة فاطر: الآية (٦).

ولذلك فقد اقتضى البحث أن أذكر بعض الوسائل الشيطانية التي هي من طبـائعـه، والتي يسعى إبليس وأعوانه جاهدين في إضلال بني آدم بها، مستنبطاً تلك الوسائل من قصة آدم في القرآن عامة وفي سورة الأعراف موضوع بحثنا خاصة.

أ ـ الكبر والاغترار والإعجاب بالنفس:

اعلم أن الكبر أول معصية عُصي الله ـ تعالى ـ بها قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2].

والكِبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيم مريض، وهو عند الله ممقوت بغيض؛ والمتكبر والمعجب أن يرى الشخص نفسه أكبر من غيره وإن كان أكبر في الواقع، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع[3].

وأعظم ذلك أن يتكبر على ربه، بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[4].

وقـال تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[5] أي: أذلاء[6].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٣) الألوسي (١/٢٣١).

(٤) سورة النحل: الآية (٢٣).

(٥) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٦) المفردات للراغب الأصفهاني، ص١٦٦.

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العزُّ إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**»[1].

قال الإمام النووي في شرحه: «هكذا هو في جميع النسخ، فالضمير في إزاره وردائه يعود إلى الله ـ تعالى ـ للعلم به، وفيه محذوف تقديره: قال الله ـ تعالى ـ ومعنى قوله: «ومن ينازعني ذلك أعذبه» معنى ينازعني: يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك. وهذا وعيد كبير في الكبر مصرح بتحريمه، وأما تسميته إزارًا ورداء فمجاز واستعارة حسنة، كما تقول العرب فلان شعاره الزهد ودثاره التقوى، لايريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار بل معناه صفته.

ومعنى الاستعارة هنا: إن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له، فضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله ـ تعالى ـ أحق له وألزم واقتضاهما جلاله»[2].

والكِبرُ والعُجب من أسوأ الأخلاق وأرداها بدليل أن إبليس لما اغترّ بنفسه بعدم السجود لآدم؛ لأنه في زعمه خير منه، وقع في الهلاك وسخط الله عليه، وكان سبب شقاوته وإهباطه إلى الأرض، قال تعالى: ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[3] والشيطان حريص على إيقاع بني آدم فيما وقع فيه، ولذلك جاءت العقوبة على التخلق بهذه الصفة الذميمة بحرمان صاحبها من دخول الجنة، أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**»، قال

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٧٣).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣).

رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: **إن الله جميل يحب الجمال، والكبر بطر الحق وغمط الناس»**[1] وأخرج أيضاً عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل النار أحد في قلبه حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»**[2].

والغرور: أن تغتر بسلامة فعلك وقولك.

والاغترار: إعجاب المغتر بعمله وقوله، واعتقاده بأنه لا عمل أفضل من عمله، ولا قول أعلى من قوله، ولا اعتقاد أصح من اعتقاده. وعلى المؤمن العاقل أن يتجنب الغرور والاغترار معاً فإنهما داء مهلك، ومسلك وعر من مسالك الشيطان، يقود به الإنسان إلى المهالك والشرور، عصمنا الله منه إنه سميع مجيب.

ب ـ الحسد:

الحسد: هو تمني زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت النعمة ديناً أو دُنيا وهو يؤدي إلى محذور عظيم، وهو من الكبائر لأنه منازعة في الربوبية وعدم رضا بما قسمه الله لعبده من خزائنه بعلمه وحكمته[3].

قال بعض السلف: أول خطيئة كانت هي الحسد؛ حسد إبليسُ آدم ـ عليه السلام ـ على رتبته فأبى أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية، وهو الذي حمل ابن آدم على قتل أخيه حين حسده على قبول قربانه، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ

(١، ٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر (٢/ ٨٩).

(٣) انظر: سراج القلوب وعلاج الذنوب، للشيخ أبي علي زين الدين علي المغيري على هامش قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٦٦).

لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾(١) وهو من أوصاف اليهود والنصارى، فالواجب على كل مسلم أن يتجنبه لئلا يكون موصوفاً بأوصاف اليهود والنصارى؛ أشار إلى ذلك ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾(٢).

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ﴾(٣) وإبليس حريص على إيقاع الناس في الحسد؛ لأنه كان سبباً من أسباب خروجه وطرده من الجنة، وهو أحد سبل الشيطان التي يوقع فيها العداوة بين الناس، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾(٤) حسداً على ما تفضل الله به على آدم من كونه جعله مسجوداً له من الملائكة.

وقد أمرنا بالاستعاذة من أهله فقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥ ﴾(٥) ويستفاد من الآية أن الحسد ليس مقصوراً على وقوعه من اثنين فصاعداً، بل الحسد مذموم ومنهي عنه ولو وقع من جانب واحد(٦).

وقد حذر منه رسول الله ﷺ بقوله: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا(٧) ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا(٨) ولا**

(١) سورة المائدة: الآيتان (٢٧، ٢٨). (٢) سورة البقرة: الآية (١٠٩).
(٣) سورة النساء: الآية (٨٩).
(٤) سورة البقرة: الآية (٣٤).
(٥) سورة الفلق: الآية (٥).
(٦) انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري (١٣/٩١).
(٧) أي: لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها.
(٨) أي: لا تتهاجروا فيهجر أحدكم أخاه؛ مأخوذ من تولية الرجل الآخر دبره إذا أعرض عنه حين رآه.

تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أو قال: «العشب»[2].

وعن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[3].

وأخرج النسائي عن أبي هريرة في حديث طويل قال فيه: إن رسول الله ﷺ قال: «ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد»[4].

جـ ـ الكذب والخداع:

الكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، ويأثم المخبر إذا علم بذلك، ثم إن عَلِمَ الضرر فيه كان من الكبائر.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾[5].

الوسوسة كما أسلفت سابقا[6]: الكلام الخفي المكرر ويفهم من هذا أن إبليس ـ أعاذنا الله منه ـ ظل يلح عليهما بوسوسته حتى وصل إلى مقصده، ولجأ

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٣/٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤).
(٢) سنن أبي داود (٢/٥٧٤).
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١/١٦٧).
(٤) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٦/١٣).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٠).
(٦) انظر: ص (١٤٢) من بحثنا هذا.

إلى خديعتهما بأن قال لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[1] أي: حلف بالله كذباً على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله. قال ابن عباس: «غرّهما باليمين، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما»[2]. قال تعالى في معرض الذم به: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[3] وهو مسلك خبيث وسبيل من سبل الشيطان، يضل به عباده، وقد ترجم البخاري له باباً: باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[4] وما ينهى عن الكذب، واستفتح الباب بالحديث الذي رواه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[5].

والكذب خصلة من خصال المنافقين الذين كشف لنا رسول الله ﷺ حقيقتهم وبيّن صفاتهم؛ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[6]

(١) سورة الأعراف: الآية (٢١).
(٢) تفسير القرطبي (٧/١٨٠).
(٣) سورة الأنعام: الآية (٢١).
(٤) سورة التوبة: الآية (١١٩).
(٥) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٣/١٢١، ١٢٢).
(٦) صحيح البخاري، وعلى هامشه فتح الباري (١٣/١٢٢).

ولقد استغل إبليس هذا السلاح الخطير في تكذيب الأمم لرسلها وأنبيائها؛ قال تعالى عن قوم هود وتكذيبهم لرسولهم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2].

وسيمر بك خلال دراستنا للصراع بين الحق والباطن في قصص هذه السورة، ما يُجلي لك خطورة الكذب، ويبيِّن أنه من أفتك الأسلحة التي يستعملها الشيطان في إضلال بني آدم وتجهيلهم بالله ـ عز وجل ـ وحملهم على الكفر والباطل مع ظهور بطلانهما، وصرفهم عن الحق والإيمان مع وضوح أدلتهما.

د ـ الإغراء بالشهوات:

وهو من أنجح الوسائل وأضمنها لإغواء بني آدم، وقد نجح فعلاً في إغواء آدم وزوجه في تزيين الأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

فقوله: ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ تحبيب إبليس إلى آدم وحواء الأكل من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، مغوياً إياهما بأن الأكل منها ينقلهما من صفة البشرية إلى الملائكية، وكان آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بتواضعهما يعتقدان أن الملائكة أفضل منهما، لاشتغالهم الدائم بالتسبيح والتحميد، وعدم الحاجة

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٣٨).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

إلى الطعام والشراب اللذين يلهيانهما عن طاعة الله ـ عز وجل ـ ونسي آدم أنه مسجود الملائكة؛ فهو دليل على فضله على الملائكة، لكنهما أتيا من قبيل النسيان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾[1].

فقوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾ أي: أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة.... والمعنى: أقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب من الشجرة، وقوله: ﴿من قبل﴾ أي: من قبل وجودهم، فخالف إلى ما نهي عنه[2].

﴿فنسي﴾ العهد أي: النهي.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي»[3].

﴿ولم نجد له عزما﴾ أي: قصداً إلى الخلاف، أو: لم يكن آدم من أولي العزم[4] وقوله: ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ أي: أن يصيرا من الخالدين، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[5] أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها لا يصيبك الفناء أبداً وتؤتى ملكاً لا يبلى ولا يفنى؟

وقد علم إبليس أن الشهوات تخرج من الجنة، وتورد فاعلها النار، وقد حرّم الله عليه الجنة بإيثاره كبره، واعتقاده أفضليته على آدم، وجعل مصيره النار

(١) سورة طه: الآية (١١٥).
(٢) انظر: تفسير النسفي، (٣/٦٧).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/١٦٧).
(٤) تفسير النسفي، (٣/٦٧).
(٥) سورة طه: الآية (١٢٠).

خالداً فيها أبداً، فهو يسعى لاستنزال بني آدم عن النعمة بما استنزل به نفسه عنهـا، ومعـروف أن طريق الجنـة محفـوف بما تكـره النفـوس عمله إلا على الخاشعين، وطريق النار محفوف بما تحب النفوس عمله من المحرمات والشهوات إلا من حماه الله من المؤمنين.

أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: **«لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فقال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه قال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فرجع إليها، فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضُها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحفت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»**(١) [حديث حسن صحيح].

ولا شك أن إبليس هدفه في هذه الحياة هو إضلال بني آدم، وقد أقسم بذلـك بين يدي خالقـه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٢) وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ

---

(١) سنن الترمذي (٤/٦٩٣، ٦٩٤).

(٢) سورة ص: الآيات من (٨٢) إلى (٨٥).

فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1].

فقوله: ﴿لأزينن لهم﴾ أي: المحرمات، وأجعلها في عينهم من المشتهيات المرغوبات، وهذا ما أشار إليه الحديث السابق بأن النار حفت بالشهوات.

هـ ـ الغرور:

الغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان[2].

قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[3].

قال صاحب الفتوحات الإلهية: «التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾: يعني خدعهما بغرور، يقال: ما زال فلان يدلي فلاناً بغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل.....

والغرور: إظهار النصح مع إبطان الغش.

ومعنى الآية: إن إبليس ـ لعنه الله ـ غر آدم باليمين الكاذبة، وكان آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، وإبليس أول من حلف بالله كاذباً، فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغترّ به[4] ا. هـ.

وقال تعالى في بيان مآل المغترين وما حل بهم من الحرمان والشقاء: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

---

(١) سورة الحجر: الآيتان (٣٩، ٤٠).
(٢) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي (٣/٣٦٨).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٢).
(٤) تفسير الجمل (٢/١٣٠).

ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ (١).

فإبليس وأعوانه يسلكون هذا المسلك الدنيء وهو إيقاع الناس في الغرور كما أوقع أبويهم آدم وحواء من قبل حتى يوصلهم إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ (٢) أعاذنا الله منه إنه سميع مجيب.

و ـ الجرأة على المعصية:

ومن مكائد الشيطان التي يكيد بها بني آدم حثُّهم وتجريئهم على ارتكاب المعاصي، وتزيينها في أعينهم، وتهوين أمر ارتكابها، قال تعالى: ﴿.. مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (٣) وكان إبليس يعلم تماماً عاقبة عصيان أمر الله ومخالفة أوامره؛ لأنه وقع في ذلك عند مخالفته أمر الله وامتناعه عن السجود لآدم، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (٤) فكان مآله الطرد وإخراجه من الجنة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ (٥) وأراد أن يوقع آدم وزوجه في مثل ما وقع فيه من المعصية، وقد أخذ على نفسه العهد بإغواء بني آدم، ولاشك أن تجريئه على المعاصي سبيله إلى إغوائهم وصرفهم عن صراط الله المستقيم.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٥٠، ٥١).
(٢) سورة النساء: الآية (١٢٠).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٢).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٣).

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وهذا المسلك الذي يسلكه الشيطان هو العنصر الأساسي في صراعه لبني آدم، وذلك بحثهم على ارتكاب المخالفات المنهي عنها التي جاءت على لسان الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وله في وصوله إلى مبتغاه العديد من الوسائل:

أولاً: إضعاف الخشية في القلوب.

ثانياً: تغليب الرجاء على الخوف، والتعلق بآيات الرحمة ونسيان آيات العذاب.

ثالثاً: الحصول عن طريق المعصية على ما تحبه النفوس وتستريح إليه.

رابعاً: تثقيلهم عن الطاعات[2].

والفرق بين معصية آدم وبين معصية بنيه أن آدم ـ عليه السلام ـ عندما استجاب لتغرير الشيطان لم يدر بخلده أنه سيعصي الله ـ تعالى ـ لأن الشيطان قد أغواه بالأكل من الشجرة معللاً له ذلك بما ذكرتهْ أكثر من مرة، وكان آدم يظن أنه لا أحد يقسم بالله كاذباً، أما بنوه فقد كشف الله لهم بالشرائع السماوية وبالرسل عامة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنه لا خير في المعصية البتة، كما أنه تعالى جعل مصير العصاة إلى النار وذكر ذلك كثيراً في كتبه المنزله، فكان المتبادر إلى الذهن أن يعي بنو آدم هذا الدرس، وأن يعلموا ما جرّته المعصية على أبويهم وعليهم من هبوطهم إلى دار التكليف وتعرضهم لأسوأ المصير إن هم عصوا الله ـ عز وجل ـ، ولكن قلّ من يعي هذا الدرس من الآدميين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧).

(٢) وهذه الوسائل تحتاج إلى البسط؛ تركته تجنباً للإطالة.

ز ـ طول الأمل :

طول الأمل : وهو الحرص على بلوغ ما تشتهيه النفس وتميل إليه مهما كان نعته .

قال تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]

ولقد استطاع إبليس أن يزين لآدم ـ عليه السلام ـ الأكل من الشجرة، تحت تأثير غريزتين تشتهيهما النفس وتميل إليهما، وهما متأصلتان في فطرة الإنسان :

الغريزة الأولى:

غريزة الملك أو التملك، ولقد استطاع إبليس أن يحرك تلك الغريزة وينبهها في نفس آدم لأول مرة وهو يقول له : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[2] وقد أكل آدم ـ عليه السلام ـ من الشجرة استجابةً لداعي تلك القوة الغريزية .

الغريزة الثانية:

غريزة حب الخلود، وهي التي أشار إليها ـ جل وعلا ـ في قوله : ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾[3].

وقوله تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٢) سورة طه: الآية (١٢٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٤) سورة طه: الآية (١٢٠).

فإبليس استغل هاتين الغريزتين حتى يصل إلى إغوائه لآدم وبنيه، مستغلاً في نفس الوقت دافع طول الأمل، وهو مسلك طالما يستخدمه الشيطان ويلعب به بقلوب بني آدم حتى يوقعهم فيما لا تُحمد عقباه.

ولهذه الوسيلة مسالك يسلكها الشيطان:

١ ـ نسيان الموت.

٢ ـ تزيين الشهوات وتحبيبها إلى النفس.

٣ ـ اتخاذ الدنيا وسيلة لا غاية[١].

والآمال ليست كلها في جانب الشر؛ فإن هناك الآمال الطيبة التي يدعو ويحض عليها الإسلام والتي لو اختمرت في قلب الإنسان لكانت سبباً لرفعته، وهذه الآمال لا توجد إلا في قلة من قلوب الخلق.

ج ـ الإيمان والكفر:

الإيمان لغةً: التصديق، وشرعا: تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه[٢] وهو من أجلِّ نعم الله على الإنسانية، وسلبه من أعظم المصائب بل ليس تفوقها بلية.

الكفر: وهو ضد الإيمان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٣].

وسورة الأعراف تصور لنا مدى ما وصل إليه إبليس من الكفر، قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورنكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ فامتناعه عن السجود كفر بالله، واعتراضه

(١) تركتُ الشرح خوفة الإطالة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/٥١).

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٤).

بقوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ كفر وجحود، وتحديه أيضاً بقوله: ﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ كفر صريح؛ لأن إغواء الناس وصدهم عن الصراط المستقيم وتزيين الفواحش في أعينهم هو عين الكفر، والكفر جحود للخالق المنعم الرازق، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

ومن شأنه الغريب أنه يدعو الإنسان للكفر ويحثه عليه، ثم يتبرأ منه، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

والكفر عقابه الخلود في النار: ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[4].

ولقد استغل إبليس هذا الجانب الاعتقادي كسلاح هدد به الكثير من الأمم السابقة واللاحقة في تكذيبهم لأنبيائهم وكفرهم بما جاءوا به من عند الله . . .

والإنسان ما دام في هذه الحياة فهو في صراع مع الشيطان الذي يزين له الكفر بشتى المغريات، وقد اجتهد إبليس في إيقاع أكثر بني آدم في الكفر كما هو مشاهد، وحكاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أكثر من آية حيث يقول: ﴿وإن

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٢).

(٢) سورة الحشر: الآية (١٦).

(٣) سورة الحشر: الآية (١٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾(١).

ويخاطب ـ جل وعلا ـ حبيبه ﷺ مسلياً ومخففاً عن قلبه شدة الهم والغم لإصرار أغلب الناس على الكفر مع ظهور بطلانه، وإعراضهم عن الإيمان مع لوائح أدلته: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾(٢).

وللشيطان في إيقاع الناس في الكفر وسائل تختلف باختلاف الكافرين، فوسائله مع اليهود والنصارى والمنافقين غير وسائله مع المجوس والصابئة والمشركين وما انبثق عن أولاء من نحلٍ وملل؛ بعضها يحتفظ باسمه القديم والبعض الآخر يتسمى بأسماء حديثة؛ ليعمي على الناس أمره كالشيوعية وما ينجر إليها، ولست بصدد تفصيل ذلك كله؛ لأن الكلام عنه موضوع برأسه، وإنما أردت أن أبينَّ أن أهم وسيلة للصراع بين الحق والباطل يسلكها الشيطان تطبيقاً لما توعد به بني آدم هو قوله بين يدي ربه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾(٣).

بل إنه ـ لعنه الله ـ ليحاول سلوك هذا المسلك مع المؤمن في أحرج ظروفه وأحلك أوقاته، في ساعة الموت التي يرى فيها الإنسان أياً كان مؤمناً أو كافراً ما لا عهد له به.

الثالث عشر: براءة آدم ـ عليه السلام ـ من الشرك:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١١٦).

(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٣).

(٣) سورة الحجر: الآيتان (٣٩، ٤٠).

ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1].

وفي ختام السورة الكريمة عاودت الآيات الحديث عن آدم ـ عليه السلام ـ وهو في الأمر نفسه تقريع لأهل الشرك لزجرهم عن شركهم، وتنزيه لآدم ـ عليه السلام ـ مما نسب إليه.

فقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هي نفس آدم ـ عليه السلام ـ وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2] أي: حواء، خلقها الله من ضلع آدم الأيسر من غير أذى ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليطمئن ويميل لأن الجنس إلى الجنس أميل خصوصاً إذا كان بعضاً منه؛ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وذكر ﴿لِيَسْكُنَ﴾ بعدما أنث في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ذهاباً إلى معنى النفس ليُبيِّنَ أن المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خفَّ عليها حمله ولم تلق منه ما يلقى الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلونه ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت به فقامت وقعدت، ولم يعجزها حملها عن قضاء أغراضها.

﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ أي: أثقلها حملها بأن كبر الجنين في بطنها، ووجدت له حركة وحياة، فحينئذ خشي آدم وحواء أن يولد غير سوي بنقص بعض أعضائه، أو أن يولد على شكل غير الآدمي من الحيوانات؛ ولذا توجها إلى ربهما داعين قائلين ما قصه القرآن: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه، فقالا: ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٨٩، ١٩٠).

(٢) قد أفردت الكلام عن حواء ـ عليها السلام ـ بمبحث خاص ضمن البحوث التي قدمتها، انظر: ص (٥٤١).

أي لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه أو ولداً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك، والضمير في آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما.

﴿فلما آتـهما صالحا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿جعلا له شركاء﴾ أي: آدم وحواء وأولادهما من بعدهما ﴿فيما آتاهما﴾ أي: فيما أتى أولادهما ﴿فتعـٰلى الله عما يشركون﴾ أي: فتنزه الله وتقدس وتعالى عما أشركه أولادهما به بعدهما.

ومعنى إشراكهم فيما آتاهما الله: تسميتهم أولادهما بعبد العُزى وعبد مناف وعبد شمس، ونحو ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم[1]. إن الناظر في ظاهر قوله تعالى: ﴿فلما ءاتهما صالحا جعلا له شركاء فيما ءاتهما﴾ يظن أن ذلك من فعل آدم وحواء، وأنهما خالفا ما وُعدا به في قوله ـ تعالى ـ على لسانهما: ﴿لئن ءاتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين﴾ وقد مال إلى هذا الظاهر كثير من السلف لأنه مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقد روى مرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ومرة موقوفا على ابن عباس وسمرة بن جندب كما سيأتي. وهذه الآية مشكلة عند المفسرين، جالت فيها عقولهم وأقلامهم، وقوي فيها دفاعهم؛ لأن نسبة الشرك لآدم وحواء أمر مستبعد؛ ولذا ضعّف بعض المفسرين كابن كثير هذا الرأي ولم يصل إليه، وقدّر مضافاً حل به هذا الإشكال.

فقوله تعالى: ﴿فلما ءاتـهما صالحا﴾ أي: آتى أولادهما.

وقـولـه تعالى: ﴿جعلا له شركاء﴾ أي: جعل أولادهما لله شركاء فيما

---

(١) باختصار وبتصرف من تفسير النسفي (٢/ ٨٩، ٩٠).

آتاهما. وإن ما ذهب إليه هو تأويل الإمام الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وهو أحد رواة الحديث الذي وعدت بذكره.

وإذا قال الراوي بخلاف روايته فالعبرة بقوله لا بروايته[1] وتكون روايته هذه من باب العلم الذي يريد أن يلقي عن نفسه عهدته، أي: لأنه تلقاه وإن لم يقتنع به.

وقال ابن كثير ما ملخصه: «لعل هذه المرويات التي تجعل الكلام على ظاهره من مرويات أهل الكتاب الكاذبة التي لا يصح الأخذ بها، أو أنها من النوع المتوقف فيه الذي لا يقطع بصدقه ولا بكذبه»[2]. غير أن ابن كثير ـ رحمه الله ـ راوي هذا الحديث روى هذا الحديث عن الإمام أحمد كما سترى وذكر أن الترمذي رواه وقال: حسن غريب، كما ذكر أن الحاكم قال في هذا الحديث: هو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ثم إن ابن كثير ـ رحمه الله ـ لم يقطع بضعف هذا الحديث بل ضُعْفُه عنده احتمالي، وبهذا الظاهر أخذ تلاميذ ابن عباس كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومن بعدهم ابن أبي حاتم في تفسيره.

وإليك الأحاديث كما ذكرها ابن كثير: قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: **«لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سَمِّيه عبد الحرث فإنه يعيش فسموه عبد الحرث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان**

---

(١) انظر: تيسير التحرير على كتاب التحرير لأمير بادشاه (٣/ ٧١ ـ ٧٤) وإرشاد الفحول للشوكاني ص(٥٦، ٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٤).

وأمره»[١] وهكذا رواه بنحوه ابن جرير , الطبري عن محمد بن بشار بندار(*) عن عبدالصمد بن عبدالوارث به[٢] ورواه الترمذي في تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبدالصمد به وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم[٣] ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبدالصمد مرفوعاً، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي[٤] ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً[٥] . . . .[٦].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿فلما ءاتىٰهما صالحا جعلا له شركاء فيما ءاتىٰهما﴾.

قال الله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشّىٰها﴾ آدم، حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن له قرني أيِّل[٧] فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن ـ يخوفهما ـ؛ سمِّياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٥/١١).
(٢) تفسير الطبري (٩/١٤٦).
(٣) سنن الترمذي (٥/٢٦٧).
(٤) المستدرك للحاكم (٢/٥٤٥).
(٥) تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق الشيخ حمد بن أبي بكر (٢/٧٢٤).
(٦) تفسير ابن كثير (٢/٢٧٤).
(*) بندار: في الأصل من في يده القانون، وهو في الأصل ديوان الخراج، وإنما قيل بندار لأنه كان بنداراً في الحديث.
(٧) (الأيِّل)؛ بفتح الهمزة وكسر الياء مشددة ـ ذكر الأوعال، والوعل: تيس الجبل.

ميتاً، ثم حملت، يعني: الثانية، فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن ولأفعلن ـ يخوفهما ـ؛ فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما، فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جعلا له شركاء فيما ءاتىهما﴾[1] والذي يهمنا الآن تأويل هذه الآية على فرض أن الضمائر لآدم وحواء بما يتلاءم مع مكانتهما.

وقد تولى الفخر الرازي في تفسيره الجواب عن ذلك وإن كان لا يميل إليه بل يميل كغالب المفسرين الذين ينظرون في المأثور فلا يأخذونه على إطلاقه بل يجيزون منه ما لا يتصادم مع معلوم من الدين بالضرورة، وما لا يؤدي إلى خدش عصمة نبي، وما يدرأ وقوع الشبهة ممن يستبعد منه وقوعها.

قال الفخر الرازي: «أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم ـ عليه السلام ـ وعلى هذا التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه:

أولاً: أن المشركين كانوا يقولون: إن آدم ـ عليه السلام ـ كان يعبد الأصنام، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها؛ فذكر تعالى قصة آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وحكى عنهما أنهما قالا: ﴿لئن ءاتيتنا صلحا لنكونن من الشاكرين﴾ أي: ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولداً سوياً صالحاً لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: ﴿فلما ءاتىهما صالحا جعلا له شركاء﴾ فقوله: ﴿جعلا له شركاء﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد، والتقدير: فلما آتاهما صالحا أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟

---

(١) انظر: كتاب تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم، رسالة ماجستير مقدمة من الأخ الزميل / حمد بن أحمد بن أبي بكر. وقد حكم على سند الحديث بالصحة، وقال: وهو صحيح الإسناد، انظر (٧٣٥/٢) وذلك بعد دراسته لرجال الإسناد.

ثم قال: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أي: تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم ـ عليه السلام ـ ونظيره أن ينعم رجل إلى رجل بوجوه كثيرة من الإنعام، ثم يقال لذلك المنعِم: إن ذلك المنعَم عليه يقصد ذمك وإيصال الشر إليك، فيقول ذلك المنعم: فعلت في حق فلان كذا، وأحسنت إليه بكذا وكذا، وأحسنت إليه بكذا وكذا، ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة والبغي؟ على التبعيد. فكذلك هنا.

ثانياً: في الجواب أن نقول: إن هذه القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء ولا إشكال في شيء من ألفاظها إلى قوله: ﴿فلمآءاتىٰهما صالحا جعلا له شركـاء فيما ءاتـىٰهما﴾ فنقول: التقدير: فلما آتاهما ولداً صالحاً سوياً جعلا له شركاء أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذا فيما آتاهما، أي: فيما آتى أولادهما، ونظيره قوله: ﴿واسأل القرية﴾ أي: واسأل أهل القرية.

فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: ﴿جعلا له شركـاء﴾؟ قلنا: لأن أولادهم قسمان ذكر وأنثى فقوله: ﴿جعلا﴾ المراد منه الذكر والأنثى؛ مرة عبَّر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبَّر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله تعالى: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾.

ثالثـاً: في الجـواب سلمنا أن الضمير في قوله: ﴿جعلا له شركاء فيما ءاتـىٰهما﴾ عائد إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الـولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق ثم بدا لهما في ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته، وهذا العمل وإن كان منهما قربة وطاعة إلا أن حسنـات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا قال تعالى: ﴿فتعالى الله عما

يشركون﴾ والمراد من هذه الآية ما نقل عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال فيما يرويه عن ربه ـ جل وعلا ـ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1] وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل.

رابعاً: في التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة إلا أنّا نقول: إنهم سموا بعبد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث، وقد يسمى المنعَم عليه عبدًا للمنعِم؛ يقال في المثل: أنا عبد من تعلمت منه حرفا. ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان كتابه: عبد وده فلان. فآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيهاً على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح في كونه عبدا لله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه»[2].

وأضيف: إن آدم وحواء على فرض صحة أو قبول الحديث الذي تحمل الآية بمقتضاه عليهما لم يعلما أن الناصح لهما هو إبليس ـ لعنه الله ـ ومما يقوى ذلك عندي استبعاد مطاوعة آدم وحواء لإبليس فيما يشير به عليهما بعدما تسبب في إخراجهما من الجنة وإيقاعهما في المعصية وإهباطهما إلى الأرض حيث التكليف الشاق، وغلبة الشهوات والأهواء على بنيهما من بعدهما. أضف إلى ذلك معاناتهما في كسب حاجاتهما المعيشية بكدٍ ومشقةٍ، ولعلهما تصورا أن الناصح لهما ملك كريم.

كما أنهما لم يدر بخلدهما أن الله سيعاتبهما على تسمية ولدهما بعبد الحرث، ولو مرَّ بقلوبهما هذا الخاطر ما أقدما على تلك التسمية بحال، وإنما أراد الله ذلك

---

(١) صحيح مسلم، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩) تصحيح وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) تفسير الرازي، (١٥/ ٨٨).

ليعلم الإنسـان ضعفه باستمرار، وليشدد الحراسة على نفسه من عدوه المبين إبليس اللعـين؛ فإنه كثير ما يلبس ثوب الناصح المجتهد في النصيحة ليقود الإنسان بذلك إلى مزالق خفية، ولا يفطن لضررها وخطرها إلا بعد الوقوع فيها.

وبهذا نبرِّيء السلف الصالح من رواية ما لا يصح، ونبريء أئمة التفسير الذين قالوا بهذا الرأي من الزلل أو القول بها يخدش عصمة آدم ـ عليه السلام ـ فضلاً عما يخدش عصمة سائر الأنبياء، ولا يبعد عندي أن تكون هذه الحادثة قد وقعت قبل نبوة آدم ـ عليه السلام ـ.

وقد قص القرآن وقوع بعض الزلات من بعض الأنبياء قبل النبوة، كقوله تعالى في قتل موسى للمصري الذي اقتتل مع أحد بني إسرائيل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾(١).

فلا يبعد أن يكون عمل آدم وحواء قد حصل قبل النبوة من قبيل ما حصل من موسى ـ عليه السلام ـ كما ذكر في هاتين الآيتين السالفتين، ولا أريد أن أخوض في موضوع عصمة الأنبياء قبل النبوة وما فيه من آراء لأن ذلك يبعدني عن موضوعي الذي أعالجه.

كما أني لا أنكر تأويل الجمهور لهاتين الآيتين وما يشاكلهما، وإنما

---

(١) سورة القصص: الآيات من (١٤) إلى (١٦).

استأنست بما ذكر فيها للدفاع عما وقع من آدم وحواء عند مَن روَوا الحديث السابق وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿فلما ءاتىهما صالحا جعلا له شركاء فيما ءاتىهما﴾.

وإن كان يعجبني تأويل الفخر لهاتين الآيتين، وصرف الضمائر فيها عن آدم وحواء، وهو مسلك أغلب المفسرين الذين لا يعوِّلون كثيراً على المأثور كالبيضاوي والنسفي والزمخشري وأبي السعود والألوسي، والقفال والجمل وكثيرين ممن شرفهم الله ـ تعالى ـ بتفسير كتابه، ومحاولة الكشف عن أسراره، وحمل الآيات المشكلة فيه على ما هو اللائق بتفسيره، ودفع ما يوهمه ظاهرها بالنصوص القوية التي تحمل على العدول عن هذه الظاهر كمحاولتهم ـ رضي الله عنهم ـ في هاتين الآيتين من خبر آدم ـ عليه السلام ـ.

وإليك ما ذكره الفخر أيضاً نقلاً عن القفال تأييداً لما يعجبني ولما أرتضيه من غير إنكار للحديث السالف لأنه قد روي مرفوعاً، ولأن الحاكم حكم بصحته، ولأن الترمذي حسَّنه، ولا يعني ما يعجبني رفض ما يقابله؛ قال القفال: «إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام»[1]. والله أعلم.

(١) انظر: الفخر الرازي (١٥/٨٦).

الفصل الثاني

الصراع بين

نوح - عليه السلام - وقومه

الفصل الثاني
الصراع بين ـ نوح عليه السلام ـ وبين قومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين لدعوة نوح .

المبحث الثالث: موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين والمعاندين :

أولا : دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه .

ثانيا : مصير الكافرين المعاندين .

مقدمة :

مَرَّ علينا في الفصل الأول من هذا البحث صراع آدم وزوجته مع إبليس إلى أن أُهبطا إلى الأرض؛ حيث نبَّه ـ جل وعلا ـ عباده محذراً إياهم من عداوة إبليس ووقوفه حجر عثرةٍ في كل طريق يوصِّلهم إلى خالقهم ـ عز وجل ـ.

قال تعالى على لسان إبليس: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[١] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[٢]. . . . إلى آخر تلك الآيات الموضحة لعداوة إبليس لبني آدم، والتي صورتها تلك التجربة التي مَرَّ بها آدم وزوجه، وعلى ضوئها نعرف حاجة الإنسان رغم تميزه بالعقل والإدراك إلى رسالة الله التي نوهت عنها السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٣].

وستتعرض السورة الكريمة لذكر قصص جملة من الرسل وهم: «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وختمت السورة بالحديث عن خاتم الأنبياء والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ».

وفي ذكر تلك القصص من الفوائد العظيمة ما أشار إليها الرازي ـ رحمه الله ـ بقوله:

أولاً: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيِّنات ليس من خواص قوم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل هذه العادة المذمومة

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦، ١٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٥).

كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم، وحكاية إصرارهم على الجهل والعناد، يفيد تسلية الرسول ـ عليه السلام ـ وتخفيف ذلك على قلبه.

ثانياً: إنه ـ تعالى ـ يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا، والخسارة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين.

ثالثاً: التنبيه على أنه ـ تعالى ـ وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم على أكمل الوجوه.

رابعاً: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة ـ محمد عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه ـ عليه السلام ـ كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً، فإذاً ذكرُ هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحة[1] نبوته[2].

*** والخلاصة:**

إن الله أرسل الرسل إلى الأمم، فكان منهم المعارض المنكر لهم ومنهم المؤمن المطيع: «وهذا الموقف المتنوع هو قانون الحياة البشرية في صراع الإنسان مع الشيطان وفي عداوة الشيطان للإنسان، فعلى عهد كل رسول أرسل برسالة الله كان المؤمن والكافر، وكان المهتدي والضال، وكان المتقي والمصلح، والمستكبر والمتبع لغواية الشيطان»[3] وكل ذلك تحت تأثير ضغط الشهوات،

---

(١) قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ سورة يوسف: الآية (١١١).

(٢) تفسير الرازي (١٤/١٤٦).

(٣) البهي، محمد، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ـ تفسير سورة الأعراف. الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٠هـ)، ص٤٤.

محاولاً أن يرضي حقده وأن ينفذ وعيده، وأن يمضي ببني آدم من حطام هذه الشهوات إلى جهنم.

ولكن دعوة الأنبياء التي مَنَّ الله بها على عباده ببعثتهم على مَرِّ الدهور، تلوح بالنور، وتحذر من لفحات الشرور، ونزعات الشيطان الغرور، في صراع عجيب تنبئنا به سورة الأعراف منذ فجر تاريخ البشرية إلى أن تختم بذكر خاتم الأنبياء والرسل أجمعين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

المبحث الأول

دعوة نوح[1] ـ عليه السلام ـ لقومه
مع شرح موجز للآيات

لقد مكث الناس يعبدون الله الواحد القهار بعد موت آدم ـ عليه السلام ـ طوال عشرة قرون كما جاء بذلك الخبر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، وقد أقره الذهبي على تصحيحه[2].

وبعد تلك القرون الصالحة، وتباعد الأزمان، لجأ الناسُ إلى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة تعبد من دون الله، وكان سبب ذلك ما أشار إليه حبر الأمة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[3] قال: هذه

---

(١) نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس عليه السلام ـ بن يرد بن مهلا ييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية الطبعة الثانية، (بيروت: مكتبة المعارف، د.ت) ١/١٠٠.

(٢) المستدرك للحاكم (٢/٥٤٦).

(٣) سورة نوح: الآية (٢٣).

أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد. حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت[1] وقد أوجزت سورة الأعراف قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه التي تناولتها سور أخرى بنوع من التفصيل، والتي أفرد القرآن لها سورة خاصة باسم: سورة نوح ـ عليه السلام ـ.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[2].

أقسم تعالى على أنه أرسل نوحاً رسولاً إلى قومه؛ لأن مشركي مكة لما أنكروا نبوة سيدنا محمد ﷺ كانوا بذلك منكرين لرسالة نوح وما بعده من الرسل ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ فاقتضى الأسلوب أن يصدر الكلام عن إرسال نوح إلى قومه بأسلوب القسم لأجل ذلك، وذكر هنا جنابه تعالى بنون العظمة ليبين أن هذا الإرسال منه تعالى ليس ناشئاً عن اضطرار أو حاجة إلى الخلق ـ تعالى عن ذلك وتعاظم ـ بل سببه رحمته بخلقه وعنايته بهم، ولإخراجهم من الظلمات التي أوقعهم فيها الشيطان بغوايته ـ كما توعدهم عندما امتنع عن السجود لأبيهم آدم ـ عليه السلام ـ إلى نوره وهدايته.

ومعنى ﴿أرسلنا﴾ أي: بعثنا نوحاً إلى قومه بدين وشريعة ذات تكاليف يبلغها لقومه، كما قال تعالى على لسانه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾[3] ونص تعالى على إرساله لقومه لأنهم أعرف بأحواله وأخلاقه وتميزه بينهم بالصدق

---

(١) صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (١٠/٢٩٥) جزء من حديث طويل في باب: (وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق) كتاب التفسير ـ سورة نوح ـ.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٢).

والطهارة، مما يحملهم على إجابته إلى ما دعاهم إليه وتصديقه فيما جاءهم به، ومع ذلك عاندوا وكذبوا وفعلوا غير المرجو منهم. وإن من سنن الله ـ تعالى ـ أن يبعث كل رسول من قومه غالباً؛ فإن لم يكن منهم فلابد وأن يتكلم بلسانهم، وسيمر بك في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[1] وقوله عز وجل: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[3] وإنما قلت: غالباً؛ لأن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ليسا من قوم فرعون، ومع ذلك فقد رُبِّيَ موسى في مصر، ولم يفارقهم إلى مدين إلا بعد علمه التام بأحوالهم فكأنه بذلك منهم، كما أن رسالته لم تكن لفرعون وقومه خاصة، بل كانت أيضاً لقوم موسى ـ بني إسرائيل ـ واحترازاً أيضا من إرسال شعيب ـ عليه السلام ـ إلى أصحاب الأيكة، فإنه تعالى قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[4] بينما قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[5]

ولذا فهم كثير من المفسرين أن أصحاب الأيكة قوم آخرون غير أهل مدين مجاورون لهم[6] ولا يطعن فيما قررته لأن إرسال نبي إلى قوم ما يصيرهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٤) سورة الشعراء: الآيتان (١٧٦، ١٧٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٦) انظر إلى الخلاف في أصحاب الأيكة، محمد، الصادق المنا. نبي الله شعيب على ضوء الكتاب والسنة. رسالة ماجستير مقدمه لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بإشراف فضيلة الدكتور/ مسعد عبد المعطي الحفني النبراوي، ص٨٧-٩٧.

قوماً له باعتبار أنهم مجال لدعوته وإن لم يكن منهم نسباً.

وألفت نظر القارىء الكريم بأنني سوف أوضح أوجه دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه عند بياني لموقف نوح ـ عليه السلام ـ من قومه لحسن مناسبتها هناك في المبحث الثالث من هذا الفصل.

ومعلوم أنه كثير ما يستعمل القرآن الكريم كلمة (الملأ) في قصصه مع الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وما جرى لهم مع أقوامهم، فمن الملأ؟

الملأ: هم أشراف القوم ووجهاؤهم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يُرجَع إلى قولهم[1] فهم إذاً البارزون في المجتمع وأصحاب النفوذ فيه، الذين يعتبرهم الناس أشرافاً وسادة، وإليهم تسند قيادة المجتمع والزعامة والرئاسة فيه، ويلاحظ أن الوصف الغالب على الملأ من كل قوم معاداتهم للدعوة إلى الله ـ تعالى ـ، فقد تصدوا لدعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وقادوا حملة الكذب والافتراء والتضليل ضد أنبياء الله ـ تعالى ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2].

فالملأ هم هؤلاء المترفون، أولو القوة والحشمة والثروة والترف والرئاسة، وقادة الناس في الشر، وقد أنكروا ما جاءت به الأنبياء من عند الله ـ عز وجل ـ وغرَّتهم كثرة أموالهم وأولادهم وأتباعهم وما وصلوا إليه من الرئاسة .... إلخ.

وسأستعرض بإيجاز موقف الملأ من الرسل ـ عليهم أفضل الصلاة وأتم

---

(١) انظر: لسان العرب (١/١٥٩)؛ وانظر أيضاً: القرطبي (٣/٢٣٤)؛ وابن كثير (٢/٢٢٣).

(٢) سورة سبأ: الآيتان (٣٤، ٣٥).

التسليم - حسب ما جاءت به الآيات الكريمة في سورة الأعراف.

فيقول ملأ قوم نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(١)].

ويقول الملأ من قوم عاد لنبيهم هود - عليه السلام - ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٢)]

وقال ملأ ثمود لنبيهم صالح - عليه السلام -: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[(٣)].

وقول ملأ شعيب له - عليه السلام -: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[(٤)].

وقول الملأ من قوم فرعون لفرعون في شأن موسى وقومه لما غلبهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[(٥)].

وقول الملأ من قريش - في سورة ص - حين عجبت من إرسال النبي ﷺ بالتوحيد والهدى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٠).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٦).
(٣) سورة الأعراف: الآيتانة (٧٥، ٧٦).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٨).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ ﴾[1].

وقد كرر القرآن ذكر الملأ في سور كثيرة ليبين بذلك أن الملأ في كل أمة هم سبب شقاوتها وحجب النور والهداية عنها، وأن عامة الناس لو خلوا وطبعهم وما فطروا عليه لآمنوا بالرسل أول ما جاءوهم، وما كان هذا التكذيب والعناد اللذين وجه بهما الرسل جميعاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أقوامهم، فلا غرابة إذن أن يقول الملأ من قوم نوح ـ عليه السلام ـ بأسلوب مؤكد بأن واللام: ﴿إنا لنراك في ضلـل مبين﴾ أي: غارق فيه، وهذا أمر بين: وإنا لنعتقدك كذلك، فكيف يتسنى وأنت بهذا الوصف أن نقبل منك ما تدعونا إليه؟ والغرض من هذه الآية التوصل إلى نفي رسالته ـ عليه السلام ـ. والتي لو اعترفوا له بها لكانوا في نظر أنفسهم معاندين مكابرين. فالأمم كلها من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد نبينا محمد ﷺ لا تنكر أن يأتيها من الله رسول، وإنما استبعدوا أن يكون الرسول بشراً منهم، وأن يختص من بينهم بذلك، وقوله تعالى: ﴿ إنا لنراك في ضلـل مبين﴾ هو إجمال لأسباب الصراع بين نوح وقومه وعدم إصغائهم له وقبولهم لما جاء به.

---

(١) سورة ص: الآيات من (٦) إلى (٨).

المبحث الثاني

أسباب الصراع بين نوح وقومه

تنبيه وتمهيد:

إن الآيات الكريمة التي بين يديّ من سورة الأعراف والتي تذكر قصة نوح ـ عليه السلام ـ لم تذكر كل أسباب الصراع التي اعتمد عليها قومه في إنكار رسالته والتكذيب بنبوته، بل عرضت هذه السورة ـ الأعراف ـ لسبب واحد من هذه الأسباب وهو بشرية نوح ـ عليه السلام ـ التي لا تؤهله للرسالة في نظرهم لتساويهم وإيّاه فيها، وقد تعرضت لهذا السبب في قوله تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾(١)... الآية، وسأستوفي تفسيرها عند تناولها بالبحث، لأجل ذلك استوفيت أسباب الصراع بين نوح وقومه من سورتي هود، والمؤمنون لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولأن ما يجمله في مكان يبسطه في مكان آخر، وهو في الإجمال والبسط في أعلى درجات الفصاحة، بحيث يأسرك إجماله وتفصيله، وذلك سرٌ من إعجازه كما هو مبسوط في مباحث الإعجاز.

لقد بَيَّنت سورتا هود والمؤمنون أسباب هذا الصراع بوضوح وجلاء، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾[٢].

ففي هاتين الآيتين: بنوا صراعهم معه وتكذيبهم له على أمور خمسة:

أولا: كونه بشرا مثلهم:

فلماذا فاتهم ما أتاه؟ وهذا جهل منهم وضلال بَيِّن لأن الواقع المحسوس يقول بالتفاوت بين البشر في القوى العقلية والقوى البدنية وفي الأخلاق؛ فالتساوي في البشرية لا يعني أن ما يصلح له إنسان يصلح له آخر؛ ولهذا جاء هذا الأساس الأول مؤكدا بـ«ما» و«إلا» ﴿ما نراك إلا بشرا﴾ إمعاناً منهم في تكذيب نبيهم نوح ـ عليه السلام ـ في دعوى الرسالة.

ثانيا: كبرُ الملأ ـ استعلاؤهم ـ:

أ ـ **قال تعالى:** ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ فلقد علل الملأ من قوم نوح امتناعهم عن اتباع نوح ـ عليه السلام ـ بسبب متابعة ضعفائهم له الذين أسموهم الأراذل أي: الضعفاء الجهلاء الذين لا عقل لهم ولا علم ولا شرف ولا رئاسة ولا مال،. وقد أكَّدوا ذلك أيضاً بـ «ما» و«إلا» إمعاناً في إظهار صوابهم وخطأ المتبعين لنوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي: لأول وهلة بلا تفكير ولا روية؛ من بدا يبدو بمعنى

---

(١) سورة هود: الآية (٢٧).

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان (٢٤، ٢٥).

ظهر، أو من: بدأ الشيء بمعنى أنه فعله أول ما طلب منه بلا تعقل[١].

ب ـ **قوله:** ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ يريدون نوحاً ومن اتبعه، وجيء بـ «من» في سياق النفي بقصد نفي أي فضل لنوح ومتبعيه على أولئك المكذبين المستكبرين، وهذا وقع منهم بسبب الغشاوة التي طمست قلوبهم وأعمت بصائرهم عن الحق، ونتيجة للكبر الذي جعلهم يقلبون الحقائق ويأنفون عن الحق بحجة أن الأراذل اتبعوه، وفاتهم أن الحق في نفسه يبقى حقاً سواء اتبعه الضعفاء والفقراء أو القادة والرؤساء، وأن أتباع الحق في الحقيقة هم الأشراف ولو كانوا فقراء، وأن الأراذل في الحقيقة هم المعاندون المخالفون للحق وإن كانوا في أعين الناس من الأشراف.

ثالثا: تكذيب نبيهم نوح وأتباعه من المؤمنين:

.ولقد توصلوا بالأساسين السابقين إلى الأساس الثالث في صراعهم وصدهم عن دعوة نبيهم نوح ـ عليه السلام ـ وهو قوله تعالى: ﴿بل نظنكم كذبين﴾[٢] أي: وهذا يكفينا في ترك متابعتكم، يعنون نوحاً وقومه.

وفي آية المؤمنون نرى الملأ يذكرون الأساس الأول في آية هود إلا أنهم لما استشعروا ضعفهم بذكر هذا السبب لأن البشر ـ كما قلت سلفاً هم في الواقع متفاوتون في القوى الحسية والمعنوية، فأضافوا أن نوحاً ـ عليه السلام ـ افتعل ذلك بقصد الرئاسة والسيطرة ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾[٣] والفرق بين «ما» هنا و«ما» في آية هود أن

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٢٧).

(٢) سورة هود: الآية (٢٧).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).

الملأ في آية هود كانوا يخاطبون نوحاً بذلك لعلهم يستطيعون صرفه عما جاءهم به، فيربحون أنفسهم وقومهم، أما في آية المؤمنون فإن الملأ يتوجهون بذلك إلى قومهم مباشرة لما وجدوا أن بعضهم قد اتبعوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدخل الملأ إلى قومهم من أمر يثير الغضب الذي يطغى على العقل مما يحجب إدراك الحق وحجته، وهو اتهام نوح ـ عليه السلام ـ بأنه ما جاء لهدايتهم كما يزعم بل قصد بما يدعيه التفضل عليهم والتميز بينهم.

رابعاً: الملائكة في نظرهم أولى بالرسالة:

ثم زادت آية المؤمنون أمراً رابعاً من أسباب الصراع وهو قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملـٰئكة﴾ فإن الملائكة في نظرهم هم أولى بالرسالة من البشر، وهـذا جهل منهم لأن الملائكة لو جاءوهم على صورهم الحقيقية ما أطاقوا رؤيتهم فضلاً عن أن يسمعوا منهم، والأقرب أن يأتيهم رسول منهم مزود بقوى روحية وبدنية، تؤهله لتلقي الوحي من ربه مباشرة بالمكالمة من وراء حجاب، أو بالإلهام الذي يقذفه الله في قلبه، أو بتلقيه عن الملك الذي يأتيه عن ربه، وهو في نفس الوقت مطاق لقومه حين يبلغهم عن ربه ما أرسل به، فلا تتبدد قواهم عند رؤيته.

فأما إذا بعث الله إليهم الملائكة: فإما أن يكونوا بشراً مثلهم حتى يسهل الأخذ عنهم، وحينئذ يشتبه الأمر على المرسل إليهم، فلا يصدقون أن رسولهم الذي أرسل إليهم ملك من الملائكة لأنه في صورة بشرية، وإما أن يرسلوا إليهم على حقائقهم ـ أي: الملائكة ـ وحينئذ لا يأتونهم إلا بالعذاب الأليم(١).

ولقد تذرعت الأمم قاطبة بهذه الذريعة لإبطال دعوة الرسل؛ فنرى قريشاً وبينهم وبين قوم نوح قرون وقرون يعارضون خاتم الرسل بنفس

(١) ﴿ولو أنزلنا ملكًا لقُضي الأمرُ﴾ أي: لقضي أمر هلاكهم.

المعـارضة، ويحتجون لإبطال دعوته بنفس الحجة، وقد تولى الله ذكرها والرد عليها في سورتي الأنعام والإسراء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾[1].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ و(لولا) بمعنى: هلا ﴿ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر﴾ قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته. . . . . قال الحسن وقتادة: لأهلكوا بعذاب الاستئصال؛ لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية فظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحال.

﴿ثم لا ينظرون﴾ أي: لا يمهلون ولا يؤخرون.

وقوله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ أي: لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسّم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ـ تعالى ـ الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامـه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم.

وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر؛ فأتوا إبراهيم ولوطاً ـ عليهما السلام ـ في صورة الآدميين، وأتى جبريل ـ عليه السلام ـ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صورة دحية الكلبي. أي: لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه، فإذا جعلناه رجلاً التبس عليهم

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٨، ٩).

فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك. وقوله: ﴿وللبسنا عليهم﴾ اللبس الخلط يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبساً أي خلطته، أي: لو أنزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون، وقال: ﴿لبسنا﴾ بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال: ﴿ما يلبسون﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب»[١].

وقال تعالى في سورة الإسراء[٢]: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ؟﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟﴾[٤] الآية.

وقال فرعون وملاؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٥] وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[٦] والآيات في هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه؛ لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه... ولهذا قال

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٦/٣٩٣، ٣٩٤).
(٢) سورة الإسراء: الآيتان (٩٤، ٩٥).
(٣) سورة يونس: الآية (٢).
(٤) سورة التغابن: الآية (٦).
(٥) سورة المؤمنون: الآية (٤٧).
(٦) سورة إبراهيم: الآية (١٠).

هٰهنا: ﴿قل لو كان في الأرض ملٰئكة يمشون مطمئنين﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ أي: من جنسهم ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة(١).

خامسا: دعواهم أن ما جاءهم به نوح - عليه السلام - لم يسمعوا به في آبائهم الأولين:

ولـو كان ما جاءهم به معروفاً في أسلافهم لتناقلوه، قال تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾(٢) وهذا القول إما أن يكون قد صدر عنهم في أول الدعوة، فالمراد بآبـائهم الأولـين أي: الذين مضوا قبلهم على عبادة الأصنام، أو أنهم كانوا يعلمون أن آباءهم الأولين بين آدم ونوح كان أكثرهم موحداً، لكنهم جحدوا ذلك تكذيباً وعنادًا، فقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام(٣) وإما أن يكون هذا الكلام قد قيل قرب هلاك قوم نوح، والخلف هم الذين قالوا ذلك ولا غرابـة فيه فقد لبث نوح في قومه يدعوهم إلى الله - تعالى - ألف سنة إلا خمسين عاماً، بل قد يقوى هذا الرأي بما بعده من الآيات ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾(٤).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤، ٦٥).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).

(٣) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٤٦).

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٥) انظر: تفسير أبي السعود (٥/ ١٣٠، ١٣١).

المبحث الثالث

موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين

أولاً: دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه

ثانيا: مصير الكافرين المعاندين.

أولاً: دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه :

دافع نوح عن نفسه بنفي ما وصفوه به من الضلال المبين، بما قصه الله ـ تعالى ـ في قوله : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[1]. وللألوسي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية كلام نفيس، أنقله لك بشيء من التصرف :

﴿قال يا قوم﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق ﴿ليس بي ضلالة﴾ نفي للضلالة عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه. فإن التاء للمرة ؛ لأن مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحمق يقتضي ذلك، والوحدة المستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق، فيرجع حاصل المعنى : ليس بي أقل قليل من الضلال فضلاً عن الضلال المبين. . . .

وإنما بالغ ـ عليه السلام ـ في النفي لمبالغتهم في الإثبات حيث جعلوه ـ وحاشاه ـ مستقراً في الضلال الواضح كونه ضلالاً .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦١).

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ولـٰكنىٓ رسول من رب العـٰلمين﴾ استدراك على ما قبله رافـع لما يتـوهم منه، وذلك ـ على ما قيل ـ أن القوم لما أثبتوا له الضلال أرادوا به ترك دين الآباء ودعوى الرسالة، فحين نفى الضلال توهم منه أنه على دين آبائه وترك دعوى الرسالة، فوقع الإخبار بأنه رسول وثابت على الصراط المستقيم استـدراكـاً لذلـك. وقيل: هو استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهداية، فإن رسالته من رب العالمين مستلزمة له لا محالة، كأنه قيل: ليس بي شيء من الضلالة لكني في الغاية القصوى من الهداية[1]. اهـ.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة: ﴿ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسـٰلـٰت ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يجد أنها أتت بعد أن نفى سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه أي شكل من أشكال الضلال، وقد وصف نفسه خلالها بأربع صفات كريمة:

أولها: أنه صاحب رسالة:

قال تعالى: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: رسول مرسل لكم من رب العالمين لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من الضلال والبعد عن الحق، وتخليصكم من الشرك والكفر، لكنكم بإصراركم على اتهامي بالضلال كذباً وزوراً تحيلون النعمة إلى نقمة، والرحمة إلى شقوة؛ إذ لو سلَّمتم بكوني رسولاً من رب العالمين لزال عنكم العجب من أمري واتهامي بما ليس فيَّ، وتابعتموني على ما فيه سلامتكم وسعادتكم في دنياكم وفي آخرتكم.

والتنـوين في قوله تعالى: ﴿رسول﴾ مشعر بفخامته وما أوتي من عقل

(١) تفسير الألوسي (٨/ ١٥٠، ١٥١).

وحكمة، والمعنى: ولكني رسول عظيم وأي رسول، ويدل على ذلك قوة حواره مع قومه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾(١) وقوله تعالى على لسان قومه لما ضاقوا بقوة حجته: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾(٢)ومرادهم أن ينزل الله بهم من العذاب. وهم غير جادين في طلب العذاب، ولكنهم تصوروا أن العذاب لايأتيهم، لا سيما وقد طال مكثه بينهم نبياً ورسولاً كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾(٣) فعدم مجيء العذاب مع طول هذه المدة سبّب في اعتقادهم أنهم لا ينزل بهم، ولذا تركوا الرد على الحجة بالحجة، ولجأوا بقصد التعجيز والإمعان في التكذيب، ولذا رد عليهم بما قصه الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿من رب العالمين﴾ فيه تنبيه على رحمته ـ تعالى ـ بهم وإيقاظ للخوف من الله ـ تعالى ـ في قلوبهم، حتى لا يتجرأوا على رسوله نوح ـ عليه السلام ـ فإنهم إذا علموا أنه رسول من رب العالمين؛ الذي خلق العالمين، وتولى تدبيرهم وإيصال النعم إليهم كان ذلك علاجاً لقسوة قلوبهم من ناحية، وإزالة لجرأتهم على رسولهم من ناحية أخرى، وتقريباً لانتقام الله منهم إذا أقاموا على هذا التكذيب بخلاف ما اعتقدوه من بُعد العذاب عنهم.

---

(١) سورة هود: الآية (٢٨).
(٢) سورة هود: الآية (٣٢).
(٣) سورة العنكبوت: الآية (١٤).
(٤) سورة هود: الآية (٣٣).

ثانيها: أنه مبلغ عن الله ما فيه هدايتهم:

قال تعالى: ﴿أبلغكم رسلت ربي﴾ أي: أبلغكم ما أوحاه الله إليَّ من الأوامر والنواهي، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنُذر، والعبادات والمعاملات. وقيل: أي أبلغكم رسالته ورسالات الأنبياء قبله من صحف جده إدريس[١] فهذه نكتة جمع ﴿الرسالات﴾ وإلاَّ فرسالة كل نبي واحدة، وهي مصدر، والأصل أن لا يجمع، فجُمع لما ذُكر، قال الألوسي: «وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبي واحدة رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معاني ما أرسل ـ عليه السلام ـ به من العبادات والمعاملات، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس ـ عليه السلام ـ»[٢].

ثالثها: أنه ناصح يتحرى ما فيه صلاحهم وخيرهم:

قوله تعالى: ﴿وأنصح لكم﴾ مأخوذ من النصح أي: وأقصد صلاحكم بإخلاص، وذلك بتبليغكم جميع تكاليف الله وأتحرى ما فيه صلاحكم وخيركم؛ فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه، وفعل نصح يتعدى إلى مفعوله بنفسه تارة، وتارة أخرى باللام إذا كان المقصود تخصيص الناصح المنصوح بالنصيحة، وأن الناصح قصد بنصيحته شخصاً أو قوماً معينين، ولذلك تعدى ﴿وأنصح لكم﴾ باللام لبيان أن نوحاً ـ عليه السلام ـ قصر نفسه على نصيحة قومه وعلى الاجتهاد لهم بما فيه صلاحهم، ولذا قال: وأنصح لكم، ولم يقل: وأنصحكم، وعبر عن نصيحته لهم بالفعل المضارع ليدل على عظم صبره مع قومه، وأنهم كلما جددوا عناداً جدد لهم نصحاً، واجتهد في ذلك غاية

---

(١) وهذا على الرأي القائل بأن إدريس جد لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد خالف في ذلك ابن العربي. انظر: المسألة في تفسير القرطبي (٧/٢٣٢).

(٢) تفسير الألوسي (٨/١٥٢).

الاجتهاد، ولذلك لم يطلب من الله هلاكهم إلا بعد أن أعلمه الله ـ تعالى ـ أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن.

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾(١).

وقد بين القرآن الكريم أوجه نصح نوح ـ عليه السلام ـ لقومه وسألخصها فيما يلي:

أ ـ بَيَّن لهم أنهم إذا آمنوا بالله وعبدوه حق عبادته، واتقوه حق تقاته، غفر لهم ذنوبهم، وأطال أعمارهم في هذه الدنيا، وكانوا يحبون ذلك حباً جماًّ، وأن أجل الله الذي قدره لهم ـ إذا لم يؤمنوا ـ إذا جاءهم لا يؤخر عنهم إلا بالإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾(٢).

ويلاحظ من أسلوب دعوته ـ عليه السلام ـ استعماله لأسلوب الترغيب، ثم يتبعه بالترهيب لئلا تبقى ناحية إلا أقام بها عليهم الحجة، فبعد أن رغبهم في الإيمان بالله ـ تعالى ـ وأنه سبب في غفران ذنوبهم، وسبب في أمنهم، وبذلك تطول آجالهم، نبّههم إلى ما يحلّ بهم من الندامة والأسف حيث لا ينفع الأسف لو لم يؤمنوا به ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

ب ـ تنوُّع الوسائل والأحوال التي اتخذها في دعوة قومه، فكان لا يفتر عن دعوتهم آناء الليل وأطراف النهار، فلم يزدهم هذا إلا تمادياً في التكذيب

---

(١) سورة هود: الآية (٣٦).

(٢) سورة نوح: الآيتان (٣، ٤).

والكفر وبعداً عن مواجهته، فكان كلما دعاهم ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي: سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامه ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي أنهم غطوا أنفسهم بثيابهم لئلا يشاهدوه، أو يشاهدهم فينصحهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾(١) أي: تمادوا في إصرارهم على الكفر، وتعظموا عن إجابته، وذكرُ المصدر دليلٌ على فرط استكبارهم.

وقد نوَّع نوح ـ عليه السلام ـ طرق دعوته فدعاهم سراً فيما بينه وبينهم، فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة في محافلهم وأماكن تجمعاتهم، فلما لم يستجيبوا ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان و﴿ثُمَّ﴾ تدل على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفرادهما(٢) قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾(٣) ثم رجع ثانياً إلى أسلوب ترغيبهم بما هم حريصون عليه مفرطون في حبه، وهو كثرة الأموال والأولاد فدلّهم على السبب الذي يوصلهم إلى محبوبهم، والذي لا يمكن أن يصلوا إلى مبتغاهم بغيره، فقال تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾(٤) أي: استغفروه من الشرك والكفر، ولا تظنوا أن ذنوبكم ومعاصيكم مهما كثرت تعظم على عفوه ﴿إنه كان غفارا﴾ ثم رتّب

---

(١) سورة نوح: الآية (٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي (٤/٢٩٥).

(٣) سورة نوح: الآيات من (٥) إلى (٩).

(٤) سورة نوح: الآية (١٠).

على هذا السبب نتيجة مما يحبون ويهوون ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪﴾[(١)] أي: تدر عليكم بالخير الوفير والرزق الكثير، والمراد بالسماء المطر ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾[(٢)] أي: كثيرة فوق ما تحبون وتطلبون و﴿وَبَنِينَ﴾ أي: كثيرين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ⑫﴾[(٢)] جارية لسُقيا مزارعكم وبساتينكم، فلا تكونوا مرهونين بنزول المطر أينزل أم لا؟ بل تجدون الماء الوفير لسقيا زروعكم وبساتينكم كلما أردتم.

جـ - لفت أنظارهم إلى النظر في أنفسهم، وإلى النظر في عجائب صنع الله فلقد ذكَّرهم - عليه الصلاة والسلام - بأطوار خلقهم التي مروا بها وهم لا يعلمون عن أنفسهم في هذه الأطوار شيئاً، وأن الله الذي خلقهم في هذه الأطوار هو الحقيق بأن يعبد وأن يعظم لا إله سواه ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭﴾[(٣)] ثم لم يفته - عليه الصلاة والسلام - أن يذكِّرهم بما حولهم من الأكوان العلوية والسفلية وأنها مخلوقة لله وحده، وأن أحداً لم يدَّعِ خلقها، كما أنها لم تخلق بنفسها يقيناً.

فقال تعالى منكراً عليهم تعاميهم عن ذلك، مبيناً أنه لا خالق لهذه الأكوان سواه - جل وعلا -: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ⑮﴾[(٤)] بعضها على بعض، ليست السفلى أساساً للعليا، بل بين كل واحدة وأخرى من المسافات الشاسعة ما لا يعلمه أحد، ومع ذلك لم تسقط سماء على سماء ولا السموات على الأرض.

---

(١) سورة نوح: الآية (١١).

(٢) سورة نوح: الآية (١٢).

(٣) سورة نوح: الآيتان (١٣، ١٤).

(٤) سورة نوح: الآية (١٥).

﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾[1] أي: في بعضهن وهي السماء الأولى، ولا مانع أن يكون في كل سماء أقمار وكواكب وشموس. فسبحان من أحاط بكل شيء علماً.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦﴾[2] أي: مضيئة عظيمة الضياء، بحيث لا يبقى مع ظهورها أي ظلام، ولا يثبت مع ضوئها ضوء يصنعه الإنسان، مما مهد لكم ولغيركم سبيل السعي في هذه الأرض نهاراً بلا كلفة وليلاً إذا أردتم عندما يظهر القمر.

ثم بين لهم أن ربهم الذي يدعوهم إلى عبادته هو الذي خلقهم من الأرض خلقاً عظيماً؛ إذ البون بين التراب، وبين خلقه أبيهم آدم وبين الأغذية التي يأكلونها، وبين النطفة المتوالدة عن تلك الأغذية التي هي أصلهم وأساسهم بعيد غاية البعد، فالذي نقلهم من هذه الأحوال إلى هذا الجمال جدير وحقيق بأن يفرد بالعبادة، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧﴾[3] وذكر اسم المصدر لتتأكد هذه الحقيقة كل التأكيد، ثم لم يفته ـ عليه السلام ـ أن ينبههم إلى مفارقتهم هذه الدنيا التي أحبوها واجتهدوا في امتلاكها وأنهم سيموتون ويعودون إلى باطن الأرض تراباً كحالهم قبل أن يخلقوا في النشأة الأولى، وأنه تعالى مُخرِجهم للحساب من هذه الأرض إخراجاً مؤكداً؛ لا يبقي أحداً في بطنها، ولا ينسى منهم أحدًا ولا من غيرهم؛ إذ القلة والكثرة في قدرة الله سواء ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ١٨﴾[4].

ثم لم يفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبين لهم تذليل الله لهم هذه

(١، ٢) سورة نوح: الآية (١٦).

(٣) سورة نوح: الآية (١٧).

(٤) سورة نوح: الآية (١٨).

الأرض وجعلها كالبساط يتقلبون عليها، يبتغون رزق الله ـ تعالى ـ بلا مشقة، وكان بوسعه ـ تعالى ـ أن يجعلها على غير هذه الهيئة فيعجزوا عن الضرب فيها وأخـذ حاجتهم منهـا ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: طرقاً واسعة يصلون منها إلى ما يريدون. ومع هذا الاجتهاد في النصح ومع العمر الطويل الذي قضاه بينهم ـ وقد ذكرته قبل ذلك[١] ـ أمعنوا في العصيان والإصرار على الكفر والطغيان.

وهنـاك وسائل أخرى وحجج قيمة بسطها نوح ـ عليه السلام ـ لقومه تركتُها تجنباً للإطالة، واكتفيتُ بما ذكرته لأُبينِّ به سرَّ التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وأنصح لكم﴾. وإنه لصراع مرير بين الحقِ والباطل؛ الحق يبسطه نوح ـ عليه السلام ـ ويجتهد غاية الاجتهاد في بسطه لقومه، والباطل يتشبث به قوم نوح ـ عليه السلام ـ غاية التشبث مع ظهور بطلانه، وستظهر نتيجة هذا الصراع قريباً بإذن الله.

رابعها: أنه خص من بينهم بإحاطته بعلوم غيبية لا يعلمونها:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[٢] أي: أبـلغـكـم رسالات ربي وأنصح لكم عن إخلاص، وأعلم في الوقت نفسه من الأمور الغيبية التي لا تُعَلم إلا عن طريق الوحي أشياءً لا علم لكم بها لأن الله قد خصني بها، فحق عليكم أن تتبعوني؛ لأن الله وكَّل إليّ إصلاحكم، وأرسلني لما فيه خيركم في دنياكم وآخرتكم.

أو المعنى: «وأعلم من قدرة الله الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه ما لا

(١) قال تعالى: ﴿فلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا﴾ سورة العنكبوت: الآية (١٤). انظر: ص (٢٢٠) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٢).

تعلمـــونـــه. فأنـــا أحـــذّركم عن علم، وأنـــذركم عن بينـة ﴿فـاتقـوا الله وأطيعون﴾»[1]. وبعد أن وصف نفسه بتلك الصفات الأربع وبين لهم حقيقته ومهمته التي بُعث من أجلها ندد عليهم إنكارهم أن يخصه الله بالرسالة من بينهم:

قال تعـالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2].

وهذه الآية الكريمة ذكرت أحد أهم أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم؟ أي: عجبتم أن جاءكم ذكر. والعجب: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده[3].

﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ والـذكـر هو الـوحي الـذي جاءهم به لهدايتهم ولإنقـاذهم من الضـلال إلى الهـدى ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ المقصود به نوح ـ عليه السلام ـ أي: على يد رجل منكم، فهو مبني على مضاف محذوف كقوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[4] أي: على ألسنتهم وما أخبروا به مما أوحيته إليهم.

﴿مِّنكُمْ﴾ تعرفونه حق المعرفة، تعرفون نسبه وخلقه، وتفهمون نطقه،

---

(١) الخازن (٢/١٠٧) وانظر: تفسير الرازي (١٤/١٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

(٣) لسان العرب (١/٥٨٠) انظر: أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه، وهي في الحقيقة تعتبر الوجوه التي من أجلها تعجب قوم نوح من إرسال نبيهم إليهم. انظر: من ص (٨٢) إلى ص (٨٩) من بحثنا هذا.

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٩٤).

وتدركون طهارته وصدقه وأمانته.

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ من العـذاب إن لم تؤمنـوا، وليحذركم من عاقبة الكفر والمعـاصي ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ ولتحصـل منكم التقـوى وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[١] أي: ترحمون بالتقوى إن وجدت منكم.. وهذا الترتيب في غاية الحسن فإن المقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة[٢] وهذا هو القصد من بعثة الرسل؛ التقوى والفوز بالرحمة. والواو في قوله: ﴿ولعلكم ترحمون﴾ عطف على العلة الثانية، مترتبة عليها، أي: ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم، وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة الطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة بل هي منوطة بفضل الله، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله - عز وجل -[٣].

ثانيا: مصير الكافرين المعاندين من قوم نوح:

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٤].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: استمروا على تكذيبه وعناده مع طول مكثه بينهم، وأنهم كانـوا يفتعلون التكـذيب، ويجتهـدون في محاولـة جمع ما يكـذبـونه به لسقوطهم أمام حجته القوية، وأنهم ليعلمون من أنفسهم أنهم يكذبون على أنفسهم بتكذيبه وأنه صادق أمين، ولكن عنادهم حملهم على هذا التكذيب

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).
(٢) انظر: الفخر (١٤/١٥٣).
(٣) .تفسير أبي السعود (٣/٢٣٦).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

حتى إن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان يستغيث ربه بنصرته عليهم لما يعانيه من مرارة تكذيبهم له، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾[1] أي: أبدلني بتكذيبهم إياي سلوة النصر عليهم.

وقد طوت سورة الأعراف ما عوقبوا به من العذاب ومقدمات ذلك، ونجاة نوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه وكيف كانت. ونجدها مفصلة في سورة هود والمؤمنون والقمر، وسأكتفي بإلقاء الضوء على بعض آيات تلك السور التي صوّرت نجاة نوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه. والله ولي التوفيق والملهم للصواب.

فقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فأنجينـه والذين معه في الفلك﴾ هو بيان لإكرام الله ـ تعالى ـ له ولمن آمن من قومه، وكانوا قلّة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[2] وتقديم ذكر الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذان بسبق الرحمة التي هي مقتضى الذات الإلهية[3] وقوله تعالى: ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآيـتنا﴾ هو بيان لما عوقب به قوم نوح من العذاب مع ذكر السبب الذي استحقوا به هذا العذاب وهو التكذيب بآيات الله ـ تعالى ـ واستمرار تعاميهم عن الحق مع ظهوره.

قال تعالى: ﴿إنهم كانوا قوما عمين﴾ أي: عُمي القلوب غير مستبصرين. قال ابن عباس: «عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد»[4] وإن المقام ليستدعي أن أتناول عاقبة هذا الصراع بين نوح وقومه، وكيف انتقم الله تعالى من قوم نوح ـ عليه السلام ـ، وفي الوقت نفسه أحاط

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢٦).

(٢) سورة هود: الآية (٤٠).

(٣، ٤) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٣٧).

المؤمنين بحفظه وعنايته، وأنجاهم في أحلك الظروف وأسوأ الأحوال.

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾(١) والمقصود من هذه الآية تخفيف الأمر على نوح ـ عليه السلام ـ وإراحته من دعوته قومه، وإخباره بأن ما ألح على ربه في طلبه من نصرته عليهم قد آن أوانه؛ فلا تحزن بما يفعلونه معك، فإن أمدهم قصير، وعقابهم عاجل. ثم بين له ما يعمله استعداداً لنجاته ومن آمن معه عند حلول العذاب بقومه، قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بتوفيقنا وحراستنا لما تصنع من أن يناله قومك بإتلاف، وبمرأى منا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بما نوحيه إليك من كيفية صنعها، والهيئة التي تبنى عليها(٢) ولعلمه ـ تعالى ـ بشفقة نوح على قومه مع ما لقيه منهم من صنوف الأذى والتكذيب المستمر، نهاه ـ سبحانه ـ عن أن يخاطبه في قومه الظالمين بشفاعة واستعطاف لأن أمر إهلاكهم مبرم وواقع لا محالة، لا تدرؤه شفاعة نوح ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٣) ويصنع نوح الفلك وهي السفينة العظيمة في أوقات متطاولة؛ روي أنه صنعها من خشب الساج في سنتين، وكلما مر عليه جماعة من قومه ـ وهو يصنع فلكه ـ هزأوا به؛ لأنه كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء مع من آمن به وهم قلة(٤).

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(٥) أي: إن تسخروا منا الآن

(١) سورة هود: الآية (٣٦).
(٢) تفسير الجمل (٢/٣٩٤)؛ وانظر: تفسير النسفي (٢/١٨٧).
(٣) سورة هود: الآية (٣٧).
(٤) انظر: تفسير الجمل (٢/٣٩٦)؛ وانظر: تفسير النسفي (٢/١٨٧).
(٥) سورة هود: الآية (٣٨).

لتصوركم عجزنا عن نقلها إلى الماء فإنا نسخر منكم لا محالة عند حلول العذاب عليكم، كما تسخرون منا عند الصنع ريثما تفجّر الأرض كلها عيوناً، وينهمر ماء السماء ملتقياً بماء الأرض.

ثم أخبرهم بقرب حلول عذاب الله عليهم ونصرة الله له ولمن آمن معه ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي: يهينه ويشقيه؛ نحن أم أنتم؟ والمراد به عذابهم في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1] أي: دائم لا ينفك والمراد به عذاب الآخرة[2] أي: إن الله ـ تعالى ـ بسخطه عليكم قد انتقم منكم بإهلاككم في الدنيا ودوام عذابكم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[3] بيان لاستمرار صنع نوح للسفينة إلى وقت حلول عذابهم، وقوله: ﴿أمرنا﴾ مشعر بالتفخيم تنبيهاً لهول وشدة الموقف، وقوله: ﴿وفار التنور﴾ فعن ابن عباس: «التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماء» وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف[4] وبهذا يجمع بين القولين الواردين في المراد بقوله: ﴿وفار التنور﴾ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[5].

---

(١) سورة هود: الآية (٣٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).
(٣) سورة هود: الآية (٤٠).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).
(٥) سورة القمر: الآيات من (١١) إلى (١٤).

ويفهم من الآية أيضاً ﴿وفار التنور﴾ أي: اشتد الأمر، كما يقال: حمى الوطيس، وقيل: فار تنور الخبز بالماء مع وجود النار فيه فلم ينطفيء بالماء، وكان ذلك علامة لنوح ـ عليه السلام ـ ليستعد لركوب السفينة[1] ولما فار التنور أمر الله ـ جل وعلا ـ نبيه نوحاً ـ عليه السلام ـ أن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع:

الأول:

أشار إليه بقوله: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ الزوج يطلق على الزوجة وحدها وعلى الزوج وحده، والمراد هنا من كل فردين متزاوجين اثنين. فالزوج ما له مشاكل من نوعه ـ أي: اثنان ـ كل منهما زوج للآخر من الحيوانات، وقدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لأنه يحتاج بذل الجهد لتخليصه من الهلاك، أما الإنسان العاقل فهو يدخل إلى الفلك باختياره، أو لأنها تحمل بمباشرة البشر وهم إنما يدخلونها بعد حملهم إياها[2].

الثاني:

النوع الثاني أشار إليه بقوله: ﴿وأهلك﴾ عطف على زوجين أو على اثنين، والمراد به أبناؤه ونساؤهم.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾[3] بأنه من المغرقين بسبب كفرهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾[4] والمراد بهم ابنه

---

(١) انظر: تفسير الجمل (٢/٣٩٧)؛ وانظر: تفسير أبي السعود (٢/٢٠٨).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٢/٢٠٨).

(٣) سورة هود: الآية (٤٠).

(٤) سورة هود: الآية (٣٧).

وامرأته[1] وكانا كافرين.

الثالث :

النوع الثالث أشار إليه بقوله : ﴿ومن آمن﴾ أي : من قومك، والإتيان بصيغة الإفراد في ﴿آمن﴾ للدلالة على قلتهم، كما قال تعالى : ﴿وما آمن معه إلا قليلٌ﴾ وهـذا على الرغم من طول المدة التي دعاهم فيها واستعمال شتى الوسائل ومختلف الطرق.

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ القائل هو نوح ـ عليه السلام ـ والركوب هو العلو على ظهر الشيء، ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة، وكل شيء علا شيئاً فقد ركبه.

وقوله : ﴿فِيهَا﴾ أي : في باطنها، ولا تعلوا على ظهرها لئلا تروعوا بما ترونـه من هول الطوفان ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱرْكَبُواْ﴾ حال من اركبوا، أي : فأمرهم بأن يركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله.

﴿مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي : بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، فلا تستعجلوا سيرها ولا رسوها، بل كونوا مفوضين مسلمين، شاغلين أنفسكم بحمـد الله ـ تعـالى ـ أن هداكم للإيمان الذي به نجيتم من هذا العذاب. ولذلك أمر الله نوحاً ـ عليه السلام ـ أن يشغل نفسه بحمده ـ تعالى ـ أن نجّاه من القوم الظالمين، ولاشك أن مَن معه فعلوا مثل فعله، ولكنه ـ تعالى ـ خَصَّ نوحاً باستمرار الحمد من بين قومه لبيان أن ذلك منه عامل من عوامل سلامة

---

(١) كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ سورة التحريم : الآية (١٠).

السفينة بمن فيها، قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾(١).

وقوله: ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ أي: غفور للذنوب والخطايا ﴿رحيم﴾ بعباده المؤمنين، ولذلك أنعم عليكم بإنقاذكم من الغرق والهلاك، وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله وغفرانه ورحمته، وقوله: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ هذه الآية تصور لنا مدى الفزع والهول والعذاب الذي حل بقوم نوح، والذي هو نهاية كل صراع باطل، والضمير في ﴿هي﴾ يعود على السفينة ﴿تجري﴾ من الجري، وهو السير بسرعة ﴿في موج كالجبـال﴾ في ضخامة وعلو الجبال. وجريها كذلك من المعجزات العظمى التي أكرم الله بها نوحاً ـ عليه السلام ـ لأنك إذا عرفت أن ماء السماء قد التقى بماء الأرض، وأن كل مكـان من الأرض صار عينـاً تتفجر بالماء، علمت أن السفينة بهذا الحال لا يمكن أن تتمكن من الجري، بل هي في علو وانخفاض في هذه الحالة: في علو بما يدفعها من أسفلها من قوة الماء النابع من الأرض، وفي انخفاض أو انكفاء بما يصب من ماء السماء، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمسك الماء من فوقها، وجعلها تجري في أي اتجاه يريده الله ـ تعالى ـ إكراماً لنوح وقومه، ومؤانسة لقلوبهم وإشعارهم بعناية الله ـ تعالى ـ بهم بجعل ما ليس ممكناً في هذه الأحوال ممكناً حتى لا يأخذهم الروع والفزع من شدة ما يشاهدون.

ولكي تتصـور هذه الشـدة تأمّل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢٨).

﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ ﴾[1] المنهمر: قال ابن قتيبة: هو الكثير السريع الانصباب.

قال المفسرون: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً، وفجرت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً[2] كما قيل. ومعنى ﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي: التقى الماءان على الكيفية التي قدّرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ أو على أمر مقدر في اللوح المحفوظ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان. وتأمل قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: محفوظة بحفظنا، سائرة بقدرتنا، إذ لا يتسنى لها في العادة مع ما يحيط بها ـ كما ذكرت سابقاً ـ أن تحفظ في جريها لولا عناية الله ـ تعالى ـ.

وقوله تعالى في هود: ﴿ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾[3] في ضخامة وعلو الجبال. والجريان للسفينة والأمواج العالية التي اعتلت رؤوس الجبال إنما تحدث بسبب شدة الرياح العاصفة الشديدة، التي زادت الموقف هولاً وصعوبة مع كثافة الأمطار الساقطة لتصوّر لنا مدى ما صبَّ على قوم نوح من العذاب الأوجع، كما يجلّي لنا نهاية كل كافر معاند، وأن أهل الباطل وإن كثر عددهم مهما تشبثوا به واجتمعوا عليه مخذولون ذاهبون معه، وأن أهل الحق وإن قلوا منصورون مؤيدون بقوة الله ـ تعالى ـ فالباطل وإن طال أمده زاهق، والحق مهما عورض وحجبت أنواره فهو مزهر ثابت كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ ﴾[4] فلا يجدي استمساك بباطل مع حكم الله عليه بالزهوق، وهو الاضمحلال وعدم الثبوت، ولا يضر الحق قلة أهله لأن

---

(١) سورة القمر: الآيات من (١١) إلى (١٤).
(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، (٨/٩٢).
(٣) سورة هود: الآية (٤٢).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٨١).

الله جاء به وأراد ثباته ودوامه، وهكذا لم يفد قوم نوح مغالبتهم له ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان مصيرهم إلى الهلاك والعذاب الشديد كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1]

---

(١) سورة هود: الآية (١٠٢).

الفصل الثالث

الصراع بين
هود ـ عليه السلام ـ وقومه

الفصل الثالث
الصراع بين هود ـ عليه السلام ـ وبين قومه

المبحث الأول: دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه.
وفيه شرح عام للأساليب التي اتخذها في دعوة قومه إلى الله ـ تعالى ـ.

المبحث الثاني: أولاً: موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود ـ عليه السلام ـ.
ثانياً: دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه.

المبحث الثالث: موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين والمعاندين.
أولاً: مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ورده لشبهاتهم.
ثانياً: مصير الكافرين المعاندين.

المبحث الأول

دعوة هود ـ عليه السلام ـ (١) لقومه مع شرح موجز للآيات

مقدمة :

ينبغي قبل الشروع في دعوة هود لقومه، وعنادهم له، وإصرارهم على مجانبة الحق، واغترارهم بباطلهم وما أوتوا من قوة تفردوا بها، أن أقدم لذلك بقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾(٢).

• فإن هذه الآية الكريمة قد صورت أحوال البشرية إلى آخر الدهر، وأن طوفان نوح ـ عليه السلام ـ الذي لا ينكر وقوعه أحد من بني آدم(٣) من بعد نوح ـ عليه السلام ـ لم يمنع الشاردين عن طريق الله أن يتركوا شرودهم لأن

---

(١) هود: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ من قبيلة يقال لهم: عاد كانوا عربًا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عمان وحضر موت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر، واسم واديهم مغيث، وكانوا كثيرًا ما يسكنون

(١) الخيام ذات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * ارم ذات العماد﴾ سورة الفجر الآيتان ٥، ٦.

(٢) سورة هود: الآية (٤٨).

(٣) قد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان، وهؤلاء من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان. انظر: البداية والنهاية (١١٨/١).

النسيان صفة الإنسان، وأكثر الناس ينسون ما يصلحهم ويسعون فيما يضرهم. وكان المتوقع بعد طوفان نوح ـ عليه السلام ـ ألا يكفر كافر بالرحمن لأن هذا الحدث كما قلت معلوم للعالم والجاهل على السواء، وحتى أسفار العهد القديم الزائفة لم تغفل ذكر طوفان نوح ـ عليه السلام ـ مع أن اليهود ـ عليهم اللعنة ـ حاولوا أن يطمسوا كل حق ما استطاعوا، وأن يظهروا كل باطل ما وسعهم السبيل إلى ذلك، بل سائر أساطير الأمم القديمة لا تخلو من ذكر الطوفان، ولكن الإنسان الذي لم يتسلح بقوة الإيمان عند ما تمسه العافية وتكثر لديه النعمة يتمرد على ربه ـ جل وعلا ـ وينسى نعمته، وأجلى مثل على ذلك صراع عاد مع نبيهم هود ـ عليه السلام ـ لأن عاداً هم خلفاء قوم نوح في الأرض، وهم وإن كانت مساكنهم الأحقاف فلا يمنع من انتشارهم في غيرها من الأرض التي عاش فيها قوم نوح ـ عليه السلام ـ وهم بيقين أدرى بالطوفان وعنفوانه، وأنه لم يترك شيئًا على ظهر الأرض إلا أتى عليه إلا موضع الكعبة كما روي ذلك عن بعض السلف(١).

ومع ذلك أمعنوا في كفرهم وضلالهم وغرورهم واستكبارهم كما ستراه إن شاء الله في مباحث هذا الفصل.

نعود إلى قوله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا﴾ أي: بسلامة وأمان كائنين من ذاتنا لك، فلا روع ولا خوف عليك بعد ذلك. أو أن الله حيّاه بالسلام عند عودته إلى الأرض بسفينته مؤانسة لقلبه(٢) وتمام رضاه عنه، كما قال

(١) أشار إلى ذلك الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: «وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله». صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (٧/٢١١)؛ وانظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة المشرفة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، (مكة المكرمة: دار الثقافة، د.ت)، ١/٥٠.

(٢) انظر: تفسير النسفي (٢/١٩٢).

تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وبركـت﴾ أي: خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق.

وقوله تعالى: ﴿وعلى أمم ممن معك﴾ أي: ناشئة منك ومنتمية إليك فهو أبو البشرية الثاني، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين، وإليهم ينتمي جميع الأمم، وفي هذه الآية بشارة عظيمة لأمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذ هي خير تلك الأمم، والمراد بهم الأمم المؤمنة.

وقوله تعالى: ﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ المراد به الأمم الكافرة إلى أن تقوم الساعة. والمعنى: ممن معك الذين أنجيناهم في السفينة أمم ستكفر بنا ولم تتعظ بما حصل لمن كذبك، سنمتعهم بنعمنا في الدنيا التي تطغيهم وتنسيهم ذكرنا؛ لأنَّا سخطنا عليهم، ثم ينالهم منا عذاب أليم موجع في الدنيا بإهلاكهم بأنواع من الهلكة كما أهلكنا قومك، وبعذابنا الشديد الدائم في الآخرة الذي ينسون به ما متعناهم به في الدنيا، ومن هؤلاء المتَّعين في الدنيا الهالكين بالكفر والتكذيب عاد قوم هود ـ عليه السلام ـ. وسأشرع بعون الله وتوفيقه في بيان الآيات الكريمة الخاصة في إيضاح دعوته لقومه والأساليب التي اتخذها في دعوة قومه، والله أسأل التوفيق والسداد.

تنبيه(*):

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ

---

(١) سورة الصافات: الآية (٧٩).

(*) أنبه القارىء الكريم إلى أني سأقدم أحيانًا تفسير بعض الآيات مخالفًا بذلك ترتيبها في المصحف جمعًا لأطراف المبحث الواحد. ووضع آيات كل مبحث تحته لتعم الفائدة. فإذا وجدتني قد تجاوزت آية إلى ما بعدها ثم عدت إليها فهو شيء مقصود.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾[1] هذه الآية بينت أول ما دعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إليه وهو عبادة الله ـ عز وجل ـ وهي أول ما يدعو أي نبي قومه إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

ولقد أمعن قوم عاد في كفرهم وضلالهم وجبروتهم وظلمهم فمنّ الله ـ جل وعلا ـ عليهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم لينقذهم من أوحال الشرك والضلال، وهو بمثابة الناصح الأمين الحريص على إنقاذهم من الهلاك، الراغب في نجاتهم وفلاحهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ الجملة معطوفة على سابق والتقدير: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. وقوله تعالى: ﴿أخاهم﴾ أي: من جنسهم ومن قبيلتهم يعرفون نسبه وخلقه، وهذا من سنن الله في خلقه أن يبعث في كل أمة رسولاً منهم يعرف كل منهما حال الآخر ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[3] وحده لا شريك له فهو المستحق للعبادة دون سواه وناداهم بـ ﴿يا قوم﴾: يتودد إليهم ويُذكِّرهُم بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ استئناف بياني لتعليل العبادة المأمورين بها، والمعنى أي: خصوه بالعبادة ولا تشركوا به، إذ ليس لكم معبود سواه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ استفهام إنكاري: ينكر عليهم نبيهم ـ عليه السلام ـ عدم اعتبارهم بما حل من العذاب الأليم لأسلافهم من قوم نوح، وإصرارهم على عبادة

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

(٣) يلاحظ أنه في قصة هود قال: ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل: (فقال) كما في قصة نوح، والجواب أنه هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم اعبدوا الله.

الأصنام واتخاذها آلهة تعبد من دون الله.

وإنما لم يخوفهم بحلول العذاب العظيم عليهم من أول الأمر[١] للفرق بينهم وبين قوم نوح؛ فإن قوم نوح لم يسمعوا بأمة قبلهم كذبت فعذبت أما هؤلاء فهم بنص القرآن خلفاء من بعد قوم نوح، وأمر الطوفان لا يخفى عليهم، لكنهم لتجبرهم وفرط غفلتهم وتماديهم في الطغيان والعصيان نسوا ما حصل لأسلافهم فكان المناسب أن يوعظوا بما يرفع عنهم هذه الغفلة بتقوى الله ـ عز وجل ـ ولذا أنكر عليهم نبيهم تعاميهم وتركهم ما لو لزموه[٢] لآمنوا به، ولخافوا أن يحل عليهم عقاب أليم كما حل بقوم نوح ـ عليه السلام ـ.

وقد بين القرآن الكريم وسائل هود ـ عليه السلام ـ في دعوته قومه إلى توحيد الله وعبادته، ولقد بذل كل ما في وسعه في دعوة قومه، واستعمل شتى الأساليب لينقذهم من غفلتهم، ولكن القوم لخبثهم وتماديهم في الكفر قابلوا ذلك بالعناد، والسخرية منه والاستهزاء، والإعجاب بما أعطاهم الله من قوة في الأجسام، حتى أهلكهم الله وجعلهم آية لمن بعدهم، وإليك وسائل هود في دعوته لقومه:

أ ـ **الترغيب:**

وتراه واضحا في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣] وقد تكرر هذا النص بعينه

---

(١) كما قال تعالى مخاطبًا لقوم نوح على لسان نبيهم ـ عليه السلام ـ: **﴿لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾** سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٢) أي: تقوى الله والخوف منه، وأخذهم العبرة ممن سبقهم.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1] ويتجلى أسلوب الترغيب واضحاً في قوله: ﴿أخاهم هودا﴾ وفي قوله: ﴿قال يـٰقوم﴾ فإن ذلك يعني اهتمامه بهم وحرصه عليهم لما استقر في الفطرة من حرص الإنسان على قبيلته وفئته التي ينتمي إليها.

ب ـ **الترهيب:**

وإنك لترى ذلك واضحاً في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿أفلا تتقون﴾؟ فهو كما قلت[*] سابقاً استفهام إنكاري وتراه واضحاً أيضاً في هود ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ وهو أسلوب قصر يدل على غاية التعنيف والتوبيخ؛ ففي هذا الأسلوب قصر لهم على بعض صفاتهم الذميمة التي ذكّرهم القرآن بها، والمعنى: ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء لله ـ عز وجل ـ، وزعمكم أن الله أمركم بعبادتها كذباً وبهتاناً ﴿إلا مفترون﴾ أي: مختلقون على الله ـ تعالى ـ ما لم يأمر به، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

جـ ـ إزالة ما عسى أن يتوهموه من أن هودا ـ عليه السلام ـ قد سلك هذا المسلك وادعى تلك الدعوى ليصنع لنفسه جاها عند قومه، وليتوصل بذلك إلى نيل ما يشاء من أموالهم، فبيّن ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأسلوب القصر أنه لا يسألهم على نصيحته إياهم أجراً، وإنما يبتغي أجره من ربه الذي فطره على محاض النصح لهم ابتغاء وجهه ـ تعالى ـ والتقرب إليه بما يعمله من الصالحات، قال تعالى في سورة هود: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾[2] وقد جاء بالموصول في قوله: ﴿على الذي﴾ ولم يقل: (على الله) للتفخيم.

---

(١) سورة هود: الآية (٥٠).

(*) انظر: ص (٢١٥) من بحثنا هذا.

(٢) سورة هود: الآية (٥١).

قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: «وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب، معرضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر»[١].

ولـذلـك عقب بقـولـه: ﴿أفـلا تعقلون﴾! للتعجب من أمرهم وهم يتصورون ويظنون إنه أراد بدعوته إياهم حصوله على الثروة، ونسوا أنه رسول من عند الله ـ جل وعلا ـ وهو ـ عزَّ وجل ـ المتكفل برزق عباده المذنبين فضلاً عن الطائعين، وناهيك بالأنبياء والمرسلين، ولو كان لهم عقول راجحة لأدركوا خطأهم فيما يظنون به.

د ـ حثهم على الاستغفار وعدم الاغترار بقوتهم:

ومن وسائل دعوته ـ عليه السلام ـ تنبيه قومه إلى قبح ذنوبهم، وقولهم عن ربهم ما لا يليق به ـ تعـالى ـ وعن نبيهم ما هو بريء منه؛ فعاد إلى أسلوب الترغيب فقال: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي: اطلبوا مغفرته لما سلف من قبح ذنوبكم فإنه سميع قريب ممن أناب إليه ﴿ثم توبوا إليه﴾ بإقلاعكم عما كنتم عليه بعد تحصيلكم الإيمان بالله، وبنبيكم الذي تصح به توبتكم، ثم بيَّن لهم ما يترتب على التـوبـة والاستغفـار ﴿يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ أي: يأتيكم بالمطر الكثير، وكانوا أهل زروع وجنات، فإذا آمنوا به واستغفروه وتابوا إليه أمن لهم الماء الذي هو الأساس في حياة زروعهم وجناتهم، وقيل: إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فوعدهم نبيهم إن هم آمنوا وتابوا من ذنوبهم أن يرسل عليهم المطر[٢] وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٣] أي: قوة منضمة

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢١٦) بتصرف.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤/٢١٧).
(٣) سورة هود: الآية (٥٢).

إلى قوتكم، وكانوا أقوياء أشداء مغترين بقوتهم حتى قالوا ما قصه الله عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1].

هـ - تذكيرهم بنعم الله عليهم:

ومن وسائل دعوته - عليه السلام - لقومه حضه إياهم على تذكر ما خصهم الله - تعالى - به من نعم امتازوا بها على غيرهم، وقد أشارت سورة الأعراف إلى بعض تلك النعم:

قال تعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: واذكروا وقت جعله - تعالى - إياكم خلفاء ﴿من بعد قوم نوح﴾ أي: في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم أمة قوية كثيرة العدد، لا ينال منكم نائل ولا يتمكن منكم طالب، فحقكم أن تذكروا فضل الله عليكم بهذا التمكين.

قال الألوسي - رحمه الله -: (إذ) منصوب على المفعولية لقوله: ﴿اذكروا﴾ أي: اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة في إيجاب ذكره، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضراً بتفاصيله، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل: لا تعجبوا وتدبروا في أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من.بعد قوم نوح»[2]. ثم ذكرهم بنعمة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿وزادكم في الخلق بصطة﴾ أي: آتاكم هيئات عظيمة في أجسادكم، وقوى بنيانكم بحيث قدرتم على ما عجز عنه غيركم، والمعنى: زادكم بسطة في الجسم على غيركم، فكيف تكفرون به مع ما خصكم به من هذه النعم الظاهرة؟

---

(١) سورة فصلت: الآية (١٥).

(٢) تفسير الألوسي، (١٥٦/٨) بتصرف.

ولما نبههم هو بذكر ما خصوا به أَمَرَهم بذكر آلائه بعامة لينالوا بذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، وليس المقصود الذكر فقط بل المقصود ذكرٌ يؤدي إلى الإيمان بالله - عز وجل - وأن يعملوا صالحاً يرضاه، فإن الفلاح منوط بالإيمان والعمل، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1] أمرهم - عليه السلام - أن يذكروا نعم الله الكثيرة عليهم غير هاتين النعمتين، وأن فلاحهم لن يكون إلا بهذا التذكر الذي يصلهم إلى ربهم، والذي يحملهم على إجلاله وتوقيره، وتصديق نبيه هود - عليه السلام - فيما جاءهم به من عنده، لكنهم كانوا قوماً معاندين مستكبرين، مغترين بقوتهم وما أوتوا من وفرة النعم، لذا لم يجد أسلوب التذكر بالنعم سبيلاً إلى عقولهم بل وقفوا من نبيهم موقف عناد واستهزاء.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٩).

المبحث الثاني

أولا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود ـ عليه السلام

من المعروف ـ وكما أسلفت سابقاً ـ أن لكل رسالة سماوية أعداء يحاولون أن يقفوا في مواجهة أهل الحق، فيناصبوهم العداوة، ويحاولوا بشتى الطرق التنقيص من قدرهم ومكانتهم، يعتمدون في ذلك على نظرة من حولهم إليهم وثقتهم لما ميزوا به من الثراء والنفوذ والوجاهة التي حظوا بها بين قومهم، وهؤلاء هم الملأ الذين أشار إليهم القرآن الكريم في أكثر قصص الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ[1] ومنهم ملأ عاد الذين قص الله موقفهم من نبيهم ووصفهم له بما هو بريء منه، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[2].

والناظر إلى الآية الكريمة يلاحظ اتهام قوم هود لنبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتهمتين:

الأولى: أنه متمكن في خفة عقل، راسخ فيها، وهو المراد من قولهم: ﴿في سفاهة﴾.

الثانية: أنه من الكاذبين، أي: فيما ادعاه من الرسالة.

---

(١) انظر: ص (٤٠) من بحثنا هذا، في مبحث الملأ.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

وهنـاك تهمـة ثالثـة : في الآيات التي تليها[1] وهي استبعاد أن يكون الرسول المرسل إليهم بشراً مثلهم، والأولى في نظرهم أن يكون ملكاً، وأرادوا بذلك الطعن في رسالته. تلك هي خلاصة التهم التي بنوا بها صراعهم مع نبيهم وأصروا على تكذيبه بعد أن عميت أبصارهم وقلوبهم عن معرفة الحق والاهتداء إلى الصواب، والتي أشارت إليها سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾[2] خص ـ تعالى ـ الملأ بـ ﴿الذين كفروا﴾ لأن بعضهم على ما قيل قد آمن بهود ـ عليه السلام ـ فجيء بهذا الوصف لتمييز من آمن من الملأ ممن كفر، ويجوز أن يراد بوصفهم بالكفر ذم الملأ من عاد مطلقاً لا أن أحداً من وجهاء القوم قد آمن بهود ـ عليه السلام ـ[3] وسوّغ الرأي الأول أن نوحاً ـ عليه السلام ـ قد سبق هوداً ـ عليه السلام ـ وعِلمُ قوم هود بأمر نوح وقومه متأكد، فصح أن يوصفوا بالذين كفروا لأجل هذا العلم، لأنه كان كافياً في إيمانهم بنبيهم هود ونوح ـ عليهما السلام ـ لكنهم لفرط عنادهم، كفروا بجميع الرسل السابقين واللاحقين، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[4].

وقـولـه تعالى: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أي: في خفة حلم[5] وسخافة

(١) قولـه تعالى: ﴿أوعجبتـم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم﴾ سورة الأعراف: الآية (٦٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/٢٣٨).

(٤) سورة فصلت: الآية (١٤).

(٥) انظر: لسان العرب، (١٣/٤٩٧).

عقل، وقد أكدوا قولهم هذا بثلاثة مؤكدات وهي: (إن) و(اللام) ثم جعلوا السفاهة ظرفاً على طريق المجاز؛ أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾[1] أي: في ادعاء الرسالة، وقد أكدوا ظنهم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم في الإساءة إليه، ولقد اختلف المفسرون في تفسير هذا الظن:

فقال بعضهم: المراد منه القطع والجزم، وله شواهد كثيرة من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾[2].

وقال آخرون: المراد به الشك، قال الحسن: «كان تكذيبهم إياه على الظن لا على اليقين، فكفروا به ظانين لا متيقنين، وهذا يدل على أن حصول الشك والتجويز في أصول الدين يوجب الكفر»[3]. قلت: وأرجح أن الظن هنا بمعنى التردد لا بمعنى اليقين، وهذا يدلنا على مبلغ تأثير حجة نبيهم فيهم ـ عليه السلام ـ مما جعلهم متحيرين مضطربين في شأنه لا قاطعين جازمين

أما تهمتهم الثالثة: هي تعجبهم من إرسال الله لهم بشراً مثلهم، قال تعالى: ﴿أو عجبتم أن جآءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ فهذه الآية الكريمة سبق أن تكلمنا عنها بالتفصيل عند تعجب قوم نوح من بعثته، وكأنهم يزعمون أن الأولى أن يبعث الله لهم ملكاً لأنه أشد مهابة وأكمل طهارة، ويستبعد منه الكذب والباطل والبهتان، وقصدهم في ذلك الطعن في رسالة نبيهم هود ـ عليه السلام ـ[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٦).
(٢) سورة البقرة: الآية (٤٦).
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/١٥٦).
(٤) انظر: من ص (٨٤) إلى ص (٨٧) من بحثنا هذا.

ثانيا : دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه

دافع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه وأوضح لقومه ما نسبوه إليه من التهم الباطلة وما ألصقوه به من افتراءاتهم وسفاهاتهم الكاذبة وإليك بيان ذلك:

أما تهمتهم الأولى كما أسلفت وكما حكى القرآن عنها بقوله: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ فتلك هي فريتهم الأولى، ولقد دافع عن نفسه بحلم وسعة بالٍ وصبر، وأوضح لهم موقفه بالنسبة لهم، ومكانته التي ميّزه الله بها، فقال لهم:

﴿قال يا قوم﴾ خاطبهم مستعطفاً لهم، ومستميلاً لقلوبهم وأفئدتهم ﴿ليس بي سفاهة﴾ أي: شيء منها فضلاً عن تمكني فيها كما زعمتم، وقد نفى ـ عليه السلام ـ السفاهة ـ وهي كما أسلفت ـ خفة العقل وانعدام الحلم ـ عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه، فإن التاء للمرة، والمعنى: ليس بي أيّة سفاهة فضلاً عن وصفكم لي بانغماسي فيها. ولم أطل في توضيح ذلك اكتفاء بما ذكرته في قوله تعالى: ﴿قال يا قوم ليس بي ضللة﴾ إذ ما قيل هناك ينطبق على ما هنا[1].

قال الكشاف: «وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم ـ مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدبٌ حسن، وخلق عظيم، وحكاية الله ـ عز وجل ـ ذلك تعليم لعباده كيف

---

(١) انظر: ص (٨٨) من بحثنا هذا.

يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم»[١].

قلت: وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم درس عظيم للدعاة إلى الله كي يتحلوا بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن الخلق، والتلطف في إسداء النصيحة وعدم مقابلة الإساءة بمثلها متذكرين قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾[٢].

أما تهمتهم الثانية فقد رموه بالكذب، قال تعالى: ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ ويرده قوله تعالى: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾.

قال الألوسي: «والرسالة من قِبله تعالى تقتضي الاتصاف بغاية الرشد والصدق»[٣] وقد نفى عن نفسه تهمة السفاهة دون تهمة الكذب لأن ما في حيز الاستدراك كفيل بإزالة تلك التهمة، إذ يستحيل أن يكون رسولاً من رب العالمين وهو متصف بالكذب، فإن أول أركان النبوة الصدق التام كما قرره علماء الكلام في مبحث النبوات[٤] ويجوز أن يكون الكذب نوعاً من السفاهة فيكون نفيها نفيه.

وأمر آخر وهو أنهم كانوا مترددين في كذبه كما رجحته آنفاً فحينئذٍ لا مساغ

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/ ٨٧).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

(٣) تفسير الألوسي، (٨/ ١٥٦).

(٤) ابن تيمية، تقي الدين أبي العباس أحمد: النبوات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢)؛ الصابوني، محمد علي: النبوة والأنبياء، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، ص٤٠.

لنفيه عن نفسه، وإنك لتلمح ما قررته إذا أنعمت النظر في التهمتين؛ فالأولى قولهم: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أي: نعتقدك كذلك ولا نشك فيه بينما الثانية: ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾.

ثم بين هود ـ عليه السلام ـ مهمته فيهم والتي خصّه الله بها فقال: ﴿أبلغكم رسلت ربي﴾ أي: أوامره ونواهيه، وهي متعددة بحيث يصلح أن تكون كل واحدة منها رسالة ولذا جمعه بالألف والتاء، وعبر بالفعل المضارع ليؤذن بتجدد تبليغه لهم وإيقاظهم آناً بعد آن، وأنهم مهما صدوا فلن يكف عن تبليغهم رسالة ربهم حتى يحكم الله بينه وبينهم، وأضاف نفسه إلى الجناب السامي إنباءً بعلو شأنه عند ربه، وأنه لم يأتهم بما أتاهم به من عند نفسه، ولأنهم كانوا كافرين ممعنين في الكفر غير مدركين لآثار الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ بيان منه ـ عليه السلام ـ أنه ناصح لهم، وأنه أمين فيهم وذو ثقة، وأنهم كانوا يقرون له بالأمانة ورجاحة العقل قبل الرسالة فكيف يتهمونه بالسفاهة والكذب وقد جاءهم بالحق من ربهم؟ وقد عبر بالجملة الاسمية هنا لإفادة الثبوت والاستمرار[1] ولبيان أنه ـ عليه السلام ـ مقيم على نصحه أمين عليهم، لا تفارقه هاتان الصفتان مهما تسافهوا عليه.

وقد تلخص دفاعه عن نفسه في نفي ما وصفوه به، وأنه رسول من رب العالمين الذي يقيم الحجة على عباده بإرسال الرسل الذين ينقذهم بهم من الظلمات إلى النور، وأنه مبلغهم رسالة ربهم، وأنه لهم ناصح أمين، أما تهمتهم الثالثة له بتعجبهم من كون أن الله يبعث رسولاً من بين أيديهم وأنه الأولى في

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٣٨).

نظرهم أن يكون ملكاً، فقد وضحت هذه المسألة في قصة نوح ـ عليه السلام ـ بما يغني عن إعادتها هنا[١].

(١) انظر: من ص (٨٥) إلى ص (٨٧) من بحثنا هذا.

المبحث الثالث

موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين والمعاندين

أولاً : مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه

كان المتوقع من قوم عاد أن يستجيبوا لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ بعد أن حاجّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنهم لسوء تفكيرهم وانطماس بصيرتهم أخذتهم العزة بالإثم، وغرتهم تلك النعم التي حباهم الله بها، فلم يقابلوا الدعوة بالإجابة، والنعمة بالشكر والإنابة بل جحدوا واستكبروا، وأمعنوا في ضلالهم وعتوهم، بل وصل بهم الأمر إلى تحديهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ.

ولقد مكث ـ عليه السلام ـ يدعوهم صابراً محتسباً، متحملاً كل أذى، وهم مصرون على تكذيبه وعناده، إلى حد أنهم طلبوا أن يأتيهم بالعذاب الذي توعدهم به ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(1).

وألخص عنادهم ذلك واستكبارهم ومجاهدته لهم بما يلي:

أ ـ استكبارهم عن دعوة نبيهم في تخصيص العبادة لله ـ عز وجل ـ:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾(2).

لقد دعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله بالأدلة القاطعة، وذلك بأن بين لهم أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة، وصريح العقل يدل على أنه ليس

(1، 2) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات، والجماد لا قدرة له على شيء أصلاً، ومعلوم أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يشركوا معه شيئاً من الأصنام، ثم إن هوداً ـ عليه السلام ـ لما ذكر لهم هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد(١) فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وقد قالوا ذلك على سبيل الإنكار والاستهزاء: أجئتنا ياهود لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام؟ إنَّ هذا لن يكون منا أبداً.

ب ـ طلبهم العذاب:

قال تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢) وهذا مثيله في الأمم كثير كما قال تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾(٣)وقول قريش:﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾(٤) وإنها قال قوم عاد لنبيهم ما قالوا من استعجالهم العذاب لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذبا بدليل أنهم قالوا: ﴿إنا لنظنك من الكاذبين﴾ فلما اعتقدوا كونه كاذباً قالوا له: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ وقصدهم بذلك أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبا. ـ وحاشاه عن ذلك عليه السلام ـ وقولهم هذا تحدّ سافر لنبيهم هود ودعوته، ولكن هوداً أجابهم وحسم الموقف رداً على سفاهتهم ولاستعجالهم

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٥٩).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٠).
(٣) سورة الشعراء: الآية (١٨٧).
(٤) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

العذاب بما قصه الله على لسانه: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم﴾ أي: حق عليكم ووجب. . . أو المراد: قد نزل عليكم فقد جعل المتوقع الذي لابد من نزوله بمنزلة الواقع(١).

﴿رجس﴾ ليس المراد بالرجس هنا العذاب، فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرار، بل المراد منه الزيادة في الكفر(٢) فعندما أصر القوم على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفراً وضلالاً، ثم خصهم الله بمزيد من الغضب وهو قوله: ﴿وغضب﴾ والمراد به هنا هو العذاب الأليم الذي هو نهاية كل كافر جاحد، والتنوين في قوله: ﴿رجس وغضب﴾ للتفخيم والتهويل(٣).

وقوله تعالى: ﴿اتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم﴾ أي: أتخاصمونني؟ والاستفهام إنكاري ﴿في أسماء سميتموها﴾ أي: في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات لأنكم تسمونها آلهة، ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده، إذ المستحق للعبادة والذي لا ينبغي أن تصرف لأحد سواه إنما هو الله، أما هذه الأصنام التي زعمتم أنها آلهة فهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً. وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي: صداء، وصمود، والهباء(٤) وقوله تعالى: ﴿ما نزَّل الله بها من سلطان﴾ أي: ما نزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم في ألوهيتها، وإنما هي أصنام باطلة قلدتم آباءكم في عبادتها بدون علم ولا حجة ولا بينة.

ثم هددهم بالمصير المحتم عليهم فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٣٩).
(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٥٩، ١٦٠).
(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٣٩).
(٤) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٠)، وتفسير النسفي، (٢/ ٦٠).

﴿ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾[1] أي: انتظروا العذاب الذي استعجلتموه، وطلبتموه حين قلتم: ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ وهل تستطيع آلهتكم رد هذا العذاب عنكم؟ كلا ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: منتظر لما يحل بكم من العذاب الأليم.

وإكمالاً للفائدة أستكمل مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه من سورة هود.

جـ ـ طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[2] أي: ما جئتنا بحجة وبرهان قاطع على ما تدعيه، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا التي عبدها آباؤنا من قبل بمجرد دعوى منك لم تقم عليها بينة ولا برهان قاطع، وقد جاءهم هود ـ عليه السلام ـ بالأمر الواضح الذي لا يحتاج في التدليل عليه إلى خارق من خوارق العادات لأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وهذه الدعوى لا تحتاج إلى الاستدلال عليها بمعجزة حسية لأنها الفطرة السليمة ومنطق العقل السليم، وكان يكفيهم ما حلّ بقوم نوح في بيان عاقبة أهل الكفر العاكفين على عبادة الأصنام، فغَرقُ قوم نوح بالطوفان ـ كما قررته في أول البحث ـ كافٍ في بيان سوء الكفر وخسران أهله، لكنهم لفرط عنادهم قد غفلوا عن ذلك أو تعاموا عنه، وكانوا يطلبون المعجزة الحسية عناداً واستكباراً فلم يجبهم الله لما طلبوا لبيان تعاليه عن هوى أهل الأهواء واقتراحهم من الآيات ما يشاءون، فمهمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنذار الكافرين بنقمة الله ـ تعالى ـ إن هم أقاموا على كفرهم في الدنيا والآخرة، وتبشير المؤمنين الموحدين بالكرامة والحياة الطيبة في الأولى والآخرة. وإنك لتجد هذا المعنى

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧١).

(٢) سورة هود: الآية (٥٣).

الذي أقره واضحاً في الرد على اقتراح قريش على النبي ﷺ أن يأتيهم بالآيات الحسية ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾(٤) ومن سننه تعالى أنه إذا خرق لقوم عادة فأصروا على الكفر أهلكهم الله بالعذاب، ولهذه القاعدة استثناء لا أدخل فيه تجنباً للإطالة، ولذلك لم يأت الله عاداً بما اقترحوا وإنما خص الله هوداً ـ عليه السلام ـ بمعجزة حسية بينة لم يلتفتوا إليها لأنها لم تكن من نوع ما يطلبون، وهي مذكورة في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾(٥) أي: اجمعوا قوتكم غير مستعينين بالله ـ عز وجل ـ ولا تمهلوني في كيدكم فإنكم لم تبلغوا مني شيئاً.

قال صاحب الكشاف: «من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحد، وذلك لثقته بربه، وأنه

---

(١) سورة الرعد: الآية (٧).
(٢) سورة الرعد: الآية (٢٧).
(٣) سورة الأنعام: الآيتان (١٠٩، ١١٠).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٥٩).
(٥) سورة هود: الآية (٥٥).

يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم»[١].

فبالرغم من تجبر عاد في الأرض وتميزهم بالقوة الجسمية والمادية فإن أحداً منهم لم يستطع أن ينال من هود ـ عليه السلام ـ شيئاً ومضى الأمر كما أخبر حتى جاءهم عذاب الله وهم في غيهم سادرون.

د ـ قذفه بالجنون:

قال تعالى: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض ءالهتنا بسوء﴾ قال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية: «﴿اعتراك﴾[٢] مفعول نقول، والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: خبلك ومسك بجنون لسبك إياها، وصدك عنها وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين. وصدور هذا الاتهام منهم يدل على أنهم قوم جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد»[٣].

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي ومجاهدتهم بالوعيد والإنذار الأخير للمكذبين، مستعيناً بالله وحده، معتمداً عليه، قائلاً لهم: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[٤].

وللزمخشري كلام نفيس أثبته بنصه لعظيم فائدته ولبلاغته: «أكد براءته من آلهتهم وشركهم، ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد علي أني لا أفعل كذا، ويقول

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٦).

(٢) قال صاحب اللسان: عرا، وعراني الأمر يعروني عرواً، اعتراني: غشيني وأصابني.

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٦).

(٤) سورة هود: الآية (٥٤).

لقـومـه: كونوا شهداء علي أني لا أفعله، فإن قلت: هلا قيل إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدة معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالـة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: اشهد على أني لا أحبك. تهكماً به واستهانة بحاله: ﴿مما تشركون من دونه﴾ من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركون من آلهة من دونه، أي: أنتم تجعلونها شركـاء له ولم يجعلها هو شركاء، ولم ينزل بذلك سلطاناً ﴿فكيدوني جميعـا ثم لا تنـظرون﴾ أعجّـل ما تفعلون من غير انتظار فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع؟ وكيف تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي[١]؟ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[٢] ومهما أنكرتم وكذبتم فهذه الحقيقة قائمة؛ حقيقة ربوبية الله لي ولكم، فالله الواحد هو ربي وربكم عليه توكلي وهو ثقتي وحافظي ﴿ما من دآبة إلا هو ءاخذ بناصيتها﴾ صورة محسوسة للقهر والقدرة؛ تصور القدرة آخذة بناصية(*) كل دابة على هذه الأرض بما فيها الناس، الناصية: أعلى الجبهة، فهو القهر والغلبة، والهيمنة في صورة حسية تنـاسب المـوقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم[٣].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/ ٢٧٦).

(٢) سورة هود: الآية (٥٦).

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، (١٢/ ٥٨٢).

(*) الناصية: أعلى الجبهة.

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ فإن قلتَ: الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط؟ قلتُ: معناه: فإن تتولوا لم أُعاتَب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأن ما أُرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول.

﴿ويستخلف﴾ كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليتكم ﴿شيئا﴾ من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع، وإنما تضرون أنفسكم[1].

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[2] يحفظ دينه وأولياءه، ولا تخفى عليه أعمالكم وما تكنه صدوركم. وكان ذلك آخر مجاهدته وجداله معهم، وقد أقام عليهم الحجة، وحق عليهم الوعيد والجزاء الشديد.

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٢٧٧).

(٢) سورة هود: الآية (٥٧).

ثانيا : مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد

لقد أجملت سورة الأعراف ما وقع على عاد من العذاب، ولم تبين كيفيته بل أخبرت عن تحقق وقوعه عليهم ونزوله بهم لا محالة كما قال تعالى على لسان نبيه هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾(١) وقد توعدهم هود ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف بما حكاه الله في قوله تعالى: ﴿ فَانْتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾(٢) أي: انتظروا عذابكم الواقع لا محالة، والذي لا تملكون دفعه بحال ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لهذا العذاب الذي يجزيكم به الله، وينجيني ومن معي من المؤمنين برحمة منه، ويقطع دابر الكافرين.

وقد ذُكر عذاب عاد في القرآن بأساليب متعددة، يعنيني منها آيات سورة الحاقة التي صورت لنا كيف كان هذا العذاب، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾(٣).

وإليك تفسيراً موجزا للآيات:

فقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ومثلها قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾(٤) أي: مشئومات

(١) انظر: تفسير الآية ص (٢٣٠) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧١).

(٣) سورة الحاقة: الآيات من (٦) إلى (٨).

(٤) سورة فصلت: الآية (١٦)، وانظر: النسفي (٤/٩١).

عليهم، وقوله: ﴿فأهلكوا بريح﴾ أي: الدبور، لقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «نصرت بالصبا[1] وأهلكت عاد بالدبور»[2].

وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان:

الوجه الأول: إن الريح[3] الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يُسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة.

---

(١) قوله: «نصرت بالصبا»: بفتح المهملة بعدها موحدة مقصورة يقال لها: القبول بفتح القاف لأنها تقابل الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس ونصرته ﷺ يوم الأحزاب. وكان المشركون زهاء اثني عشر ألف مقاتل حاصروا المدينة، فأرسل الله إليهم ريح الصبا باردة في ليلة شاتية، فسفت التراب في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم فانهزموا من غير قتال، ولكنها لم تهلك أحدًا ولم تستأصلهم لما علم الله من رأفة نبيه ﷺ بقومه رجاء أن يسلموا.

وضدها الدبور وهي التي أهلكت عاداً. ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل الإقبال، وكون الدبور أهلكت أهل الأدبار وهي الريح العقيم؛ وسميت العقيم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم. بتصرف من فتح الباري (٣/١٧٤).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٣/١٧٤ .ص

(٣) تنبيه:

هناك فرق بين الريح والرياح: فالريح لا تكون إلا للعذاب كما قال تعالى: **﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾** وقول السيدة عائشة كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»**

وأما الرياح فهي للرحمة وخير العباد، كما قال تعالى: **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾** سورة الحجر الآية (٢٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾[1] أي: في صيحة. ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي: صوتها.

الوجه الثاني: إن الصرصر من الصِرِّ الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ. . .﴾[2] الآية. أي: فيها برد شديد محرق. ومنه قول حاتم الطائي:

أوقد فإن الليل ليل قر[3] والريح ياواقد ريح صِرٌّ
علَّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

فقوله: (ريح صِرٌّ) أي: باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين؛ فهي ريح عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد. اهـ[4].

قلت: والذي أرجحه هو الوجه الثاني، وهي كونها ريحاً باردة، فأما شديد هبوبها وعصفها وقوتها فمصرح به في قوله تعالى: ﴿عاتية﴾ وقوله: ﴿عاتية﴾ أي: شديدة العصف فما استطاعوا ردها والخلاص منها بحيلة من استتار ببناء، أو لياذٍ بجبل، أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم، وذلك لشدة عتوها. وأصل العتو تجاوز الحد، ووصفها بالعتو مناسب لحالهم، وما كانوا عليهم من الفظاظة والغلظة والعتو والاستكبار.

﴿سخرها عليهم﴾ أي: سلطها عليهم - عز وجل - بقدرته، وأدامها

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٢٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٧).

(٣) القر: البرد عامة. لسان العرب (٥/٨٢).

(٤) الشنقيطي، محمد علي: أضواء البيان. الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

عليهم ﴿سبع ليال وثمـٰنية أيام حسوما﴾ أي: متتابعة، الليلة تلو الليلة، ليس بينهن فاصل حتى أتت عليهم واستأصلتهم.

ومعنى ﴿حسوما﴾ قيل: حاسماً أثرهم، وقيل: حاسماً خبرهم، وقيل: قاطعاً لعمرهم، وكل ذلك داخل في عمومه[1].

﴿فترى القوم﴾ أي: إن كنت حاضراً حينئذ فالخطاب فيه فرضي ﴿فيها﴾ أي: في الأيام والليالي.

﴿صرعىٰ﴾ أي: هلكى. جمع صريع، وهذه هي عاقبة ونهاية الصراع، لابد في النهاية أن ينتصر الحق على الباطل.

﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أصولها، ولقد شبههم بأعجاز النخل إشارة إلى عظم أجسامهم، قال ابن حجر: وفي التفسير أن الريح كانت تحمل الرجل فترفعه في الهواء، ثم تلقيه فتشدخ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، فذلك قوله: ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ وأعجاز النخل التي لا رؤوس لها.

هذا وقد عقد البخاري في كتاب بدء الخلق باباً أشار إليه بقوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ وقوله: ﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ إلى قوله: ﴿كذلك نجزي القوم الظالمين﴾».

عن عائشة عن النبي ـ ﷺ ـ: وقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ شديدة ﴿عاتية﴾ قال ابن عيينة: عتت على

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني، ص١١٨، والحسم: إزالة أثر الشيء، يقال: قطعه فحسمه، أي: أزال مادته، وبه سمي السيف حسامًا. وحسم الداء: إزالة أثره بالكي، انظر: مفردات القرآن للأصبهاني (١١٨).

الخزان[١]. . . إلخ[٢].

وتكميلاً للفائدة أنقل للقاريء الكريم ما كتبه علماء التفسير والتاريخ في بسط قصة عاد لمكان العظة والاعتبار، وإلا فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقوية العبرة ولذا صح عنه ﷺ أنه قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[٣]. وقصتهم على ما ذكره السدي ومحمد بن إسحاق ونقلها الألوسي وغيره أن عادًا قوم كانوا بالأحقاف، وهي رمال بين عمان وحضرموت وكانوا قد فشوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها، وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي: صداء وصمود والهباء، فبعث الله تعالى إليهم هوداً ـ عليه السلام ـ نبياً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً، فأمرهم بالتوحيد والكف عن الظلم فكذبوه، وازدادوا عتواً وتجبراً وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذ ذاك إذا نزل بهم بلاء طلبوا رفعه من الله ـ تعالى ـ عند بيته الحرام؛ مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة يومئذ العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، وكانت أمه كهلة من عاد،

(١) قال ابن حجر: أما تفسير ابن عيينة فرويناه في تفسيره رواية سعيد بن عبدالرحمن المخزومي عنه عن غير واحد في قوله: ﴿عاتية﴾ قال: عتت على الخزان وما خرج منها إلا مقدار الخاتم. ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر، والطبراني من حديث ابن عباس رفعاه «ما فتح الله على عاد من الريح إلا موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فرآهم الحاضرة فقالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقتهم عليهم فهلكوا جميعًا» انظر: فتح الباري (١٨٦/٧).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٨٦/٧).

(٣) صحيح البخاري مع شرح فتح الباري (٣٠٩/٧).

فجهزت عاد إلى الحرم من أماثلهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز، ولقيم بن هزال، ولقمان بن عاد الأصغر، ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه، وجلهمة خال معاوية بن بكر، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية وكان خارجاً من الحرم فأنزلهم وأكرمهم إذ كانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم قينتان لمعاوية؛ اسم إحداهما وردة والأخرى جرادة، ويقال لهما: الجرادتان، على التغليب، فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له شق ذلك عليه وقال: هلك أصهاري وأخوالي وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عنده فشكا ذلك لقينتيه فقالتا: قل شعراً نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غمامَا
فتُسقى أرض عاد إن عاداً ... قد أمسوا ما يبينون الكلامَا
من العطاش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش تأتيهم جهاراً ... ولا تخشى لعادٍ سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتا بذلك قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم، وأنبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر إسلامه عند ذلك، وقال:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود ... يقابله صداء والهباء

فبصرنا الرسول سبيل رشد فأبصرنا الهدى وخلا العماء
وإنّ إله هود هو إلهي على الله التوكل والرجاء

فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثداً فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة يستسقون فخرج مرثد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا بشيء مما خرجوا له، فلما انتهى إليهم قام يدعو الله ـ تعالى ـ ويقول: اللهم سؤلي وحدي فلا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد، وكان قيل رأس الوفد فدعا وقال: اللهم اسق عاداً ما كنتَ تسقيهم، وقال القوم: اللهم أعطِ قيلاً ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله فأنشأ الله ـ تعالى ـ سحائب ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء ثم نادى منادٍ من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شئت. قيل: وكذلك يفعل الله ـ تعالى ـ بمن دعاه إذ ذاك، فقال قيل: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فناداه منادٍ: اخترت رماداً رمداً لا تبقي من آل عاد أحداً، وساق الله ـ تعالى ـ تلك السحابة بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم، وأول من رأى ذلك امرأة منهم يقال لها: مهدر، ولما رأته صعقت فلما أفاقت قالوا: ما رأيت؟ قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله ـ تعالى ـ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فلم تدع منهم أحداً إلا أهلكته، واعتزل هود ـ عليه السلام ـ ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلتذ الأنفس، ثم إنه ـ عليه السلام ـ أتى هو ومن معه مكة فعبدوا الله ـ تعالى ـ فيها إلى أن ماتوا، وقبره ـ عليه السلام ـ قيل هناك في البقعة التي بين الركن والمقام وزمزم، وفيها ـ كما أخرج ابن عساكر عن عبدالرحمن بن سابط ـ قبور تسعة وسبعين نبياً منهم أيضا نوح، وشعيب، وصالح، وإسماعيل ـ عليهم السلام ـ وأخرج البخاري في تاريخه،

وابن جرير وغيرهما عن علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ أن قبره ـ عليه السلام ـ بحضر موت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة، وأخرج ابن عساكر عن ابن أبي العاتكة قال: قبلة مسجد دمشق قبر هود ـ عليه السلام ـ وعُمِّر كما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ أربعمائة واثنتين وسبعين سنة، والله تعالى أعلم(١)(*).

(١) تفسير الألوسي (٨/ ١٦٠، ١٦١).

(*) قلت: وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق ونقلها الألوسي في تفسيره لم يرد فيها حديث صحيح يسلم بصحته وإنما هي قصة ذكرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها. والله أعلم.

الفصل الرابع

الصراع بين صالح ـ عليه السلام ـ وبين قومه

الفصل الرابع

الصراع بين صالح عليه السلام وبين قومه

مقدمة : نبذة عن ثمود.

المبحث الأول : دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه.
* وفيه شرح للأساليب التي اتخذها في دعوة قومه إلى الله ـ تعالى ـ.

المبحث الثاني : موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثالث : مصير الكافرين المعاندين والمكذبين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ.

مقدمة :

نبذة عن ثمود [١]

من المعروف قطعاً أن الله ـ جل وعلا ـ لم يخلق الخلق هكذا عبثاً ـ تعالى الله وتقدس عن ذلك ـ وإنما الحكمة في ذلك أنه خلقهم لعبادته ـ جل وعلا ـ وإظهار ربوبيته فيهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾[٢].

ومن رحمته ـ جل وعلا ـ بعباده أنهم كلما حادوا عن الصراط المستقيم، وكفروا به، وأشركوا معه غيره في عبادته أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يدعوهم إلى عبادة الله ـ جل وعلا ـ وطاعته فيما أمر واجتناب كل ما نهى عنه وزجر، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾[٣].

وقد مرَّ علينا في الفصل السابق قصة عاد مع نبيهم هود ـ عليه السلام ـ وكيف أنهم كذبوا نبيهم ـ عليه السلام ـ وأصروا على عبادة الأصنام والأوثان من دون الله، وأنهم لم يعتبروا بما حل بقوم نوح ـ عليه السلام ـ وقد كانوا خلفاء لهم، وكيف كان مصير المكذبين إلى الهلاك والعذاب الأليم.

ولما أهلك الله عاداً أعقبهم بثمود، وقوم ثمود هم من نسل الصالحين من

---

(١) ثمود قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما أبناء عابر بن أرم بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك. اهـ. البداية والنهاية (١/ ١٣٠) وفي سبائك الذهب: ثمود: قال إنه في الأصل اسم لأبي القبيلة، ثم نقل وجعل اسماً لها. اهـ. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ص١٤.

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) سورة النساء: الآية (١٦٥).

قوم عاد كما أن عاداً هم من نسل الصالحين من قوم نوح، ولكن البشر بتطاول العهد والزمن ينسون ما حلَّ بمن قبلهم من العذاب فيستولي عليهم الشيطان، ويكذبون رسل الرحمن، ويغيروا شرع خالق الأكوان، وكان الأجدر بثمود أن يعتبروا بما حلَّ بالأمم الماضية التي سبقتهم مثل قوم نوح وعاد، ولكنهم كانوا كفرة عُتاةً جبارين إلا من رحم الله، فلم يشأ الله أن يهلكهم إلا بعد أن تقوم حجته عليهم بإظهار الحق لهم، ولذلك بعث فيهم نبيهم صالحاً[1] ـ عليه السلام ـ وسنعرف خَبرهم من خلال آيات سورة الأعراف التي هي موضع بحثنا: الصراع بين الحق والباطل، كما سيضطرني البحثُ إلى تناول القصة في سورتي هود والشعراء باعتبار أن القرآن جعل من دواعي إعجازه تفريق مشاهد القصة في أكثر من سورة من سوره ليبرهن بذلك على أنه كلام القوي القدير، وأنه يستحيل أن يكون لأحد في القرآن صنعة وعمل، فعلى سبيل المثال لقد أجملت سورة الأعراف هذه القصة بعض الإجمال، فلم تذكر من رد قوم صالح عليه إلا ما قاله الملأ المستكبرون للمستضعفين الذين آمنوا به ـ عليه السلام ـ كما سيمر بك، من أجل ذلك أجدني مضطراً لتناول القصة في أكثر من سورة لأن ذلك أبين للصراع وأدل عليه، مُركِّزاً بالطبع على تفسير وتحليل آيات سورة الأعراف، ومستشهداً فقط ـ بتفسير وتعليق موجز ـ بما ذُكر في غيرها.

---

(١) هو صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام ابن نوح. اهـ. فتح الباري (١٨٨/٧).

المبحث الأول
دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه

هذه القصة الثالثة تصور مشهداً من مشاهد الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾(١) أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، فقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوب بهذا الفعل المحذوف، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحا﴾ وقوله: ﴿وإلى عاد أخاهم هود﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ بيان لعلاقته بهم وحرصه عليهم، وأنه كان من أشرفهم نسباً، وأنه كان معروفاً فيهم بالأخلاق والفضل، وأنه كان مرجواً لسيادتهم لو لم يخرج عن دينهم وما ورثوه عن آبائهم، أو أنه كان مقصداً لكل ذي حاجة منهم، مستشاراً مؤتمناً في إظهار جليات ما خفي عليهم أو اضطرب رأيهم فيه.

يدل على ذلك قوله ـ تعالى ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾(٢) أي: قبل هذا الذي جئتنا به فخالفتنا فيه ولم نعهده من آبائنا وأسلافنا. ولذلك حسن أن تخبرنا سورة الأعراف بدعوة قومه مباشرة إلى عبادة الله وحده بعد هذا التعريف الموجز، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٣) دعاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ منادياً لهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ استمالة لهم، وتودداً يذكرهم بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به.

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).
(٢) سورة هود: الآية (٦٢).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

ولقد دعاهم ـ كما دعا بذلك الرسل أجمعون ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾(١) والملاحظ في دعوة نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ أنهم قالوا جميعاً لأممهم أول ما قالوا: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ ولم يُتْبعوا ذلك بذكر أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ كلها أو بعضها دليلاً على أنهم كانوا يعرفون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه وحده المستحق للألوهية، وأن ذلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن كفر هذه الأمم وغيرها كان ضلالاً عن الفطرة، فالعلم به ـ سبحانه وتعالى ـ مستقر في الروح غير أن الحجب الناشئة عن سوء الأعمال جعلت هذا العلم ينزوي.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها، أي: ما لكم من إله غيره مطلقاً يستحق أن يعبد، أو: إني أمرتكم بعبادة الله لأنه الإله الحق الذي لا إله سواه، ولذا جيء بـ ﴿مِّنۡ﴾ هنا لبيان بطلان عبادة غير الله بالكلية؛ لأن حرف الجر الزائد في سياق النفي يفيد الاستغراق. والمعنى: ليس لكم من إله سواه ـ سبحانه وتعالى ـ فتأليهكم أصنامكم خروج بكم عن الفطرة السليمة، وتسفيه لعقولكم، ووصف ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر بما لا يستحق، وذا من البدهيات التي لا يصح أن يختلف عليها قط.

كما أنه ـ عليه السلام ـ علم أن هذه الحجة العقلية لا تنقذهم من ضلالهم وحدها فزادهم تذكيراً بأنعم الله عليهم التي لم يفضلها عليهم غيره، وهم لا يشكون في ذلك أدنى شك، ولا يستطيعون أن ينسبوها لأحد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن السبب في ضلالهم هو النسيان والغفلة، ولذا قال لهم ما

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

حكاه الله في سورة الأعراف: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾[١] وقد علمتم ما حل بهم من العـذاب لما أصروا على تكـذيب نبيهم هود ـ عليه السـلام ـ وأنه ما كان لكم وجود لولا أنكم نسل الصالحين الذين آمنوا بهود ـ عليه السلام ـ.

ثم إن صالحـاً ـ عليه السلام ـ لما علم أن هذه النعمة التاريخية قد لا توصلهم إلى المطلوب زادهم تذكيراً بما مكّنهم الله من فعله وما بوّأهم به من الأرض، يتخذون من سهولها قصوراً، أي: يبنون فيها قصوراً لسكناهم في الصيف حيث يطيب الهواء في هذه السهول مما يخفف عليهم حرارة الصيف، وأنهم ينحتون في الجبال بيوتاً بما أقدرهم عليه وأعطاهم إياه من الوسائل، وكانوا ينحتون هذه البيوت في الجبال ليسكنوا بها أيام الشتاء[٢] وتأميلاً في الدنيا فقد رُزقوا فيها طول العمر مما سهل عليهم نسيان الموت والظن بالخلود في الدنيا، كما أن نحت البيوت في الجبال لا يحوجهم إلى تجديدها من حين لآخر.

قال تعـالى: ﴿وبوأكم في الأرض﴾[٣] أي: أنزلكم فيها وأسكنكم، أرضهم بين الحجـاز والشام، وهي المسماة بالحجر[٤] في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[٥].

وقـوله تعالى: ﴿تتخذون من سهولها قصورا﴾[٦] أي: تبنون في سهولها

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٤٣). (٣) سورة الأعراف، آية (٧٤).

(٤) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: وكانت منازلهم ـ قوم ثمود ـ بالحجر وهو بين تبوك والحجـاز، قوله تعالى: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ سورة الأعراف، الآية (١٣٨) أي: حرام، قوله: كل ممنوع فهو حجر، ومنه حجرًا محجورًا، أي: حراماً محرماً (٧/١٨٨).

(٥) سورة الحجر: الآيتان (٨٠، ٨١). (٦) سورة الأعراف الآية (٧٤).

قصوراً أو: تتخذون من هذه السهول لبنات تلك القصور ﴿وتنحتون الجبال بيوتا﴾ أي: تجعلون منها بيوتاً صالحة لسكناكم واستقراركم - كما أشرت إلى ذلك آنفاً - ولم يُرِدْ صالح - عليه السلام - أن يعدد لهم كل ما أوتوا من نعمة فذلك لا يقدر عليه أحد، ولا يحيط به إلا الواحد الأحد.

ولذا قال ما حكاه الله: ﴿فاذكروا ءالاء الله﴾ والآلاء جمع إِلْي، وأُلْو، وإِلَى. قاله الواحدي[1] وقال ابن عباس: «آلاء الله، أي: نعم الله عليكم»[2].

والمعنى: اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم النادة عن الحصر، فكيف تكفرون بالرحمٰن بعد هذه الدلائل؟ وقد أشارت سورة الشعراء إلى بعض ما حبوا به من النعم العظيمة، قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾[3] ﴾[4] كما نبههم إلى نعمة إنشائهم من الأرض، فإن أباهم آدم الذين هم من نسله، خلقه الله من التراب، وأن أجسامهن القوية تستمد قوتها مما أنبته الله لهم من الزروع والحبوب والفواكه، قال تعالى في سورة هود: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: أسكنكم وأنزلكم، فهو تكرار لقوله تعالى: ﴿وبوأكم في الأرض﴾ والتكرار لمتبلدي الأحاسيس، أو: جعلكم فيها أطول عمراً من غيركم، وهذه نعمة عظمى فالبشر من قديم الزمن يتمنون طول العمر ويدعو بعضهم لبعض به، والدعاء من المؤمنين بطول العمر وصلاح العمل شرع ودين.

---

(١) تفسير الرازي (١٤/١٥٨)..

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) فارهين: حاذقين أو أشرين بطرين من غير حاجة لسكناها؛ انظر: تفسير النسفي، (٣/١٩٢) بتصرف.

(٤) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٩).

وقد ذكرت سورة هود أنه دعاهم إلى استغفار الله ـ تعالى ـ عن ما اقترفوا، والتوبة النصوح من كل ما هم عليه من سوء، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾[1] وما أحسن التعبير بـ (الفاء) و(ثم) وما أبدعه! وكذلك باسميه الكريمين: القريب والمجيب.

أما حسن التعبير بـ (الفاء) فهو راجع إلى حفزهم على الإسراع بالتخلص مما هم فيه عقيب قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ فإلهٌ هذا صُنعه بهم؛ حقيق بأن يذوبوا أسفاً على كل لحظة مرت عليهم وهم كافرون به، وأنه لحقيق بأن يستغفروه قبل أن تحل نقمته عليهم، فإنه الغني عن العالمين والكل في غاية الافتقار إليه.

وأما حسن التعبير باسميه الجليلين (القريب والمجيب) فهو لبيان أن توبتهم لا تكون إلا بالمجاهدة الشديدة، المؤسسة على الإيمان، وأنهم لن يصلوا إليها إلا بذلك.

وأما حسن التعبير باسميه الجليلين: القريب والمجيب فهو لتعطيفهم نحو ربهم، وإشعارهم بقرب رحمته منهم ومن العالمين كافة، وأنه يجيب من لجأ إليه متى أناب إليه ورجع قبل أن يعاين العذاب، وأنه لا يجعل ماضي الكافرين وعصيانهم حاجباً عن رحمته مع أنهم به ـ الماضي ـ حقيقون بألا يُرحموا. قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: «وقد روعي في النظم الكريم نكتة؛ حيث قدَّم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة، وأخّر عنه ذكر الغائبة المتأخرة عنهما في الوجود؛ أعني: الإجابة»[2].

وأعود إلى سورة الأعراف لاستكمال أسس دعوة صالح ـ عليه السلام ـ

---

(١) سورة هود: الآية (٦١).

(٢) تفسير أبي السعود، (٤/ ٢٢١).

فإنه ـ عليه السلام ـ زجرهم عما هم عليه من فساد وعتو في الأرض، يفعلون ما يحلو لهم دون تذكر للمحاسبة والمعاقبة من الله لهم على عتوهم وفسادهم، فقال تعالى على لسانه ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1] والعثو[2] هو الفساد في الأرض،لكنه جاء مؤكداً بالحال لبيان ما كانت عليه ثمود من شدة الفساد في الأرض، ومجيء هذا النهي بعد تذكيرهم بأنعم الله عليهم له موقعه، فهو بمثابة العقاب لمن لم يثمر فيه الإحسان، وهو منهج قويم للدعاة يتعلمون منه ألا يشتدوا إلا بعد المبادأة بالدعوة والتذكير بالأمر الجميل ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وألا يفضحوا أخلاق المدعوين إلا بعد أن يتأكدوا بأن الرفق لم يثمر ولم يُجد معهم ولا يوصل إلى زوال الأخلاق السيئة منهم.

كما نهى عامتهم عن طاعة المسرفين منهم على أنفسهم، والذين يفسدون في الأرض ولا يكون منهم صلاح البتة، وذلك بعد أن دعاهم إلى تقوى الله وطاعته ـ عليه السلام ـ فيما دعاهم إليه. وقد ساق إليهم من الترغيب والترهيب ما يحملهم على تلك الطاعة، قال تعالى في سورة الشعراء:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[3].

قال النسفي: «﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالظلم والكفر ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بالإيمان والعدل، والمعنى: إن فسادهم مصمت[4] ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح»[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٤).

(٢) قال ابن منظور: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ من عثي يعثى عثواً وهو أشد الفساد. بتصرف، انظر: لسان العرب،(١٥/٢٨، ٢٩).

(٣) سورة الشعراء: الآيات من (١٥٠) إلى (١٥٢).

(٤) أي: دائم.

(٥) تفسير النسفي، (٣/١٩٢).

المبحث الثاني

موقف ثمود من دعوة نبيهم صالح ـ عليه السلام

مما سبق بيانه عن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه يتضح لنا أنه ـ عليه السلام ـ دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله ـ جل وعلا ـ واجتهد في نصحهم، وذكَّرهم بآيات الله ونعمه عليه، وأقام لهم الأدلة القاطعة على صدقه وأمانته، ولكن قومه استحبوا العمى على الهدى، وأبدوا غاية الجحود والعناد والكفر، وأصروا على تكذيبه وعداوته. فيما يلي نتعرف على موقفهم من دعوة نبيهم ـ عليه السلام ـ.

أولا: استنكروا دعوته إلى عبادة الله وحده وكذبوا رسالته:

لقد استحوذ عليهم الشيطان، وزين لهم الكفر بالله، وحببه إلى نفوسهم، وأعمى أبصارهم عن الاهتداء إلى الحق، وأصمَّ آذانهم فأنكروا على نبيهم نهيه لهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام، وما استحلوه من الذنوب والآثام، فقالوا له على سبيل الإنكار: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ وقد سبق أن تعرضت لصدر هذه الآية في أول هذا المبحث، ويهمني الكلام عن قوله تعالى: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ...؟﴾[1] إنه التقليد الذميم للباطل القديم، الذي كان عليه الآباء والأجداد، دون تبصر للحق ودون تمييز!

(١) سورة هود: الآية (٦٢).

فالاستفهام فيها إنكاري بمعنى النفي، أي: لا يصح لك يا صالح أن تتعرض لهذه القضية المألوفة لنا الموروثة عن آبائنا، فإن التعرض لها يصرفنا عن قبول دعوتك؛ لأن قلوبنا مستقرة على ما نحن عليه، لو كان آباؤنا على باطل فيها لجاءتهم الرسل تنهاهم عن ذلك كما نهيتنا، والقوم في هذا مغالطون لأنهم خلفاء عاد، وقد بعث الله إليهم نبيهم هوداً ـ عليه السلام ـ بهذه الدعوة التي هي دعوة صالح ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾(١).

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ قد عمّنا ولفنا، وحيرنا وأرابنا في أمرك بدعوتك إيّانا إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة. وهذا دليل على تأثير دعوة نبيهم فيهم، وهز عقائدهم الباطلة في نفوسهم، ولا يعني أنهم أكدوا شكهم فيما دعاهم إليه بـ (إن) و(اللام) وكونهم في هذا الشك جميعاً لأن عقائدهم لو لم تهتز في نفوسهم لقالوا: وإننا لفي يقين من بطلان ما تدعونا إليه وهكذا الباطل مهما تشبث به أصحابه، وحاولوا إظهاره، فإن نفوسهم لا تطمئن إليه، وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: موقع في الريبة، من: أَرَابَه: أوقعه في الريبة، أي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

وقد بيّنت سورة الأعراف بطلان دعواهم، والإجماع على التشكك والارتياب في دعوته، حيث يقول تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾(٢).

---

(١) سورة هود: الآية (٦٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٧٥، ٧٦).

ونأخذ من هذه الآية جملة حقائق:

أولها: إن الملأ المستكبرين في كل أمة هم سبب شقائها.

ثانيها: إن ملأ ثمود قد راعهم إيمان بعض المستضعفين بصالح ـ عليه السلام ـ مع أن هؤلاء المستضعفين خاضعون لهم، وما كانوا ملأ إلا بهم، وقد يقوى هؤلاء المستضعفون بنبيهم صالح ـ عليه السلام ـ فيسلبون هؤلاء الملأ قوتهم.

ثالثها: محاولة ثَنْي المستضعفين عن إيمانهم بما قصه الله عنهم ﴿أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه﴾؟! فالاستفهام هنا ليس على حقيقته، بل هو للتعجب من إيمان هؤلاء المستضعفين وإنكاره عليهم، وقد أرادوا بقولهم هذا محاربة دعوة صالح ـ عليه السلام ـ والفتّ في عضد المستضعفين.

رابعها: إن الإيمان يزيل ضعف النفوس، ويجعل المستكبرين المتجبرين غاية في الهوان في نظر المؤمنين، ولذا لم يرهبهم المؤمنون ولم يخافوهم على أنفسهم، مع كونهم مستضعفين كما حكته الآية، بل قالوا مؤكدين إيمانهم بنبيهم بـ(إن) التي هي لتوكيد الخبر ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ وغرضهم من ذلك أن يُقنطوا الملأ من الطمع في كفرهم بعد أن هداهم الله للإيمان حيث عمموا الإيمان بكل ما أرسل به صالح ـ عليه السلام ـ مما يستغربه الملأ كدعوتهم للتوحيد، ومما قد يسلمون به كدعوته إلى مكارم الأخلاق، فإن مكارم الأخلاق تجذب الإنسان إليها وإن كانت عقيدته منحرفة، ولذا جاء قوله تعالى: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ ماضياً مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله ليترجم عن قصد هؤلاء المستضعفين، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿للذين استضعفوا لمن ءامن منه﴾ ولو قال تعالى: قال الملأ الذين استكبروا من قومه لمن آمن منهم. لفاتت هذه المعاني ولَظُن أن بعض الملأ قد آمن بصالح ـ عليه السلام ـ.

ولما يئس الملأ من تَوْهِين إيمان المستضعفين واجهوهم بالإعلان عن

كفرهم بما جاء به صالح ـ عليه السلام ـ وبما آمنوا به، وقد وصف الله ـ جل وعلا ـ ملأ صالح ـ عليه السلام ـ بالكبر مرتين في هاتين الآيتين لبيان أن سبب إعراض مَن أعرض عن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ هو الاستكبار، لا عدم وضوح دعوته، أو مجيئه بما هو مستغرب في نفسه.

وهذا الكبر الذي وُصف به ملأ صالح ـ عليه السلام ـ هو داء سائر الأمم المكذبة، وإنك لتجده منصوصاً عليه في أغلب الأحيان، وفي بعضها تستشعره من حال بعض المستكبرين الذين لم يوصفوا به صراحة؛ لأنهم قد وصفوا بأوصاف أخرى تستدعي وتدل عليه كالكفر والترف والتكذيب بيوم الدين، وغير ذلك من الأوصاف.

وقد أسلفت الكلام عن الكِبْر بإيجاز في قصة آدم ـ عليه السلام ـ في بيان الوسائل التي يستخدمها الشيطان في إغواء بني آدم وإضلالهم[1].

ومن لطيف ما علّق به الفخر الرازي على تفسير هذه الآية: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا﴾ قال: «إن وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين معناه أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم وهذا ليس فعلاً صادراً عنهم بل غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم»[2].

وأشار أبو السعود إلى فائدة عظيمة في تأويل الآية، فقال ـ رحمه الله ـ: «وقوله: ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾؟! وإنما قالوا ذلك بطريق الاستهزاء بهم ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ عدلوا عن الجواب الموافق

---

(١) انظر: من ص (١٤٣) إلى ص (١٤٥) من بحثنا هذا.

(٢) بتصرف من تفسير الفخر الرازي (١٤/١٦٥).

لسؤالهم بأن يقولوا: نعم، أو: نعلم أنه مرسل منه ـ تعالى ـ، مسارعةً إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبيء عنه الجملة الأسمية، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

وقوله: ﴿قال الذين استكبروا﴾ أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار.

وقوله: ﴿إنا بالذي ءامنتم به كافرون﴾ وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، إظهاراً لمخالفتهم إياهم، ورداً لمقالتهم». اهـ[1].

ثانيا: استنكروا بشريته واتهموه بالكذب والكبر:

استبعدت ثمود أن يبعث الله إليها رسولاً من أنفسهم، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم، مثل قوم عاد ونوح، وقد تناولتُ هذه الشبهة عند حديثي عن قوم نوح وما ذكر هناك[2] ينطبق على ما هنا.

وإليك بيان قولهم كما حكاه القرآن على لسانهم بعد أن كذبوا بالأنبياء ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾[3].

قولهم: ﴿أَبَشَرًا﴾ إنكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من الملائكة لأن الملائكة في نظرهم أشد مهابة وأكمل طهارة.... إلخ.

وقولهم ﴿مِّنَّا﴾ ما دام منًّا فلِمَ خُص من بيننا بالرسالة؟ ولذلك قالوا: أبشرا منا، وقولهم: ﴿وَٰحِدًا﴾ إنكار لأن تتبع الأمة رجلًا واحداً. أو المراد إنكار أن تتبع الأمة شخصاً واحداً من أوسطهم وليس من أشرفهم وأفضلهم، يدل

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٤٣).

(٢) انظر: من ص (١٩٣) إلى ص (١٩٨) من بحثنا هذا.

(٣) سورة القمر: الآية (٢٤).

عليه قولهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأنـزل عليه الوحي من بيننا وفينـا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[1] أي: بطر متكبر، حمله بَطَره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك[2].

ثالثا: كذَّبوا بالبعث وأنكروا وقوعه:

لقـد امتنّ الله على ثمـود بالنعم الوفيرة، فكانوا في رغد من العيش، أمدهم خالقهم بالقوة وبطول العمر[3] فضلاً عما حبوا به من الزروع والثمار، وفجَّـر لهم العيون والأنهار، فكان اللائق بهم أن يزدادوا إيماناً بالله وشكراً لما أفـاض عليهم لكنهم كفـروا وجحدوا تلك النعم، وأعماهم حب الدنيا عن الإيمان باليوم الآخر فأنكروا وقوعه، واطمأنوا إلى دنياهم واستأنسوا بها، وقد أنكر عليهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ ذلك، وقال ما قصه القرآن على لسانه:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾[4]. أي: إنـه ـ عليه السلام ـ أنكر عليهم أن يُتركوا خالـدين في نعيم لا يزالـون عنه؛ لأن ركونهم إلى ما حباهم الله به من النعم زين لهم حب دنياهم، أضِف إلى ذلك ما دأبوا عليه من طول العمر، كما قال تعالى في معرض تذكيرهم

(١) سورة القمر: الآية (٢٥).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٤/٢٠٤).

(٣) قال الألوسي نقلاً عن ابن إسحاق عند ذكر قصة ثمود: «إن عادًا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا في سعة من معايشهم... الخ» (تفسير الألوسي ٨/١٦٦).

(٤) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٨).

بالنعم التي منّ الله بها عليهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ وذلك بأن أطال أعمارهم، كل ذلك جعلهم ينسون الآخرة، ومع تطاول الأزمان كذبوا بالبعث وأنكروا وقوعه.

وقوله: ﴿آمنين﴾ من العذاب والزوال والموت، تتمتعون في جنات وعيون ﴿ونخل طلعها هضيم﴾ الطلع هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿هضيم﴾ لينّ نضيج، والمعنى: أمدكم بالنخيل الذي قد أرطب ثمره[1].

ثم حثهم على تقوى الله، واجتناب محارمه، وتذكر الموت الذي لا مفر منه لأنه سيُجازي كلاً منهم بعمله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أطيعوني فيما جئتكم به، فإن في طاعتكم لي سعادتكم في دنياكم وآخرتكم.

رابعا: رموه بالسحر:

عندما يعجز المكذبون للرسل عن مواجهتهم، ويشعرون أنهم قد غلبوا وهزموا وقد ألقموا الحجة، ليس هناك مخرج لهم إلا أن يتهموا نبيهم بالسحر، وبعضهم يتهمونهم بالجنون والعته.

فلقد حاجّ صالح ـ عليه السلام ـ قومه بالحجة والبرهان القاطع على صدق رسالته[2] فما كان لهم سبيل للخروج من مأزقهم الذي أوقعهم فيه إلا اتهامه بالسحر، كما قصه القرآن الكريم على لسانهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[3].

والمُسَحَّر: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله[4] فلا يستطيع تمييز الحسن من القبيح والخير من الشر والصالح من الطالح، وقصدهم بذلك الطعن في رسالته.

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٣/١٩٢).

(٢) إتيانهم بالمعجزة وهي الناقة العشراء أكبر برهان قاطع على صدق رسالته.

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٥٣). (٤) انظر: تفسير النسفي (٣/١٩٢).

خامسا: طلبهم المعجزة الحسية:

قال تعالى في بيان إنكارهم دعوتهم، وتعنتهم معه بطلب الخوارق الحسية، والعجائب الخارجة عن المألوف: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٥٤﴾[1] أي: بآية حسية خارجة عن نطاق العادة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعوى النبوة والرسالة، وقد أعطاهم الله - تعالى - معجزة الناقة، وجعلها فتنة عظيمة لهم، حيث كانت سبباً في هلاكهم واستئصالهم لعدوانهم عليها.

ومن سنن الله - تعالى - في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأُعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله - تعالى -، ولذلك لم تُجَبْ قريش في ما اقترحت على سيد الخلق ﷺ لأن الله لم يرد إهلاك هذه الأمة، ومعاملتها بما عومل به الأولون.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾[2] والمراد بالآيات في هذه الآية الخوارق الحسية، وقد توزع الحديث عن ناقة صالح في

(١) سورة الشعراء: الآية (١٥٤).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٥٩).

أخرج الواحدي بسنده عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون، فقيل له: إن شئت تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم فأنزل الله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون...﴾ الآية.
انظر: أسباب النزول للواحدي، بتحقيق السيد أحمد صقر ص (٢٩٥، ٢٩٦)، ص (٢٧٧، ٢٧٨).

السور التي تناولت هذه القصة ففي سورة الأعراف التي هي موضوع بحثي يقول تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾[1] أي: معجزة حسية واضحة مستغربة غير مألوفة، وقد فسر الله - تعالى - هذه البينة بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: جعلها الله معجزة خاصة بكم، ودليل صدقي في أن الله أرسلني إليكم، وقد أضاف الله الناقة إليه ليستقر في قلب ثمود خطر العدوان عليها، فإنها ناقة خلاّق القوى والأقدار الذي يحمي ماله وينزل النقمة بالمعتدي عليه، وليمهد بذلك إلى بيان أحوال هذه الناقة التي قد لا يطيقونها ولا يصبرون عليها، وقد بينت سورة الأعراف بعض ما لهذه الناقة من الصفات والخصال، قال تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: كل أرضكم كلأ مباح لها، لا تمنع من ارتياد ما تشاؤه منها، ولذا قال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ وفي الآية إشارة للمالك الحقيقي للكون كله، المتصرف فيها يشاء وكيف شاء، وله الحكمة البالغة، لا معقب لحكمه؛ فثمود عباد الله يأكلون في أرض الله، والناقة خلق الله تأكل في أرض الله، وإذا كان من مشيئة الخالق - عز وجل - توزيع ملكية أرضهم بينهم، فقد شاء أن تكون كل هذه الأرض مباحة لتلك الناقة، فتقسيمها بينها وبينهم بإرادته، وإباحتها للناقة بإرادته، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ فإنكم إن فعلتم هذا أخذكم عذاب أليم، ونكّر السوء مبالغة في النهي.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[2] وقد بيّن هذا النص حلول العذاب عليهم عقب مسها بسوء، بلا تراخٍ، وأن هذا العذاب عام شامل لا يقتصر على من مسها، وأن هذا العذاب بالغ الهول والشدة، ويلاحظ أنه - جل وعلا - نهاهم عن مسها بسوء إكراماً لها، فنهيُهم عن نحرها أو عقرها أو منعها

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

من الكلأ والماء من باب أولى، فالجملة وعيد شديد لمن يمسها بسوء[1] وإذا كانت سورة الأعراف قد بينت أن الأرض كلها لها مرتع: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فقد بينت سورة الشعراء أن ماء ثمود مقسم بينهم وبينها، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم معلوم، فلا يشربون في يومها ولا تشرب في يومهم، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾[2].

وأشار إلى ذلك ـ جل وعلا ـ في سورة القمر فقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾[3].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ أي: مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أن صالحاً صلى ركعتين ودعا، فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشراء وبْراء﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً وهو مفعول له ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يصنعون﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي: اصبر على أذاهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئاً. وإنما قال: ﴿بينهم﴾ لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلَّبوا بني آدم.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور/ أحمد السيد الكومي، والدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ص(١١٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٥).

(٣) سورة القمر: الآيتان من (٢٧، ٢٨).

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك قال: «**أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات؛ هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة، فبعث الله ـ عز وجل ـ إليهم الناقة، فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غبِّها**»(١) وهو معنى قوله تعالى: ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾.

﴿كل شرب محتضر﴾ الشرب ـ بالكسر ـ الحظ من الماء وفي المثل: آخرها أقلها شربا، وأصله في سقى الإبل لأن آخرها يرد وقد نزف الحوض، ومعنى ﴿محتضر﴾ أي: يحضره من هوَ له، فالناقة تحضر الماء يوم وردها، وتغيب عنهم يوم وردهم. قاله مقاتل، وقال مجاهد: «إن ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون»(٢).

ومن الملاحظ في الآثار التي أوردها القرطبي من خلال علاقة ثمود بالناقة أن الناقة وهي عجمى قد التزمت بأمر ربها فلم تشرب الماء في يومهم، على حين أنهم مع ما لهم من العقل والتمييز الحاصل بتكريم بني آدم، وتفضيلهم على كثير ممن خلق، لم يمتثلوا أوامر الله بشأن هذه الناقة، فكانوا من الهالكين.

وتكميلاً للفائدة، أنقل للقاريء الكريم ما رواه علماء التفسير والتاريخ في بسط قصة ثمود لمكان العظة والاعتبار، وإلاّ فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به، اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقوية العبرة فإنه لم يرد حديث صحيح يسلم بصحته ويعوّل عليه، وإنما هي

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم ذكر نحوه (٢/٥٦٧).
وانظر: الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد، (٢٠/٤٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي، (١٧/١٤٠، ١٤١).

قصة ذكرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها، والله أعلم.

وقصة ثمود على ما ذكر ابن إسحاق وغيره أن عاداً لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض، وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم، فعتوا في الأرض وعبدوا غير الله ـ تعالى ـ فبعث الله ـ تعالى ـ إليهم صالحاً، وكانوا قوما عرباً وكان صالح ـ عليه السلام ـ من أوسطهم نسباً، وبُعث إليهم وهو شاب فدعاهم إلى الله ـ تعالى ـ حتى شمط وكبر، ولم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم بالدعاء والتخويف سألوه أن يريهم آية تصدق ما يقول فقال لهم: أية آية تريدون؟ فقالوا: تخرج غداً معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم، فتدعوا إلـهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا وخرج معهم، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة ـ ناقة مخترجة، أي تشاكل البخت، أو: مخرجة على خلقة الجمل جوفاء[١] وبراء[٢]، فإن فعلت صدقناك وآمنا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي؟ قالوا: نعم، فصلى ركعتين ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج لولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء[٣] جوفاء وبراء كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله ـ تعالى ـ عِظماً، وهم ينظرون، ثم نتجت

(١) جوفاء: عظيمة الجوف. أي: البطن.

(٢) وبراء: الوبر صوف الإبل، وناقة وبراء، أي: كثيرة الصوف.

(٣) عُشراء: كفُقَهاء وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر.

ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط من قومه، وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب ـ صاحب أوثانهم ـ ورباب ابن صعر ـ كاهنهم ـ فلما خرجت الناقة قال لهم: هذه ناقة الله لها شِرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقبها[1] في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترده غباً[2] فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن: بئر الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، ثم ترفع رأسها وتنفحج لهم فيحلبون ما شاءوا من اللبن فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها، حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاءوا ويدخرون ما شاءوا ليوم الناقة، ولم يزالوا في سعة ورغد، وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي، فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي في حره وجدبه، وتشتو في بطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب، فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله ـ تعالى ـ بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم، فأجمعوا على عقرها، وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحداهما: عنيزة بنت غنم بن مجاز وتكنى بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مسنة ذات بنات حسان، وذات مال من إبل وبقر وغنم، ويقال للأخرى: صدوق بنت المختار، وكانت جميلة غنية ذات مواشٍ كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح ـ عليه السلام ـ وكانتا يحبان عقر الناقة لما أضرت من مواشيهما، فدعت صدوق رجلاً يقال له: الحباب، لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبي فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل

---

(١) سَقبها: السقب ولد الناقة، وقيل: الذكر من ولد الناقة.

(٢) غِباً: بالكسر في سقي الإبل يوم ويوم.

فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة أم غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه لزانية، ولم يكن لسالف لكنه ولد على فراشه، فقالت: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان عزيزاً منيعاً في قومه فرضي، وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود فأتبعهم سبعة فكانوا تسعة رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها ليراها قدار، ثم حثته على عقرها فشد على الناقة بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ورغت رغاة[1] واحدة فتحدر سقبها من الجبل، ثم طعن قدار في لبتها[2] فنحرها، فخرج أهل البلدة فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هارباً حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له: قارة، فرغا ثلاثاً وكان صالح ـ عليه السلام ـ قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل، وراموه فلم ينالوه، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: لكل رغوةٍ أجلُ يوم، تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب.

وعن ابن إسحاق أنه تبع السقب من التسعة أربعة وفيهم مصدع، فرماه بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله، وألقوا لحمه مع لحم أمه، وقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله ـ تعالى ـ فأبشروا بعذابه ونقمته، فكانوا يهزأون به ويقولون: متى هو؟ وما آيته؟ فقال: تصبحون غداً ـ وكان يوم الخميس ـ ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم

---

(١) رغت رغاة: الرغاء صوت ذوات الخف.

(٢) لبتها: بوزن الحَبَّة، أي: المنحر.

مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فهمّ أولئك الرهط بقتله فأتوه ليلاً فدفعتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم. ثم هموا به فمنع عنه عشيرته، ثم لما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه، فهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم: بنو غنم، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب، فطلبوه منه فقال: ليس لكم إليه سبيل، فتركوه وشغلهم ما نزل بهم، ثم خرج ـ عليه السلام ـ ومن معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا جميعاً إلا جارية مقعدة يقال لها: ذريعة بنت سلف، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح ـ عليه السلام ـ فأطلق الله ـ تعالى ـ رجليها بعد أن عاينت العذاب، فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى، فأخبرتهم الخبر، ثم استسقت ماءً فسُقيت، فلما شربت ماتت، وكان رجل منهم يقال له: أبو رغال ـ وهو أبو ثقيف ـ في حرم الله ـ تعالى ـ فمنعه الحرم من عذاب الله ـ تعالى ـ فلما خرج أصابه ما أصابهم، فدفن ومعه غصن من ذهب. وروي أن النبي ﷺ مر بقبره فأخبر بخبره، فابتدره الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بأسيافهم، فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن. وروي أنه ـ عليه السلام ـ خرج في مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً، فعلم أنهم قد هلكوا(١).

---

(١) تفسير الألوسي، (٨/١٦٦، ١٦٧).

المبحث الثالث

مصير الكافرين المكذبين

انتقام الله من ثمود

لما جرت سنة الله في خلقه أن يبعث إلى كل أمة رسولاً، يدعوهم إلى إخلاص العبادة له، وإلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم، فإذا ما أصروا على كفرهم وضلالهم، ولا سيما بعد طلبهم المعجزة فإن الله ـ جل وعلا ـ ينتقم منهم شر انتقام، لتكذيبهم وتعنتهم أولاً، ثم لاستخفافهم بما طلبوه من البينة، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾(١).

لم يبالِ قوم ثمود بما حذرهم الله به من أمر الناقة، وعدم مسها بسوء فضلاً عن عقرها، والعقر هو بمعنى القتل، قال الأزهري: «أصل العقر عند العرب قطع عرقوب البعير، ثم استعمل في النحر لأن ناحر البعير يعقره، ثم ينحره»(٢).

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ وقد بينت سورة القمر أن الذي عقرها واحد منهم هو ـ على ما رُوي ـ قدار بن سالف، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾(٣) أي: فتعاطى الأمر العظيم الذي لا يجترىء على فعله أحد، وإسناد

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/١٦٥)، وانظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/٢١٥).

(٣) سورة القمر: الآية (٢٩).

الفعل إلى الكل ﴿فعقروا﴾ مع أن المباشر البعض: مجاز لملابسة الكل لذلك؛ لأنهم كانوا جميعاً راضين به، راغبين فيه، وقد تسببوا فيه بالنداء والتحريض، فكانوا في الجرم كالمباشر له سواء بسواء، ولذا أسندته سورة الأعراف إليهم جميعا و«أل» في الناقة للعهد، أي: فعقروا الناقة العظيمة التي نصبها الله ـ تعالى ـ آية لهم على قدرته، ووجوب الإيمان به، ونبذ الشركاء والأنداد، ولم يفرضها الله عليهم بل هم الذين ألحوا في طلبها، وكانت آية عظيمة من آيات الله بحق، فهي لم تكن نتاجاً لناقة أخرى كسائر النوق، بل انشقت عنها الصخرة، فخرجت ناقة قوية لم تمر بأطوار كل مولود متدرجة من الصغر إلى الكبر، كما أنها ولدت فصيلها دون أن ينزو عليها فحل ـ كما قيل ـ أضف إلى ذلك أنها كانت تعطيهم لبناً بقدر ما شربته من الماء في يومها، فهي لا محالة آية عظيمة، ومع ذلك أقدم أشقاهم على هذا الفعل العظيم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾(١) أي: اجترأ على عقر الناقة، فتعاطى قدار بن سالف الأمر العظيم واجترأ عليه، وهو عقر الناقة، أو تعاطى السيف فعقر به الناقة، فالمفعول به مسكوت عنه لتهويل الأمر وتفظيعه.

﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمره، مع أن طاعته واجبة عليهم لأنه قادر على معاقبة من خالف أمره، لأنه إلـه لا يعجزه شيء، والملك كله خلقه وفي قبضته، وقد استقر في قلوب الناس أن من كان بهذه المثابة لا يجترىء أحد على مخالفة أمره، فإذا انضم إلى ذلك أنه ربهم، أي: المدبر لشئونهم، والمتولي تربيتهم، والمصلح لإعوجاجهم، والناقل لهم من الطفولة العاجزة واليفوعة الضعيفة إلى الشباب والقوة، والمطعم لهم من خيره في

(١) سورة الشمس: الآيتان (١١، ١٢).

الأرض، ومن مائه من السماء، فكيف يستكبرون عن أمره وهو بهذه المثابة؟ وقد ألِف وعرف أنك أسيرُ مَن يغمرك بإحسانه من الخلق، فكيف بإحسان الخالق؟ فالإضافة في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ تدل على كل ما ذكرت، وتسوق إليه.

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾ مخاطبين له ـ عليه السلام ـ بطريق التعجيز والإفحام ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، وأطلق للعلم به، والأمر هنا للإعجاز لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى له ذلك، وعبر بقوله: ﴿تعدنا﴾ أي: أكثرت من ذكره على مسامعنا فلو كان حقاً كما تزعم لوقع.

ولقد غرّهم حلم الله عليهم، فبدلاً من أن يشكروه على الإمهال فيثوبوا ويتوبوا، اتخذوا الإمهال سبيلاً للتكذيب، ولذا قالوا لنبيهم: ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1] مستخدمين كلمة ﴿إن﴾ التي غالبا للشك في وقوع ما بعدها، والمعنى: لست من المرسلين، وإنا لنشك كثيراً في رسالتك، ولذا نستعجلك في نزول ما توعدتنا به، لأننا نعلم أنه لا يكون.

ولقد كان صراعاً مريراً بين الحق والباطل، فإن الإنسان إذا قسا قلبه، وعميت بصيرته؛ سدَّت منافذه إلى الحق فغدا اليقين عنده باطلاً، أو شيئًا مشكوكاً فيه، ولقد عانى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أممهم أشد المعاناة، ولقوا من العنت ما يزول معه كل حلم، ويطيش له كل عقل، ولقد تحملوا من صنوف البلاء من أممهم ما لا يطيقه غيرهم، فالله يعلم حيث يجعل رسالته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2] ولا تعجب إذا سمعت ربك يقول لسيدهم وإمامهم: ﴿ وَلَوْلَآ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٥).

﴿ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾(١) لصبره على أعدائه، وما تحمله في سبيل الدعوة من الأذى، والمعنى: لم تركن إليهم لأننا ثبتناك، وإن حصل الركون منك فلن تستمر فيه، ولن يكون إلا شيئاً قليلاً، وإنا فطرناك على أكمل الصفات، وجعلناك جعلاً خاصاً، فمثلك ـ بدون التثبيت ـ لا يكون منه ركون إلا شيئاً قليلاً، فكيف وقد ثبتناك ومكنا لك بما قضيناه في علمنا الأزلي من نصرك ودحر أعدائك؟.

وسيمر بك من هذا الصراع في المستقبل من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة، ما يجعلك تعتصر شفقة لما لقيه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من عنت وضيق وغم للعتو عن الحق، والمكابرة فيه مع ظهوره.

ولذلك لم يمهلهم الله بعد قولهم: ﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾(٢) بل عجل لهم ما استبطأوه من العذاب، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: استولت عليهم وملكتهم، ولم تدع منهم أحداً، وهي نهاية عذابهم، والمراد بالرجفة الزلزلة الشديدة، ونتيجةً لذلك قال تعالى معقباً: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾(٣).

وقال ـ جل وعلا ـ في سورة هود: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾(٤) وتلاحظ تعدد التعبير القرآني في وصف العذاب الذي حل بقوم صالح(٥) وبعض المفسرين يرى أن الرجفة والصيحة

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٤).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٧).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٨).
(٤) سورة هود: الآية (٦٧).
(٥) جاء في الأعراف بوصفه بالرجفة، وفي هود والعنكبوت بالصيحة، وفي الذاريات بالصاعقة، وفي الحاقة بالطاغية.

شيء واحد[١] وأنهم لما زلزلوا كان لزلزلة الأرض بهم صوت قوي شديد، بحيث لو سمعه غيرهم لخلع به قلبه، فما بالك بهم؟

وبعضهم يرى أن جبريل ـ عليه السلام ـ صاح بهم صيحة شديدة أخرست ألسنتهم وأصمَّت آذانهم، ثم رجفت بهم الأرض، وطغى عليهم العذاب وهم ينظرون، فلا يملكون خلاصاً مما هم فيه لأن عقولهم التي يهتدون بها قد ذهبت، وألسنتهم التي ينذر بها بعضهم بعضاً بخطورة ما دهمهم قد خرست، ولعلك تلمح هذه المعاني في قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾[٢].

وأنا أرجح أن تكون الصيحة عذاباً غير الرجفة وغير الصاعقة، فالصيحة في هود صوت جبريل ـ عليه السلام ـ والرجفة في الأعراف صوت زلزلة الأرض بهم، والصاعقة في الذاريات مجموع ما حصل لهم من الأمرين، أو أنها نار سقطت عليهم من السماء مع اضطراب الأرض بهم، والطاغية في سورة الحاقة معناها الطامة العظيمة والعذاب الشديد، والداهية التي لم يجدوا لهم منها مخلصاً لأن الطغيان مجاوزة الحد، فلا غرابة بعد ذلك من تسمية عذاب ثمود رجفة مرة، وصيحة وصاعقة وطاغية مرة أخرى، لأن ما حل بهم قابل لأن يسمى بتلك الأسماء على رأي من يراه شيئاً واحداً، أو أنها أنواع مستقلة من العذاب كما رجحته سابقاً، وأن كل تلك الأنواع قد حلّت بهم، ولا تناقض فيه فالتعبير بهذه الأنواع سائغ ومقبول، ولا يؤدي إلى الطعن في القرآن بدعوى التناقض والاضطراب في تسمية الشيء الواحد بعدة أسماء كما يزعم الملاحدة الطاعنون

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/٦٢).
(٢) سورة الذاريات: الآيات من (٤٣) إلى (٤٥).

في القرآن بتصيد هذه الأشياء التي يشوشون بها على قلوب الضعفاء[١].

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٧٨﴾[٢] أي: ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون، وهذا دليل على شمول العذاب لهم، إلا ما كان من أمر الجارية - على ما قيل - التي أخبرت عنهم، كما سلف في قصتهم، وقد هلكت هي الأخرى.

و(الفاء) تشير إلى سرعة أخذ العذاب لهم، وأن الله لم يجعل لهم مهلة يراجعون أنفسهم فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فتولى عنهم﴾ أي صالح - عليه السلام - بعد أن أعلمه الله بهلكتهم، وقال موبخاً ومؤنباً لهم ومظهراً بلوغه في دعوتهم المدى الممكن:

﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي﴾ واجتهدت في هذا الإبلاغ أيما اجتهاد، وقابلتم ذلك مني بالصدود والعناد، ولا تقل كيف خاطبهم بذلك، وهم موتى هالكون؟ والجواب أنه قال لهم ذلك في أول المهلة التي أعطوها، أو أنه قال لهم ذلك بعد ما ماتوا فعلاً، ولا غرابة فيه، فأهل القبور يسمعون وإن كانوا لا يجيبون[٤] ﴿ونصحت لكم﴾ أي: محضت النصيحة خالصة لكم،

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/١٦٥، ١٦٦) وتفسير الألوسي (٨/١٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٣) سورة هود: الآية (١٠٢).

(٤) كما خاطب رسول الله ﷺ المشركين بعد قتلهم يوم بدر: «يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٣٠٤).

=

واجتهدت فيما يصلحكم، ولـٰكن لا تحبون الناصحين، أي: تكرههم قلوبكم مع حرصهم عليكم، ومن هذا الباب كان هلاكهم.

وقـولـه تعالى: ﴿ولـٰكن لا تحبو الناصحين﴾ أي: لا تحبون الأنبياء، فنُصح كل نبي سبق لأمتـه هو نصـح للأمة اللاحقة، وهذا لا يعني عموم رسالتهم، ويجوز أن يكون المعنى: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ من المؤمنين الذين آمنوا بصالح ـ عليه السلام ـ فإنهم كانوا يشاركونه في نصح الضالين من قومه، والله أعلم.

= وانظر: السيرة النبوية لابن هشام، فقد أورد القصة مع اختلاف يسير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د . ت)، المجلد الثاني، ص٢٩٢.

الفصل الخامس

الصراع بين لوط - عليه السلام -

وبين زوجته خاصة وقومه عامة

الفصل الخامس

الصراع بين لوط عليه السلام وبين زوجته وقومه عامة

مقدمة : التعريف بلوط ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

المبحث الأول : الصراع بين لوط وبين زوجته وقومه.

* وفيه شرح للأساليب التي اتخذها لوط ـ عليه السلام ـ في دعوته قومه مع بيان نوع المعصية التي كانوا عليها مع ذكر أضرارها على المجتمع.

المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين لدعوة لوط ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثالث : مصير الكافرين المعاندين المُصرِّين على الفاحشة.

* الأبحاث الطبية الحديثة عن أضرار فاحشة اللواط.

لـوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ

مقدمـة :

القصة الرابعة من قصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ التي تجسد الصراع بين الحق والباطل في سورة الأعراف؛ قصة لوط ـ عليه السلام ـ وقد أجملتها سورة الأعراف في خمس آيات، بيّن الله فيها دعوة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه بترك الفاحشة التي عرفوا بها بين سائر البشر، وموقفهم من هذه الدعوة، ونهايتهم لما أمعنوا في تكذيبه والتبرم بدعوته.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1].

وينبغي قبـل أن أشرع في تفسـير هذه الآيات وتحليلهـا أن أذكر نبذة مختصرة حول نسب لوط ـ عليه السـلام ـ وعـلاقته بقومه لحاجة البحث إلى ذلك، وإليك بيان ذلك.

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٨٠) إلى (٨٤).

التعريف بلوط ـ عليه السلام ـ

اختلف العلماء والنسابون في نسب لوط ـ عليه السلام ـ وفي صلة القرابة التي بينه وبين أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال الحاكم في مستدركه: «قد اتفقت الروايات فى أنه من بيت إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم اختلفوا: أهو من ولده أو من ولد أخيه؟»(١).

وجمهور العلماء(٢) والنسابون ذهبوا إلى أنه ابن أخي إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ولوط النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ابن أخي إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ قال الذهبي معقبا: صحيح»(٣) وعليه فلوط هو ابن هاران بن تارح(٤) وهو: آزر.

ولقد تأثر لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعمه إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ ولمس في عمه قدوة حسنة، وإيماناً راسخاً، فصدقه في جميع ما جاء به، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾(٥) أي: صدَّق

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٦٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ١٧٦).
انظر: البدء والتاريخ للبلخي، (٣/ ٥٦).
انظر: روح المعاني للألوسي، (٨/ ١٦٨).
انظر: فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٢٢، ٤/ ١٩٩).
انظر: أخبار الدول وآثار الأول للقرماني، (ص٣٠).
انظر: لوط ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقومه على ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير للزميل/ناصر النصار، من ص (٣٢-٣٥).

(٣) المستدرك للحاكم، (٢/ ٥٦١).

(٤) انظر: تاريخ الطبري، (١/ ٢٩٢).

(٥) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

لوط إبراهيم في جميع ما جاء به عن ربه، ولازم لوط عمه إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - متحملاً معه مشاق الدعوة، حيث كان المجتمع - بلاد الرافدين العراق حالياً - متعصباً للوثنية، مصراً عليها، حتى أذن الله لهما بالهجرة من العراق - أرض بابل - إلى الأرض المباركة، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾(١) ولما هاجر إبراهيم ولوط إلى أرض الشام، هيأ الله - جل وعلا - لوطاً - عليه الصلاة والسلام - للنبوة، وأرسله إلى قومه في ناحية الأردن، وإلى ذلك يشير قوله - تعالى - على لسانه: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾(٢) أي: قال ذلك لعمه - عليه السلام - ولما تخوّف عمه عليه من أهل الناحية التي يبغي الهجرة إليها، لما كانوا عليه من سوء الخلق، وأنه وحده لا يستطيع مقاومتهم، والثبات لهم، قال لعمه ما حكاه الله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الغالب الذي ينصر من اعتز به وإن كان وحيداً ﴿الحكيم﴾ فيما هيأني له وبعثني إليه، واستقر لوط - عليه السلام - في الأرض المباركة - فلسطين ؛ في قرية سدوم - وكانت سدوم أعظم وأجمل قرى قوم لوط، التي اُختلف في ضبطها اختلافٌ كثير ليس هناك مجال لبسطه، والذي عليه المفسرون(٣) والمؤرخون(٤) هو ما جاءت به الرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره بسند حسن من طريق محمد بن كعب القرظي: «إن المؤتفكات - قرى لوط - كُن خمساً: صيغة، وصفرة، وعمرة، ودوما، وسدوم وهي القرية العظيمة»(٥). وكان موقع بلاد قوم لوط كما تشير المراجع والكشوف الجغرافية بين

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٥٥) وتفسير ابن جرير، (١٥/ ٤٢٢).

(٤) انظر: أخبار الدول وآثار الأول ص(٣١) للقرماني.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم - سورة هود - رقم الأثر (٥٧٥) ص(٣٢٥).

الحجاز والشام، وعلى وجه التقريب ما يعرف بالبحر الميت والذي كان يسمى فيما سبق ببحيرة زغر أو البحيرة الممتنة[1].

وأشار القاسمي في تفسيره نقلاً عن صاحب كتاب مرشد الطالبين أن بحـر لوط هو بحـر سدوم، ويدعى أيضاً بالبحر الميت، وهو بركة مالحة في فلسطين طولها خمسون ميلاً وعرضها اثنا عشر ميلاً، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدما وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم[2] اهـ.

ولقد أشارت كتب التاريخ أن بلاد قوم لوط كانت من أبدع بلاد الله وصفاً وجمالاً، مليئة بالخيرات، غنية بالمياه، كثيرة الأشجار والحبوب والثمار[3] وكان جديراً بأهلها أن يشكروا الله ـ جل وعلا ـ ويخلصوا له العبادة لما حباهم الله به من النعم الكثيرة لا سيما وقد بعث إليهم نبيهم لوطاً ـ عليه السلام ـ ناصحاً لهم ومنقذاً لهم من الكفر والجهل الذي خيم عليهم، ولابد قبل أن أتطرق لدعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه أن أشير باختصار إلى صلة لوط ـ عليه السلام بقومه.

---

(١) لوط ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقـومـه على ضوء الكتـاب والسنـة، رسـالـة مقـدمـة من الزميل/ناصر أحمد نصار لنيل درجة الماجستير، ص(١٥١).

(٢) تفسير القاسمي (٧/٢٠٢).

(٣) انظر: آثار البلاد للقزويني ص(٢٠٢) وأخبار البلاد للقرماني ص(٤٥٥) وجاء في تقويم البلدان: إن بحيرة زغر جنوبي مدينة أريحا على بعد شوط فرس، وتعرف هذه البحيرة بالبحيرة الممتنة وليس فيها حيوان ولا سمك ولا غيره... وعلى القرب من البحيرة الممتنة كانت ديار قوم لوط، وهي ديار تسمى بالأرض المقلوبة، وليس بها زرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء فرش بها حجر كلها متقاربة في الكبر ويروى أنها من الحجار المسمومة التي رمي بها قوم لوط؛ انظر: تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل، ص(٢٢٨).

صلة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقومه :

إن الدارس لدعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يلاحظ أن غالب الأنبياء كان مبعثهم في وسط ذويهم وعشيرتهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في بحثنا عند دراستنا لنوح وهود وصالح ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . . . إلخ .

أما لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم يكن يربطه بقومه أي نسب، ولقد هاجر ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع عمه من بلاد بابل بالعراق ـ كما سبق أن أشرت إلى ذلك ـ إلى بلاد الشام حيث بعثه الله فيها نبياً لهؤلاء القوم، لذلك نلاحظ اختلاف السياق القرآني في قصة لوط عما سبقها من قصص الأنبياء الذين سبقوه، والتي أشارت إليهم سورة الأعراف .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[2] وقال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[3] وقال تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[4] .

ولم تذكر أخوة لوط لقومه اللهم إلا في سورة الشعراء، وسورة ق، أما في الشعراء فقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾[5] .

وللبقاعي كلام نفيس في بيان معنى الأخوة المرادة من الآية :

---

(١) سورة الأعراف : الآية (٥٩) .
(٢) سورة الأعراف : الآية (٦٥) .
(٣) سورة الأعراف : الآية (٧٣) .
(٤) سورة الأعراف : الآية (٨٠) .
(٥) سورة الشعراء : الآية (١٦١) .

قال ـ رحمه الله ـ: «أخوهم في السكنى في البلد لا في النسب ؛ لأنه ابن أخي إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهما من بلاد المشرق من بابل، وكأنه عبر بالأخوة لاختياره لمجاورتهم، ومناسبتهم بمصاهرتهم، وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدة، وسنين عديدة، وإتيانه بالأولاد من نسائهم . . . »[1].

أما في سورة ق قال تعالى: ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[2] وقد فسر البيضاوي الأخوة بقوله: «سمَّاهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره»[3].

(١) نظم الدرر للبقاعي، (١٤/ ٨٠).
(٢) سورة ق: الآيتان (١٣، ١٤).
(٣) تفسير البيضاوي، ص(٦٨٧).

المبحث الأول
دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه

وأشرع الآن في دعوة لوط ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقومه وموقفهم منه وعاقبتهم، فأقول وبالله التوفيق:

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[1].

وقبل الشروع في تفسير هاتين الآيتين أقول للقاريء الكريم: إن قوم لوط كانوا كفاراً بالله ورسله، ولقد دعاهم لوط ـ عليه السلام ـ كسائر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من قبله ومن بعده إلى توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان به لأن توحيد الله يقود الإنسان إلى تطبيق سننه وشرعه، ويزجره عن ارتكاب الفواحش والرذائل، ولكن القرآن لم يصرح بذلك لأنه معلوم معروف، لكنه ركز على ذكر فاحشتهم التي انفردوا بها من بين سائر العالمين لتفشّيها واستحكامها فيهم، فنبْذُها وتقبيحها والإنكار بها عليهم أهم في الذكر من دعوته إياهم لعبادة الله وحده، فلم يكن قوم لوط ـ عليه السلام ـ كما قد يُظن موحدين عصاة بل الواقع أنهم كانوا كافرين، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

فهاتان الآيتان مصرحتان بكفر قوم لوط، وأنه لم يكن فيهم بيت مؤمن إلا بيت لوط ـ عليه السلام ـ ولذلك دارت قصته في القرآن الكريم على تقبيح

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨٠، ٨١).

(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٣٥، ٣٦).

تلك الفاحشة التي شاعت فيهم، وانفردوا بها، ولم تعرف إلا لهم، ولم تورث في بعض الناس إلا من بعدهم، فهذا هو السبب في انفراد هذه القصة بهذا الأسلوب عما قبلها وعما بعدها في سورة الأعراف، بل وفي سائر القرآن الكريم كما ذكرت.

فقوله تعالى: ﴿ولوطا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره واذكر، أي: يا محمد ﷺ الوقت الذي قال فيه لوط لقومه ما قال، وتسلّ به عما تلقاه من بلاء قومك ومعاندتهم وإنكارهم، فإن لوطاً ـ عليه السلام ـ كان يتصدى وحده لقوم ذوي هلع واندفاع فيما يأتون من فاحشتهم التي لم يخالجهم أي شك في استحسانها، مما جعلهم يتهكمون بلوط وآله المؤمنين الذين يتبرّأون من تلك الفاحشة، بما حكاه الله عنهم أكثر من مرة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾(١) وذكر الوقت متضمن لما يقع فيه من أحداث، وقوله تعالى: ﴿إذ قال لقومه﴾ أي: بلا خوف منهم، متوكلاً على ربه معتزاً به.

ولم يمنعه أن قومه لم يكن فيهم عاقل من أن يقول لهم ما قال، فإن من سبقه من الرسل ومن لحقوه لا يعدمون أن يجدوا في أقوامهم عاقلاً أو عقلاء، يصغون لدعوتهم، ويستجيبون لهم إلا لوطاً ـ عليه الصلاة والسلام، فإنه لم يجد في قومه عاقلاً قط، ولا مستجيباً سوى أولاده ـ عليه السلام. وحتى امرأته التي الشأن فيها أن تتعصب لزوجها، فإن لم تعنه لا تنقلب عليه، قد خانته(*) وقوله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

(*) ومرادي بقولي: (خانته) أي: بإفشاء سره فكانت تدل قومها على الضيف، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ سورة التحريم: الآية (١٠). انظر: تفسير الألوسي، (٢٨/ ١٦٢)، والنسفي، (٤/ ٢٧٢).

﴿أتـأتـون الفـاحشـة﴾ جيء به بأسلوب الاستفهام، لشديد إنكاره عليهم وتوبيخهم على إتيانه ما يستنكره كل ذي طبع سليم، ومعنى ﴿أتأتون﴾ أي: تفعلون ذلك، وتستعلنون به في نواديكم، وتفتخرون بفعله، والمراد بالفاحشة إتيانهم الذكور بدل الإناث، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠ ﴾[2] أي: بهذه الفاحشة القبيحة التي سلف ذكرها ﴿من أحد﴾ أي: من أصناف المخلوقات التي لا تعقل[3]، فضلاً عن الأناس العقلاء، والمعنى: ما رأيتم من الحيوانات ذكرا ينزو على ذكر ويترك أنثاه، مع كثرة أصناف الحيوانات وتنوعها، وما سمعتم بأحد من الناس غيركم يعملها، فما لكم لا تقلعون عنها بعد هذا التقبيح؟ وما لكم تخالفونني وتنازعونني فيما لا يقبل النزاع؟ وقد قرر المفسرون[4] في ﴿من﴾

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٥، ١٦٦).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٠).
(٣) ذكر القرطبي في تفسيره نقلاً عن محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار (٧/ ٢٤٥). وأشار إلى ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان وخلاصته: ليس من البهائم من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار، وإن فعل ذلك فغايته الشهوة فقط، ليس يخطر بباله أن ذلك الماء يُخلق منه شيء، ثم ذكر قول ابن سيرين الآنف الذكر. انظر بتصرف من الحيوان للجاحظ (١/ ١١٠).
(٤) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٦٨).
انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٤٥).
انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٩).
انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٥).

الأولى: بأنها مزيدة في سياق النفي، ليفيد العموم والاستغراق، وفي الثانية: بأنها للتبعيض.

والمعنى: إن تلك الفاحشة لم تصدر من بعض العالمين منذ خلقوا فضلاً عن جميعهم إلا ما كان منكم، والمراد بالعالمين: بنو آدم، فكيف لا تنزجرون عنها؟

قال أبو السعود: والجملة مستأنفة، مسوقة لتأكيد النكير، وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح، واختراعه أقبح، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق، وتشديداً للتوبيخ[1] بقوله سبحانه: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة﴾ أي: رغبة مفرطة في هذا الإتيان كأنه أمر سليم لا يلام عليه، قال الألوسي: شهوة مفعول له، أو مصدر في موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد، وبقاء النوع، لاقضاء الشهوة[2].

و«أل» في الرجال يمكن أن تكون عوضاً عن مضاف إليه، بمعنى: إنكم يأتي بعضكم بعضاً، تاركين نساءكم اللائي أعدهن الله لقضاء الوطر، واستنبات الولد، أو: إنكم عازفون عن النساء بالكلية إلى هذه الفاحشة التي تأتونها. ويجوز أن تكون «أل» جنسية، والمعنى: إنكم تأتون جنس الرجال منكم ومن غيركم إذا أمكنكم ذلك، وفي إيراد لفظ «الرجال» دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ[3]. قال الحسن: كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء[4].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/٢٤٥).
(٢) تفسير الألوسي، (١٤/ ١٧٠).
(٣) انظر: الألوسي، (٨/ ١٧٠).
(٤) انظر: الفخر الرازي، (١٤/ ١٦٨).

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وإنما سيء بهم لوط وضاق بهم ذرعاً، لأنهم ملائكة جاءوه في صورة بشر حسان وضاء الوجوه، ولوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم ما سيكون من قومه عندما يعلمون بمجيئهم، ولذلك لما قال لقومه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ . . .﴾[2] الآيات وسأعود إلى هذه الآيات مرة أخرى عند كلامي عن عذابهم.

ولما لم يصغوا لدعوته ـ عليه السلام ـ بعد هذا الأسلوب القوي أضرب عنهم فقال ما قصه الله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[3] أي: متجاوزون الحد فاعلون مالا يقركم عليه أحد، كما وصفهم بالعدوان والجهل في الشعراء والنمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[4] ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾[5] وقوم اجتمع فيهم الإسراف والعدوان والجهل لا يرجى منهم أن يستجيبوا لله ولرسوله لوط ـ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سورة هود: الآيات من (٧٧) إلى (٧٩).

(٢) سورة هود: الآية (٨٠-٨١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨١).

(٤) سورة الشعراء: الآية (١٦٦).

(٥) سورة النمل الآية (٥٥).

هذا ولم يكتف قوم لوط بما استحدثوه من إتيان الذكور، بل كانوا يتخبطون في كل ما استهوته نفوسهم من أنواع الفساد والمنكر، وقد جمع الله ـ سبحانه ـ ما هم عليه من المعاصي في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾(١).

فقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: تفعلون اللواط، وعبر سبحانه هنا بلفظ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ كما سبق أن ذكرت دون الذكران زيادة في بيان مدى قبحهم وفسادهم، وإلى ذلك أشار الألوسي في تفسيره: «وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربيته التقبيح....»(٢).

وقوله: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ ورد في تفسيره عدة معان:

أحدها: كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم(٣).

ثانيها: كانوا يأخذون الناس من الطرق لفعل الفاحشة بهم(٤).

ثالثها: كانوا يقطعون سبيل النسل بإتيانهم ما ليس بحرث(٥).

رابعها: كانوا يقطعون الطريق بقبح الأحدوثة(٦).

قال القرطبي: «ولعل الجميع كان فيهم....»(٧).

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٢٩).

(٢) تفسير الألوسي (٢١٦/١٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤١١/٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير، (٤١١/٣)؛ والقرطبي (٣٤١//١٣)؛ والكشاف للزمخشري، (٢٠٤/٣).

(٥) انظر: المراجع السابقة.

(٦) انظر: تفسير أبي حيان (١٥٠/٧)؛ وتاريخ الأنبياء للنجار، (ص١١٢) وانظر: تفسير الألوسي، (١٥٣/٢٠).

(٧) انظر: تفسير القرطبي،، (٣٤١/١٣).

أما قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ النادي والندى والمنتدى: مجلس القوم ومتحدثهم[١].

والمنكر: ما تنكره العقول والشرائع والمروءات[٢].

أخرج الترمذي[٣] وحسنه والحاكم[٤] وصححه وأحمد[٥] في مسنده عن أم هانيء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم»، وقد ذكر المفسرون أقوالاً أخرى مثل أنهم كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ، وكانوا يتضارطون ويتضاحكون، وكانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، ولا مانع أنهم كانوا يفعلون كل تلك المنكرات[٦].

---

(١) تفسير الشوكاني، (٤/٢٠١).

(٢) انظر تفسير ابن حبان، (٧/١٥٠).

(٣) سنن الترمذي في تفسير سورة العنكبوت، حديث رقم (٣١٨٩).

(٤) المستدرك للحاكم، (٢/٤٠٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) مسند الإمام أحمد، (٦/٣٤١، ٤٢٤).

(٦) تفسير ابن كثير، (٣/٤١١).

المبحث الثاني
موقف قوم لوط من دعوته ـ عليه السلام

اعلم أن موقف قوم لوط من دعوته لهم إلى الفضيلة والخير كموقف سائر الكفار والمعاندين، هو الإباء والاستكبار والإمعان في معارضة دعوة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير أن القرآن الكريم لم يصفهم بالتكذيب والاستكبار كما وصف قوم نوح بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وكما وصف قوم صالح بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾[2] الآية. . . إلى آخر ماذكر من سائر أوصاف الأمم الكافرة.

بل ذكر لهم جواباً عجيباً كرره الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم ثلاث مرات: مرة في سورة الأعراف، ومرة في سورة النمل، ومرة في سورة العنكبوت، لتستدل بهذا التكرار على سوء ما كانوا عليه، وما شاع فيهم من خلق ذميم، ينفر كل كافر وكل مكذب إلا من كان على شاكلتهم بعد أن صدر ذلك منهم وكانوا هم أساسه.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[3] والمعنى: وما كان جواب قومه الذي أجمعوا عليه، واتفقوا على مواجهته به، إلا هذا القول السيء والتهديد

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٤).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٥).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

السخيف، الصادر من قوم بلغوا في الحقارة والخسة منتهاها، ولذا قدم خبر كان هنا على اسمها لأن كلمة ﴿جواب﴾ قرئت بالنصب. واسمها جملة ﴿إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم﴾ وقد ذكر جوابهم أولاً عاماً ثم حدده - تعالى - وبينه، لتستقبله أتم استقبال فلا يكون هناك ثم اعتذار عنهم، ولا أي قبول لخلقهم الذي كانوا عليه.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالواو. وفي سورة النمل[1] والعنكبوت[2] (بالفاء) لملحظ لطيف قد استنتجته بفضل الله، وهو أنه ذكر (بالواو) في الأعراف لبيان أنهم ما كانوا يجدون قولاً يخففون به حنقهم على لوط - عليه السلام - إلا هذا الجواب، وهذا دليل إمعانهم في تلك الرذيلة، فناسب لأجل هذا الفهم أن يذكر بالواو التي هي للاستئناف.

أما في النمل والعنكبوت، فالمقصود من ذكر الفاء فيهما أنهم كلما دعاهم نبيهم لوط - عليه الصلاة والسلام - إلى الإقلاع عن تلك الرذيلة، أسرعوا في الرد عليه بهذا الجواب، وتواصى بعضهم بعضاً لإخراجه وآله من قريتهم لئلا يفسد عليهم ما هم فيه؛ فكان ذكر الفاء فيهما أنسب.

وقد ذكر الألوسي - رحمه الله - وغيره لذلك تعليلات، تقوم كلها على الناحية اللفظية لا المعنوية، كقول الألوسي مثلا: ذكر ﴿وما كان جواب قومه﴾ في الأعراف بالواو لأن تلك الجملة مسبوقة بجملة اسمية هي قوله تعالى: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أما في النمل والعنكبوت فالآية مسبوقة بفعلين. والفاء أدخل في عطف الأفعال بعضها على بعض من الواو. قال الألوسي: وإنما جيء

---

(١) سورة النمل الآية (٥٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

بالواو في ﴿وما كان﴾ إلخ . . . دون الفاء كما في النمل والعنكبوت لوقوع الاسم قبل هنا والفعل هناك، والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسن دون التعقيب به بعد الاسم. وفيه تأمل. اهـ[1].

ومع احترامي وتقديري له، فلا أرى ما رأى، لأن الواو والفاء تذكران بحسب المعنى المقصود لا بحسب الصناعة اللفظية، ولعله قولٌ لبعض النحويين لا أعرفه، وهو ـ رحمه الله ـ أردفه بقوله: «وفيه تأمل» هذا من دقته وسعة فهمه، وقوله تعالى: ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ معناه: تواصوا به وأجمعوا على فعله، واحذروا أن يكون فيكم من يرى غير هذا الرأي.

وضمير الغيبة هنا يرجع إلى لوط ومن آمن به «من أهله» وقد قصد لوط بذلك تحقيرهم وتهوين شأنهم، وأرادوا بإخراجه مصادرة أمواله وطرده من مجتمعهم، وقوله تعالى: ﴿من قريتكم﴾ أي: من بلدكم التي نشأتم فيها وورثتموها عن آبائكم، وفي إضافة قريتهم إليهم إشارة إلى أن لوطاً وافد عليهم، ليس بأصيل فيهم، وليس له قبيل منهم يحميه ويدفع عنه.

وما كنا نعرف هذا التسفيه وذلك الإنكار علينا إلا بعد أن جاءنا وأسكناه بيننا، فعَلامَ نبقي عليه بيننا وحاله كما عرفتم؟! وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2] أي: يتنزهون عن تلك الفاحشة وغيرها مما نراه حسناً، ويرونه قبحاً وسوءاً، وهم لا يقصدون الثناء عليهم ولا مدحهم، بل قصدهم التهكم والاستهانة والاستهزاء، شأنهم شأن قوم وعظهم واعظ وهم ضائقون بكلامه فقالوا له: وعظك يعجبنا، تهكماً به، وهذا أسلوب شائع في العربية.

وهو على كل حال يدل على سفاهة قوم لوط. فما ظنك بمن يتهكم بالخير،

(١) الألوسي، (٨/١٧١).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

ويريدك على تركه إلى الشر بعامة، بَلْهَ تلك الفاحشة التي شاعت فيهم بخاصة؟.

وقد تتساءل لماذا قال الله تعالى في الأعراف: ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ وفي النمل: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[1].

وقد أجاب المفسرون عن ذلك: بأن بعضهم قال: ﴿أخرجوهم﴾ وبعضهم قال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ فحكى الله القولين في موضعين مختلفين من كتابه، إيذاناً بسخطه على كل من قال ذلك؛ وللمفسرين تأويلات خلاف ذلك[2].

وعندي أن الله ـ جل وعلا ـ راعى أحوالهم النفسية عندما صدر منهم هذا القول، فكانوا إذا ذكروا آل لوط بالتحقير قال: ﴿أخرجوهم﴾، وإذا ذكروهم بالغيظ وشدة الحنق قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾.

كقولك لمن تزدريه: إنه لا يستحق كذا، فإذا اشتد غضبك عليه قلت: إن فلاناً حقيق بالقتل، فمبعث التسمية شدة الغضب. وليس قولهم ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ بالقول الوحيد الذي صدر عنهم في الرد على دعوة لوط عليه الصلاة والسلام، بل قد حكى الله عنهم في العنكبوت أنهم لما أنكر عليهم لوط ما أنكر، تحدوه بأن يأتيهم بما توعدهم من العذاب إن لم يقلعوا عن تلك الفاحشة، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾[3]. وقد سبق تفسير

---

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

(٢) انظر: الألوسي، (٨/١٧١).

(٣) سورة العنكبوت: الآيتان (٢٩، ٣٠).

انظر كتاب: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور بن نايف زين العابدين، (١٦٥).

أول هذه الآيات بما يغني عن إعادتها[1]، أما قولهم: ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ فصريح بأن نفوسهم الأمارة بالسوء حدثتهم بأن لوطاً ليس صادقاً، ولن يحل بهم عذاب، أو تنزل بهم قارعة، ولن تتغير أحوالهم، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون.

ودعاء نبيهم عليهم بقوله: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾ كان بعد علمه أنه لاخير فيهم وأنهم لا يؤمنون.

وقد ركَّزَ القرآن الكريم على ذكر قوم لوط بالفاحشة، مع أنهم جمعوا إليها الكفر كما ذكرت في أول هذه القصة، لبيان أن عذاب الاستئصال في الدنيا لا يقع فقط بسبب الكفر، بل يقع أيضاً بسبب الانهماك في المعاصي، واقتراف الذنوب، ليتحامى العقلاءُ أهلَ الإيمان المعاصي، وليستفظعوها ولا يسمحوا بانتشارها وشيوعها، وأن يجتهدوا في الضرب على أيدي فاعليها. ولقد نوهت سورة الشعراء بموقف أضيفه إلى ما ذكرته سابقا، وهو أنهم نهوه عن التحدث معهم في شأن تلك الفاحشة، وأنه إن لم يكف عن ذلك فيكون مصيره الإخراج والطرد من بينهم، وقد بين لهم عليه السلام أنه لعملهم من المبغضين، وسيظل ينكره عليهم مادام حياً، وما داموا مقيمين على هذا السوء ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[2] أي: من المبغضين غاية البغض كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته[3].

ولما كان الأنبياء عليهم السلام في أتم أحوال العبودية لله تعالى، وأنهم ما أهلوا للنبوة إلا بفضل الله، وأنه لا مانع من أن يسلبوا ما أعطوا وما به شرفوا،

---

(١) انظر: ص، (٢٩٤) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٧، ١٦٨).

(٣) تفسير أبي السعود، (٦/٢٦١).

إذ الفضل منه وإليه، تضرع لوط لربه أن ينجيه الله وأهله مما يعمله قومه من الفاحشة ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1] فهذا القول منه من باب إظهار العبودية والتذلل لله تعالى، لا أنه يمكن أن يقع منه ذلك، لأنه من المستحيل عليه مادام نبياً معصوماً.

(١) سورة الشعراء: الآية (١٦٩).

المبحث الثالث
نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين

قال تعالى في ختام الآيات التي في سياق قصة لوط في سورة الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[(١)].

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: برحمتنا وقدرتنا، وهذا اللفظ يحتمل نجاته وأهله من أذى قومه، ويحتمل نجاته وأهله من العذاب الذي نزل بقومه. والرأي الثاني وإن كان أقرب إلى ما تقصده هاتان الآيتان إلا أن المعنى الأول أيضا قوي، لاسيما إذا عرفت أن لوطاً كان يجاهد فيهم وحده، ولم تكن له فيهم عصبية ولم يؤمن معه أحد منهم كما قررته في أول القصة.

والمراد «بأهله» بناته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء متصل مما قبله، والمعنى: إلا امرأته كانت في علم الله من الغابرين، أي: الباقين مع هؤلاء المهلكين أو الغابرين أي: هالكة مع الهالكين، لأن غبر تأتي بمعنى: بقي، وبمعنى: ذهب، فهو من الأضداد[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: كثيراً شديداً مخالفاً لما عُهد من مطر السماء، لأنه كان حجارة من سجيل مطبوخ، لا بنار البشر بل بنار خلاق القوى والقدر، مخصوصًا بهم، معداً لهم من عند الله تعالى كما بينته

(١) سورة الأعراف: آية (٨٣، ٨٤).
(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/١٧١).

سورة هود[١] والذاريات[٢].

وقوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عـٰقبة المجرمين﴾ خطاب لكل من يتأتى منه الخطاب ويوصف بالفهم، والغرض من هذا الفهم الاتعاظ بما وقع لقوم لوط والانزجار عن فاحشتهم، والمقصود أن عذابهم كان شديداً فظيعاً مميزاً من بين ما عذب به المكذبون من قبلهم ومن بعدهم، وهذا هو الأقرب لسياق الآية، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عـٰقبة المجرمين﴾ تعقيباً على ما مضى في سورة الأعراف من قصص نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط.

وعلى التفسير الأول: يكون تسمية قوم لوط بالمجرمين موافقاً لما كانوا عليه من سوء، لأنهم أخذوا من الإجرام أرذله وأخسه، فكانوا جديرين بهذه التسمية، وقد بينت سورة الأعراف نجاته وأهله، وهلاك امرأته، ونوعاً مما عذب به قوم لوط، سالكة في ذلك مسلك الإجمال، محيلة على ما فصل من أمر هذا العذاب ومقدماته في سورة أخرى كهود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات، والقمر، عدا ذكر المؤتفكات في التوبة، والنجم، والحاقة.

وقد اخترت آيات سورة هود لنقف على ذكر هذا العذاب بالتفصيل ومقدماته التي سبقته.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ

---

(١)، (٢) قال تعالى في سورة هود: ﴿فلما جآء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ الآيتان (٨٢، ٨٣) وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿قالوآ إنآ أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين﴾، الآيتان من (٢٢) إلى (٣٤).

رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾(١).

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة إلى نبيه لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد جاءوه في صورة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله للوط ولقومه، إذ مجيئهم على هذه الصورة جعل لوطاً لا يعرفهم، فكان منه ما قصَّه الله عنه وعن قومه في هذه الآيات ليعرف مدى ما عليه قومه من سوء الأخلاق، وذميم الفعال، وكيف أنه دافع عن ضيوفه مع هذا الموقف الحرج، ولله الحكمة والحجة البالغة، فلما رأى لوط قومه وقد جاءوه يحث بعضهم بعضاً مسرعين، ساءه مجيئهم، وضاقت نفسه بسببهم لأنه خاف على ضيوفه منهم، وقد خفي عليه حقيقتهم أخرج الطبري بسنده عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما جاءت الرسل لوطاً أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم: لا تهلكوهم حتى يشهد لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مضى ساعة التفت فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناساً أخبث منهم، قال: فمضى معهم، ثم

---

(١) سورة هود: الآيات من (٧٧) إلى (٨٣).

قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم، فلما بصرت بهم عجوز السوء امرأته، انطلقت فأنذرتهم»[١].

وفي رواية أخرى للسدي: وقالت لهم: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءه قومه يهرعون إليه[٢]. وقوله: ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ أي: شديد، وقوله: ﴿وجاءه قومه يهرعون﴾[٣] أي: يسرعون كأنما يدفعون دفعاً مما بهم من طلب الفاحشة.

﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش، حتى مرنوا عليها، وانعدم عندهم استقباحهم فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء[٤] وقوله: ﴿قال ياقوم هؤلاء بناتي﴾ فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً في ذلك الوقت.

وقوله تعالى: ﴿هن أطهر لكم﴾ قال القرطبي: أي: أزوجكموهن فهو أطهر لكم مما تريدون، أي أحل، والتطهر التنزه عما لا يحل، وقال ابن عباس: كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته، وليس ألف (أطهر) للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح (الرجال) طهارة،

---

(١) تفسير القرطبي، (١٣/ ٨١).

(٢) تفسير القرطبي، (١٣/ ٨٢).

(٣) يهرعون: يقال: أهرع الرجل: خف وأرعد من سرعة أو خوف أو حرص أو غضب، وفي التنـزيل: ﴿وجآءه قومه يهرعون إليه﴾ أي: يستحثون إليه كأنهم يحث بعضهم بعضاً. انظر: لسان العرب، بتصرف (٨/ ٣٦٩).

(٤) بتصرف. تفسير النسفي، (٢/ ١٩٨، ١٩٩).

بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجل ولم يكابر الله ـ تعالى ـ أحد حتى يكون الله ـ تعالى ـ أكبر منه(١).

﴿فاتقوا الله﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بالإيمان به وترك الفواحش، ﴿ولا تخزون في ضيفي﴾ أي: لا تهينوني وتفضحوني في حق ضيوفي، فإنه إذا أخزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة.

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، والكف عن السوء(٢).

والآيات الكريمة السابقة واللاحقة تصور لنا مدى تشبث أهل الباطل بباطلهم واستحسانهم له في نفوسهم، وإصرارهم عليه، وذلك يتمثل في قوم لوط وكيف أنهم أمعنوا في باطلهم أو بالغوا في فحشهم.

وفي الوقت نفسه يبرز موقف أهل الحق، واستنكارهم باطل أهل الباطل. ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ يتبع الحق ويهتدي إليه، ويرعوي عن الباطل القبيح، لكنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، لذلك أجابوه بمحض ما ترمي إليه أهواؤهم وشهواتهم.

﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ حاجة؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا، فمذهبنا إتيان الذكور.

قال الشوكاني: أي: ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة، لأن من احتاج إلى شيء كأنه حصل له فيه نوع حق(٣).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٩/٧٦).

(٢) تفسير النسفي، (٢/١٩٩).

(٣) فتح القدير للشوكاني، (٢/٥١٤).

وقـولـه: ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ إشارة خبيثة منهم، وأنهم يعنون إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

﴿قـال لو أن لي بكم قوة أو ءاوي إلى ركن شديد﴾ أي: لما أصروا على مرادهم تمنى أن يكون له قوة تدفع الخزي عن ضيوفه، أو أن يكون له حصن من عشيرة تنصره عليهم.

قال الفخر الرازي رحمه الله: قوله ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿لو أن لي بكم قوة أو ءاوى إلى ركن شديد﴾ يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه.

فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشّروه بأنواع من البشارات:

أحدها: أنهم رسل الله.

ثانيها: أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به.

ثالثها: أنه ـ تعالى ـ يهلكهم.

رابعها: أنه ـ تعالى ـ ينجيه من ذلك العذاب.

خامسها: أن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله، فحصلت له هذه البشارات[1].

وقال النسفي رحمه الله: جواب «لو» محذوف أي: لفعلت بكم ولصنعت والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته.

روي أنه أغلق بابه حين جاءوا وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يالوط. إن

---

(١) الفخر الرازي، (١٨/ ٣٥).

ركنك لشديد[١] أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد**»[٢] أي: إلى الله - سبحانه وتعالى.

ومراد النبي ﷺ أن لوطاً - عليه السلام - كان يطلب ركناً شديداً من البشر ليستعين به على مقاتلتهم على حد قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده**»[٣] وإلا فلوط - عليه السلام - كان آوياً إلى ربه - جل وعلا - على الدوام، موقناً بنصرته له في الوقت الذي أراد الله - جل جلاله.

ولما كان ربنا - جل شأنه - حليماً لا يعجل ويستحيل عليه أن يستخفه كفر كافر، أو فجور فاجر، وأن قوم لوط قد يعتدون على الرسل الذين لم يعرفهم لوط في أول الأمر، وقد يكون من قدر الله أن يؤخر عنهم العقاب مع استفظاع ما أصروا عليه، من أجل ما قدمته قال لوط ما قصّة الله: ﴿أو ءاوى إلى ركن شديد﴾.

وقوله: ﴿إنا رسل ربك﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا، فاستأذن جبريل - عليه السلام - ربه في عقوبتهم فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾[٤] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم

---

(١) تفسير النسفي (٢/١٩٩) وانظر: تفسير القرطبي (٩/٧٨) والكشاف (٢/٢٨٤) وانظر تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم الرازي، دراسة وتحقيق الزميل الشيخ/أحمد بن أبي بكر. رسالة ماجستير، جامعة أم القرى (١/٣٥٣).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، (٧/٢٢٦).

(٣) صحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (١/٦٩)، حديث رقم (٧٨)، كتاب الإيمان.

(٤) سورة القمر: الآية (٣٧).

يقولون: النجاءَ ـ النجاء، فإن في بيت لوط سحرة[1].

وقوله: ﴿لن يصلوا إليك﴾ أي: لن يمسوك بما تكره.

وقوله: ﴿فأسر بأهلك﴾ أي: فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل، والمراد بأهله: قيل: أنصاره وأتباعه الذين قبلوا دينه، وقال ابن عباس: ابنتاه[2].

والسرى: السير في الليل. وقوله تعالى: ﴿بقطع من الليل﴾ أي: في وقت معلوم من الليل وقد بينه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤﴾[3] والسحر هو الثلث الأخير من الليل فيما يبدو لي والله أعلم، ومن الواجب علينا أيها القارىء الكريم أن نعرف أهمية الوقت الذي اختاره الله لنجاة نبيه لوط ـ عليه السلام ـ وأهله، حتى يأتي هذا الوقت ونحن في تضرع وابتهال إلى الله ـ تعالى، لنصون أنفسنا بإحياء هذا الوقت من كل مكروه يصيبنا، فالقرآن ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب علم وهداية وعبرة﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4] وما نكب المسلمون بما نرى وما مضى مما سطرته كتب التاريخ إلا لقلة أهل السَّحَر فيهم، وانشغال أغلبهم في هذا الوقت العظيم بالغفلة الشديدة، والنوم العميق. فإذا أضفت ما يفعله البعض من سهر في هذا الوقت مع اللهو والطرب، كانت النكبة أكبر والبلية أعم، نسأل الله السلامة.

ثم قال تعالى: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ نهي عن الالتفات هو ومن معه.

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/١٩٩)؛ وانظر: تفسير القرطبي، (٩/٧٨)؛ والكشاف، (٢/٢٨٤) وتفسير سورة الأعراف لابن أبي حاتم، (١/٣٥٣).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٤/١٧١).

(٣) سورة القمر: الآية (٣٤).

(٤) سورة يوسف: الآية (١١١).

ورجح الرازي أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأمتعة، فأمروا أن يخرجوا أو يتركوا تلك الأشياء ولا يتلفتوا إليها البتة، وكأن المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الأشياء، وقد يراد النهي عن التخلف وعدم التباطؤ في الخروج(١).

وقوله: ﴿إلا امرأتك﴾ بالنصب وعليه فالاستثناء متصل. بتأويل أن الله ـ جل وعلا ـ أمر لوطاً أن يسري بأهله سوى زوجته فإنه نهي أن يسري بها، وأمر بتخليفها مع قومها، فإنها هالكة مع الهالكين.

وعلى القراءة بالرفع ﴿إلا امرأتك﴾ فيكون الاستثناء منقطعاً. ويكون المعنى أن لوطاً ـ عليه السلام ـ قد أخرجها معه، وأنه نهي ومن معه ممن أسرى معه أن يلتفت سوى زوجته، وأنها التفتت. لذلك أدركها حجر فقتلها(٢) وقوله: ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب والهلاك.

قال ابن كثير ـ رحمه الله: إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ ليسري بأهله، أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول إنها اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي، فأصابها ما أصابها. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾(٣) أي: الباقين في الهلاك(٤).

روي أن لوطاً ـ عليه السلام ـ سأل الملائكة عن موعد هلاكهم فقالوا له:

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي، (١٨ / ٣٦).
(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٨ / ٣٦).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٣).
(٤) تفسير ابن كثير، (٢ / ٢٣١).

﴿إن موعدهم الصبح﴾ فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أليس الصبح بقريب﴾ وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع. . .[١].

وقوله تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾[٢].

هاتان الآيتان تصوران عاقبة الصراع، وعاقبة الكفر، وأن الباطل مهما طال أمده فنهايته وخيمة، وفي النهاية لابد وأن ينتصر الحق وتعلو كلمته، لقد أصر قوم لوط على فاحشتهم وتمادوا في منكرهم، واستكبروا عن امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وعَتوا عتواً كبيراً.

قال تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا أو الأمر به ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ جازيناهم بالعذاب الذي يناسب شناعة جرمهم وفحشهم، فإنهم لما خالفوا الفطرة الإلهية، وقلبوا الأوضاع، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، أهلكهم الله بالعقوبة التي قلبت عليهم قريتهم، ومزقتهم شر ممزق فجعل أعلاها أسفلها، وذلك بأن قلعها جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه من أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم، كما ذكر ذلك المفسرون[٣] رحمهم الله تعالى، وأُتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ أو ذلك لمن كان منهم خارج القرية.

قال الألوسي رحمه الله: ظاهر الآية أنه أمطر عليهم كلهم. وجاء في بعض

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ٢٣٠)، وانظر: تفسير النسفي (٢/ ٢٠٠).

(٢) سورة هود: الآيتان (٨٢-٨٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٥٥)؛ وتفسير القرطبي، (٩/ ٨١)؛ وتفسير الرازي (١٨/ ٣٨).

الآثار أنه خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم حتى إن تاجراً كان في الحرم فوقف له حجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم، فوقع عليه[1].

وقوله: ﴿من سجيل﴾ اختلف في معنى الـ ﴿سجيل﴾ فقيل: الطين المتحجر بطبخ وغيره، وقيل: هو الشديد الصلب من الحجارة[2] وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿منضود﴾ نعت لسجيل أي متتابع، أو مجموع معد للعذاب[3] والمعنى: أمطرنا عليهم حجارة شديدة غاية في الصلابة والقوة تهلكهم، ولا تتفتت بل تبقى عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين.

وقوله: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ وما هي أي الحجارة التي أهلك بها قوم لوط ببعيدة من الظالمين، وهم قريش الذين أمعنوا في تكذيب النبي ﷺ فالله قادر على أن يعاقب بتلك الحجارة، لأنها لم تستنفذ قوتها بصبها على قوم لوط، أو يأتي بأمثالها، وهو تهديد للمشركين. أو الضمير راجع إلى ديار قوم لوط. أي: ليست هذه الديار ببعيدة عمن كذبك ولم يؤمن بك يامحمد ﷺ، فهي بين الشام والمدينة، فكان الأجدر بقومك أن يعتبروا بما حل بالأقوام السابقة من العذاب والهلاك، عندما كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بك وبما جئت به.

فالقصة بلا ريب صراع مرير بين الحق والباطل، وقد تبين لنا مآل من تنكبوا

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي (١٧٢/٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨١/٧، ٨٢)، والرازي (٣٨/١٨)، وأبي السعود (٤/ ٢٣٠).

(٣) تفسير النسفي؛ (٢/ ٢٠٠). قال في الصحاح: يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه على بعض. فهو منضود ونضيد؛ انظر: الصحاح للجوهري (نضد ٢/ ٥٤٤).

عن جادة الحق، وأصروا على فحشهم وباطلهم، وكيف أن الله نصر الحق وحزبه وأخذل الباطل وأهله، وقد كشفت الأبحاث الطبية الحديثة في عصرنا هذا عن الأمراض الخطيرة المعدية للمصابين بالشذوذ الجنسي، فكان انتقام الله لهم ودفنهم في باطن الأرض هم وممتلكاتهم أفضل حل لتتخلص البشرية من شرهم وخطرهم، ولكن بقي أن يعتبر من هم مصابون بمثل دائهم في زماننا هذا، وينسلخوا عن جرمهم، فقد ختم الله قصة لوط في سورة الأعراف بنعت قوم لوط بأنهم مجرمون، قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1] وأي إجرام أكبر وأشنع من تلك الفاحشة؟ ويكفي في فحشها أنها مواطن القذارة!!

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٤).

الأبحاث الطبية الحديثة كشفت عن أضرار فاحشة اللواط

لقد كشف العلم الحديث خطورة تلك الفاحشة وأضرارها، لاعلى الفاعل والمفعول فقط بل على المجتمع بعامة. ومن أحسن ما طالعت في هذا الموضوع كتاب «الأمراض الجنسية» للدكتور/محمد على البار. وألخص لك بعضاً من الأضرار والأمراض التي تنجم من تلك الفاحشة منها أنه يسبب ارتخاء عضلات المستقيم، ويمزقه، ويفقد الشخص القدرة على السيطرة على المواد البرازية، وعدم استطاعته الإمساك عليها.

ولا يخفى أن الأمـراض التي تنتشر بالزنا ـ والعياذ بالله ـ يمكن أن تنتشر بطريق اللواط، وتصيب أصحابه، وتفتك بهم فتكاً ذريعاً، مثل مرض (الإيدز) وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة الذي يعتبر الآن هو الشاغل الأول لوزارة الصحة في الولايات المتحدة الأمريكية[1]. بل العالم أجمع والذي ـ حتى يومنا هذا ـ لايوجـد له أي علاج، وقـد تعـدى انتشـاره إلى أوروبـا واسـتراليا وكنـدا. . . . وغيرها. ومن الأمراض الجنسية الفتاكة التي تنتشر نتيجة هذه الفـاحشـة (مرض الهربس)[2] وينتشر هذا المرض في الدول الإباحية بصورة مرعبة وتبلغ إصابة (الشاذين جنسياً) بهذا المرض عدة أضعاف ما هي عليه عند

---

(١) انظر كتاب: الأمراض الجنسية للدكتور محمد علي البار، ص(١٣١) نقلاً عن مجلة التايم الأمريكية في ٤ يوليه سنة ١٩٨٣.

(٢) (الهربس) مرض فطري جلدي. وترجم باسم القوباء المنطقية، ويصيب الجنب على هيئة بثور كما يصيب الفم والشفة. انظر: كتاب الأمراض الجنسية للدكتور محمد علي البار، ص(٢٣١).

الزناة، وحتى الآن لا يوجد له علاج يقطع شأفته نهائياً.

وهذا المرض غالباً ما يكون مصحوباً بأمراض الزنا واللواط الأخرى مثل: (السيلان)، و(الكلاميديا) وهوالتهاب مجرى البول من غير سيلان، والزهري، بالإضافة إلى الكثير من الأمراض، والأورام، والسرطانات الخبيثة[1] أضف إلى ذلك ما يسببه اللواط من الأمراض النفسية، والاكتئاب، والأمراض العصبية.

ومن العجيب رغم ما يعرفه العالم أجمع عن ما ينجم من تلك الفاحشة من أمراض فتاكة لازلنا نسمع في المجتمعات الغربية الإباحية الدعوة إلى الحرية الجنسية، وإقامة النوادي الخاصة باللواط.

ولقد أوضحت آخر الإحصائيات الأمريكية أن عدد الشاذين جنسياً في الولايات المتحدة وصل إلى ١٢ مليون شاذاً وشاذة[2].

---

(١) تشير الدراسات الحديثة إلى أن سرطان الكبد منتشر بصورة خاصة في المجتمعات الغربية لدى الشاذين جنسياً انظر: المرجع السابق ص(٤٧، ٤٨).

(٢) مجلة (المجلة)، لندن، ٣١ ديسمبر ١٩٨٧م، العدد ٣٦٠.

الفصل السادس

الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه

الفصل السادس
الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة : نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام.
المبحث الأول : دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه.
المبحث الثاني : موقف قومه من شعيب ودعوته.
المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب.

نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام

اسمه ونسبه :

اختلف المؤرخون والنسَّابة في نسب نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ اختلافاً كثيراً، والذي عليه الأكثرون هو: شعيب بن ميكييل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام[١].

ولقد أرسل ـ عليه السلام ـ إلى أهل مدين، وهم قوم عرب[٢] من بني مدين بن إبراهيم الخليل ويربطه بهم نسبا وإلى ذلك أشار تعالى ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[٣] قال صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب: إن مدين بن إبراهيم عاش عمراً طويلاً، وكان قد تزوج من العمالقة[٤]. فولدت له أربعة بنين.

(١) محمد، الصادق المنَّا: نبي الله شعيب، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بإشراف فضيلة الدكتور: مسعد عبد المعطي الحفني النبراوي.

(٢) شعيب وقومه من العرب، وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: «الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، ولوط، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، وعيسى، ومحمد ﷺ».
الهيثمي، مجمع الزوائد. (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، ٨/ ٢١٠، قال فيه الهيثمي: «رواه الطبراني موقوفاً ورجاله ثقات».

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٤) العمالقة: يرجع أصلهم من قبائل العرب البائدة، وقد كان لهم ملوك ودول حيث امتد ملكهم إلى الشام ومصر، ويذكر المؤرخون أن هذه القبائل كانت تسكن قديماً في آسيا الصغرى، ثم هاجروا إلى جزيرة العرب حيث سكنوا شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء، وقد فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا فيها أسرة ملكية.
وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. الطبعة الثالثة، (بيروت: دار المعرفة) ٦/٢٣٢.

ونسلوا فكثر عددهم في حياته، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم، وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصنوها من العمالقة، ففعلوا ذلك، وجعلوا أبوابها من الحديد، وسموها (مدين) باسم أبيهم، وجعلوها محال قبائلهم. فرغب العمالقة في مجاورتهم وعندئذ امتلأت المدينة بهم وبأهلها حتى ضاقت، فخرج العمالقة من مدين، ونزلوا الأيكة وهي غيضة عن يمينها، فبنوا هناك الدور لأنفسهم[1].

موقع مدين:

قال صاحب معجم البلدان: (مدين) على بحر القلزم[2] محاذية تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك[3].

وتسمى حديثا مدينة «العقبة» الميناء المعروف بالأردن[4]. قال القزويني: «مدين: مدينة قوم شعيب ـ عليه السلام ـ بناها مدين بن إبراهيم الخليل جد شعيب، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام»[5]. وتقع بالقرب من بحيرة لوط، وهذا يفسر لنا معنى قوله ـ تعالى ـ على لسان نبيه شعيب ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾[6] وقد فسر المفسرون القرب المعنى بالقرب المكاني والزماني.

شهرته ـ عليه السلام:

ولقد اشتهر شعيب ـ عليه السلام ـ بفصاحته، وبلاغته، وقوة حجته، وحسن مراجعته لقومه.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، (١٣/ ١٦٧).

(٢) البحر الأحمر حالياً.

(٣) الحموي، ياقوت. معجم البلدان. (بيروت: دار صادر، . . .)، ٥/ ٧٧.

(٤) انظر: مراصد الاطلاع، (٤/ ١٢٤٦).

(٥) القزويني، زكريا. آثار البلدان وأخبار العباد. (بيروت: دار بيروت، . . .)، ص٢٦١.

(٦) سورة هود: الآية (٨٩).

قال الفيروزآبادي: «ولم يكن من الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ أفصح ولا أبلغ من شعيب ـ عليه السلام، قرأ رسول الله ﷺ قصته وما كان منه ومن قومه، وتأمل في ألفاظ تذكيره لقومه فقال: «رحم الله أخي شعيباً ذاك خطيب الأنبياء كان يحسن مراجعة قومه»[1].

---

(١) الفيروزآبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. (تحقيق) عبد العليم الطحاوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ٦/٥٧.
والحديث الذي ذكره الفيروزآبادي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١/١٨٥) وأخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ: «وكان رسول الله إذا ذكره قال: ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه» المستدرك، (٢/٥٦٨) وأورده الألوسي نقلاً عن ابن عساكر عن ابن عباس بنفس اللفظ السابق، (٨/١٧٥).

المبحث الأول
دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه

هذه القصة السادسة في هذه السورة الكريمة، والتي تصور مشهداً جديداً وصراعاً مغايراً للصراعات السابقة، فرغم أنها تتفق مع سالفتها من الصراعات في قضية التوحيد والحض عليه وترسيخ العقيدة؛ إلا أنها عالجت نمطاً جديداً، وخلقاً وضيعاً، وطغياناً مادياً استفحل في قلوب الملأ من أهل مدين ومن تخلقوا بأخلاقهم، وقد ساعد على تفشيه بينهم بسبب ما تتمتع به مدين من موقع جغرافي استراتيجي، فهي كما أسلفت مركز تجاري هام يربط بين الحجاز والشام، وتمر عليها القوافل التجارية من مختلف الأقطار، مما أكسب أهل مدين معرفة واسعة بأصول التجارة، ومهارة فائقة في البيع والشراء، فأصبحوا في ثراء عظيم ونعم لا تحصى.

ولقد طغى عليهم حب المال، وأصبحوا لاهَمّ لهم إلا في جمعه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[1] لا يعنيهم من أي الوجوه أتى الربح، فهم يرون أنفسهم أنهم أحرار في أموالهم، يفعلون فيها ما بدا لهم ـ وإن ظلموا غيرهم، فليس لديهم أي بأس أو حرج عندما ينقصون الكيل والميزان إذا هم باعوا لغيرهم، وأن يطففوه إن هم اشتروا لأنفسهم.

ومن هذا المنطلق كانت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لذلك المجتمع الذي طغت عليه المادية، وذلك بإعادة التوازن في البيع والشراء، والعدل في الكيل

---

(١) سورة العلق، الآيتان (٦، ٧).

والميزان، وعدم بخس الآخرين حقهم حتى تسود روح المحبة والإخاء بين أفراده، ويتلاشى طغيان المادة التي تسبب اشتعال نار الحقد والكراهية في نفوس بعض الأفراد ضد بعض.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(١).

﴿وإلى مدين﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، وهذا المحذوف معطوف على المقدر في نظائره فيما مضى من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾(٢)، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾(٣) فالتقدير: وأرسلنا هوداً إلى عاد، وأرسلنا صالحاً إلى ثمود، وأرسلنا شعيباً إلى مدين. وشعيب ـ عليه السلام ـ من أبناء مدين كما أسلفت(٤) فالأخوة نسبية.

وتتلخص دعوة شعيب لقومه بما يلي:

١ ـ أمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى وحده:

ولقد دعا شعيب قومه إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ناداهم ـ عليه السلام ـ بـ ﴿ياقوم﴾ تذكيراً لهم بأواصر الأخوة والنسب، وأنه ـ عليه السلام ـ حريص على هدايتهم وإنقاذهم من الهلاك الذي يتربص بهم، لذلك كان أول نداء وجهه إليهم ـ شأنه في ذلك شأن الأنبياء الذين سبق ذكرهم ـ هو حثهم على عبادة الله وحده؛ فليس هناك إله يستحق العبادة سواه، ولم يحتج ـ عليه السلام ـ إلى إثبات وحدانيته ـ جل وعلا ـ بأدلة حسية أو غيرها لأن أهل مدين هم من أحفاد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ كما سبق أن أسلفت، ولم يكن

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٤) انظر: ص(٣٢١) من بحثنا هذا.

أمر التوحيد بالغريب عليهم. لكن لتطاول الأزمان بين دعوة شعيب ودعوة إبراهيم ـ عليهما السلام ـ اجتالتهم الشياطين، وأنسوهم ذكر الله، وحادوا عما كان عليه آباؤهم، واتبعوا أهواءهم، وزين لهم الشيطان الشرك والكفر بالله، فعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان، واتخذوها آلهة تعبد من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿مالكم من إله غيره﴾ معناه أن شيئاً مما ألهتموه لم تأمركم بذلك ولم تدعكم إلى تأليهها، لأنها جمادات لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عنكم شيئاً، ولا تحس بتوجهاتكم إليها، ومن العجيب أن الأمم الكافرة قد عكفت على عبادة الجمادات التي لا تشعر بعابديها، ولم يُعرف تأليه البشر إلا على لسان اليهود والنصارى، وهم لم يتجرأوا على جعل من ألهوا من البشر آلهة مستقلين، بل جعلوهم أبناء الله الواحد.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[1]

وهذا كله متأخر عن عصر شعيب، ولعل الكافرين الذين شابههم اليهود والنصارى هم المصريون القدماء الذين انطلت عليهم فرية فرعون حيث قال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ومما يقوى ذلك أن اليهود كانوا يعيشون في مصر في ذلك الوقت وقد اقتبسوا عن المصريين الكثير من أحوالهم، فإذا قال شعيب لقومه: ﴿مالكم من إله غيره﴾ فقد نبه قومه أنهم هم الذين افتعلوا تأليه معبوداتهم لا أنها أمرتهم بذلك، ولأن أحداً لم يتجرأ على دعوى ألوهية هذا

(١) سورة التوبة: الآيتان (٣٠، ٣١).

الكون وتدبيره وحفظه. وغاية ما ادعاه فرعون أنه قال لقومه: ﴿أنا ربكم﴾ ولم يقل لهم أنا رب الخلائق ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ أي: دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، والمقصود من هذا القول الكريم حملهم على التوحيد ونبذ الشركاء.

ولقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في بينة شعيب ـ عليه السلام ـ أهي معجزة حسية كناقة صالح ـ عليه السلام؟ أم هي معجزة قولية؟ أم هي مجموع الأمرين؟ وسبب هذا الخلاف أن القرآن الكريم لم يقص علينا معجزة حسية لشعيب كناقة صالح، وعصا موسى ـ عليهما السلام ـ وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه خطيب الأنبياء بسبب قوة حجته وإفحامه قومه ـ عليه السلام ـ مما اضطرهم أن يقولوا له: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[1].

قال الألوسي: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)[2].

لما قدمته قال بعضهم: كانت له ـ عليه السلام ـ معجزة حسية، ولا يضر عدم ذكرها ـ بل يكفي أن نعلم أنه أوتي بينة من ربه.

وقال فريق آخر: بل بينته حجته ـ لما أسلفته من سبب هذا القول، وقد لخص الألوسي ـ رحمه الله ـ الخلاف فقال:

﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم، ولم تذكر معجزته ـ عليه السلام ـ في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر

---

(١) سورة هود: الآية (٩١).

(٢) بتصرف من تفسير الألوسي، (١٢/١٢٣).

معجزات نبينا ﷺ والأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيه.

والقول بأنه لم يكن له ـ عليه السلام ـ معجزة غلط؛ لأن الفاء في قوله سبحانه: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على ﴿اعبدوا﴾ بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس، فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، أوجبت عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به فأوفوا إلخ... ولو ادَّعى مُدَّعٍ النبوة بغير معجزة لم تقبل منه؛ لأنها دعوى أمر غير ظاهر، وفيه إلزام للغير، ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة، ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب، ومنهم من زعم أن المراد بالبينة الموعظة، وأنها نفس ﴿فأوفوا﴾ إلخ... وليس بشيء كما لا يخفى. اهـ[1].

٢ ـ أمرهم بإيفاد الكيل والميزان:

قال تعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾: الفاء تفيد الترتيب، وهذا يؤكد وجود المعجزة، فإن عطف هذا الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنياً على ما هو سبب له، وهو البينة على صدقه ووجوب طاعته، ولو كان معطوفاً على قوله: ﴿اعبدوا الله﴾ لعطف بالواو[2].

قال الفخر في بيان الحكمة من ابتداء شعيب ـ عليه السلام ـ بتحذير قومه من البخس والتطفيف في الكيل: «اعلم أن عادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا رأوا أقوامهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد، بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قوم شعيب مشغوفين

---

(١) تفسير الألوسي، (١٧٦/٨).

(٢) انظر: تفسير المنار، (٥٢٥/٨).

بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾(١) وأهل مدين ـ كما أسلفت ـ بحكم موقع مدينتهم على ممر القوافل التجارية بين الحجاز والشام أهل تجارة وبيع وشراء، وقد أنعم الله عليهم بالنعم والرخاء في العيش كما أشارت إلى ذلك سورة هود: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾(٢) أي: في ثروة واسعة ورغد في العيش يغنيكم عن التطفيف وأكل أموال الناس بالباطل.

وكان اللائق بهم أن يعرفوا ويؤدوا حق شكر هذه النعم، لا أن يقابلوها بالكفر والجحود والعصيان؛ لأن المال الحرام لا بركة فيه، وسرعان ما يزول عن صاحبه بدون أن يشعر، بينما المال الذي يكسبه الإنسان عن طريق الحلال المشروع فإن الله يبارك فيه، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في سورة هود: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم . . .﴾(٣) أي: ما أبقاه الله لكم، وأنعم به عليكم من الحلال، خير مما تجمعونه من الحرام الذي يذهب هباء، فضلاً عن أنه يكون وبالاً على صاحبه. والمراد بالكيل في الآية: آلة الكيل وهو المكيال.

وأمرُ شعيب قومه بإيفاء الكيل والميزان يحتمل أن آلاتهم التي كانوا يكيلون بها ويزنون سليمة، وأن النقص كان في المكيل والموزون. ويحتمل أن آلاتهم كانت على خلاف ما تعورف عليه، فكانوا يرتكبون الجريمتين: نقص المكيل والموزون ونقص آلاتها، فلفظ الكيل في الآية يحتمل هذين المعنيين، إذ قد يكون الكيل بمعنى المكيل، أو هو اسم للآلة التي يكال بها، وقد شاع فيهما

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٧٣).

(٢) سورة هود: الآية (٨٤).

(٣) سورة هود: الآية (٨٦).

الأمران قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[1] فحملهما على الآلة في هذه الآية واضح ظاهر.

٣ - نهاهم عن بخس الناس حقوقهم:

ولما أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، نهاهم عما يؤدي إلى نقص الحقوق بعامة فقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تبخسوا الناس أشياءهم كافة أوجه البخس والنقص، فيدخل فيه المنع من الغصب، والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل[2].

٤ - نهاهم عن الإفساد في الأرض:

ثم نهاهم عن الفساد في الأرض بعامة، بعد أن أصلحها الأنبياء - عليهم السلام - بالشرائع الإلهية، فيدخل فيه كل فساد وكل ظلم - وهذا النهي من قبيل ذكر العام بعد الخاص الذي ينتظم الخاص المذكور، وما لم يذكر من أنواع الفساد والجور، فيدخل فيه النهي عن الزنا، والقتل، وقطع الطريق، وظلم الضعيف، وغير ذلك من المناهي التي جاءت بها الشرائع، على اختلافها في الفروع والأصول، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وخلاصة القول: إن المباشرة الحرة للمال من غير قيود، ومن غير عدل تنتهي حتماً إلى الفساد في المجتمع، بسبب فساد المترفين عن طريق الربح غير المحدود بل وغير المشروع، الربح الحرام الذي يسبب الشقاء والظلم للآخرين.

﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ إشارة إلى ما مضى من نبذ عبادة

---

(١) سورة هود: الآية (٨٤).

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/١٧٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

الأصنام، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن البخس والفساد في الأرض، وقد جاء بلفظ الجمع في الإشارة ﴿ذلكم﴾ لأنه أراد عموم ماذكره لهم، وجمع في الخطاب ليعلمهم أن هذه الخيرية حاصلة لكل واحد منهم على حده، أي: هي حاصلة للأفراد وللجماعة. وهذه نكتة الجمع في الخطاب.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي: موقنين مصدقين لي فيما جئتكم به فإنكم حينئذ تدركون قبح ما أنتم عليه، وأن صلاحكم في توحيد ربكم، والالتزام بما أمرتكم به، وترك ما نهيتكم عنه.

وهذا بيان إلهي عظيم، هُدينا به إلى أن القبح لا يعرف ولا يدرك قبحه إلا بالإيمان بالله ـ عز وجل ـ وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره ومما يؤكد لك هذه الحقيقة أن ما نستقبحه في البيئة الإسلامية ونتحاماه كل التحامي، نجد الكفار ينكبون عليه، وينهمكون في فعله، ويسنون القوانين الحامية لمن يفعله، والفرق بيننا وبينهم هو الإيمان بالله ـ عز وجل ـ ويستحيل على العقل أن يدرك قبح الأشياء وحده بدليل أنك ترى أكبر المفكرين والفلاسفة من غير المؤمنين ـ يأتون من قبائح الأفعال، والكفر بالله عز وجل ما يجعل المؤمن في حيرة ودهشة من صدور ذلك عن هذا المفكر المشهود له بقوة العقل، لكن إذا تذكرنا قوله تعالى لقوم شعيب: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ فلا حيرة ولا غرابة.

٥ ـ نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله:

ثم إنه عليه السلام أخذ ينهاهم عن رذائل أخرى استحسنوها، وتعاقبوها، وهي أنهم تشبهوا بإبليس في توعده لبني آدم، وأخذه العهد على نفسه بإغوائهم: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾، وذلك أنهم كانوا يتربصون

بالطرقات كل من أراد الذهاب إلى شعيب فيمنعونه بشتى الأساليب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾[1] أي: ولا تقعدوا بكل طريق يسلكه الناس، تحولون بين شعيب ومن آمن به، أو من كان يقصده من الغرباء والمسافرين، وقصدهم بذلك عزل شعيب عن كل من يريد الاتصال به، حتى لاتجد لمواعظه مكانة في قلوب الناس فيتأثرون به، ويؤمنون بما جاءهم به ﴿توعدون﴾ من التوعد بمعنى التهديد والتخويف، أي أنهم يهددون ويخوفون كل من أراد الإيمان بشعيب بأنواع الأذى.

﴿وتصدون عن سبيل الله من ءامن به﴾ أي: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تبغون طريق الله عوجاً تقركم على ما أنتم عليه من السوء، أو تأتون بالشبه التي تلبس على المؤمنين فتحيرهم، أو تصرفهم عن الدين بعد أن آمنوا به، لأنه صار عندهم معوجاً بما ألقيتموه من الشبه، كما أنكم بعملكم هذا تصرفون من يميل إلى دين الله ويحاول الاهتداء، وهذه قبائح لا ينبغي أن تقيموا عليها، لأن الله توعد من يتصف بها بالهلاك في الدنيا، وسوء المصير في العقبى، ومهما حاولتم أن يكون دين الله عوجاً فلن تصلوا.

والخلاصه: إنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال كونهم موعدين[2] وصادين عن سبيل الله، وحالة كونهم طامعين في أن تكون طريق الله عوجاً تبيح لهم ما هم عليه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

(٢) من التوعد: بمعنى التهديد والتخويف.

٦ ـ ذكرهم بنعم الله عليهم ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ ﴾ :

وقد غاير نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ في أسلوب دعوته، فترك تذكيرهم بما هم عليه من فساد، وذكرهم بما أفاض الله عليهم من نعمة، واختار من بينها نعمة لا يشكون فيها، ولا يجحدون وقوعها، وهي أنهم كانوا قليلين فيما مضى، يطمع فيهم الطامعون، وينال منهم من يشاء من نيل فلا يمتنعون عليه، ثم نقلهم الله من هذا الحال، فجعلهم أمة عظيمة مرهوبة الجانب، لها على غيرها من السيادة والسلطان بما أوتيت من وفرة المال الذي من شأنه أن يخضع لهم الناس.

فقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ ﴾[1] أي: قليلا في عددكم فأصبحتم كثرة كاثرة، وفي هذا الأسلوب نهج قويم للدعاة بألا يكثروا من ذكر المثالب[2] بل يخلطوا دعوتهم ببيان الخطأ والصواب، فإن النفس إذا سِيست بأسلوب واحد سئمت وعميت عن الحق مهما كان واضحاً، ولذلك نجد القرآن الكريم إذا توعد يردف بالوعد، وإذا وعد يردف بالتوعد، لأن النفس البشرية لا تصلح ولا تقام عليها الحجة إلا بهذا الأسلوب.

٧ ـ ثم حذرهم من الإفساد :

وإنه سوف يكون مصيرهم مصير من سبقهم من الأمم السابقة قال تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾[3] أي: تذكروا كيف كان مآل المفسدين وما أصابهم من الخزي والنكال، وليكن ذلك حافزاً على طاعة الله، والابتعاد عن معاصيه، وما نهيتكم عنه وحذرتكم منه، وإلى ذلك أشارت آية هود

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

(٢) العيوب.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[1].

(١) سورة هود: الآية (٨٩).

تعقيب

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾(١)

لقد أثمرت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ثمارها، ودخلت طائفة من قومه في دين الله، وبقدر ما أفادتنا هذه الآية الكريمة من إيمان طائفة من قومه فقد أفادتنا أيضاً حرصه ـ عليه السلام ـ على إيمان قومه عن بكرة أبيهم، لأنه ـ عليه السلام ـ بذل لقومه من الحجة، ووضوح البينة، ما لم يبق عذراً لمعتذر أو سبباً لكفر كافر منهم.

وقوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ ﴾ يحتمل معنيين :

المعنى الأول :

أنه وعيد للمكذبين من قومه المصرين على معاندته كقوله تعالى :﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢) أي : تربصوا هلاككم وخذلانكم، وإنا معكم متربصون وقوع ذلك لكم. فقوله : ﴿فاصبروا﴾ خرج من معنى الأمر بالصبر إلى تهديد المكذبين وقوله : ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ غاية لهذا الأمر، أي : فحينئذ تعلمون المبطل منا من المحق، وهذا هو المعنى الأقوى في نظري، وله في القرآن نظائر كثيرة لا أطيل بذكرها(٣) وقوله تعالى : ﴿وهو خير الحاكمين﴾

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٧).

(٢) سورة التوبة: الآية (٥٢).

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿فانتظروآ إني معكم من المنتظرين﴾ سورة يونس: الآية (١٠٢).

أي: هو العـدل الذي لا يجور في حكمه، لذا فلن يعاقب إلا من هو أهل للعقاب، ولن ينصر إلا من هو أهل للنصرة.

المعنى الثاني:

أنه أمر بالصبر للطائفة المؤمنة على ما يلقون من عنت الكافرين والمكذبين، وقوله تعالى: ﴿حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ تبشير لهم بالنصر، وأن معاناتهم من المكذبين لن تدوم، والله أعلم بالصواب.

المبحث الثاني
موقف الكافرين من دعوة شعيب عليه السلام

إن الدارس للآيات الكريمة الواردة في سورة الأعراف حول موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أنها لا تتعدى الثلاث آيات التالية:

وهي قوله تعالى ـ: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(١).

والمتمعن في الآيات السابقة مع الآيات الأخرى من كتاب الله مثل سورة الشعراء وسورة هود اللتين تحدثتا عن موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أن الآيات الواردة في سورة الأعراف جاءت لبيان خاتمة الموقف الذي سلكه قوم شعيب مع نبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ ولما كان القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، الذي أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يعتبر في الواقع وحدة متكاملة مترابطة، فهو يفسر بعضه بعضاً، فما يجمله في مكان، يبسطه في موضع آخر، وهو في الإجمال والبسط في أعلى درجات الفصاحة، بحيث يأسرك إجماله وتفصيله، وذلك سر من

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٨٨) إلى (٩٠).

إعجـازه، لذلـك أحب أن أوضـح للقاريء الكريم أنني سوف أذكر موقف الكافرين من دعوة شعيب من خلال بعض الآيات في سورة الشعراء أولاً، ثم سورة هود ثانياً اللتين فصلتا الموقف، ثم أعرج في النهاية على ذكر ما توصل إليه الملأ من قوم شعيب، حين أصروا على تعنتهم، وأبوا اتباع الحق، واستهووا الباطل، وقرروا طرد شعيب ومن آمن معه من قريتهم، إن لم يقلع عن دعوتهم إلى التوحيد، وترك ما ألفوه من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا ما أفصحت عنه آيات سورة الأعراف.

وغـرضي من هذا بيان الصراع الذي واجهه شعيب ـ عليه السلام ـ من قومـه، وكيف أنـه بذل كل ما في وسعـه من طاقـة لهدايتهم متحملاً المهانة والاستهزاء والتهديد والوعيد من قومه، ثم نتعرف بمشيئة الله في الفصل الذي يليه نتيجة تلك المكابرة، وما حل بهم من العذاب الأليم.

لقد كان نبي الله شعيب حريصاً كل الحرص على هداية قومه، وانتشالهم من الكفر والفساد والظلم الذي خيم عليهم واستقر في نفوسهم، ويتلخص موقف قوم شعيب من نبيهم ـ عليه السلام ـ فيما يلي:

١ ـ اتهموه بالسحر والكذب:

ولقد قابل قوم شعيب ـ عليه السلام ـ دعوته بالاستنكار والتكذيب فضلاً عن السخـرية والتهكم، لقـد فاجـأتهم دعـوتـه وهزت مشاعرهم، وأقلقت نفوسهم، ولم يجدوا ما يردون عليه به، إلا أن يطعنوا في دعوته، وينسبوه إلى السحـر، ويصفـوه بأنـه من الكـاذبـين، قال تعـالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾[1] فقد اتهموه بأنه مسحور قد أفسد السحر عقله وتفكيره، فأصبح يتفوه بما لا يعرف مما جعله

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٨٥، ١٨٦).

ينهاهم عن ترك عقائد عزيزة في نفوسهم، راسخة في قلوبهم، توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد جاءوا بلفظ «الواو» في قولهم: ﴿وما أنت﴾ للدلالة على أنه جامع بين وصفين منافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه، ثم اتهموه بالكذب ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي: في دعواك[1].

٢ ـ تهكموا عليه واستهزأوا بدعوته:

ثم كرر القوم استهزاءهم بنبيهم مستكبرين عن قبول دعوته، ساخرين منه، متهكمين عليه، قائلين له: كيف تؤثر عليك صلاتك ياشعيب فتأمرك بأن تحملنا على ترك ما درجنا عليه، وألفناه من تقاليد، وما نشأنا عليه من عبادات ورثناها عن آبائنا؟

وكيف تطالبنا أن نتصرف في أموالنا بما تراه وتعتقده مع أنه يؤثر على تجارتنا ومصالحنا ويقيد حرياتنا؟ وكان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلاة فلذلك خصوها بالذكر: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[2] تهكموا به، وقصدوا وصفه بضد ذلك. وقيل: إنهم عللوا إنكار ما سمعوه منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد، المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك[3].

أما آيات سورة الأعراف التي بينت موقف الكافرين من دعوة شعيب فسوف أتحفك بشرحها في مبحث «موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من اتهام قومه له بالضعف»[4].

---

(١) البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع)، ٤/١٠٩.

(٢) سورة هود: الآية (٨٧).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي،، (٤/١١٨).

(٤) انظر: ص (٣٤٤) من بحثنا هذا.

موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه

ثم بينت الآيات الثلاث التالية موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من هذا الاستهزاء والتهكم:

ورغم تهكمهم واستهزائهم بنبيهم، وإصرارهم على باطلهم، لم تبدُ منه ـ عليه السلام ـ أي جفوة أو قسوة، بل تلطف في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرفق، وذكَّرهم بما بينه وبينهم من صلة، فكان يناديهم: (ياقوم) ليشعرهم بأواصر القرابة والنسب، وبأنه منهم وأنهم منه، قائلاً لهم:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾[١].

والمعنى: ياقومي الذين أحب لهم ما أحبه لنفسي من الخير والسعادة والنفع والصلاح، إنني مرسل إليكم ببينة وحجة واضحة من ربي الذي خلقني وخلقكم، وما جئتكم به إنما هو وحي من الله لا رأي مني، وقد أنعم الله علي بالرزق الطيب الحلال. ولست أقول لكم، وآمركم بشيء، وأخالفه إليه من ورائكم، خفية عنكم مؤثراً نفسي عليكم، بل أنا مستمسك به قبلكم، لأنه لو كان صواباً لآثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهى عنه، وما أريد إلا أن أصلحكم بأمري لكم بالمعروف ونهيي لكم عن المنكر، وليس لي فيما أقول هوى

(١) سورة هود: الآية (٨٨).

أو منفعة ذاتية تعود بالخير علي، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه، وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته ـ جلّ وعلا ـ عليه توكلت وإليه أنيب، فهو المعين لي في أداء الرسالة التي شرفني بإبلاغها.

وبعد هذا الأسلوب الهادىء الذي ينطوي على ترغيبهم في عمل الخير، واتباع الحق، يتدرج شعيب ـ عليه السلام ـ إلى أسلوب الترهيب، حتى يبصرهم عواقب المخالفة والزيغ عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال، وكل ذلك حرصاً منه على هدايتهم، قائلاً لهم ما قصَّه الله على لسانه:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

أي: لا تحملنكم عداوتكم لي على الإصرار على ما رضيتموه لأنفسكم من الفساد والمنكر، وعلى التمادي في الكفر والباطل، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، وقوم هود من الريح، وقوم صالح من الرجفة والنقمة والسخط والعذاب.

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ زمانًا أو مكانًا، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم فاعتبروا بمن هم ليسوا ببعيد عنكم، فقد علمتم أنهم هلكوا بالأمس بسبب استكبارهم على نبيهم وموقفهم العدائي من دعوته، وقد قال المفسرون بأن هذه الآية لها أكثر من دلالة:

فقيل: إن معناها أنهم ليسوا ببعيد عنهم في الزمان، إذ كان شعيب عليه السلام أقرب الأنبياء الذين جاءوا بعد لوط، وكان البلاء الذي أصاب قوم لوط لا تزال ترويه الأجيال التي سبقتهم.

---

(١) سورة هود: الآية (٨٩).

وقيل: إن معنى البعد المقصود هو البعد المكاني، فلقد كانت أرض مدين قريبة من أرض «سدوم» قرية قوم لوط.

وقيل: إن معنى البعد المراد أنهم ليسوا ببعيد منهم في الصفات أي أن ما يفعلونه من الموبقات والمنكرات، يتشابه في كثير من نواحيه مع ما كان يرتكبه قوم لوط، إذ كانوا مثلهم يقطعون الطريق، ويؤذون الرفيق، ويأتون القبائح من الأفعال جهاراً نهاراً.

قال ابن كثير ـ رحمه الله: والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم، لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات(١).

ثم دفع شعيبًا ـ عليه السلام ـ إشفاقُه عليهم، إلى أن يطلب منهم أن يتجهوا إلى الله تعالى بطلب المغفرة والتوبة مما هم فيه من الشرك والضلال، وأكل أموال الناس بالباطل، فإن الله رحيم بعباده، فهو الغفور الودود وسعت رحمته كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾(٢)

٣ ـ اتهامه بالضعف في منطقه فلم يفهموا دعوته وتهديده برجمه بالحجارة:

كان اللائق بقوم شعيب بعد ذلك النصح الذي يتسم بالإشفاق والحرص الشديد على هدايتهم، كان اللائق بهم أن ينصاعوا لما يأمرهم به، ويَدَعوا كل ما فيه سخط الله عليهم، لكنهم أخـذتهم العزة بالإثم، ولم يجدوا سبيلاً إلى مواجهته ومجادلته غير الشتم والتهديد، لاسيما وأنهم أحسوا أنه قد غلبهم بالحجة، وقهرهم بالبيان، وعزهم بالخطاب، فادعوا أنهم لم يفهموا قوله لهم.

ومن العجيب أن يتضح الحق أمامهم بما أدلى به شعيب من الحجج والبينات

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، تحقيق عبد الغفور عطار، (١/ ٢٩٥).
(٢) سورة هود: الآية (٩٠).

ثم يأبون إلا الجحود والإنكار، واتهموا نبيهم بالضعف في منطقه، والقصور في بيانه، وأنه لا قوة له تنصره، ثم هددوه بأنهم كانوا سيرجمونه بالحجارة ليقضوا على دعوته، لولا خوفهم من رهطه وخاصته ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا[1] وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[2] أي: إنك لست محترماً، أو صاحب شأن وكلمة بيننا حتى نمتنع عن قتلك.

---

(١) قال الألوسي - رحمه الله - في تفسير قوله: «﴿وإنا لنراك﴾ أي: فيما بيننا ﴿ضعيفاً﴾ لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع» وروي عن ابن عباس وابن جبير وسفيان الثوري وأبي صالح تفسير (الضعيف) بالأعمى وهي لغة أهل اليمن. وذلك كما يطلقون عليه ضريراً. وهو من باب الكناية على ما نص عليه البعض، وإطلاق البصير عليه كما هو شائع من باب الاستعارة تمليحاً.
وضعف هذا التفسير بأن التقييد بقولهم: ﴿فينا﴾ يصير لغواً لأن من كان أعمى يكون أعمى فيهم وفي غيرهم، وإرادة لازمه وهي الضعف بين من ينصره ويعاديه ولا يخفى تكلفه.
ومن هنا قال الإمام: «جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء - عليهم السلام - لكن لا يحسن الحمل عليه هنا، وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة أن الأنبياء - عليهم السلام - ليس فيهم أعمى، وما حكاه الله - تعالى - عن يعقوب - عليه السلام - كان أمراً عارضاً وذهب» اهـ. تفسير الألوسي (١٢/١٢٣).

(٢) سورة هود: الآية (٩١).

موقف شعيب من اتهامه بالضعف

ولكن شعيباً ـ عليه السلام ـ لم تهن عزيمته أمام تهديدهم، بل واصل مدافعة باطلهم، مبيناً لهم أن رهطه ليسوا بأعز من الله ولا أشد قوة منه، والرهط: هو الجماعة. قال الراغب: هم ما دون العشرة[١]. وقال الزمخشري: الرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل إلى السبعة[٢]، وقال موجهاً إياهم إلى أن الحق يجب أن يسمو على كل شيء، وأن الخوف يجب أن يكون من الله وليس من المخلوقين.

هكذا كانت ثقة شعيب بربه، وأنه على يقين من أن الحق سيعلو ويظهر، ويدحض الباطل وأهله، وفي هذا درس للدعاة إلى الله، وأن عليهم أن يتحملوا المشاق والشدائد في سبيل نصرة الحق وإحقاقه، وقد أيقن شعيب عليه السلام بقدرة الله التي لا تعلو عليها قدرة، وبعظمته التي فاقت كل عظمة، وتوكل على الله حق التوكل، قائلاً لهم ما قصّه الله على لسانه ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾[٣].

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص(٢٠٤).
(٢) الكشاف للزمخشري، (٢/٢٨٩).
(٣) سورة هود: الآيتان (٩٢، ٩٣).

أي أنه تحداهم أن يعملوا ما بدا لهم، وما هو في مقدورهم عليه لعرقلة مسيرة دعوته، وهو من جانبه سيسعى جاهداً لرفعة شأن دعوته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهددهم بأنهم سيعرفون في النهاية أي الفريقين كان على الحق، ومن الذي سينتقم الله منه، ودعاهم إلى ترقب هذه النتيجة وانتظارها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وأعود بالقاريء الكريم إلى آيات سورة الأعراف:

وإزاء هذا التهديد، وهذه الحجج التي تفصح عن حسن مراجعته لقومه، واستخدامه لحسن منطقه، وبعد نظره وحكمته في دعوته لقومه، ونصحه لهم، وتحذيره لهم من عاقبة المخالفة ـ مع ذلك كله ـ لم تثمر جهوده معهم لاسيما الملأ أصحاب الأموال والثروات، بل ازدادوا له عداوة وكراهية وقد ضاقوا به ذرعاً، لاسيما وأنه تطرق إلى أعز وأنفس ما تصبو إليه نفوسهم، ألا وهو جمع المال، لأنه استحكم على قلوبهم، حتى صاروا عبيداً له، كما جاء في الحديث: «تعس عبد الدينار»[1]. كل ذلك جعل الملأ أصحاب الأموال والنفوذ وهم الحجب الكثيفة في كل أمة تجابه دعوة الرسل وتوجه التحذير لشعيب ومن آمن معه بالنفي والطرد من البلاد كلية، حتى تهنأ نفوسهم، ويمارسوا باطلهم كيف شاءوا، إن لم يترك دعوته إلى التوحيد، وتدخله في التضييق عليهم في معاملاتهم المالية، ولم يكتفوا بهذا الحد، بل طالبوه بالعودة إلى عقيدة مجتمعه، والتخلق بأخلاقهم، وممارسته لما ألفوه من الظلم والفسق والفساد.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2].

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٤/ ٢٩، ٣٠).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

فأجابهم عليه السلام بقوله:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

والمتأمل في جواب شعيب ـ عليه السلام ـ على ما قاله المستكبرون من قومه يلمس فيه أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان، مع توخي المنطق الذي لا يقبل الجدل، ويتلخص في أمرين:

أولاً: إن الإيمان بأي مبدأ لابد وأن يكون مع الاقتناع التام، لأن الدخول في العقائد اختياري محض، فاستبعد هو ومن آمن معه ما يتمنونه لهم، ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ أي: تجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولوكنا كارهين لها لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة، لا لـن نعود إليها مهما كانت الظروف، فالهمزة لإنكار الوقوع ونفيه.

ثانياً: إنه قابل تهديدهم ووعيدهم بالرفض التام والكراهية المتناهية، واعتبر أن رجوعه عن عقيدة التوحيد خيانة للرسالة، وبهتانٌ على الله ـ جلّ جلاله ـ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾[2] لأن الذي يذوق حلاوة الإيمان من أتباع الرسل، يستحيل أن يرجع إلى الكفر، والأمثلة على ذلك لا تحصى، والتاريخ سطر لنا الكثير من البطولات والتضحيات، فهؤلاء آل ياسر، وهذا سيدنا بلال الحبشي، عذبوا وقاسوا ألوان العذاب، لكنهم أبوا أن يرجعوا عن دين الله، وهؤلاء ـ كما

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

أسلفت ـ هم من أتباع الرسل فكيف يكون الأمر مع الرسول نفسه؟

ولقد طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الطلب نفسه، وهو الرجوع عن دين الله، وهم على كامل الاستعداد أن يجعلوه سيداً عليهم، يغدقون عليه ماشاء من الأموال، ويزوجونه مَن أحب من النساء، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم رفض كل تلك الإغراءات، وقال قولته التي دوت في مشارق الأرض ومغاربها وسطرها التاريخ «**ياعم. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته**»[1].

وقد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم غاية الإفصاح عن استحالة تركه الدعوة، حتى يظهرها الله ـ سبحانه ـ أو يموت دون ذلك.

ونعود إلى الآيات من سورة الأعراف:

ثم إن شعيباً عليه السلام كرر رفضه مؤكداً ذلك بأبلغ وجه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2].

أي أنه يستحيل علينا، وتأبى ذلك نفوسنا أن نعود إلى ما كنا عليه من الباطل، وظلم الناس، وأكل أموالهم سحتاً في حال من الأحوال، إلا في حال أن يشاء الله ـ جل جلاله ـ فهو المتصرف في جميع الأحوال وله الحكمة البالغة، فهو القادر على ذلك، لأننا نحن على يقين كامل بأن ملتكم باطلة، وعن حلية الحق عاطلة، وملتنا هي الحق، ولا نستطيع أن نحول عن ذلك ولا نغيره، وإنما الذي بيده التغيير هو الله مقلب القلوب، الذي أحاط علمه كل شيء.

---

(١) الحلبي، على بن إبراهيم. السيرة الحلبية. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. (بمكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ)، ٤٦٢/١.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

والآية الكـريمـة تترجم المستـوى الكبـير، والخلق العـظيم الـذي عليه الأنبياء من الأدب مع خالقهم - جل وعلا - فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة في أنه لن يعود وأتباعه إلى ملة الكفر أبداً، ومع ذلك هو يرجع الأمر إلى الحق - جل وعلا - تأدباً معه، فلا يجزم بمشيئته هو، بل يفوض الأمر لله، فقد يكـون في علمه - سبحانه - ما يخفى على البشر مما تقتضيه حكمته وإرادته، ونـظير هذه الآية قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1].

ويعد ذلك التهديد والتخويف الذي وجهه قوم شعيب لنبيهم ومن معه من المؤمنين، فما كان من شعيب إلا أن يتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء قائلا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾[2] وفي ذلـك إظهار لعبوديته وفقره وعجزه، وأنه - جل وعلا - بإعانته عليهم ستضمحل أمامه كل قوى العدوان، وستكون النهاية النصر لأهل الحق، يندحر أهل الباطل مع باطلهم، وفي الآية إشارة إلى أنه أعرض عن مجادلتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفههم، وإصرارهم على غيهم وعتيهم.

﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي: الحاكمين لخلو حكمك عن الجور والحيف[3] ثم تخور عزائم أهل الكفر بعد أن يئسوا من التأثير في شعيب وأتباعه، وينتهون إلى تحذير الناس من السير على نهجه، مؤكدين لهم أن مَن اتبعوا شعيبًا ستلحق بهم الخسارة في شرفهم، وفي أموالهم وثرواتهم، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٥).

لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(١) أي: مغبونون لاستبدالكم الضلالة بالهدى، ولفوت ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف(٢).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٠).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٦٥).

المبحث الثالث
عاقبة قوم شعيب

وبعد تلك المجادلات والمحاورات التي تمت بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه، جاءت الخاتمة التي تؤكد فيها خسران أهل الباطل واضمحلالهم. وهذه هي نهاية كل من انحاز عن منهل أهل الحق واتبع هواه، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾(١) أي: استولت عليهم وباغتتهم وشدتهم شداً، فلم تبق منهم أحداً، والرجفة هي الزجرة الشديدة والصوت القوي الناتجين عن الزلزلة الشديدة، ولذا حرص القرآن الكريم على بيان تسلط الرجفة عليهم وحدهم فقال: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وهذا من أقوى الأدلة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون جماعتان متجاورتان في قرية فيصيب إحداهما ما لم يلحق الأخرى، وهو دليل على علمه ـ تعالى ـ بكل شيء، وأن ما لا يمكن في قدرة البشر ممكن في قدرته ـ تعالى.

وقوله ـ تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة ولا اقتدار على شيء.

قال النسفي: ﴿جاثمين﴾ ميتين قعوداً، يقال: الناس جثم، أي: قعود لاحراك بهم ولا يتكلمون(٢).

ومعنى قوله: ﴿فأصبحوا﴾ أي: فصاروا، و«الفاء» تدل على حصول حالهم هذا بعد أخذ الرجفة لهم مباشرة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩١).

(٢) تفسير النسفي، (٢/ ٦٢).

ثم قال تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: الذين أصروا على تكذيبه وأمعنوا في ذلك إمعاناً حجبهم عن الحق بادوا، وكأنهم لم يخلقوا في ديارهم هذه، وكأن لم تكن لهم بها قوة ومجتمع.

والكلام في ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ يدور على التشبيه، ويبين مدى ما حل عليهم من العذاب الأليم، أي شبهت حالهم بحال الذين لم يوجدوا أصلاً. ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[1] أي: كانوا هم بأعيانهم الخاسرين لدنياهم التي ظلوا يحرسونها، ومن أجلها كذبوا بالحق لما جاءهم. وفيه بيان سلامة المؤمنين ونيلهم لصلاح الدنيا والآخرة.

وكرر قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ إمعاناً في العظة، وتنبيهاً لعتات قريش الذين يعاندون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاسيما وأن قوم شعيب عرب مثلهم. ونظير ذلك قوله تعالى في قصة لوط: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[2].

ثم أثنى تعالى على نبيه شعيب بتوليه عن قومه بعد علمه بأنهم لم يؤمنوا، وذكر آخر قوله لهم لبيان أنه ـ عليه السلام ـ ظل ينصحهم إلى آخر لحظة، وأنه لم يصرفه علمه بعدم إيمانهم باختيار النصح الذي يؤثر فيهم لو بقيت فيهم بقية من حق، وأنه لم ييأس ولم يحزن على كفرهم لأنه لم يقصر في نصيحتهم.

قال تعالى: ﴿فتولى عنهم﴾ أي: قبل حلول الهلاك. وهذا هو الراجح عندي ليعلموا بهذا التولي أن العذاب واقع عليهم لا محالة، وليحمل بتوليه عنهم المؤمنين على كثرة التضرع لربهم ومزيد حمده أن نجاهم مما سيحل بهؤلاء الهالكين.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٢).

(٢) سورة هود: الآية (٨٣).

وبعض المفسرين يقول: تولى عنهم بعد موتهم، ولا أرى فيه فائدة كبيرة إلا أن يقال: إنه ظل ينصحهم إلى آخر لحظة في حياتهم.

﴿وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ وهذه الجملة العظيمة بمثابة الدفاع عن دعوته لهم، والتذكير الأخير لو ينفعهم، وأنه ـ عليه السلام ـ لم يكن مصلحاً اجتماعياً استهوته رئاستهم فأراد أن يظهر فيهم بما لم يألفوه، بل هومبلغ عن ربه رسالاته التي جاء بها هو ومن قبله من الرسل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿رسالات ربي﴾ فلم يقل ربكم لأنهم بمجافاتهم قد جحدوا آثار الربوبية فيهم، فلم يؤمنوا بربهم، فكان اللائق أن يضيف نفسه إلى الله ـ تعالى ـ تشريفاً له ـ عليه السلام ـ واعترافاً بآثار ربوبية الله ـ تعالى ـ عليه.

﴿ونصحت لكم﴾ أي: كثيراً، وسلكت في نصحي كل مسلك أراه يوصلكم إلى الاهتداء، فالآن ألقي عن كاهلي عبأكم مُشهداً ربي على بلوغ جهدي في استنقاذكم، لذا لا أجد في نفسي أسى على مصيركم هذا.

﴿فكيف ءاسىٰ على قوم كافرين﴾ وأنا رسول الله إليكم، وقد كذبتموني، إنكم بكفركم بربكم لم تستبقوا مودة تستدعي الأسف على مصيركم. وللإمام الفخر في تفسيره كلام نفيس في تفسير قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ قال: «وهي الزلزلة الشديدة المهلكة، فإذا انضاف إليها الجزاء الشديد المخوف على ما ذكره الله ـ تعالى ـ من قصة الظلمة كان الهلاك أعظم، لأنه أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم».

﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي: في مساكنهم.

﴿جٰثمين﴾ أي: خامدين ساكنين بلا حياة.

ثم قال تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول :

في قوله : ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ قولان : الأول : يقال : غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها، والثاني : المنازل التي كان بها أهلوها، واحدها مغنى . قال الشاعر :

ولقـد غنـوا فيهـا بأنعَم عيشةٍ   في ظل مُلكٍ ثابـتِ الأوتـادِ

أراد : أقاموا فيها . وعلى هذا الوجه كان قوله : ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها . والقول الثاني : قال الزجاج : ﴿كـأن لم يغنـوا فيها﴾ كأن لم يعيشوا فيها مستغنين . يقال : غنى الرجل يغنى إذا استغنى ، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر .

وإذا عرفت هذا فنقـول : على التفسيرين ، شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار . قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنـيسٌ ولم يسمــر بمكــةَ سامــرُ
بلى نحن كنــا أهلهــا فأبــادنــا   صروفُ الليالي والجـدودُ العــواثرُ

البحث الثاني :

قولـه : ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ الذين يدل علىٰ أن ذلك العذاب كان مختصاً بأولئك المكذبين ، وذلك يدل على أشياء :

أحدها : يدل على إن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار ، وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة ، وإلا لحصل في أتباع شعيب كما حصل في حق الكفار .

الثاني : يدل على أن ذلك الفاعل المختار عالم بجميع الجزئيات ، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي .

الثالث : يدل على المعجزة العظيمة في حق شعيب ؛ لأن العذاب النازل من

السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلدة واحدة كان ذلك من أعظم المعجزات، ثم قال تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ وإنما كرر قوله: ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ لتعظيم المذلة لهم، وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم. والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره: أخوك الذي ظلمنا، أخوك الذي أخذ أموالنا. . . . .

وأيضاً، إن القوم لما قالوا: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾ بين تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون[1] فقال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخـٰسرين﴾.

قلت: وهي نهاية كل من ضل عن طريق الهدى، وسلك سبيل الشيطان، نسأل الله العافية والهداية.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٨١، ١٨٢) بتصرف.

الفصـــل السـابع

القسم الأول : الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون.

القسم الثاني : الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل.

الفصل السابع

القسم الأول : الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون .

وفيه مباحث :

مقدمة موجزة عن صراع موسى ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف.

المبحث الأول : دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وملئه .

المبحث الثاني : ظهور بينة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه .

المبحث الثالث : موقف فرعون وملئه من دعوة موسى .

المبحث الرابع : شعور السحرة بأهميتهم في هذا الوقت العصيب على فرعون .

المبحث الخامس : موقف السحرة من موسى ـ عليه السلام .

المبحث السادس : موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحرة.

المبحث السابع : موقف السحرة من معجزة موسى ـ عليه السلام .

المبحث الثامن : موقف فرعون من سحرته «تهديد فرعون للسحرة وتوعدهم» .

المبحث التاسع : موقف الملأ من موسى وقومه .

المبحث العاشر : وصية موسى لقومه .

المبحث الحادي عشر : تضجر بني إسرائيل من وصية موسى - عليه السلام - لهم .

المبحث الثاني عشر : معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم .

المبحث الثالث عشر : نبذهم العهد الذي عاهدوا موسى عليه وإغراقهم في اليم .

المبحث الرابع عشر : عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه .

المبحث الخامس عشر : منة الله - تعالى - على بني إسرائيل بتمكينهم من أرض آبائهم أو أرض مصر - على ما قيل .

مقدمة موجـزة

هذه هي القصة السابعة التي تحدثت عنها سورة الأعراف، والمتمعن في السورة الكريمة وما حوته من القصص، يجد أنها اختصت بوجه عام بالحديث عن مصارع المكذبين، ونهاية إمعانهم في تكذيبهم لأنبيائهم - عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم - وكيف أن الحق أزهق الباطل فكانت كلمته هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، وقصة موسى[1] - عليه السلام - كسابقتها من القصص التي مرت علينا في هذه السورة الكريمة، جاءت لترسيخ معنى الألوهية الحقة، وتحرير الناس من العبودية الزائفة، فنلاحظ أنها افتتحت في أول آية بالهدف الذي سيقت من أجله وهو التمعن والتفكر في مآل المفسدين من الكفرة الملحدين، ولم تذكر هذه السورة قصة موسى - عليه السلام - كما ذكرتها سورة القصص، بل ابتدأت بإرسال موسى - عليه السلام - إلى فرعون، ودعوته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى - كما سيتضح لك من الآية التالية قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2].

---

(١) هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام -. وهو من أولي العزم من الرسل. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ٢٣٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

المبحث الأول
دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وملئه

عاش الفراعنة في مصر يحكمون القبط وبني إسرائيل، معلنين أنفسهم أرباباً من دون الله، منكرين أن يكون لهذا الكون إله، وأجبروا الناس على تأليههم من دون الله، وانقاد لهم وزراؤهم وأعوانهم على الظلم والاستبداد، واستعملوا بني إسرائيل في أشق الأعمال وأردئها، فضلا عن القتل والتعذيب الذي أوشك أن يبيدهم.

وتخليصاً مما كان عليه بنو إسرائيل أرسل الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون. قال تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ(١) وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٢).

فقوله: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ أي: من بعد الأنبياء الذين قصصنا عليك يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليك ـ قصصهم وهم آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ عليهم السلام. ﴿بـآيـٰتنا﴾ أي: بالمعجزات الدالة على صدقه فيما أتاهم به، ﴿إلى فرعون﴾ فرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم، ولقب كسرى لملوك الفرس. ﴿وملإيه﴾ وهم أشراف

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

(٢) فرعون موسى، واسمه الوليد بن مصعب. انظر: الأتابكي، جمال الدين أبي يوسف بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨هـ)، ١/ ٥٨.

قومه والوجهاء أصحاب النفوذ، وليست رسالة موسى مختصة بفرعون وملئه بل هي لهما وللمصريين كافة، فإنها إذا كانت لخاصتهم فهي لعامتهم من باب أولى، وإنما نص القرآن على فرعون وملئه؛ لأنهم هم العقبة الكأداء في سبيل دعوة موسى ـ عليه السلام ـ فإذا تغلب عليهم سهل عليه أن يوصل دعوته إلى سائر المصريين. كل ذلك على تفسير الملأ بأشراف قوم فرعون وخواصهم، ولا مانع أن يراد بالملأ كل المصريين؛ لأنهم يمالئون فرعون على ضلاله وادعائه الألوهية، وبطلان ذلك منه لا يخفى على من له أدنى عقل.

﴿فظلموا بها﴾ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والمعنى ﴿فظلموا بها﴾ أي: بسببها حيث جعلوا ما هو سبيل للهداية سبيلاً للغواية والضلالة، لأن الآيات جاءتهم لتساعدهم على الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وتصديق موسى ـ عليه السلام ـ في دعواه ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي: انظر أيها الرسول الكريم كيف كانت نهايتهم، حيث أُغرق فرعون وملؤه. وموسى وقومه ينظرون إليهم.

ونلاحظ أن هذه الآية سارعت بالتنبيه في كيفية عقاب فرعون وملئه وتسميتهم بالمفسدين، كأن هذا الاسم فيهم حقيقة، وفي غيرهم مجاز؛ ليعلم السامع لهذه القصة من أول الأمر، أن فرعون وقومه مع ما رأوا من الآيات الكفيلة بصرفهم عن باطلهم، لم ينتفعوا بما أوتوا، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾[1].

ثم بدأ موسى ـ عليه السلام ـ في بيان حقيقته لفرعون؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالَ

(١) سورة البقرة: الآية (٧).

مُوسَىٰ يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[١] أي: إنني مرسل لكم لكي أدعوكم إلى من يستحق العبادة وحده، وهو الله رب العالمين الذي له في كل عالم من العوالم تربية ظاهرة، ورعاية مستمرة، فهو الحقيق بأن يكون رباً، وهو الحقيق بأن يكون إلهاً. وهذه الآية تعريض بفرعون الذي قال لقومه كما في آية أخرى ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[٢]. وإنما سلك موسى ـ عليه السلام ـ معه مسلك التعريض من أول الأمر، لأنه الأمثل في أسلوب الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ ولعل فرعون يتنبه بقول موسى: ﴿إني رسول من رب العالمين﴾ الذي هو واحد منهم، فينظر في حال نفسه، ويصغي بقلبه إلى دعوة موسى ـ عليه السلام. وقد استشعر موسى ـ عليه السلام ـ أن فرعون بحاجة إلى معرفة بعض أوصاف الكليم، حتى يفكر فيما يلقى عليه، وحتى لا يتسرع بالإباء والمعاندة كشأن السابقين عليه، فقال ما قصه الله عنه: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾[٣].

قال النسفي في تفسير الآية: «أي: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب عليه قول الحق أن أكون قائله والقائم به. وعلى قراءة نافع ﴿حقيق عليّ﴾ أي: واجب عليَّ ترك القول على الله إلا الحق أي الصدق، وعلى هذه القراءة تقف على ﴿العـٰلمين﴾ وعلى القراءة الأولى يجوز الوصل على جعل ﴿حقيق﴾ وصف الرسول.

وعلى قراءة أُبيٍّ تكون ﴿على﴾ بمعنى الباء أي: إني رسول خليق بأن لا أقول. أو يعلق ﴿على﴾ بمعنى الفعل في الرسول أي: إني رسول حقيق جدير

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٤).
(٢) سورة النازعات: الآية (٢٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٥).

بالرسالة، أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق»[١].

ثم وصف نفسه لفرعون بوصف ثان هو قوله تعالى: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقي في أني رسول من رب العالمين ربكم، لأنكم بعض العالمين، فلا تجعلوا ربوبيته ورحمته سبباً في كفركم وعنادكم، ولأجل ذلك أضاف اسمه ـ تعالى ـ إليهم، ولم يقل قد جئتكم ببينة من ربي، لأنهم هم المقصودون بهذا الإرسال، ولم يسم لهم هذه البينة، ولم يحددها لأن من حصافة الحصيف أن لا يكشف عما معه حتى يرغب السامع إليه في كشفه وفي طلبه، حتى يكون له وقع في نفس السامع. فما ظنك بعقل موسى الكليم الذي قال الله له: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١)﴾[٢]؟ بما مضى مهد موسى ـ عليه السلام ـ لما سيطلبه من فرعون وهو قوله: ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي: خلهم واتركهم لي، لأصلح إفسادك لهم، ولأردهم إلى توحيد الله الحق، فإنهم أبناء الأنبياء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب ـ عليهم السلام.

وكان فرعون قد فتن بني إسرائيل فتنة عظيمة، أثرت على عقائدهم وعلى نفسياتهم، فهانوا هواناً عظيماً، وأصبحوا في مصر كالسجناء، لا يملكون الفكاك من قبضة فرعون، وقد استخدمهم في أسوأ الأعمال، وأحقرها، وأشقها: كالزراعة، وقطع الطوب، والخدمة في البيوت. وقد أدى خوفه من كثرتهم وتعاظمهم إلى تذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، ليبقى الرجال في الخدمة في الحقول، والنساء للخدمة في البيوت، ولا يكثر نسلهم حتى يأمن سطوتهم عليه في وقت من الأوقات، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى

---

(١) بتصرف من تفسير النسفي، (٢/ ٦٨).

(٢) سورة طه: الآية (٤١).

ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[١] وقد تكرر ذلك المطلب في سورة طه، وفي سورة الشعراء، مما يدل على أنه أول طلب طلبه موسى - عليه السلام - من فرعون.

قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾[٣] وهنا أمر جدير بالبحث وهو أن القصص السابق في هذه السورة بين لنا أن أول مطلب كان الرسول يتوجه به إلى قومه هو دعوتهم إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[٦] . . . . الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[٧] . . . الآية.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٢) سورة طه: الآية (٤٧).

(٣) سورة الشعراء: الآيتان (١٦، ١٧).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٧) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

وقد لاحظت مخالفة هذا المنهج في قصة لوط وموسى ـ عليهما السلام ـ وقد بينت سببه في قصة لوط ـ عليه السلام ـ وها أنا أبين سببه في قصة موسى ـ عليه السلام. وهو باختصار أن الظلم قرين الشرك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1] وأن من يظلم ويتمرس على الظلم كفرعون يصعب عليه قبول أي حق، فكان المناسب تجريده من ظلمه أولاً لبني إسرائيل، فإذا سلم بذلك أمكن مخاطبته في الوحدانية. على أن موسى ـ عليه السلام. قد بدأ دعوته إليه بقـوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2]. فهو نوع اشتراك في المناهج السابقة في قصة نوح، وهود، وثمود.

ولقد ضاق فرعون بهذا المطلب ولكنه لم يشأ أن يظهر ضيقه بالرفض والإباء على سنن الملوك في كبريائهم، ولاطمئنانه من داخله أن موسى ـ عليه السلام ـ ليس برسول.

فقال ما قصه الله عنه: ﴿قال إن كنت جئت بآية فأت بها﴾ عملاً وظهوراً كما ذكرتها قولاً: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[3] في دعواك أنك رسول من رب العـالمين، وهنا شرطان جوابهما واحد، وقع الجواب بينهما، وهو أسلوب عربي مألوف، ونوع من الإيجاز طريف، إذ لولا هذا الإيجاز لكان التركيب هكذا: إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فأت بها. ولما كان الإتيان بها هو المقصود، وهو الدليل على أنه جاء بها، وأنه صادق، سلك القرآن هذا المسلك اللطيف.

وقداختصرت سورة الأعراف ما بسط في القصة قبل المجيء بالآيات كما هو

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٣).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٦).

في سورة الشعراء[١]. وهو مسلك عظيم دقيق، ودليل عظيم من أدلة الإعجاز. وددت لو كان بحثي متمحضاً[٢] لقصة موسى ـ عليه السلام ـ حتى لا أترك من لطائفها شيئاً، لكن طول البحث فرض علي الاختصار.

(١) انظر الآيات من قوله تعالى: ﴿فقولآ إنا رسولُ رب العالمين* أن أرسل معنا بنيّ إسرائيل* قال ألم نُرِّبك فينا وليداً ولبثت فينا من عُمُرك سنين﴾ الآيات من (١٦) إلى (١٨) إلى قوله: ﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ الآية (٣١) من سورة الشعراء.

(٢) متمحض: المحض من كل شيء الخالص. قال الأزهري: كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه فهو محض؛ انظر: لسان العرب، (٢٢٧/٧).

المبحث الثاني
ظهور بينة موسى ـ عليه السلام ـ المرئية لفرعون وقومه

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[١] لم يتريث موسى عليه السلام في إظهار بعض معجزاته التي أيده الله بها، وهي انقلاب عصاه الجامدة التي هي على مرأى العين كسائر العصي ثعباناً مبيناً، وحية تسعى كما جاء في سورة طه[٢]. ونلاحظ أن القرآن الكريم عطف قوله تعالى: ﴿فألقىٰ عصاه﴾ بـ (الفاء) لبيان قلة المهلة بين الطلب وحصول المعجزة، كما استخدم القرآن ﴿إذا﴾ الفجائية، والضمير ﴿هي﴾ لبيان تأثير ذلك على فرعون وملئه، وأنهم أصيبوا بالدهشة عندما رأوا العصا التي كانت في يد موسى ـ عليه السلام ـ هي بعينها ثعباناً مبيناً، والثعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. ﴿مبين﴾ أي حية حقيقية لا لبس فيها ثم ثنَّى بمعجزته الثانية ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾أي: ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء لامعة، ذات نور متوهج، مع بقائها يداً آدمية يجرى الدم في عروقها أمام جميع الناظرين الحاضرين والقادمين عليهم، فكلما جاءت فئة من أهل مصر رأت ذلك دون أن تصاب يد موسى ـ عليه السلام ـ بأذى، لأن النور لا يكون إلا من حرارة شديدة تنعكس على زجاج أو نحوه، وتلك الحرارة نتاج شيء محترق. أما

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٧).

(٢) قال تعالى: ﴿قال هي عصايَ أتوكَّؤُا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى* قال ألقها يـٰموسى* فألقـٰها فإذا هي حيةٌ تسعىٰ﴾ سورة طه: الآيات من (١٨) إلى (٢٠).

موسى ـ عليه السلام ـ فيده كما هي.

قال القرطبي: ﴿ونزع يده﴾ أي: أخرجها وأظهرها. قيل: من جيبه أو من جناحه كما في التنزيل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[١] أي: من غير برص. وكان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول.

قال ابن عباس: «كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض»[٢].

---

(١) سورة النمل: الآية (١٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/٢٥٧).

المبحث الثالث
موقف فرعون وملئه من دعوة موسى ـ عليه السلام

لقد أيد الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ بحجج كثيرة، منها ما حكته لنا الآيتان السابقتان وهما:

أولاً: قلب العصا ثعباناً ضخماً عظيماً يبعث الرعب في قلوب الكافرين.

ثانياً: أخرج يده السمراء من جيبه بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس ﴿من غير سوء﴾ أي: من غير برص أو أذى أو تشويه.

ومعلوم أن الله ـ جل وعلا ـ أيد كل نبي بمعجزة تفوق أضعاف أضعاف ما كان مشتهر به قومه الذين أرسل إليهم...

ولقد كان السحر غالباً في ذلك الزمان وله علومه الخاصة، وفنونه المختلفة، ولا شك أن مراتب السحرة كانت متفاضلة متفاوتة، فمنهم المبتديء، ومنهم الماهر، ومنهم العالم، ومنهم المتمكن المتمرس.

فعندما شاهد الملأ ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من الآيات العظيمة التي أذهلتهم زعموا أن موسى ـ عليه السلام ـ قد بلغ النهاية في علم السحر، ووصفوه بما حكاه الله عنهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[1] وقد أتى بذلك السحر رغبة في الملك والرياسة، وقد يتساءل القاريء الكريم: إن إطلاق هذا الوصف على موسى ـ عليه السلام ـ كان في سورة الشعراء من قِبل فرعون وليس من قِبل الملأ.

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: إنه لا يمتنع أنه قد قاله فرعون أولاً ثم قاله الملأ، فحكى الله قول فرعون في الشعراء وقول الملأ في الأعراف.

الثاني: أو أنه لعل فرعون قاله ابتداءً، فتلقاه الملأ منه، فقالوا لغيرهم، أو قالوه لسائر الناس عن طريق التبليغ، فإن الملوك إذا رأوا رأياً قالوه للخاصة... وهم يذكرونه للعامة[2].

والمراد بالملأ من قوم فرعون خاصته وبطانته المقربة إليه، الذين يستشيرهم في النوازل. وقد مر بك أكثر من مرة أن الملأ في كل أمة هم كبراؤها ومترفوها وأصحاب النفوذ، وكانوا هم سبب نكبتها.

وقول الملأ لفرعون: ﴿إن هذا لسـٰحر عليـم﴾ ملق ونفاق وتهوين لشأن موسى - عليه السلام. ولعل فرعون بعد ما رأى معجزة موسى ملكه الدهش، فأخذ يفكر فيما يصنع، فأجابه الملأ بهذا الجواب.

ويمكن كما قررت سابقاً أنه هو الذي بدأ بهذا القول، ثم أخذ الملأ من قومه يرددونه تقربا إليه بذلك، وإظهاراً لاقتناعهم بقوله.

وقولهم: ﴿إن هذا لسـٰحر عليـم﴾ أي: ماهر متمرس في هذه الصنعة، لا يبطل سحره إلا من هو أقوى منه، فكان ذلك منهم توطئة لجمع أقوى السحرة من جهات مختلفة من نواحي مصر، ليحصل لهم الغلب على موسى - عليه السلام - وإذا ضعف أحدهم عن مقارعة موسى - عليه السلام - تقوى بإخوانه.

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٣٤).

(٢) تفسير الرازي بتصرف، (١٤/١٩٦، ١٩٧).

وقوله تعالى: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي مصر. والمعنى يريد أن يسلبكم ملككم ﴿فـماذا تأمرون﴾ أيها الملأ؟ وبماذا تشيرون علي لتلافي هذا الأمر الجلل؟ فأجابه الملأ بما قصه الله عنهم ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾.

قال صاحب الكشـاف: أي: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما[1].

﴿وأرسـل في المـدائن﴾ جمع مدينـة، أي: أرسـل في مدائن مصر رجالاً يحشرون إليك ويجمعون ما فيها من السحرة، فيأتوك بكل ﴿ساحر عليم﴾ أي: ماهـر حاذق في أصـول السحر. قال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾[2].

(١) الكشاف للزمخشري، (٢/ ١٠٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١١١، ١١٢).

المبحث الرابع
شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون في هذا الوقت العصيب

وما إن بلغ الخبر إلى آذان السحرة بطلب فرعون في حضورهم حتى بادروا بالامتثال مسرعين ملبين قال تعالى: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ بعد أن أرسل إليهم الحاشرين ﴿قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجيء السحرة. كأنه قيل: فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه؟

فقيل: قالوا مدلين بما عندهم، واثقين بغلبتهم، وكانوا يثقون بأنفسهم ثقة لا يحدها حد والدافع لهذه الثقة المفرطة عدة أمور:

١ - أنهم كانوا من أمهر السحرة الذين بلغوا النهاية في علم السحر.

٢ - أنهم كانوا كثرة. والنفس بطبعها تستأنس عند حصول الكثرة، وفي نفس الوقت كانوا يواجهون شخصاً واحداً، ليس مشهوراً أو معروفاً بالسحر.

٣ - أنهم كانوا يظنون أن ما قام به موسى سحرًا، وقد غفلوا عن أنه معجزة.

وقد دفعتهم ثقتهم ويقينهم الكامل بتفوقهم أن ساوموا فرعون على تعيين مكافأة وأجرًا إذا انتصروا على موسى. والتنكير في قوله: ﴿أجراً﴾ للتعظيم. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾[1].

فأجابهم فرعون إجابة المتشوق معرفة النتيجة، المتعجل لوقوعها: ﴿قال نعم﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾[2] عطف على محذوف سد مسد

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١٤).

حرف الإيجاب، كأنه قال: إن لكم لأجراً جزيلاً إذا انتصرتم عليه، فضلاً عن ذلك فأنتم تكونون من الظافرين بقربي، أي: من رجال حاشيتي، مبالغة في ترغيبهم وتشجيعهم على الإجادة والإتقان لعملهم.

وقد غاب عن السحرة حقيقة الأمر، فظنوا أن الموقف موقف احتراف ومهارة، وهو في الواقع موقف إعجاز ورسالة.

المبحث الخامس
موقف السحرة من موسى ـ عليه السلام

اتفق فرعون مع نبي الله ـ عليه السلام ـ على موعد يجتمع فيه وسحرته ليعلم موسى بما يشاهده من عمل سحرته أن ما أتاه به سحر لا معجزة كما يقول، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾[1]

والمتأمل في الآيات السابقة يلاحظ أن فرعون اشترط شرطين، وأن موسى ـ عليه السلام ـ اشترط شرطين. وقد رضي فرعون بشرطي موسى ـ عليه السلام ـ اطمئناناً إلى نصرته عليه بسحرته.

فأما شرطا فرعون قوله تعالى: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾.

الشرط الأول:

أن يحدد موسى ـ عليه السلام ـ زماناً ملائماً يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأنفسهم كذبه وافتراءه ـ عليه السلام ـ وحاشاه ـ وهذا الشرط يشعر أن فرعون كان متيقناً تماماً من انتصار السحرة وغلبتهم على موسى، فهو لا يبالي أياً كان زمن الاجتماع، فالنهاية بالنسبة له واضحة كوضوح الشمس في أن أمهر السحرة

---

(١) سورة طه: الآيات من (٥٧) إلى (٥٩).

سيتفـوقـون في النهاية وبالتأكيد على موسى الفرد الذي لا يملك إلا عصاته الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة.

الشرط الثاني:

أن يحدد موسى ـ عليه السلام ﴿مكاناً سوى﴾ أي: هو في المنصف[1] بين قصر فرعون والمكان الذي يقيم فيه موسى حيث لا يرهق الطرفان في الوصول إليه، وقد أراد فرعون بهذا الشرط أن يفهم موسى بأن هزيمته ـ المتيقن منها ـ لو حصلت لا لكونه موجوداً في ساحة قصر فرعون ـ وكما يقال: الأرض تضرب مع أصحابها. فالزمان والمكان أنت ياموسى الذي حددتهما، ولا دخل لهما في هزيمتـك، وإن انتصارنا وغلبتنا عليك لكونك خارجاً عن طاعتنا، ومكذباً لربوبيتنا، ومفترياً علينا.

وقـد رضي موسى ـ عليه السلام ـ منه ذلك؛ فقال ما قصه الله ـ تعالى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ ـ **وهذا هو شرط موسى الأول** ـ أي: مكان الاجتماع هو المكان الذي تجتمعون فيه يوم عيدكم، وقد لزم من تحديد الزمان تحديد المكان، لأنهم يحتفلون بعيدهم في وقت مخصوص في مكان مخصوص، وقد قلب موسى بشرطه الأول على فرعون مقصده، فإن مكان يوم الزينة هو مكان لهم، ولا يضر موسى ـ عليه السلام ـ أن يلقى فرعون في أي مكان، وقد أراد ـ عليه السـلام ـ بهذا الاختيار للزمـان والمكـان أن تصل معجزته إلى آذان كثير من المصريين، لأنهم يجتمعون في يوم زينتهم حتى يكاد أن لا يتخلف منهم أحد، فإذا ما شاهـدوا معجـزة موسى ـ عليه السـلام ـ كانت نكبـة فرعون أشد، وتزعزت هيبته ومكانته في نفوسهم، وظهر بطلان ادعائه للربوبية، إذ لو كان له

---

(١) انظر: تفسير الكشاف، (٢/٥٤٢).

من الأمر شيء ما أصابته هذه الهزيمة على يد موسى ـ عليه السلام ـ ولتنبه إليها قبل وقوعها، فاحتاط لنفسه من هذا الشرط.

وكان الشرط الثاني لموسى ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ حتى لا يداخل الناس ريبة في معجزة موسى ـ عليه السلام ـ إذ وضوح الرؤيا في هذا الوقت لا ينازع فيه أحد.

قال الزمخشري: «وإنما وعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه، وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص، لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر» . اهـ[1].

وهكذا تحدد مكان وزمان الحفل العظيم، وحضر فرعون ورجاله وسحرته، واحتشد الناس، والكل مشدود لمعرفة من يظفر من الفريقين.

ولم يأل موسى ـ عليه السلام ـ جهداً في إسداء النصيحة للسحرة، وتنبيههم إلى ما يفعلونه من السحر لا يمكن أن يجابه ما معه من البينة.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾[2].

والمعنى: أيها السحرة لا تضلوا بسحركم، فتصرفوا الناس عن حجة الله وبينته التي أرسلني الله بها إليكم وإلى فرعون، فإنكم إن بقيتم على ذلك ولم تصغوا لنصحي، ولم تؤمنوا بالله ربكم، وبقيتم تفترون على الله الكذب بعدما وضح الحق لكم، فستهلكون هلاكاً مؤكداً بعذاب شديد من الله، لا يمكنكم

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/٥٤٢).

(٢) سورة طه: الآية (٦١).

دفعه لأن مصير من افترى على الله الكذب الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم﴾ أي: إنهم تشاجروا فيما بينهم، واختلفوا في حقيقة موسى ـ عليه السلام ـ فقائل يقول: إنه ساحر مثلهم، وآخر يقول: إنه نبي، ﴿وأسروا النجوى﴾ أي: إنهم تشاوروا في السر، حتى لا يبلغ ذلك فرعون، ولا سيما أنه قد أغراهم بالمال والجاه والقرب منه لكنهم خلصوا إلى رميه بالسحر قائلين ما قصه الله عنهم: ﴿قالوا إن هٰذان لساحران﴾ أي: موسى وهارون ـ (عليهما السلام.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾[1]

أي: الفضلى، والمعنى: إن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون موسى وهارون ـ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم، ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ أي: يَستبدّان بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها.

يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم[2].

﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي: كونوا مجتمعين على كيده ولا تختلفوا ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أي: مصطفين ؛ لأنه أهيب في صدور المجتمعين، ويبعث الرعب في قلب الخصم.

---

(١) سورة طه: الآية (٦٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/١٥٧).

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾[(١)] أي: قد فاز من غلب.

وقد طوت سورة الأعراف هذه المشاهد، لأن المنهج القرآني يقوم على عدم حشد مشاهد القصة في موضوع واحد، إمعاناً في التحدي، وإظهاراً للإعجاز، إلا ما كان من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فإن القرآن لم يفرق مشاهدها، لأن الغرض الأول من مجيئها مؤانسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وضرب المثل له بصبر من سبقوه، وجلدهم في تحمل البلاء، فكان الإعجاز فيها توالى مشاهدها وفصولها في سورة واحدة.

وأعود إلى سورة الأعراف لاستكمال القصة منها باعتبار أنها موضوع بحثي الأصلي:

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[(٢)].

﴿قَالُوا۟﴾ أي: السحرة ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ أي: عصاك التي تزعم أنها آية ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ والمتأمل في قولهم هذا يلاحظ عليه أنهم يخاطبونه بلغة الواثق من نفسه، والمتمكن المتيقن من نصره، المتحدي لخصمه، وكأنهم يقولون له: في كلتا الحالتين لنحن على ثقة من الفوز والظفر: فاستسلم لنا، ولا تكبد نفسك مشقة المنازلة.

و﴿إِمَّآ﴾ شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: إما أن تلقي أولاً فلا يكون لك اعتراض بعد ذلك، وإما أن نلقي نحن أولاً فلا يكون لنا اعتراض عليك إذا غلبتنا، ومع تحديهم له إلا أن الآية ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ يفهم منها رغبتهم في أن يكون ابتداء الإلقاء من جانبهم، لأنهم ذكروا الضمير المتصل وأكدوا بالضمير المنفصل، وجعلوا الخبر معرفة لا نكرة[(٣)].

---

(١) سورة طه: الآية (٦٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١٥).

(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٤/٢٠٢).

﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ أي: افعلوا ما أمكنكم من السحر، فإنه لن ينفعكم في هذا الموقف، وإن الله سيبطله، لأنه ـ تعالى ـ لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضرني أن تبدأوا قبلي بإلقاء ما معكم، وكان موسى ـ عليه السلام ـ واثقاً من نصرة ربه له كل الوثوق.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنهم ألقوا ما معهم من سحر فور إخبار موسى ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿أَلْقُواْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾(١) يدل على تأثير سحرهم في

---

(١) اختلفت المذاهب في حقيقة السحر، وقد فصّل القول الإمام القرطبي في تفسيره، وإليك ما قاله ـ رحمه الله ـ: «فذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال: ﴿يخيل إليه﴾ وقال أيضاً: ﴿سحروا أعين الناس﴾».

قلت: قال الرازي نقلاً عن القاضي: «لو كان السحر حقاً لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم، فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحوالاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه» اهـ، تفسير الرازي (١٤/٢٠٣) وأعود مرة أخرى إلى تكملة كلام القرطبي:

قال القرطبي:

«وهذا لا حجة فيه لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع؛ فمن ذلك ماجاء في الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس. فدل على أن له حقيقة» قلت: وأراد ـ رحمه الله ـ بالآية قوله تعالى في سورة البقرة (الآية ١٠٢) قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾. ثم قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿وجآءوا بسحر عظيم﴾ وسورة الفلق مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو مما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن =

الحاضرين، وأن السحرة أتوا بفنون من السحر كثيرة ومتوالية جعلت الأبصار تكل من متابعة ما جاءوا به، وقد خيل إليها أشياء نتيجة مهارتهم، وكلها ليست بحقيقية إلى حد أن موسى ـ عليه السلام ـ وهو مَن هو في قوة الحواس ـ لأن الله اصطنعه لنفسه ـ قد خيل إليه أن حبال السحرة وعصيهم كانت تسعى، قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ فلا غرابة أن تضعف أبصار الحاضرين فترى الأشياء على غير حقيقتها.

قال النسفي ـ رحمه الله ـ عند تفسير قوله: ﴿قال: بل ألقوا﴾[1]: أنتم أولاً ليُبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويظهر الله سلطانه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين[2].

وقال الفخر نقلاً عن الواحدي ـ رحمهما الله ـ في معنى قوله تعالى: ﴿سحروا أعين الناس﴾: المراد سحروا أعين الناس أي: قلوبها عن صحة إدراكها بسبب تلك التمويهات[3].

= عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سحر رسولَ الله ﷺ يهوديٌ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم . . . . الحديث» وفيه أن النبي ﷺ قال لما حل السحر: «إن الله شفاني» صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (١٢/٣٣٧) والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقاً وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذي ينعقد بهم الإجماع» ا.هـ.

انظر: تفسير القرطبي، (٢/٤٦)، وانظر: فتح الباري (١٢/٣٣٣).

(١) سورة طه: الآية (٦٦).

(٢) تفسير النسفي، (٣/٥٨).

(٣) تفسير الرازي، (١٤/٢٠٣).

قلت: ومراد الواحدي بهذا القول أن السحر حقيقة موجودة لا تمويه ولا تخيل، وليس أنه لا حقيقة له كما يقول به المعتزلة.

﴿واسترهبوهم﴾ أي: إنهم بعثوا الرهبة في قلوب العامة لما رأوه من حركات تلك الحبال والعصى، قال الفخر: واسترهبوهم أي: أخافوهم. أو ﴿استرهبوهم﴾ أي: طلبوا واستدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس، وكانوا على ما قيل بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك: أيها الناس. احذروا[1].

﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦﴾[2] أي: عندهم لأنه كان كثيراً وليس بعظيم على الحقيقة.

---

(١) نقل بتصرف من تفسير الرازي، (١٤/٢٠٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١٦).

المبحث السادس
موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحرة

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ[1] تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ[2] ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[3].

قولـه: ﴿وأوحينـا إلى موسى﴾ أي: كلمناه وناجيناه وكان ربه يكلمه بلا واسطة كما هو معروف معلوم[4] أو ألهمناه أن يلقي عصاه، وأياً ما كان فإن موسى ـ عليه السلام ـ لم يلق عصاه بهواه متكلاً عليها، وإنما انتظر أمر الله له بما يفعله في هذا الوقت فقد يؤتيه معجزة أخرى تدحض هذا الباطل.

وهكذا سائر الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لا يصدرون في شيء من الأشياء قلَّ أو كثر إلا بإلهام الله أو وحيه، وحتى ما صدر منهم مما كان لهم فيه اجتهاد فإنه لا يخرج عن إلهام في رأي، وهو من باب ترك ما هو صواب إلى ما هو أصوب، وذلك تعليماً لرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن ما هو مستور في علم الله فوق اجتهادهم.

---

(١) اللقف: التناول بسرعة، يقال: لقف الشيء يلقفه لقفاً ولقفاناً أخذه بسرعة.

(٢) الإفك: في اللغة قلب الشيء عن وجهه. ومنه قيل للكذب إفك لأنه مقلوب عن وجهه. تفسير الرازي (١٤/٢٠٤).

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (١١٧) إلى (١١٩).

(٤) ويؤيده قوله تعالى في سورة طه: ﴿قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوآ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ الآيتان (٦٨، ٦٩).
وقول الله لنبيه إنما يكون عن طريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾.

﴿أن ألق عصاك﴾ أمر منه تعالى لنبيه. والمعنى أن ألق عصاك التي عهدتها تنقلب حية تسعى وثعبانًا مبيناً لا يثبت أمامه شيء، فألقاها ـ عليه السلام ـ بأمر ربه فإذا هي تأخذ بسرعة خاطفة ما أفكه السحرة من الباطل الذي ضلوا به أهل مصر أزمنة طويلة، والذي كان يعتمد عليه فرعون في بعض سياسة المصريين؛ بدليل أنه لجأ إلى السحرة عندما ظن أن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من قبيل السحر، وقد أراد الله بذلك إبطال السحر وأنه مهما تفنن فيه لا يضر أحداً إلا بإذن الله، وأن السحر محكوم بقدرته ـ جل وعلا ـ فلا يصح أن يعول عليه أحد إنما المعول على الله ـ سبحانه وتعالى.

و﴿إذا﴾ في هذه الآية فجائية والمعنى أن الحضور أخذتهم تلك المفاجأة فأصابتهم بالدهش والغلب.

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله: قال المفسرون: لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق، ثم فتحت فكها، فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعاً، وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، فلما أخذها موسى صارت عصاً كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار أصلاً. واعلم أن هذا مما يدل على وجود الإله القادر المختار، وعلى المعجزة العظيمة لموسى ـ عليه السلام ـ وذلك لأن ذلك الثعبان العظيم لما ابتلعت تلك الحبال والعصي مع كثرتها، ثم صارت عصاً كما كانت، فهذا يدل على أنه تعالى أعدم أجسام تلك الحبال والعصي، أو على أنه تعالى فرق بين تلك الأجزاء وجعلها ذرات غير محسوسة، وأذهبها في الهواء بحيث لا يحس بذهابها وتفرقها. وعلى كلا التقديرين فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله ـ سبحانه وتعالى[1].

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٤).

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [1] والمتمعن في الآيات السابقة يرى بوضوح كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الوقت، ويستولي على أفئدتهم ومضة من الزمن، حتى ليخيل لضعاف القلوب أنه غالب وحق. . . ولكن ما إن يواجه الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول. وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذعر والذل وهم يرون صروحهم تتهاوى، وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين، وإذا بتحديهم الصريح وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين. قال تعالى: ﴿فغلبوا هنالك﴾ أي: غلبوا في ذلك المكان والزمان اللذين حددا من قبل في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [2] وقد سبق تفسيرها [3].

والمعنى ـ والله أعلم: إن القوم بهتوا، ولم تستطع أقدامهم أن تبرح بهم ذلك المكان من شدة ما أصابهم، وأنهم لم يستطيعوا مبارحته إلا بعد مضي وقت التقطوا فيه أنفاسهم، وقد انقلبوا إلى بيوتهم وأهليهم بعد ذلك ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أذلة لا يملكون ما يدفعون به حجة موسى ـ عليه السلام ـ إلى حد أنهم سئموا أن يكلم بعضهم بعضاً، وأنهم حسبوا لمسألة نسائهم ومن لم يحضر هذا المشهد من ذويهم حساباً شديداً.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٨).

(٢) سورة طه: الآية (٥٨).

(٣) انظر: ص (٣٧٥) من بحثنا هذا.

المبحث السابع
موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى ـ عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١٢٢﴾[١].

بعد أن رأى السحرة بينة موسى ـ عليه السلام ـ وقد التهمت بسرعة مذهلة ما جاءوا به من السحر، ثم تحول ثعبان موسى ـ عليه السلام ـ إلى عصا كما كانت من قبل، أيقنت السحرة أن هذا الأمر خارج عن نطاق السحر، وهو أمر إلهي لا طاقة للبشر عليه، وتيقنوا أن الذي أمامهم ليس بساحر بل هو نبي صادق من عند الله.

قال الرازي رحمه الله: هذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم، وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر، واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى ـ عليه السلام ـ خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية، لا من جنس التمويهات البشرية، ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال، لأنهم كانوا يقولون: لعله أكمل منا في علم السحر، فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر، فلأجل كمالهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان. فإذا كان حال علم السحر كذلك فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد[٢]؟

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٢٠) إلى (١٢٢).
(٢) تفسير الرازي، (١٤/٢٠٥، ٢٠٦).

قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ وفي الآية دليل على أن فعل العبد من خلق الله ـ تعالى ـ وتدل الآية أيضاً على أن السحرة سجدوا فور رؤية معجزة موسى ـ عليه السلام ـ وأنهم اندفعوا ملقين أنفسهم للسجود لرب العالمين، فأعضاؤهم لم تكن مهيأة في تلك اللحظة لشيء سوى السجود، وأن هذا الشعور وتلك الرغبة العارمة تساوى فيها السحرة جميعهم فلم يتوقف منهم أحد. فـ(أل) في السحرة للاستغراق.

قال النسفي: «خروا سجداً كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، أو لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا، فكانوا أول النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة»[1].

وقوله: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ أي: آمنا بمالك أمر العالمين، ومدبر شئونهم، والمتصرف فيهم.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[2] بدل من الجملة التي قبلها. والغرض منها نفي توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله ـ تعالى ـ كما قال فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾[3].

والظاهر عندي أنهم لما ألقوا ساجدين قالوا بحيث يسمع فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ إمعاناً في كشف الحقيقة التي بدت لهم، وإعلاناً عن مخالفتهم له في عقيدته مخالفة لم تبق فيهم من تقدير لتلك العقيدة الضالة.

وإن فرعون هددهم بما سأذكره على سجودهم وعلى مقالتهم في سجودهم،

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٧٠).
(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٢١، ١٢٢).
(٣) سورة النازعات: الآية (٢٤).

إذ لولا تلك المقالة لظُن بعض الظن أن السجود كان لفرعون، لمحاولة نصرته ببعض النصرة وتخفيف نكبته، لكن السحرة أرادوا بمقالتهم هذه أن يعلم كل من يراهم أنهم سجدوا للواحد الأحد، وأن ظهور الحق دفعهم إلى أن يأتوا بما هو أدل على خلوص التوحيد وهو السجود المشفوع بقولهم في سجودهم: ﴿ءامنا برب العالمين * رب موسى وهارون﴾.

وإنما نحوت هذا المنحى لأن السجود في الأمم السابقة كان شيئاً مألوفاً من الرعية لملوكها، ولأجل نفي ذلك أردف السحرة سجودهم بمقالتهم هذه، وإنما قالوا: ﴿رب موسى وهارون﴾ إتياناً منهم بركني الشهادة التي لا تكون إلا بهما وهي توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان بالرسول الذي جاءهم بهذا التوحيد، كما أنهم أرادوا أن ينسبوا الفضل لمن كان سبباً في خلاصهم من الكفر إلى الإيمان.

المبحث الثامن
تهديد فرعون للسحرة وتوعده لهم

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1].

وبعد أن رأى فرعون أن أعلم الناس بالسحر قد أقروا بنبوة موسى ـ عليه السلام ـ أمام ذلك الجمع العظيم، لأنهم أدركوا أن ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ ليس من قبيل السحر، وتحولوا من تحديهم السافر إلى التسليم المطلق أمام نداء الحق الذي لا يجحده إلا مكابر ومتعالٍ.

ولقد خشي فرعون أن يستولي الإيمان على قلوب العامة كما استولى على قلوب السحرة، لا سيما وقد اتضح ذلك على صفات وجوههم كما أخبر بذلك قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾[2] أي: أذلاء مبهوتين، فأخذ فرعون ينكر عليهم مُوبخاً ومقرعاً لهم فِعلهم الشنيع الذي ارتكبوه وهو إيمانهم برب موسى وهارون، قائلاً لهم: آمنتم به قبل أن آمركم بذلك؟ فهو من غروره واستعلائه ظن أن الإيمان بالحق بعد ما تبين يحتاج إلى سبق موافقة واستئذان! فالضمير في ﴿به﴾ يحتمل العود إلى الله ـ عز وجل ـ ولم يصرح فرعون باسمه تعالى تحامياً لجريان ذكر الله ـ تعالى ـ على لسانه، مما ينبه العامة إلى التشكك في

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٢٣، ١٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١٩).

ألوهية فرعون، خصوصا بعد ما نابه من كرب على يد موسى ـ عليه السلام ـ بإيمان السحرة، الذين كان يعتبرهم ملجأه وحصنه لإبطال معجزة موسى ـ عليه السلام.

ويجوز أن يراد بالضمير موسى ـ عليه السلام ـ وقد قصد بذلك تحقيره وأنه أقل من أن يؤثر فيهم هذا التأثير.

قوله تعالى: ﴿قبل أن ءاذن لكم﴾ يريد به فرعون أن الخروج على كلمته والانتحال بنحلة لا يقرها، أمر يستدعي عقوبة فعلية؛ لأنهم أرادوا بذلك سلبه ملكه، وإخراج أهل المدينة منها، باستتباعهم إياهم فيكون لهم الغلب بميل الكفة إليهم، وأنه لا يقر لأهل المدينة بتلك التبعية للسحرة، وسيؤاخذهم على ذلك أشد المؤاخذة بالمحاربة والانتقام، مما يؤدي إلى إخراج أهل المدينة منها، والمدينة التي يتحدث عنها هي عاصمة ملكه وقصبته وحاضرته، ولعلها منف، أو منفيس، أو طيبة، فهذه الأسماء كانت لأشهر مدينة في ذلك العهد كما قيل. والله أعلم.

وما كان فرعون ليأذن لهم في الإيمان، ولو مالت نفسه إلى ذلك لما أنكره، ولكنه أراد أن يبين للسحرة أنه لا يزال صاحب السلطان، وإليه المرجع حتى فيما يدينون به ويعتقدونه؛ لذلك نراه في الحال قد ألقى إلى أسماع الحاضرين شبهتين لتصيرا حائلاً بين إيمان القوم وبما جاء به موسى ـ عليه السلام.

فالشبهة الأولى : بقوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ أي: فعلكم هذا أيها السحرة ما هو إلا حيلة احتلتموها أنتم وموسى وتواطأتم عليها، وغرضه من هذا التنقيص من قوة الحجة والتأثير الذي أحدثته المعجزة.

الشبهة الثانية : قوله: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن غرضكم من تواطئكم ذلك هو إخراج أهلها الأصليين ـ الأقباط ـ منها وإسكان بني إسرائيل

مكانهم، ومعلوم أن مفارقة الأهل والبلد والوطن من أصعب وأشق الأمور على النفس، فكانت هذه الشبهة من أقوى العوامل المؤثرة في النفوس، وغرضه من هذا إعلان العداوة على موسى والسحرة، ثم اتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد قائلا لهم:

﴿فسوف تعلمون﴾ وعيد مجمل موجه للسحرة الذين وصفهم بذلك التدبير والكيد. ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: من كل شق طرفاً.

﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ تنكيلاً وتفظيعاً.

وقد أراد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ أن يبين قدرته عليهم وأن يخيفهم بالتأثير على قوتهم الذاتية، لأن الذي قطعت يده ورجله من خلاف لا يحسن مشياً، ولا يحسن إمساكاً بشيء، مما يجعله لا يستقل بعمل، ومما يستذله لغيره دائماً فيكون عالة عليه. ومن وصل إلى هذا الحد لا يعتد برأيه ولا يعول على تأثيره. وكان فرعون من أوائل من سن تعذيب المؤمنين على إيمانهم، ومن أوائل من وضع لَبِنَات فنون تعذيب المؤمنين في كل عصر لانتصارهم لدينهم، ولمخالطة بشاشة الإيمان قلوبهم. وقوله: ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ أي: لن أبالي بأن لبعضكم قوة، بل كلكم معشر السحرة في التنكيل سواء، ولن أقبل شفاعة شافع فيكم، وإنما هددهم بالتقطيع والصلب ليعتبر غيرهم بهم، وليرجعوا بما هددوا به عن التوحيد. وقد حكى القرآن تأبّيهم على فرعون، واستخفافهم بما هددهم بأكثر من أسلوب، لنعرف بذلك قوة إيمانهم ورسوخه في قلوبهم، ولنتعلم مغالبة الصعاب والاستعلاء عليها بقوة الإيمان.

قال تعالى في سورة طه: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[1].

والمعنى: إن السحرة قالوا لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نختارك فنتبعك، ونكذب ما جاءنا به موسى من الحجج والأدلة القاطعة على حقيقة ما دعانا إليه. وقوله: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ عطف على ﴿مَا جَآءَنَا﴾ أي: لن نختارك على الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. أو قسم وجوابه ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ مقدم على القسم، والتقدير: والذي فطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا به موسى فاقض ما أنت قاض. ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ أي: اصنع ما أنت صانع من القتل والصلب.

﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أي: إنما تحكم فينا مدة حياتنا ثم لا سلطان لك بعد ذلك: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أي: إنا آمنا، وأقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا وعده ووعيده، وأن ما جاء به موسى حق. ﴿لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: ليعفو عن ذنوبنا.

﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ أي: ما أكرهتنا على تعلمه والعمل به.

روى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره. فكرهوا معارضته خوف الفضيحة، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر. وضر فرعون جهله به، ونفعهم علمهم بالسحر. فكيف بعلم الشرع[2]؟

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[3].

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٢، ٧٣).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٦٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٠، ٥١).

قال النسفي: «أي: إن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به قالوا: ﴿لا ضير﴾ أي: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا أعظم النفع، لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، أو: لا ضير علينا فيما تتوعدنا به، إنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه وأرجاها، أو: لا ضير علينا في قتلك، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته، ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان»(١).

وأعود إلى ما قاله القرآن عنهم في سورة الأعراف.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾(٢).

أي: وما تكره منا، وتعيب علينا إلا الإيمان بآيات الله، الذي هو من أعظم المناقب وأفضل المحاسن، مما يجعلك لو كنت عاقلاً أن تمدحنا به لا أن تنقم منا، فكيف نترك صوابنا إلى جهلك وطغيانك؟

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٣) فلما تبين لهم إصراره على تنفيذ ما توعدهم به، استعانوا على هذا البلاء العظيم بربهم، يتضرعون إليه، ويسألونه أن يفرغ على ذواتهم وقلوبهم صبراً عظيماً، لا يبالون معه بما يفعله بهم فرعون، ورجوا ربهم في ضراعة أن يثبتهم على الإسلام الذي هداهم إليه، وأن يتوفاهم عليه، لأن سعادة المسلم لا تستيقن إلا إذا خرجت روحه على الإيمان.

فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ هو نداء واستنجاد، وهو مقول قول محذوف تقـديره قالـوا: ياربنا، ومالك أمرنا وشئوننا، أفرغ علينا صبراً عظيماً يدافع هذا البلاء عنا، وتوفنا برحمتك مسلمين.

---

(١) تفسير النسفي، بتصرف (٣/ ١٨٤).

(٢)، (٣) سورة الأعراف: الآية (١٢٦).

وهذا الدعاء الذي قصه الله علينا، تعليم لكل مسلم أن يستنجد بربه وقت الشدة، فلا مغيث له إلا هو، وأن يكون همه الأكبر الخروج من هذه الدنيا على الإيمان، وأن أي مصيبة مهما جلّت فهي دون مصيبة التوفي على الكفر، والعياذ بالله ـ تبارك وتعالى ـ وأن المؤمن لا يليق به أن ينسى الآخرة في غمرة صعوبة الأحداث وخطورتها، وأن يجعل رجاء الوفاة على الإيمان نصب عينيه، وموضع سؤاله ربه، وتضرعه إليه دائماً، ولذا لم يسأل السحرة في هذا الموطن سوى هذين الأمرين.

ولقد اختلف المفسرون هل أوقع فرعون بالسحرة ما هدد به أَوْ لا؟

والذي أميل إليه أنه أوقع بهم ما هدد به أو بعضه لهذا الدعاء. والله أعلم.

المبحث التاسع
موقف الملأ من موسى ـ عليه السلام ـ وقومه وإجابة فرعون لملئه

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾(١).

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ الجملة معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾(٢).

والملأ: هم أصحاب النفوذ والسلطة والزعامة والوجاهة، والملأ في كل أمة هم سبب شقائها وهلاكها بعذاب الاستئصال المتنوع في الدنيا، كما بينه القرآن الكريم من خلال قصص الماضين، وقد ألمحت إلى ذلك مراراً، وقد كان شأنهم مع فرعون شأن الجبان الذي يلتمس فرصة يظهر فيها بمظهر الشجاعة الكاذبة والغيرة المفتعلة.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ لا يدل على إيمان بني إسرائيل واستقامة حالهم، وامتناعهم من تأييد فرعون ونصرته، وإنما يدل على مهانتهم وأنهم لم يكونوا ذوي وزن عند فرعون. وسيتضح ذلك فيما سيأتي من أحوالهم ما يؤكد هذا الفهم، وكان فرعون لا يستشير إلا قومه ـ وهم المصريون الحقيقيون ـ لا بني إسرائيل الدخلاء.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

وقوله: ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وءالهتك﴾ القصد منه تهييج فرعون على موسى وقومه، ومحاولة حمله على مغالبة خوفه وروعه، ولذا ذكر القرآن الكريم قولهم هذا بأسلوب الاستفهام الذي لا يقصد حقيقته بل القصد منه الإثارة ـ كما ذكرت ـ وقد استخدم الملأ في إثارتهم لفرعون سببين قويين في نظرهم، كل واحد منهما كفيل بأن يحمل فرعون على التصدي لموسى وقومه فكيف باجتماعهما؟

أولهما: إفساد موسى وقومه في أرض مصر على حد زعمهم، وذلك أن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ هزت قلوب المصريين، وزعزعت علاقتهم بفرعون، وحملت الكثيرين منهم على التفكير في الإيمان بموسى ـ عليه السلام ـ وذلك ينقض ويهز ملك فرعون وهذا هو أقوى السببين. ولا غرابة في عرف أهل الباطل أن يسموا الحق والإيمان فساداً، وضلالهم وكفرهم فلاحاً ورباحاً.

ولقد كان لموسى ـ عليه السلام ـ في بعض المصريين تأثيره الظاهر قبل أن يرسله الله إلى فرعون، وقبل أن يشهد المصريون معجزته. ويؤكد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

قال النسفي ـ رحمه الله: «إن هذا الرجل كان ابن عم فرعون، وهو مؤمن من آل فرعون، الذي قص الله علينا خبره في سورة غافر»[2] فما بالك بعد مشاهدتهم معجزته ـ عليه الصلاة والسلام؟.

والسبب الثاني: هو قولهم: ﴿ويذرك وءالهتك﴾ فإن مما يشق على أصحاب

(١) سورة القصص: الآية (٢٠).

(٢) قال تعالى: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمنه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله﴾ . . . الآية (٢٨) من سورة غافر؛ انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٢٣٠).

الجاه والسلطان انحراف الناس عنهم إلى غيرهم، وهو تهييج آخر، أرادوا به إثارة فرعون على موسى وقومه، ويحسن بي أن أتعرض لقضية تتعلق بقوله تعالى: ﴿ويذرك وءالهتك﴾ فإن ذلك يعني أن فرعون لم يكن إلهاً بل كان يعبد آلهة؛ وهذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [1].

والواقع لا تعارض بين آية الأعراف وآية القصص، لأن آلهة فرعون التي ذكرتها سورة الأعراف قد نصبها فرعون لتأكيد ألوهيته هو؛ وهي بمثابة التهيئة لمن يدخل عليه، فلا يليق بداخلٍ عليه أن يدخل من أول الأمر، بل عليه أن يمر على تلك الآلهة التي صنعها خصيصاً لنفسه لتهيء الداخلين عليه لملاقاته؛ وقد فهمت ذلك من الإضافة في قوله تعالى: ﴿وءالهتك﴾ أي: المخصوصة بك، والتي تهيء بها رعيتك لقبول ألوهيتك، لأنها كانت آلهة جامدة لا تسمع، ولا تبصر فإذا سلم لها من مر عليها بالألوهية كان تسليمه بألوهية فرعون ألزم، لأنه يسمع، ويبصر، ويتكلم، ويعطي، ويمنع باعتباره بشراً زوده الله ـ تعالى ـ بما يمكنه من ذلك، ولم أجد هذا المعنى في كتب التفسير ولكن الله هداني إليه، فلله الحمد والمنة.

ومما يقوي فهمي هذا قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [2] والمعنى ـ والله أعلم ـ أنه يقول: إن فوق تلك الآلهة التي جعلتها تمهيداً لتعريفكم بألوهيتي، بل وفوق رب موسى الذي يزعم أنه أرسله إليكم. تعالى الله عما يقول علواً كبيراً.

---

(١) سورة القصص: الآية (٣٨).

(٢) سورة النازعات: الآيتان (٢٣، ٢٤).

وقد اختلف المفسرون في آلهة فرعون فمن قائل: إنها الكواكب، ومن قائل إنها أصنام صغيرة، أمرهم بعبادتها، ومن قائل: إنه كان يعبد البقر، وقد شاعت عبادة البقر عند المصريين في بعض الأزمنة[١].

من كل ما أسلفت ذكره في هذا الموضوع يتضح لك - إن شاء الله - زوال هذا التعارض بين آية الأعراف وآية القصص. فقوله تعالى في آية القصص: ﴿ماعلمت لكم من إله غيري﴾ لا يقصد فيها نفي الآلهة الموطئة له، بل يقصد صرف قومه عن توحيد الله - تعالى - وعن اتباع موسى - عليه السلام - فإنهم إذا آمنوا بالله - تعالى - نبذوا ولا شك فرعون وألوهيته وآلهته.

ولقد عرف فرعون ما يدور في نفوس الملأ فأجابهم إجابة المخذول الذي يجتهد في كتمان خذلانه: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[٢] أي: سنستمر على ذلك كما كنا، ولن نكف عنه. والضمير يعود لبني إسرائيل.

﴿وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾ في المهانة والخدمة فلا تقوم لبني إسرائيل قائمة، ولن ينفعهم موسى بما جاءهم به على حد زعمه، لأن القوة في كل عصر أساسها الأول وفرة البنين، وكثرة الرجال والأموال. قال تعالى في شأن بني إسرائيل لما رد عليهم القوة على من استعبدوهم وجاسوا خلال ديارهم: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾[٣] أي: عدداً مما كنتم. وهو تمييز، جمع نفر وهو مَن ينفر مع الرجل من قومه[٤].

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/٢٢١)؛ وتفسير أبي السعود، (٣/٢٦٢)؛ وتفسير النسفي، (٢/٧٠)، وتفسير ابن كثير، (٢/٢٣٩)، وتفسير القاسمي، (٧/٢٣٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٦).

(٤) تفسير النسفي، (٢/٣٠٧).

وقـولـه تعـالى: ﴿وإنـا فوقهم قاهـرون﴾ هو مزيد طمأنة ملئه المستغرب لامتنـاعه عن معاقبة موسى وقومه، ومراد فرعون بقوله هذا أن ينبه ملأه أنه لايزال هو الملك، وأن الـرئـاسة لا تزال بيده، وبني إسرائيل لايزالون تحت قبضته، ولا يمكنهم الخروج من مصر في نظره بأي حال من الأحوال. وكأنه يقول لملئه: لماذا ارتعتم هذا الارتياع والأمر كما ذكرته لكم؟

وتـلاحظ أن فرعـون استخدم نون العظمة في: ﴿نقتل﴾ و﴿ونستحي﴾ و﴿وإنا﴾ بقصد إظهار قوته لملئه، وأن يستل هذا الاستغراب من نفوسهم.

والمتمعن في كلام الملأ من قوم فرعون يجده لا يختلف إطلاقاً عن منطق دعاة الباطل كافة في كل العهود، فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ وتخليص الناس من براثن العبودية الزائفة إفساد في الأرض؛ لأنهم على يقين من أن هذه الـدعوة ستدك حصونهم، وتكشف عوراتهم، وتحرر الناس من ظلمهم، وجبروتهم، وتحرمهم مما هم فيه من النعيم على حساب الآخرين.

أما ما قاله فرعون فهو منطق الطغاة المتجبرين، فقد لجأ إلى قوته المادية ونفوذه الواسع، ليبدد به دعوة الحق، وليظل ينعم في شهواته ويستبد بظلمه وقهره على الضعفاء البائسين.

المبحث العاشر
وصية موسى - عليه السلام - لقومه بالاستعانة بالله والصبر على البلاء

قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

وبعد تهديد فرعون وملئه لقوم موسى، وقد بلغ موسى وقومه ذلك التهديد الذي أفزعهم، وهز مشاعرهم، وأقض مضاجعهم، حينئذ طلب موسى - عليه السلام - من قومه أن يلوذوا بالصبر، وألا يجزعوا من وعيد فرعون لهم، وأفهمهم بأن الأرض ليست ملكاً لفرعون وملئه، بل هي لله الواحد القهار، يورثها لمن يشاء من عباده، وأنه - جل وعلا - وعد بأن تكون العاقبة لمن خافه وآمن به.

وفي الآية إشارة إلى أن البلاد ومَن عليها ستكون في النهاية لهم، وهي بمثابة البشارة التي تزيد في عزيمة المؤمنين المعقودة على الصبر واحتساب البلاء النازل بهم لوجه الله - تعالى -.

قال الرازي - رحمه الله -: «قوله: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ فههنا أمرهم بشيئين، وبشرهم بشيئين: أما اللذان أمر موسى - عليه السلام - بهما:

فالأول: الاستعانة بالله.

والثاني: الصبر على بلاء الله.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٨).

وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة وذلك لأن من عرف أنه لامدبر في العالم إلا الله انشرح صدره بنور معرفة الله ـ تعالى ـ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله ـ تعالى ـ وتقديره، واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

أما اللذان بشّر بهما:

فالأول قوله: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ وهذا إطماع من موسى ـ عليه السلام ـ لقومه في أن يورثهم الله ـ تعالى ـ أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث: وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف.

والثاني: قوله: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: أمر الدنيا فقط، وهو الفتح والظفر والنصر على الأعداء. وقيل: المراد مجموع الأمرين.

وقوله: ﴿للمتقين﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله ـ تعالى ـ وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة»(١).

وقد دل موسى ـ عليه السلام ـ قومه على قانون الله، الذي ما تمسكت به أمة إلا هديت، وما قصرت وما تخلت عنه أمة إلا قهرت وخذلت، وهذا القانون يقوم أولاً على الاستعانة بالله القوي العزيز، الذي يقهر ولا يُقهر، والذي يذل ولا يُذل، والذي يجير ولا يُجار عليه، وقد استقر في فطر البشر أنهم إذا لجأوا إلى قوي منهم يثقون بقوته اطمأنت قلوبهم، وتعززت شوكتهم، فكيف بمن استعان بالله ـ تعالى ـ ولجأ إليه؟ فموسى ـ عليه السلام ـ بيّن لقومه أن مرد قوتهم في ثقتهم بربهم وصدق إيمانهم به، وفي طلب المعونة منه وحده.

والمادة الثانية لهذا القانون الصبر، وما عالج فرد أو أمة مشكلته بالصبر

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/٢١٢).

إلا حلت، وجنى أفضل العواقب، وإنما أمرهم - عليه السلام - بالصبر لأن أقدار الله - تعالى - لا يؤثر فيها استعجال مستعجل، وأن نقمته تنزل بعدوه بحسب مشيئته، وفي الوقت الذي يريده هو، لا في ما يريده القلقون لأن البلاء هو الذي يمحص المؤمنين، ويظهر صلابة معدنهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾[2] وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾[3].

ومادته الثالثة أن الكون كله لله، والأمر كله لله، والأرض جزء من الكون، فهي لله يورثها ويعطيها من يشاء من عباده كافرين أو مؤمنين، فلا تيأسوا من أن تنالوها، بل هي واصلة إليكم ما استعنتم به وصبرتم على بلائه، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فليس التعزز بملكها، وليس الخير كل الخير التوسع فيها بالظلم والبغي، كلا بل إن العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة إنما هي للمتقين.

المادة الرابعة لهذا القانون الإلهي أن ﴿العاقبة للمتقين﴾ فعلى بني إسرائيل أن يدركوا أن سلامتهم في تقوى الله لا في الاعتزاز بالانتساب إلى الأنبياء وهم على غير منهجهم، فالمتقون لله أياً كان نسبهم هم أهله وأولياؤه، وأما المبغضون عنده فهم من فارقوا التقوى، وإن كانوا من سلالة الأنبياء، قال

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٤٢).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٦).

تعالى في شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿قال: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

المبحث الحادي عشر
تضجر بني إسرائيل من وصية موسى ـ عليه السلام ـ لهم

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾[1].

والمتأمل في جواب قوم موسى لنبيهم يدل على سوء أدبهم، وسفاهتهم مع نبيهم وبلادة عقولهم، حيث إنه ـ عليه السلام ـ بشرهم إذا صبروا بالظفر على أعدائهم لكنهم قالوا: ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ أي أنهم قالوا له رداً على نصيحته لهم بالاستعانة بالله وبالصبر على البلاء: لقد لاقينا يا موسى من فرعون صنوف العذاب وذلك قبل بعثتك بالرسالة؛ فقد قتل أبناءنا، واستحيا نساءنا، وأنزل بنا ألوان الظلم والاضطهاد، وها نحن بعد بعثتك ومجيئك إلينا لم تتغير أحوالنا، فقد عاد فرعون إلى ظلمه وسفكه للدماء وإذلالنا، وقد قصدوا بقولهم هذا أنهم لم يستفيدوا بإيمانهم به وبرسالته شيئاً، فقد استبطأوا وعده لهم بالنصر، فأجابهم ـ عليه السلام ـ إجابة الحليم، فهدأ ثورتهم وطمأن روعتهم، ورجا من ربه أن يهلك عدوهم، ويستخلفهم في الأرض بعدهم.

قال تعالى على لسان موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: أن يجعلكم خلفاء فيها من بعد أهلها ـ قوم فرعون ـ والمراد بالأرض: أرض مصر، وهذا تحريض منه ـ عليه

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

السلام ـ لهم على العزم على الشكر، والمداومة عليه عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩﴾[1] أي: يرى ذلك بوقوع ذلك منكم، مَن منكم أحسن وأدى شكر النعم؟ ومَن منكم كفر بالله ونعمه؟ فيجازي كلاًّ بحسب عمله.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن النظر قد يراد به النظر الذي يفيد العلم وهو على الله محال، وقد يراد به تقلب الحدقة نحو المرئي التماساً للرؤية وهو أيضاً على الله محال، وقد يراد الانتظار وهو أيضاً على الله محال، وقد يراد به الرؤية ويجب حمل اللفظ ههنا عليه.

قال الزجاج: أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم لأن الله ـ تعالى ـ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، وإنما يجازيهم على ما يقع منهم»[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) تفسير الرازي، (١٤/٢١٣).

المبحث الثاني عشر
معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾(١).

مر علينا في الآية الكريمة السابقة أن موسى ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾(٢) وفي هذه الآية التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها، يخبرنا ـ جل وعلا ـ عما حل بفرعون وقومه من صنوف المحن والبلاء استجابة لرجاء نبيه ـ عليه السلام ـ لعلهم يثوبون إلى رشدهم، وكان هذا أول إنذار لهم.

قال تعالى: ﴿ولقد أخذنا ءال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾ أي: بالجدب والقحط والجوع عاماً بعد عام، امتحاناً لهم، وتنبيهاً لهم، حتى يرجعوا عن غيهم وظلمهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، أما نقص الثمرات فكان لأهل أمصارهم»(٣).

﴿لعلهم يذكرون﴾ أي: لعلهم يثوبون إلى رشدهم فيتعظوا، ويعلموا ضعفهم أمام خالقهم، ويرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي؛ لأن الشدائد

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٣) الكشاف، (٢/١٠٥).

في العادة تنبه الغافل من غفلته، وترقق القلوب، وتزجر النفوس عن غيها، وتحثها على الضراعة إلى الله والتزام شرعه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾[١] أي: كثير، أي: أقبل على الدوام يدعو ربه، وأخذ في الابتهال والتضرع[٢].

لكن ذلك لم يحدث لقوم فرعون، بل ازدادوا تمرداً وكفراً، قال تعالى: ﴿فإذا جآءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ أي: إنهم إذا أنعم الله عليهم بالخصب والقطر والرخاء نسبوا ذلك إلى أنفسهم، وأنهم أهل لهذا الخير الذي حل بهم، وأن ما جاءهم بكدهم واجتهادهم، ناسين المسبب الحقيقي لذلك، غافلين عن شكره على نعمائه.

﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ وإذا حلت بهم حالة من القحط والجدب والجوائح النازلة من السماء التي تصيب الأموال والثمار بسبب ظلمهم نسبوا ذلك إلى موسى ومن معه من المؤمنين من باب التشاؤم، وقالوا: لولا موسى ومَن معه لما أصابنا القحط والجدب، وهذا من شؤمهم ولولاهم ما أصابنا ما أصابنا.

قال النسفي: «وإنما دخل ﴿إذا﴾ في الحسنة وعُرّفت الحسنة، و﴿إن﴾ في السيئة ونُكّرت السيئة لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها»[٣].

والتطير: أصله التفاؤل بالطير. ثم يستعمل في كل ما يُتفاءل به ويُتشاءم. . . . قال تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا﴾ أي: يتشاءموا به ﴿ألا

---

(١) سورة فصلت: الآية (٥١).
(٢) انظر: تفسير النسفي، (٤/٩٨).
(٣) تفسير النسفي، (٢/٧١، ٧٢).

إنما طائرهم عند الله﴾ أي: شؤمهم وما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم"[1]. اهـ.

﴿ألا إنما طائرهم﴾ استئناف مسوق للرد على أباطيلهم، والمراد به شؤمهم ـ كما أسلفت ـ.

﴿عند الله﴾ أي: في حكمه ومشيئته، وصدر بلفظ ﴿ألا﴾ الذي يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر، أي: إنما سبب خيرهم وشرهم هو الحكيم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، فيجازيهم بحسب أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وليس لموسى عليه السلام ومن معه أي تدخل في ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾[2] أن ما لحقهم من القحط والجدب إنما هو في الحقيقة من عند الله ـ تعالى ـ بسبب ذنوبهم وظلمهم، لا من عند موسى وقومه، وكان أخذهم بالسنين والنقص من ثمراتهم كالإنذار لهم، وكان الأجدر بهم أن يتعظوا، ويؤمنوا بموسى وما جاء به.

ورغم قسوة ما لاقوه من هذه السنين وما عانوه من نقص ثمراتهم إلا أن ذلك إذا قيس بما سيمتحنون به بعد من العذاب قبل هلاكهم يعتبر رحمة ونعمة، وكان المتوقع من فرعون وقومه أن يذكروا بما نزل بهم فيؤمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ لتسلم لهم دنياهم وأخراهم، لكن ذلك لم يحدث، وقد أنبأ عن عدم حدوثه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[3] (لعل) موضوعة لرجاء الأمر المحبوب، وفرق بين أن ترجو شيئا لم يتأهل له من ترجوه منه، وبين مَن تأهل لفعله. وواضح لنا من خلال قصة موسى عليه السلام وفرعون تعنت فرعون وقومه،

---

(١) انظر: المفردات للأصبهاني، ص(٣٠٩، ٣١٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٠)

واستكبارهم عن الحق مع ظهوره واستبانته، ولذا لم يذعنوا لموسى - عليه السلام - ولم يؤمنوا به بعد حلول السنين بهم، بل قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[1] والمراد: مهما جئتنا من آية جديدة هي في غاية العظم والكبر والقهر فإننا لن نخضع لها، ولن نؤمن بك ولا بما جئت به البتة.

والآية الكريمة تصور لنا مبلغ عنادهم ورفضهم للحق، وقد أسلمهم عنادهم هذا إلى أن سلط الله عليهم أنواعاً من العذاب[2] لم يعرف في الأمم السابقة ولا اللاحقة، فالحق - جل وعلا - يمهل ولا يهمل.

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[3].

قوله: ﴿فأرسلنا عليهم﴾ أي: بقدرتنا وقهرنا وغلبتنا عليهم عقوبة لجرائمهم وتكذيبهم ﴿الطوفان﴾ قال الألوسي: «أي: ما طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، فهو اسم جنس من الطواف»[4].

فقد أمطروا أياماً متوالية بلياليهن، وفاض عليهم النيل فعمت المياه جميع أراضيهم، فأتلفت عليهم مساكنهم ومزارعهم وتجاراتهم. والمعجز في هذه الآية والآيات التاليات أنها تلحق الضرر والأذى بالأقباط فقط دون الإسرائيليين، ومما يقوي ذلك ويؤكده قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم﴾ أي: لا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٢).
(٢) وهو الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهو ما سنُفصّل فيه قريباً.
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٣).
(٤) تفسير الألوسي، (٩/٣٣).

على سواهم ممن خالطهم. وتأمل في قوم غمر الماء مساكنهم وما فيها من الفرش والأثاث، ومزارعهم وما فيها من الزروع والثمار والأنعام، ومتاجرهم وما فيها من البضائع والأموال، كيف يكون حالهم؟!

فلما اشتد عليهم الأمر لجأوا إلى موسى - عليه السلام - يتضرعون إليه، وقالوا له: لئن دعوت لنا ربك لنؤمنن لك، فلما دعا موسى - عليه السلام - الله - عز وجل - وكشف الله عنهم ما حل بهم، عادوا إلى كفرهم وضلالهم، لذلك عاقبهم الله - جل وعلا - بتسليط الجراد عليهم.

﴿والجراد﴾ معطوف على الطوفان بتقدير: وأرسلنا عليهم الجراد، وهي الحشرة المعروفة. والجراد جمع جرادة وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، فإن أردت الفصل نعتّ، فتقول: رأيت جرادة ذكراً، وجرادة أنثى، كنملة وحمامة[1]. وكان إرسال الجراد عليهم بمثابة الإنذار الثاني لهم لعلهم يرجعون عن تكذيبهم، وكان نقمة كبيرة حلت عليهم لأن الله بعد أن كشف عنهم البلاء السابق وهو الطوفان سوّل لهم الشيطان أن ذلك الطوفان هو نعمة هم أهل لها، فقد ارتوت بساتينهم ومزارعهم وقفارهم، ونبت العشب في براريهم لرعي مواشيهم، وفرحوا بذلك، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل زروعهم وثمارهم إلا الشيء اليسير الذي استطاعوا أن يحصدوه قبل فساده، فقالوا: قد بقي لنا ما يكفينا فلن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل. وكان اللائق بهم أن يرتدعوا ويؤمنوا بنبيهم، عليه السلام.

﴿والقُمَّل﴾ واحدتها قُمَّلة، وهي عند أهل اللغة ضرب من القردان إلا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٧/٢٦٩، ٢٧٠)؛ وتفسير الفتوحات الإلهية المسمى بالجمل، ص (٢/١٨٣).

أنها أصغر منها[1] وقال أبو عبيدة: «القُمَّل عند العرب هي الحمنان. قال الأثرم الراوي عنه: والحمنان - يعني بالمهملة - ضرب من القردان»[2] وهذا هو الابتلاء الثالث لقوم فرعون، وقد انتشر في بيوتهم وفرشهم، فأقض مضاجعهم، فلم يمكنهم من الغمض والقرار، وانظر إلى شدة هذا الابتلاء وعظيم هذه الآية فلو أن قملة واحدة تسلطت على إنسان وعجز عن قتلها لأفزعته، ولأقلقته، ولمنعته من النوم والراحة والهدوء، فما بالك بعدد لا حصر له، ولا يعلمه إلا الله؟ والمعجز في هذه الآية - كما سبق أن أسلفت - أن القمل يتسلط على الأقباط فقط دون الإسرائيليين ومن آمن من الأقباط.

وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - نقلاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المراد بالقمل السوس الذي يخرج من الحنطة[3] فقد انتشر في بيوتهم وأطعمتهم، ومن خصائصه أنه يطير مما يعجزهم عن مدافعته ومقاومته، وكانوا قد جمعوا بعض الأقوات ليغالبوا بها الجراد، وخزنوها في مخازنهم، فلما استجاب الله دعاء نبيه موسى، ورفع عنهم الجراد، سول لهم الشيطان أن ينكثوا عهدهم، فسلط الله عليهم ما أتلف هذه الأقوات لعلهم ينزجرون، ولا مانع من أن الله قد جمع عليهم الأمرين: القمل والسوس.

قال النحاس: «وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير لأنه يجوز أن

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠) وقد روي عن سعيد بن جبير: كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضربه موسى - عليه السلام - بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري فصاحوا وصرخوا. انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٨)، وتفسير الطبري (٩/ ٣٩).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٧/ ٢٤١).

(٣) البداية والنهاية، (١/ ٢٦٥).

تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم، وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم»[١].

وقوله تعالى: ﴿والضفادع﴾ جمع ضفدع، وهي الحيوان المعروف الذي يعيش في الماء. فقد روي أنها ملأت فرشهم وأوعيتهم، وطعامهم وشرابهم، وتأمل ما في هذه الآية من العذاب حيث إن المعروف من هذه الحشرة بشاعة منظرها، وكراهة رائحتها، ولزاجة ملمسها، فضلاً عن ذلك كله نقيقها المزعج المتواصل، فكيف يكون الحال عند كثرتها واختلاطها بطعامهم وشرابهم وبين فرشهم؟ حتى إنه كان إذا تكلم أحدهم وثبت في أفواههم فمنعته الكلام[٢].

وقوله تعالى: ﴿والدم﴾ فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دماً عبيطاً[٣] وكان المؤمنون منهم وبنو إسرائيل يغترفون منه الماء، والقبطي الدم[٤].

وتأمل ما في هذه الآية من العذاب، فحقاً إن كل آية أعظم من التي قبلها، فالماء الذي هو شريان الحياة وعمادها ولا يستطيع أن يستغني عنه أحد البتة أصبح دماً عبيطاً نتناً مليئاً بالأوبئة، وإن الناظر إلى الدم فقط تشمئز نفسه فكيف يكون حالهم وقد أصبح شرابهم ومغتسلهم؟

وقيل: المراد بالدم هنا الرعاف[٥] الذي سال من أنوفهم وهدد حياتهم،

---

(١) تفسير القرطبي، (٧/ ٢٧٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤١)؛ وتفسير الطبري، (٩/ ٣٤-٣٦)؛ وانظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) الدم العبيط: أي الدم الطري. لسان العرب، (٧/ ٣٤٧).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤١) وتفسير الطبري (٩/ ٣٤ - ٣٦)، وانظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٥) انظر: البداية والنهاية، (١/ ٢٦٦)، والكشاف (٢/ ١٠٨).

إذ إن كثرة الرعاف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك - والله أعلم -.

والغريب أنهم في كل آية يطلبون من موسى أن يسأل ربه أن يكشف عنهم العذاب، فإذا ما كشف الله عنهم ما حل بهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من التكذيب والكفر، والمتمعن في الآيات السابقة وعظمها والتعبير بقوله: ﴿فأرسلنا﴾ أي: وجهنا إليهم، ويقصد منه الدفع بالعقوبة في قوة، والتنصيص بقوله: ﴿عليهم﴾ أي: لا على غيرهم ممن خالطهم - كما أسلفت - ﴿الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم﴾ وهي كما عبر عنها القرآن بـ ﴿آيات مفصلات﴾ أي: واضحات لا يشك عاقل في كونها آيات إلهية، ومع ذلك لم يؤمنوا، بل في كل مرة ينكثون وعودهم لنبيهم، فالمتمعن في ذلك يستنتج ما يلي:

أولاً: تفريط أهل الباطل، واستكبارهم عن قبول الحق مع وضوح حجته، وعنادهم وإصرارهم على الكفر.

ثانياً: حرص نبيهم - عليه السلام - على إيمانهم واجتهاده في الدعاء لهم مع تكرار نقضهم لعهودهم.

ثالثاً: صبر نبيه - عليه السلام - عليهم وترفقه بهم، ومع ذلك لم يُجدِ ذلك معهم، وفي ذلك تسلية للرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - مما يلاقيه من قومه، من إصرارهم على الكفر وإمعانهم فيه، وأيضاً فيه توجيه للدعاة إلى الله بأن لا يقنطوا ولا يسأموا من مواقف مَن يدعونهم وإن تكرر تكذيبهم ورفضهم للحق، وتحمل ما قد يصادفهم من مشاق ومتاعب.

رابعاً: إن الله - عز وجل - تدرج بهم في الآيات التي ابتلاهم بها لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ومع ذلك لم ينتبهوا من غفلتهم، ويؤيد فهمي هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

خامساً: إن هذه الآيات لم يعرف أن الله عاقب بها أحداً قبل فرعون ولا بعده، مما يدل على تناسبها بعناد وإصرار الذين عوقبوا بها على ما هم عليه من كفر واستكبار.

وقوله تعالى: ﴿ءايات مفصلات﴾ قيل: أي آيات مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل من أنها من عند الله، وقيل: ﴿مفصلات﴾ أي: بين كل آية والآية الأخرى فترة من الزمن يمتحن فيه أحوالهم ويروى أنه كان بين كل آية ثمانية أيام، وقيل: أربعون، وقيل: شهر[2].

وقوله: ﴿فاستكبروا﴾ أي: ترفعوا عن الإيمان بالله - تعالى - وأصروا على كفرهم وضلالهم ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ أي: مُصِرِّين على الجرم والذنب، فإنهم لم يبالوا بما جاءهم من الآيات الواضحات الظاهرات وماسبقها من المعجزات الباهرات[3].

---

(١) سورة الزخرف: الآيات من (٤٨) إلى (٥٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبي، (٧/٢٧١).
(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٤/٢١٨).

المبحث الثالث عشر
نبذهم العهد الذي عاهدوا به نبيهم

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[1].

قوله: ﴿ولما وقع عليهم﴾ أي: ولما حل بهم ونزل عليهم ﴿الرجز﴾ قال أهل اللغة: الرجز بكسر الراء العذاب.

وقال أبو إسحاق: «ومعنى الرجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدته، وله قلقلة شديدة متتابعة»[2].

قال تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾[3].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»[4].

وقد فسر سعيد بن جبير الرجز بالطاعون[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٣٤، ١٣٥).
(٢) لسان العرب (٥/٣٥٢).
(٣) سورة البقرة: الآية (٥٩).
(٤) تفسير ابن كثير (١/٩٨).

(٥) الطاعون: قروح تخرج من الجسد فتكون في المَرَاقّ أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حوله أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان للقلب مع الرغبة في القيء. اهـ.
انظر: شرح صحيح مسلم للإمام النووي، (١٤/٢٠٤).

ويؤيد قوله هذا الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**الطاعون آية الرجز، ابتلى الله ـ عز وجل ـ به ناساً من عباده، فإذا سمعتم به فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه**»[(١)].

وفي رواية أيضاً لمسلم عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ: «**إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها**»[(٢)].

وقد روى سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ تفسير الرجز بالطاعون عن ابن عباس حبر الأمة ـ رضي الله عنهما ـ وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» والرجز: الطاعون[(٣)].

فعَليه فالمفسرون اختلفوا في تفسير هذه الآية، والأكثرون على أن المراد بالرجز هنا في هذه الآية هو تلك الآيات التي عذبوا بها ـ والتي سبق توضيحها ـ والتي كانوا في كل مرة يعاهدون فيها نبيهم ـ عليه السلام ـ إن كشف الله عنهم ذلك العذاب يؤمنوا به، ويرسلوا معه بني إسرائيل، فلما دعا نبيهم ـ عليه السلام ـ ربه بكشف العذاب عنهم عادوا مرة أخرى، ونكثوا وعدهم، وكفروا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٤/٢٠٥).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٤/٢٠٥).

(٣) تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم (٢/٤٥٨) دراسة وتحقيق الزميل/ حمد بن أحمد بن أبي بكر.

بالله وقـولـه ـ تعـالى ـ: ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ (ما) مصـدرية، والمعنى: بعهـده عندك وهو النبوة، وسميت النبوة عهداً لأن لها حقوقاً، وقد عهد الله ـ سبحانه وتعالى ـ إكرام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها[1].

﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ المراد إما تلك الآيات السابقة التي عذبوا بها، وإمـا آخرها وهو الدم، وإما الطاعون الذي سلط عليهم كما روي عن ابن عباس. ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ فقد ذهبوا إلى نبيهم ـ عليه السلام ـ يعاهدونه العهد المؤكد قائلين له: لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل، وقد عاهدوه على الأمرين اللذين دعاهم موسى ـ عليه السلام ـ إليهما وكانوا يأبونهما كل الإباء:

الأمـــر الأول: إيمانهم واستسـلامهم له ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ وانصياعهم لكل ما يأمرهم به ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

الأمر الثاني: هو إرسال بني إسرائيل معه إلى الأرض المقدسة التي نزحوا منها إلى مصر أصلاً مع جدهم يعقوب أبي الأسباط[2] ـ عليه وعليهم السلام ـ[3].

وكان الله قد أمر موسى ـ عليه السلام ـ بإخراج بني إسرائيل من مصر حتى يمكن تقويمهم وعودتهم إلى الدين الصحيح؛ إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/٣٦).

(٢) الأسباط: هم أبناء يعقوب الاثني عشر؛ يوسف وإخوته ـ عليهم السلام ـ والموضوع فيه خلاف. وبنو إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى هم أحفاد يعقوب المسمى في القرآن تارة بيعقوب وتارة بإسرائيل، أي: عبد الله.

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، (١/٣٢٠، ٣٦١).

وإلى لزوم الأوامر التي ستأتيهم من ربهم في التوراة لأنهم بخلطتهم للمصريين قد اكتسبوا جُلّ عاداتهم إن لم تكن كلها، فضلاً عن الذل الذي لحقهم على يد فرعون واستخدامهم في أشق الأعمال مثل ضرب اللّبِن، ونحت الطوب، ونقل التراب والحجارة وحمل الماء، وفي أمور الزراعة والفلاحة(1) وهم سلالة الأنبياء الكرام: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط من بعدهم، ويوسف ـ عليه السلام ـ فمهمتهم الحقيقية إذن هي نشر التوحيد، وهداية الخلق إلى الله ـ عز وجل ـ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لا الاشتغال بالبناء والفلاحة وما شابهها مما كان يستخدمهم فيه فرعون، ولذلك قال فرعون وقومه لموسى ـ عليه السلام ـ تلك المقالة التي ذكرتها هذه الآية، والتي أسلفت بيانها: ﴿ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾.

ولقد دعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه عز وجل بدليل قوله تعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز﴾ فما كان فرعون وقومه ليُكشف عنهم العذاب بمجرد ما قطعوه على أنفسهم من العهد لأنه عهد مشروط بكشف العذاب، والإيمان المشروط لا وزن له، ولو كانوا راغبين في الإيمان حقاً للجأوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ مؤمنين بلا شرط حتى إذا ما ماتوا على هذا الإيمان نفعهم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ودل على رغبتهم الحقيقية فيه، فكشف العذاب إذن كان لدعاء موسى ـ عليه السلام ـ وألفت النظر إلى معنيين جليلين في هذه الآية:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ فمعنى ذلك أن الذي ألجأهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ هو تمكن العذاب منهم، ولولا ذلك ما أصغوا إليه، لا سيما وقد قالوا له ـ عليه السلام ـ ما حكاه الله عنهم قبل ذلك:

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٢٠)، وتفسير الرازي (١٤/ ١٩٢).

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[1] وكل ذلك يدل على غاية عنادهم وتعصبهم لباطلهم.

والمعنى الثاني: إن العذاب الذي حل بهم ما كان في مقدور أحد من الخلق أن يرفعه عنهم مهما أوتي من القوة، ولتجلية هذا الذي أقرره نجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يستخدم نون العظمة المنبئة عن قدرة لا تدانيها أية قدرة ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب﴾ وكان كشف العذاب عنهم لبلوغ الأجل الذي قدر الله أن يعيشوا إليه قبل أن يخلقهم، ولولا ذلك ما كشفه عنهم.

قال تعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ وقد ناط الله بهم أشياء لابد أن يفعلوها لأن الله قدر أن تقع منهم كالزراعة، والتجارة، وسائر الشئون التي ربطها الله بالعبد، وهذا يشعر بأنهم لن يؤمنوا إلا إذا رأوا العذاب الأليم، وهو الهلاك الدنيوي الذي يتلوه الموت الذي لا ينفع عنده إيمان.

وقد دعا عليهم نبيهم بذلك كما حكاه الله في سورة يونس ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[2].

أي: الذي لا ينفع عنده إيمان، ولذا كان جواب لما في هذه الآية ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾ جملة مُصدَّرة بـ﴿إذا﴾ الفجائية، مصرحة بنكثهم واستمرارهم عليه بلا تذكر لما قطعوه على أنفسهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٢).

(٢) سورة يونس: الآية (٨٨).

من قبل، وبلا روية وتريث بين النكث وكشف العذاب عنهم ﴿إذا هم ينكثون﴾ أي: أسرعوا إلى النكث إسراعاً، وفاجأوا به مفاجأة، ولذا لم يمهلهم الله طويلاً بعد هذا النكث، بل عجل بنكبتهم بما قصه الله علينا في قوله تعالى: ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم﴾.

قال النسفي: «﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي: إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه، لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إذا هم ينكثون﴾ جواب ﴿لما﴾ فلما كشفنا عنهم أي: العذاب أو الطاعون ﴿إذا هم ينكثون﴾ أي: إذا هم يفاجِئون بالنكث وذلك برجوعهم إلى الكفر»[1].

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٧٣)، وتفسير الكشاف (٢/ ١٠٩).

المبحث الرابع عشر
عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه

قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1].

قوله: ﴿فانتقمنا﴾: فـ(الفاء) الدالة على التعقيب أبانت سرعة حلول هذا العـذاب بهم عقب النكث، وقد استخدم القرآن الكريم في هذه الآية أسلوبـاً مشوقاً لطيفاً يرغب السامع في الحرص على تفاصيل ما حل بهم من العقاب؛ حيث أخبر ـ تعالى ـ أولاً بوقوع انتقامه ـ تعالى ـ منهم دون أن يبين نوع الانتقام، ناهيك عن إسناد الانتقام إليه مما يدل على شدة هذا الانتقام، وبعد أن بلغت النفوس غايتها في الشوق للتعرف عليه عَجّل لها ببيان نوعه فقال: ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ وقد أسند هذا الإغراق إليه لأن النجاة منه كانت غير ممكنة، ولأنه تم بصورة مفاجئة معجزة.

وقـوله: ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ ولابد أن أقف وقفة لإلقاء الضوء على الأحداث التي صاحبت هذه الحادثة المحتمة لفرعون وقومه، الذين استكبروا عن اتباع الحق رغم وضوحه، فضلاً عن البينات والآيات المؤيدة له، لكنهم أصروا على الباطل رغم زيفه وبطلانه. ولما كانت سورة الأعراف ـ التي هي صميم الـدراسة ـ لم تفصل أحداث هذه النهاية إلا أن القرآن الكريم قد تعرض بشيء من التفصيل لتلك الأحـداث في سور أخـرى كسـورة يونس، وطه، والشعراء، والدخان. . . .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

ومعلوم أن القرآن الكريم وحدة متكاملة يكمل بعضه بعضا، فما أجمل ذكره في موضع فصله في موضع آخر، ولما كان توضيح هذه النهاية وتفصيلها أحد الأسس الرئيسية المهمة التي انبنت عليها هذه الرسالة، وهي عاقبة الصراع ونهاية أهل الباطل رغم ما يملكونه من إلنفوذ والقوى بمختلف أشكالها وصورها، لذلك فقد رأيت أن أستعرض الآيات الواردة في سورة الشعراء حول نهاية فرعون وغرقه، لشمولها لمعظم تلك الأحداث، وأفصل القول فيها، والاستشهاد فقط إن لزم الأمر بآيات سور يونس وطه والدخان.

أقول ـ وبالله التوفيق والسداد ـ: لقد تمادى فرعون وقومه في ظلمهم وعنادهم رغم الآيات المتوالية التي ابتلاهم الله بها، ورغم وعودهم المؤكدة بأن يؤمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ وإرسال بني إسرائيل معه إلا أنهم عاودوا النكث ـ كما أسلفت ـ فعندئذ لم يبقَ لهم إلا العذاب والنكال، فأوحى الله ـ جل وعلا ـ إلى نبيه ـ عليه السلام ـ أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً دون أن يعلم أحد من الأقباط بذلك، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، وهذا هو ما يفهم من سياق القرآن الكريم عند قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

ورغم أن السرى معناه المشي ليلاً إلا أن الله ـ تعالى ـ نص على الليل كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] لئلا ينازع فيه بنو إسرائيل متذرعين بالخوف والجهل بالمسالك، فبنو إسرائيل وإن كانوا من سلالة الأنبياء إلا أنك سترى لهم عما قريب من العناد والكفر بعد ما رأوا الآيات البينات ما هو قبيح بشأنهم، وقد علل القرآن ذلك الاختيار بقوله: ﴿إنكم متبعون﴾ أي:

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٥٢).

(٢) سورة الدخان: الآية (٢٣).

من عدوكم فرعون وجنده، والليل من أعظم الحواجز التي يمكن أن يضلل به العدو عن مقصده. ولا يزال القتال الليلي في الحروب الحديثة مع تقدم الوسائل الحربية غاية في الصعوبة، ولاشك في أن الله ـ تعالى ـ قد رسم لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ كيفية مسراه والجهة التي يقصدها، والقرآن الكريم لم يتعرض للجهـة المقصـودة رأساً؛ لأنها تفاصيل تخرج عن غرض القصة في القرآن من ناحية، إذ إن معرفة الجهة وتفصيل السير إليها ليس بالأهمية التي تستدعي أن ينزل بها وحي، فضلاً عن أنك ستعرفها من خلال مشاهد ستمر بك، وهذا من إعجـاز القـرآن المعجز؛ فهو كثيراً ما يستغني بالإشارة عن كثرة العبارة، وبالكلمة عن القصة.

فعنـدمـا بلغ فرعـون خبر خروجهم غاظـه ذلـك، وظن أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم، ويستكملوا قوتهم ليعودوا إلى مهاجمته[1] واشتد غضبه على بني إسرائيل، وأمر في الحال بأن ينادى في مدائن مصر المشهورة.

قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2] وقد ضاق فرعون صدراً بموسى وبني إسرائيل، ورغب في التخلص منهم بقتلهم والقضاء عليهم لئلا يتعرض في ظنه إلى نوع من أنواع العذاب الذي سلط عليهم فيما مضى، فإن ذلك العذاب ما كان يأتيهم إلا بمخالفتهم موسى ـ عليه السلام ـ وكلمة ﴿حـاشرين﴾ توحي لك بإكـراه فرعـون المحشورين على مشاركته فيما يريد فعله[3] لأن معجزات موسى ـ عليه السلام ـ والنقم التي عوقب بها المصريون

(١) النجار، محمد الطيب. تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. (الرياض: مكتبة المعارف، ص٢٠٨).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٥٣).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٣/١٨٤).

بسبب مخالفتهم له قد هزت قلوبهم جميعاً، وقلقلت مكانة فرعون عندهم، فأراد بهذا الفعل أن يبرهن على أنه هو المطاع طاعة مطلقة، وأن أحداً من المصريين ـ باستثناء السحرة ومن آمن منهم ـ لم يشك في سلطانه، ولم يتأثر بما حدث، ثم قال فرعون لجنوده المحشورين ما قاله الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: جماعة قليلة، ثم بالغ في هذا التفصيل ﴿قَلِيلُونَ﴾[1] ومراده بهذا القول أن ينزل من صدور جنوده الاستشعار بخطر القوم والتخوف من أن يصيبهم منهم أو بسببهم مكروه.

قال النسفي: «﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾: والشرذمة: الطائفة القليلة، وذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة، أو أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد أي: إنهم لقلتهم لا يُبالَى بهم ولا تُتوقع غلبتهم»[2].

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾[3] لما يأتينا بسببهم مما قد يوحي بعجزنا أمامهم، وهذا أسلوب تحريض قصد به إيغار صدور جنوده على بني إسرائيل، ومحاولة تجنيبهم التفكير في ما يمكن أن يلحقهم من عذاب إلهي بدعوة موسى ـ عليه السلام ـ عليهم وكأن فرعون يقول لقومه: ليس خروجكم بهذه الكثافة وحشركم من كل مدينة لخوف من قوة بني إسرائيل بل لأننا قوم ﴿حـٰذرون﴾ أي: يقظون مجددون حذرنا باستمرار، لا نسمح أن نُؤخذ على غرة، وفي ذلك من الكبر والغرور ما لا يخفى ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ۝٥٦﴾[4].

وقد ذكر الله لنا ـ نحن المخاطبين من أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم مقدمة نهايتهم، وهي إخراج فرعون وجنده من بلدة ذات جنات

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٥٤).
(٢) تفسير النسفي، (٣/١٨٤، ١٨٥).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٥).
(٤) سورة الشعراء: الآية (٥٦).

وعيون، وأنهار جارية وكنوز وأموال كثيرة لا حصر لها، ومقام كريم، وعيش رغيد بهيج، ليعلمنا ـ تعالى ـ بذلك أن زوال النعم سببه الكفر وعدم الشكر، وأن فرعون وجنده ما كان لهم أن يخرجوا مما هم فيه من نعمة لمعركة ليسوا مضطرين إليها إلا بتدبير من الله ـ تعالى ـ مما يدل على أن الحذر مع الكفر والمعاصي وشدة الاحتياط لا ينفعان فاعلهما شيئا.

قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾[1] وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾[3] أي: ملكناهم لهم تمليك الإرث[4] والإيراث لا يكون إلا بعد زوال المالك الأصلي، وهو فرعون وقومه، أي بعد غرقهم. وعليه فالواو لمطلق الجمع، فلا تقتضي تعقيباً.

ولقد اختلف المفسرون في زمن هذا الإيراث؛ فقد نقل الألوسي عن الواحدي أن الله ـ تعالى ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن.

وقد عقب عليه الألوسي بقوله: «وما ذكر عن الواحدي من أن الله ـ تعالى ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك من غير تطاول مدة»[5]. ثم قال الألوسي: «وأظهر منه في هذا ما روي عن الحسن قال: لما عبروا البحر رجعوا، وورثوا ديارهم وأموالهم. ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وبقوا معه في مصر عشر سنين،

(١) سورة الشعراء: الآيتان (٥٧، ٥٨).
(٢) سورة الدخان: الآيات من (٢٥) إلى (٢٨).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٩).
(٤) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).
(٥) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).

وقيل: إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون، وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون إلى أرض الشام، وقيل: إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى ـ عليه السلام ـ وملكوها زمن سليمان ـ عليه السلام ـ. والمذكور في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام . . . »[١].

قلت: وهناك وجه آخر في تفسير هذه الآية ﴿كذلك وأورثنـٰها بني إسرائيل﴾ وهو أن الضمير في قوله: ﴿وأورثنـٰها﴾ لا يعود على الجنات والعيون والكنوز التي في الآية بل أورثهم جنات وعيون وكنوز ومقام كريم عوضاً عنها حلت محل تلك الكنوز، ففي الأرض التي بارك الله فيها ـ الأرض المقدسة ـ جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، بل ربما فاقت ما في مصر[٢].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ولا يُعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه، فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم»[٣].

قلت: المسألة خلافية بين أهل التفسير، وسأعود لتوضيح هذا الخلاف، وأرجح ما أميل إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ﴾[٤] . . الآية.

وهـذا في القرآن له نظائر مثل قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من

---

(١) تفسير الألوسي، (١٩/٨٣، ٨٤).

(٢) انظر: تفسير سورة الأعراف. د/محمد البهي.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب، (٦/٢١٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٧) وانظر من ص(٤٣٥) إلى ص (٤٤٠) من بحثنا هذا.

سلالة من طين﴾ وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾[(١)] فالضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ لا يعود على آدم ـ عليه السلام ـ بل يعود على جنس الإنسان باستثناء آدم ـ عليه السلام ـ.

ونعود إلى تكملة تفسير آيات سورة الشعراء، وبيان نهاية فرعون وجنوده، ولما علم فرعون بخروج بني إسرائيل أتبعهم بجنوده قاصداً أثرهم لئلا يفوتوه، وقد نص الله على وقت لحوقهم وهو وقت الإشراق ـ كما هو وارد في أحد الأقوال في معنى ﴿مشرقين﴾ ـ لبيان أن هذا الوقت لا تصلح فيه المعاصي وإنما المطلوب فيه التسبيح للواحد الأحد، الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، لكن فرعون وقومه من أهل الطغيان، لا من أهل الاعتبار فهم لا يفطنون لهذا المعنى، وكيف وقد كذبوا نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟

قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[(٢)] أي: فلحق فرعون وجنوده بني إسرائيل وقت إشراق الشمس فقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي: لحقوهم، يقال: تبعت القوم فأتبعتهم، أي: تلوتهم فلحقتهم، كأن المعنى: فجعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعاً لهم، مبالغة في اللحوق.

وقال أبو عبيدة: «هو من أشرق: توجه نحو الشروق، كأنجد: توجه نحو نجد، وأعرق: توجه نحو العراق. والجمهور على الأول»[(٣)] ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه والجمعان هما القبط وبنو إسرائيل.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[(٤)] أي: بفرعون وجنوده وواقعون

(١) سورة المؤمنون: الآية (١٣).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٦٠).

(٣) تفسير الألوسي، (١٩/٨٤)؛ وانظر: تفسير الرازي، (٢٤/١٣٨)؛ وانظر: ابن كثير(٣/٣٣٦)؛ وانظر: تفسير النسفي (٣/١٨٥).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٦١).

في قبضتهم إذ هم من خلفنا والبحر من أمامنا، فكيف النجاة؟ وهذا من بني إسرائيل يدل على ضعف يقينهم، وتزعزع إيمانهم، وأنهم لم يكونوا راغبين في الخروج مع موسى ـ عليه السلام ـ. إذ غاية ما يصيبهم لو وقعوا في قبضة فرعون الموت والهلاك، وقد أنزله بأبنائهم مراراً. فأي طعم للحياة بعد تقتيل الأبناء أمام الأعين؟ وأي ضرر عليهم في الموت لو ماتوا في مواجهة فرعون وجنده؟ إنهم حينئذ شهداء أحياء عند ربهم يرزقون. فأي الحياتين أولى: عند فرعون الجبار، أم عند العزيز الغفار؟

وقد استوحيت ذلك كله من قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ فالإضافة في نظري تعني أن ما قالوه بعد ما عاينوا من نقم الله المنصبة على المصريين سابقاً ما كان يصح أن يصدر عنهم. فإن الله الذي أرسل على القبط الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطاعون ـ على قول من فسر الرجز بالطاعون ـ لهو قادر على إنجائهم رغم عدم تصورهم له بالسبل العادية، ولذا رد عليهم موسى ـ عليه السلام ـ رداً فيه شدة وحدة وردع وزجر ﴿قال كلا﴾ أي: ارتدعوا عن ذلك القول ولا تعيدوه.

﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[1] ولم يقل معي ومعكم لأنهم بقولهم السالف لم يكونوا أهلاً للمعية[2].

وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: حالاً وعاجلاً إلى نجاتي ونجاتكم تبعاً لي مع أنكم لا تستحقونها، وقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ أي: في هذه اللحظة الحرجة ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ﴿أَنِ﴾ مفسرة إن جُعل الوحي بمعنى القول، أو مخففة من الثقيلة إن جعل الوحي بمعنى الإلهام، والمراد بقوله

(١) سورة الشعراء: الآية (٦٢).
(٢) انظر: تفسير الألوسي (١٩/٨٥).

﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي: بحر القلزم(١) - المعروف حالياً بالبحر الأحمر، ولعله خليج السويس - فضرب موسى - عليه السلام - بعصاه البحر ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾(٢) فانفلق البحر طرقاً يابسة جامدة أرضاً طبيعية كأنها كذلك من ملايين السنين، والبحر على جانبي هذه الطرق ليطمئن بنو إسرائيل على اجتيازه بأمان، ولئلا يخالفوا نبيهم عندما يأمرهم باجتيازه، وحتى لا يزاحم بعضهم بعضاً في الاجتياز فإنها ولا شك لحظة رهيبة، قال الراغب الأصفهاني: «الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق، والفرق يقال اعتباراً بالانفصال»(٣).

وقال صاحب لسان العرب: «والفِرق من الشيء إذا انفلق منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أراد: فانفرق البحر، فصار كالجبال العظام، وصاروا في قراره»(٤) وقوله: ﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل البالغ الشموخ في عنان السماء فكان كل فرق كالطود العظيم، وإنما فعل الله ذلك ليستوثق بنو إسرائيل من هذه الطرق فلا يخافوا من الاجتياز فهم أحرص على حياة، وليغري فرعون وجنوده بملاحقتهم والاطمئنان إلى الظفر بهم حتى يهلكوا عن آخرهم عندما يعود البحر إلى سيرته الأولى وينجو بنو إسرائيل.

ولذا قال تعالى: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾(٥) أي: قربنا فرعون وجنوده إلى البحر المحول ليحيط بهم عن آخرهم ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾(٦)

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٥)، وانظر: في ظلال القرآن، (٦/ ٢١١).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٦٣).

(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص(٣٧٧).

(٤) لسان العرب، (١٠/ ٣٠٠).

(٥) سورة الشعراء: الآية (٦٤).

(٦) سورة الشعراء: الآية (٦٥).

من بني إسرائيل، ومَن خرج معه من المؤمنين المصريين، وقد طمأن الله قلب نبيه موسى ـ عليه السلام ـ بما قصه في سورة طه: ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾[1] أي: لا تخاف أن يدركك عدوك، ولا تخشى أن ينالك الغرق. وانظر إلى هذه المعجزة العظيمة التي كانت كفيلة برد فرعون وجنده عن طغيانهم ومع ذلك لم يستفيدوا منها لأن طرق الحق إلى بصائرهم قد طمست.

هذا وقد أراد موسى ـ عليه السلام ـ بعد مرور قومه أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان فأمره ـ تعالى ـ أن يتركه ساكناً على هيئته قال تعالى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي: ساكناً على هيئته لا تغيِّرهُ عن هذه الصفة ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]: «فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنده تجلداً، وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين على طاعتي وبلدي، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو ـ وهيهات ـ ويقدم تارة، ويحجم تارات»[3].

ثم إنه عزم على اللحاق بموسى وقومه، فنزلوا البحر ليلحقوا بهم حتى إذا تم نزولهم جاء أمر الله فانطبق البحر عليهم، وداهمتهم أمواجه العالية،

---

(١) سورة طه: الآية (٧٧).

(٢) سورة الدخان: الآية (٢٤).

(٣) قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير (٢/ ٨٠).

وحق عليهم الغرق، وكانوا من الهالكين، وحينئذ صاح فرعون يلتمس النجاة من شدة الهول الذي أحاط به كما قصه الله ـ سبحانه ـ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾[1].

وقوله الذي حكاه الله عنه يحتمل أنه أراد به أن ينجو من الغرق كما تعود من قبل على النجاة من الطوفان وما تلاه من الآيات التي سبق تفصيلها فنجاته حينئذ بالإقرار بما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ أولى في نظره لتحصيل النجاة له.

ويحتمل أنه قال ذلك ليكون من الناجين في الآخرة عند ربه بعد ما ذهب عنه ملكه وسلطانه فلا يخسر الآخرة كما خسر الدنيا. والاحتمال الثاني أرجح في نظري لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وقد بيَّن الله له أن قوله هذا لا ينفعه في هذه اللحظة في العودة إلى الدنيا، لأن أجله قد انقضى﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾[2] كما أنه لا ينفعه في الآخرة لأنه قاله بعد ما حضره الموت، فلم يقله اختياراً بل اضطراراً، والإيمان الاضطراري لا يقبل من صاحبه، قال تعالى: ﴿آلان وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين﴾ والمعنى: أتؤمن الآن وفي وقت لا ينفع فيه الإيمان؟! وقد فاتك عقلك وقت أن كنت تأتي المعصية ولا تستحي قبل أن يحل عليك الغرق، وكنت إماماً للمفسدين في الأرض بتكذيب آياتي ورسلي وما كان يصدر منك من طغيان بلغ إلى حد ادعائك الربوبية[3]

---

(١) سورة يونس: الآية (٩٠).

(٢) سورة المنافقون: الآية (١١).

(٣) فقد قصَّ القرآن الكريم قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ سورة القصص: الآية (٣٨). وهو الذي كان يحشر قومه وينادي بهم بقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ سورة النازعات: الآية (٢٤).

فوضعك ماضياً وحالاً يحول بينك وبين رحمتنا، فكيف ترجوها بعد أن فوّتَّ على نفسك أسبابها؟

ثم بين تعالى صنعه بفرعون من بين سائر المغرقين معه ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ أي: نلقي بك بعدوة من الأرض بدناً لا روح فيه ليعلم من عبدوك ومن أضللتهم حقارتك وضعفك، أو ببدنك سليماً لم يأكل منه السمك ولم تحطمه الأمواج ليعلم من رآك أنك أنت بعينك فلا يشك فيما نزل بك وأنك من الهالكين، وقيل: ببدنك، أي: بدرعك. وتعليل ذلك هو نفس التعليل السابق[1].

وقد فعل الله به ذلك ليكون آية لمن خلفه، قيل: هم بنو إسرائيل، فإنهم تشككوا في قول نبيهم له إنه غرق، فألقى الله به على الشاطيء الذي يليهم ليعاينوا ذلك بأنفسهم فيزول عنهم الشك، أو ﴿لمن خلفك﴾ أي: لمن بعدك من القرون الآتية لعلهم يرتدعون بما فعل بك[2].

أو ﴿لمن خلفك﴾ أي: للمصريين الذين لم يخرجوا معك، ليعلموا نهايتك، وليستشعروا المنة في تجنبيهم ما نزل بك. وقلبي يميل إلى هذا الرأي والذي قبله خصوصاً إذا عرفنا براعة المصريين في فن التحنيط الذي يؤدي إلى بقاء الأجساد آلاف السنين كما نشاهده الآن.

قال تعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ أي: آية دالة على عقاب الله للمكذبين وشديد انتقامه منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[3].

فكان ولا يزال عبرة على مر الليالي، ليعرف الناس جميعاً أن الباطل ليس

---

(١)، (٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/١٧٥).

(٣) سورة القمر: الآيتان (٤١، ٤٢).

له قرار، وأن الملك والعباد دائماً لله الواحد القهار.

وكل ما فصلته في هذه النهاية هو الموجز المجمل في سورة الأعراف موضوع بحثي في قوله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

المبحث الخامس عشر

منة الله - تعالى - على بني إسرائيل بتمكينهم من الأرض المباركة - بلاد الشام أو أرض مصر على ما قيل -

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم﴾ أي: ملكناهم الأرض ومكناهم منها بقدرتنا، حيث قهرنا لهم أعداءهم بإغراق فرعون وجنوده في اليم، ونصرناهم على الجبارين في أرض الشام، الذين طغوا فيها وطمسوا معالم التوحيد الذي أظهره الله في هذه الأرض على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام -.

والإرث والإيراث: هو صيرورة الشيء إليك ملكاً بعد أن كان مملوكاً لغيرك إما بموت المورث، أو بالغلبة على المالك ونزع ما بيده[2].

وعَنْوَن لبني إسرائيل بكلمة ﴿القوم﴾ التي معناها الجماعة[3] الزائدة عن النفر والرهط التي تعني القلة والكثرة على السواء، لبيان لطفه - تعالى - بهم حيث غير حالهم من المذلة والمهانة إلى رفعة المكانة.

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).
(٢) انظر: لسان العرب (٢/١٩٩-٢٠١).
(٣) انظر: لسان العرب (١٢/٥٠٥).

ولقـد كان بنو إسرائيل بمصر كثيري العدد، ولكن تأثرهم بالمصريين وعوائدهم أفقدهم مكانتهم ومكن لعدوهم منهم، ولو كانوا على الجادة ما نكبوا على يد فرعون بما نكبوا به، ولو لزموا دين آبائهم؛ لأثّروا في غيرهم ولكانوا هم السادة، ولكن اليهود في كل عصر ينكبون بتركهم التوحيد، وخروجهم على شرائع الله ـ تعالى ـ فتلزمهم المهانة والخسة، ويستعبدهم غيرهم، ولقد أمهلهم الله كثيراً، فكلما نكبوا رحمهم وتاب عليهم، ورد لهم قوتهم ومكن لهم من أعدائهم، فلما علم الله أنه لا خير فيهم، وأنهم لا يعتبرون بماضيهم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله؛ لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله دائماً، ويقتلون النبيين بغير الحق، ولا يمكن أن يكون قتل نبي بحق.

والتاريخ يعيد نفسه فها هم الآن يعيثون في أرض فلسطين فساداً، فبدلاً من أن يدخلوا في عداد الموحدين، ويؤمنوا بخاتم النبيين، استبدلوا ذلك بالإفساد في الأرض، والاجتهاد في الفسوق، والكفر بسائر الأنبياء، وقاصمتهم آتيةٌ لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً؛ فقد توعدهم الله ـ جل وعلا ـ بذلك حيث قال مخاطباً حبيبه ونبيه، ومسليًا قلبه مما سوف يحصل لليهود على يد أمته فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾(1) فهم أشبه بإبليس، هيهات أن يتوب الله عليهم كأمة، وإن آمن بالإسلام قليل منهم، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾(2).

وكلمة ﴿القوم﴾ ـ في نظري ـ توحي بأنهم ما كانوا ليغلبوا بفرعون لو لزموا التوحيد، ومعنى ﴿يستضعفون﴾ أي: يستذلون ويهانون على يد فرعون

---

(1) سورة الأعراف: الآية (١٦٧).

(2) سورة البقرة: الآية (٧٥).

بالعذاب الشديد الذي تكرر ذكره مراراً في القرآن، والذي ذكر الله به اليهود في عهد النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليعلموا أن سلامتهم في اتباع هذا النبي العظيم كما كانت سلامتهم في اتباع الكليم، من قبل ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا أفضلها وأتمها ـ ولكنهم لم يعتبروا بذلك ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[1].

ومن الطريف أنهم لما رغبوا في عبادة الأصنام في عهد نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وعظهم بهذه الموعظة التي ستأتيك عند التعرض لهذا الموضوع[2].

وقوله تعالى: ﴿مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ أي: مكناهم منها، وقد اختلف المفسرون في الأرض التي ورثوها، وسألخص هذا الخلاف مرجحاً ما غلب على قلبي أنه الصواب. والله الموفق وهو الفتاح العليم.

يرى كثير من المفسرين أن المراد بالأرض التي مكنوا من مشارقها ومغاربها هي أرض الشام؛ أرض آبائهم الأولين: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. لما روى ذلك عن الحسن[3] وقتادة، وزيد بن أسلم.

ويرى بعضهم أن المراد بذلك أرض الشام وأرض مصر كما نقل الألوسي ذلك عن محيي السنة، البغوي ـ رحمه الله ـ.

وهناك رأي ثالث: وهو أن المراد بتلك الأرض هي أرض مصر وإلى ذلك

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٢) انظر: ص(٣١٦، ٣١٧) من بحثنا هذا.

(٣) انظر: تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ الرازي، دراسة وتحقيق الزميل الشيخ/ حمد بن أحمد بن أبي بكر، (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).

ذهب الجبائي، ورواه أبو الشيخ عن الليث بن سعد[١].

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير ومنهم الواحدي - كما أسلفت -[٢] استدلوا بقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ ﴾[٣] فالضمير يعود على الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم الذي كان لقوم فرعون، أورثه الله لبني إسرائيل.

قال الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٤]: «إن الله - تعالى - رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن»[٥]، وعلى هذا القول يكون معنى الآية: أورثنا المستضعفين أرض مستضعفيهم[٦].

والذين قالوا بإرث أرض مصر مع أرض الشام استشعروا أن بني إسرائيل لم يُعرف أنهم دخلوا مصر بعد أن خرجوا منها لأنهم استقروا بسيناء وحال البحر بينهم وبين الرجوع، كما أن الرجوع إليها لم يكن مقصوداً لموسى - عليه السلام - بل كان قصده كما صرح به القرآن الكريم دخول الأرض المقدسة، التي كتبها الله لهم ما داموا مسلمين موحدين، فإن حادوا فلا بقاء لهم فيها، قال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ

---

(١) انظر: الألوسي، (٩/٣٧).
(٢) انظر: ص(٤٢٤) من بحثنا هذا.
(٣) سورة الدخان: الآيات من (٢٥) إلى (٢٨).
(٤) سورة الشعراء: الآية (٥٩).
(٥) تفسير الألوسي، (١٩/٨٣).
(٦) تفسير الألوسي، (٩/٣٧).

﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾[١].

ولذا حاول هذا البعض أن يفسروا إرث بني إسرائيل بتفسير يمكن قبوله فقالوا: المراد أن مصر صارت تبعاً لملك بني إسرائيل بعد أن استقروا في الشام في عهد يوشع بن نون[٢] أو أنها كانت تابعة لملك داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ. وكلا التعليلين ضعيف؛ أما الأول فلأن المصريين كتبوا تاريخهم في هذه الحقب وما بعدها وما قبلها، فلم يوجد فيه تبعتهم لبني إسرائيل لا في عهد يوشع بن نون ولا في عهد سليمان بن داود، وعلى فرض حصول التعليل الثاني فكان ذلك لأحفادهم، ونص الآية التي بين أيدينا ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ وبنو إسرائيل وإنْ استضعفوا قبل داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ إلا أن السياق في سورة الأعراف يدل على استضعاف فرعون لهم لا الجبارين بأرض الشام بعد يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ.

والذي أرجحه أن المراد بالأرض التي أورثوا مشارقها ومغاربها أرض الشام لا غير، والذي يؤيد ما ذهبت إليه ما يلي:

أولاً: لقوله ـ تعالى ـ في نفس الآية: ﴿التي باركنا فيها﴾ ولقوله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء في قصة إبراهيم: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] ولقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢١).

(٢) يوشع بن نون: هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو فتى موسى ـ عليه السلام ـ المذكور في قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسىٰ لفتاه﴾ وقوله: ﴿فلما جاوزا قال لفتاه﴾ واختُلف في نبوته. انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ص(١٨٦) تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

﴿ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾[(١)] فمجموع هذه الآيات يقضي بأن تلك الصفة التي في آية الأعراف هي لأرض الشام لا لأرض مصر، وإذا شاركت أرضُ مصر أرضَ الشام في الخصب والنماء وجريان الأنهار فإنها لم تشاركها في كونها مساكن لكثير من الأنبياء، ولم تشاركها في ضم بيت المقدس كما هو الحال بأرض الشام[(٢)].

ثانياً: لقوله ـ تعالى ـ في هذه الآية نفسها: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ فما معنى إرث أرض مدمرة، تعاقب عليها ألوان العذاب بتكذيبهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ، فلا شك أن القول بتفسير الأرض بمصر بعيد؛ وعليه فالقول الأول القائل بأن قوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ المراد بها أرض الشام.

وقد ملت إلى ما رجحه الإمام الألوسي وغيره، فقال ـ رحمه الله ـ: «وأقول: قد يقال: المراد بالأرض هنا وفيما تقدم من قوله ـ سبحانه ـ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٣)] الأرض المقدسة التي طلب موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها، فإنها موطن آبائهم فيكون موسى ـ عليه السلام ـ قد وعدهم هلاك عدوهم المانع لهم من الذهاب إليها، وجعل الله ـ تعالى ـ إياهم خلفاء فيها بعد آبائهم وأسلافهم، أو بعد مَن هي في يده إذ ذاك من العمالقة، ثم أخبر ـ سبحانه ـ هنا أن الوعد قد نجز: وقد

---

(١) سورة الإسراء: الآية (١).

(٢) أخرج ابن عساكر عن ضمرة بن ربيعة قال: «سمعت أنه لم يُبعث نبي إلا من الشام فإن لم يكن منها أُسري به إليها» كما فعل الله بخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ. انظر: تفسير الألوسي، (٣٨/٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

أهلكنا أعداء أولئك الموعودين، وأورثناهم الأرض التي منعوهم عنها، ومكناهم فيها وفي حصول بغية موسى ـ عليه السلام ـ. وما ألطف توريث الأبناء مساكن الآباء!»[١].

وقوله: ﴿وأورثنا﴾ أورث يتعدى إلى مفعولين أولهما ﴿القوم﴾ وثانيهما ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ وعبر بـ ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ ليبين تمكينه ـ تعالى ـ لبني إسرائيل في جميع نواحيها، وذكر الجهات الأصلية يستلزم الجهات الفرعية، وقد اختلف المفسرون في حدود الشام[٢] وذكروا أحاديث في فضل الشام، ومن أفضل ما اطلعت عليه كتاب: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تأليف الإمام أبي محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام[٣].

ومعنى ﴿التي باركنا فيها﴾ أي: باركنا بكثرة خروج الأنبياء منها، وبكثرة الخصب وجريان الأنهار، فالبركة فيها مادية ومعنوية.

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾[٤]

---

(١) تفسير الألوسي، (٩/٣٧).

(٢) حدد الجغرافيون حدود الشام بأنها يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط.

(٣) رسالة صغيرة طبعت حديثاً بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي الميادين، بيروت، مكتبة المنار. ترجمة: الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام المغربي أصلاً، الدمشقي مولدًا، المصري داراً ووفاة المعروف بـ: العز بن عبد السلام ولد سنة ٥٧٧هـ، برع في الفقه على مذهب الإمام الشافعي وله مؤلفات عديدة، وتوفي ـ رحمه الله ـ في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة من الهجرة ودفن في مصر. انظر: الأعلام للزركلي، (٤/٢١). .

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

يعني: تفضله ـ جلَّ وعلا ـ عليهم، وإكرامه لهم بردهم إلى أرض آبائهم وإهلاك عدوهم.

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وتمت كلمت ربك الحسنى...﴾: أي مضت عليهم واستمرت، من قولهم: مضى على الأمر إذا استمر، والمراد من الكلمة وعده ـ تعالى ـ لهم بالنصر والتمكين على لسان نبيه ـ عليه السلام ـ وهو قوله: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم...﴾ الآية.

وذهب غير واحد إلى أنه الوعد الذي يؤذن به قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾[1] قلت: والفرق بين الآيتين هو سبق الوعد لهم بجعلهم أئمة، والتمكين لهم في الأرض، والانتقام من فرعون بسببهم قبل ولادة موسى ـ عليه السلام ـ وبعثه.

وعلى آية الأعراف فالوعد حاصل لهم من حين شكواهم لموسى ما يلقون من فرعون كما سبق تفسيره[2] ولا مانع من سبق الوعد لهم بذلك قبل ظهور سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فيكون قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ هو تكرارًا لهذا الوعد.

وقيل: المراد بها علمه تعالى الأزلي، والمعنى: مضىٰ واستمر عليهم ما كان مقدراً من إهلاك عدوهم وتوريثهم الأرض و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة، ووصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يحبون ويحسنون... والتفت من التكلم إلى الخطاب في قوله سبحانه: ﴿ربك﴾ على ماقال الطيبي؛ لأن ما قبله من القصص كان غير معلوم له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأما

---

(١) سورة القصص: الآية (٥).

(٢) انظر: ص(٥٨٤، ٥٨٥)من بحثنا هذا.

كونـه جل شأنـه منجزاً لما وعد، ومجرياً لما قضى وقدر، فهو معلوم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ. . . .

وقوله: ﴿بما صبروا﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وحسبك بهذا حاثاً على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكّله الله ـ تعالى ـ إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله ـ تعالى ـ له الفرج.

وقوله: ﴿ودمرنا﴾ أي: خربنا وأهلكنا.

﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ في أرض مصر من العمارات والقصور، أي. دمرنا الذي كان يصنعه فرعون وقومه.

﴿وما كانوا يعرشون﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعونه مـن البنيان كصرح هامان»[1].

(١) نقل بتصرف من تفسير الألوسي (٩/٣٨، ٣٩).

القسم الثاني
الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل [١]

وفيه مباحث:

المبحث الأول: جحود بني إسرائيل لنعم الله وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم صنماً يعبدونه من دون الله.

المبحث الثاني: تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة.

المبحث الثالث: طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية.

المبحث الرابع: اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله.

المبحث الخامس: تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن مُنع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه.

المبحث السادس: تحذير بني إسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين.

المبحث السابع: عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ وعدم انتفاعهم بها وعظهم الله به.

المبحث الثامن: ندم قوم موسى على عبادتهم العجل.

المبحث التاسع: توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل.

---

(١) يرجع تسميتهم ببني إسرائيل إلى الأصل الذي ينسبون إليه وهو سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ الملقب بإسرائيل حفيد إبراهيم ـ عليه السلام ـ. وإسرائيل: كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله فيكون معنى الكلمة: عبد الله، أو: صفوة الله. انظر كتاب: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، د. محمد سيد طنطاوي. الطبعة الأولى، (القاهرة: دار حراء، ١٣٨٨هـ)، ١-٦.

المبحث العاشر: لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه.

المبحث الحادي عشر: اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه.

المبحث الثاني عشر: نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين.

المبحث الثالث عشر: حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها.

المبحث الرابع عشر: منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل.

المبحث الخامس عشر: ثناء الله ـ تعالى ـ على صلحاء بني إسرائيل.

المبحث السادس عشر: نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم.

المبحث السابع عشر: مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بني إسرائيل.

المبحث الثامن عشر: جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل في عهد موسى ـ عليه السلام ـ.

المبحث الأول
جحود بني إسرائيل لنعم الله

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾[1].

قوله: ﴿وجاوزنا﴾ أي: قطعنا ببني إسرائيل البحر، والنون في قوله: ﴿جاوزنا﴾ نون العظمة ﴿ببني إسرائيل البحر﴾ المراد به بحر القلزم المعروف حالياً بالبحر الأحمر عند خليج السويس.

وفي الآية تذكير لبني إسرائيل بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم بعد أن أغرق عدوهم ونجاهم من أعدائهم، وكيف أنه سيرّهم في البحر بعدما صار يبساً، فبماذا قابل بنو إسرائيل هذه النعم العظيمة؟

وقوله تعالى: ﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ الاعتكاف والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له[2] ومعنى الآية: فبعد أن قطع بنو إسرائيل البحر مع نبيهم في سلامة واطمئنان وأمان مروا على

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤١).

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص(٣٤٢، ٣٤٣).

قوم يلازمون ويواظبون على تعظيم وعبادة أصنام صنعوها بأيديهم، ونصبوها آلهة لهم يعبدونها من دون الله ﴿قالوا﴾ أي: عندما شاهد ذلك بنو إسرائيل السائرين مع موسى ـ عليه السلام ـ ﴿يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة﴾ هذه الآية الكريمة تصور جحود بني إسرائيل لنعم الله ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد، وكيف أنهم فضلوا عبادة الأصنام على عبادة خالقهم ـ جل وعلا ـ.

فقوله: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ أي: اصنع لنا صنماً نتخذه إلهًا ﴿كما لهم ءالهة﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلهاً و(ما) موصولة و﴿لهم﴾ صلتها و﴿ءالهة﴾ بدل من الضمير المستتر فيه.

والتقدير: اجعل لنا إلـهاً كائناً كالذي استقر هو لهم[١].

وقوله: ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ وللألوسي كلام نفيس في تفسير هذه الآية، قال ـ رحمه الله ـ: «تعجب ـ عليه السلام ـ من قولهم هذا بعدما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى، فوصفهم بالجهل على أتم وجه حيث لم يذكر له متعلقاً ومفعولاً لتنزيله منزلة اللازم، أو لأن حذفه يدل على عمومه، أي تجهلون كل شيء، فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى، وأكّد ذلك بـ(إن)، وتوسيط قوم، وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفا له»[٢].

ولم يكتف نبيهم ـ عليه السلام ـ بوصفهم بالجهل المطلق بل أخذ يبين لهم عاقبة من تمنوا أن تكون لهم آلهة مثل آلهتهم، فقال لهم ـ عليه السلام ـ لعل مَن به رشد منهم أن يثوب إلى رشده: ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾.

وإنما جَهَّل بني إسرائيل أولاً قبل أن يبين لهم عاقبة الأصنام وعابديها

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٠).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤١).

ليشعرهم بشديد غفلتهم عمن أنعم عليهم بجلائل النعم التي منها:

تجاوزهم البحر وتحويله إلى طريق يبس، وتأمينهم من الغرق كما فعل بعدوهم - كما أسلفت - ولو استصحبوا ذكر هذه النعمة لما كفوا عن ذكر الله وشكره، ولما اشتهت أنفسهم هذا الانحطاط المخزي بأن يعبدوا الأصنام التي لا تشعر بعبادتهم، ولا تدبر من أمرهم شيئاً، ويكفرون بالرحمن الذي خلع عنهم ثوب الذل بتخليصهم من يد فرعون وإهلاكه، وبإكرامهم بموسى - عليه السلام - وبإرجاعهم إلى التوحيد دين آبائهم الكرام يعقوب وإسحٰق وإبراهيم.

والواقع أن بني إسرائيل قد انسلخوا من دينهم في مصر تماماً فيما أظن، وتعوّدوا عبادة ما يعبده المصريون من تأليه الهياكل والحيوانات كما عُرف في تاريخهم القديم، وما الذل الذي نزل عليهم من فرعون وقومه إلا نقمة منه - جل وعلا - لانحرافهم عن دين آبائهم، وما طلب موسى من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل إلا ليصلح فساد قلوبهم وليردهم إلى الصواب. فلا عجب إذن أن تراهم يطلبون من نبيهم هذا الطلب، وقد مر بنا قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ ﴾(١) وهذا القول منهم يدل على تململهم وعدم صبرهم مع موسى - عليه السلام - حتى يأتي موعد هلاك عدوهم، فإنهم يعلمون تحقق نصرة الله لأنبيائه، وقد رأوا منها على يد موسى بانقلاب العصا حية، وبإيمان السحرة واستعلائهم على تهديد فرعون ما كان يكفيهم لو كانوا طلاب حق وأهل دين. وسنراهم فيما سيأتي من الآيات يقعون في عبادة عجل مصنوع، صنعه لهم السامري من حليهم التي كانوا يلبسونها، كما سيمر بنا تفصيله، مما يدل على أن هذا الجيل كان غاية في الفساد

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

والاستعصاء والتمرد بدليل ما جاء في قصة البقرة من قولهم لنبيهم لما أخبرهم بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ ﴾[1] وهذا يدلك على غاية جهلهم بالنبوة؛ إذ الأنبياء يستحيل أن يصدر عنهم الهزء البتة لأنه نوع من الجهل والسفاهة وهم عن ذلك وغيره معصومون.

وقوله ـ تعالى ـ على لسانهم في آخر القصة: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١﴾[2] فهذا اتهام صريح منهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ بأن ما أخبرهم به ليس بحق مع أنه قوله ـ عز وجل ـ في كل مرة؛ إذ هم لما سألوا عن الماهيّة قال موسى ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ ﴾[3] ولما سألوا عن اللون قال الله لهم: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ ﴾[4] ولما تحيروا في ذوات اللون الواحد قال الله لهم: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ﴾[5] ولو ذبحوا من أول الأمر أي بقرة لأدوا ما أمروا به، ولكن حياتهم في مصر حولت قلوبهم عن الحق وطباعهم عن الخير.

وبدليل اعتذارهم عن دخول الأرض المقدسة حتى يخرج مَن فيها من الجبارين لأن طبائعهم تأبى الجهاد، وقد ألفوا الخنوع في مصر إلى حد يشبه الاستعباد حتى قال نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ لربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦٧).
(٢) سورة البقرة: الآية (٧١).
(٣) سورة البقرة: الآية (٦٨).
(٤) سورة البقرة: الآية (٦٩).
(٥) سورة البقرة: الآية (٧١).

﴿أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾(١).

فقوم هذا حالهم لا يستغرب منهم هذا الطلب لأنهم كما قال نبيهم: قوم يجهلون، أي: متصفون بالجهل بعامة، وهم لا ينفكون عن هذا الوصف.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾(٢).

فقوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مدمر ومهلك ما هم فيه بسبب انحرافهم عن الفطرة، واتباعهم لعبادة آلهة هي عاجزة عن نفع ذاتها فكيف يأملون في نفعها؟

﴿وَبَاطِلٌ﴾ أي: زاهق ومضمحل بالكلية(٣).

﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإشراك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وعبادتهم لتلك الأصنام التي طلبوا عبادتها، ثم لم يكتف موسى ـ عليه السلام ـ بتذكيرهم بهلاك وبطلان ما فيه هؤلاء القوم بل ذكرهم بنعم الله عليهم مما يستدعى الإنكار عليهم غاية الإنكار في طلبهم أن يكون لهم إله كما لهؤلاء القوم الذين مروا عليهم آلهة.

ولذا ساق موسى ـ عليه السلام ـ القول لهم بأسلوب الإنكار الشديد على هذا الطلب السخيف ﴿قال أغير الله أبغيكم إلها﴾ أي: أأطلب لكم إلهاً سواه؟ وكيف يكون ذلك مني وأنا رسوله أرسلني بدينه الحق والجهاد على توحيده؟ وكيف تطلبون أنتم إلهًا غيره وهو فضلكم على عالمي زمانكم بإرسالي إليكم، أو فضلكم على كثير من العالمين بأن جعل آباءكم أبناء أنبياء؟

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٨).

(٣) انظر: الألوسي (٤١/٩).

قال الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهًا﴾: «قيل: هذا هو الجواب[١] وما تقدمه مقدمة وتمهيد له، ولعله لذلك أعيد لفظ ﴿قال﴾ وقال شيخ الإسلام[٢]: هو شروع في بيان شؤون الله ـ تعالى ـ الموجبة لتخصيص العبادة له ـ سبحانه ـ بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلاً لكونه هالكاً باطلاً أصلاً، ولذلك وسّط بينهما ﴿قال﴾ مع كون كل منهما كلام موسى ـ عليه السلام ـ»[٣].

والمعنى: أمن غير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً؟

وقوله: ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أي: وهو فضلكم على جميع العالمين بتلك الآيات التي ظهرت لكم على يد نبيكم موسى ـ عليه السلام ـ فإنها ولا شك من خصائصهم، ومتعلقة بهم، فالتفضيل على العالمين كافة بهذا القيد لا مطلقاً حتى لا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فتعارض هذه الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٤].

والمراد بـ ﴿العالمين﴾ عالم الإنس، والجن تبعٌ لهم باعتبار الفريقين أهل التكليف، قال الألوسي: «والجملة حالية مقررة لوجه الإنكار، أي: والحال أنه ـ تعالى ـ خص التفضيل والاختصاص بأن قصدوا أن يشركوا به أخس مخلوقاته، وهذا الاختصاص مأخوذ من معنى الكلام وإلا فليس فيه ما يفيد ذلك»[٥].

---

(١) أي: الجواب عن سؤالهم ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم ءالهة﴾.

(٢) المقصود به الشيخ العلامة محمد بن محمد العمادي، أبو السعود المتوفى سنة ٩٥١هـ ـ رحمه الله ـ.

(٣) تفسير الألوسي، (٤١/٩).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٥) تفسير الألوسي، (٤٢/٩).

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وإذ أنجيناكم من ءال فرعون﴾ يحتمل أنه من كلام الله ـ عز وجل ـ وأنه ـ تعالى ـ تمّم به حجة موسى ـ عليه السلام ـ وعلى قراءة ابن عامر ﴿وإذ أنجاكم من ءال فرعون﴾ يكون ذلك من كلام موسى وأنه قال لهم: اذكروا صنع ربكم بكم وهو إنجاؤه إياكم من آل فرعون، في هذا الوقت الـذي حصل فيه هذا الصنيع، فيكون الظرف وقتاً للمفعول المحذوف وهو الصنيع، أو: اذكروا نفس الوقت نفسه أنجاكم فيه ربكم، وذكر الوقت يستلزم ذكر ما فيه.

ويرى البعض أن قوله تعالى: ﴿وإذ أنجيناكم من ءال فرعون﴾ من كلام موسى ـ عليه السلام ـ حتى على هذه القراءة وأن النون في ﴿أنجيناكم﴾ له ولهارون ـ عليهما السلام ـ والمعنى: حصل الإنجاء لكم بسببنا. وإن كنت لا أقوي ذلك.

﴿من ءال فرعون﴾ وعبر بآل فرعون؛ لأنهم كانوا أداته في سومهم سوء العذاب وتقتيل الأبناء، فالنتيجة منهم نتيجة منه، ومعنى ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي: يحلّون وينزلون بكم أشده، والجملة إما حالية وإما استئنافية؛ فعلى كونها حالية فهي حالٌ من ضمير بني إسرائيل، والمعنى: أنجيناكم حال نزول العذاب عليكم فلا يصح أن تعولوا على غيرها، ويجوز أن تكون حالاً من آل فرعون، أي: أنجيناكم منهم حال تعذيبهم لكم، والمعنيان متقاربان، وأما على كونها استئنافاً فكأن سائلاً سأل: ماذا فعل بهم آل فرعون؟ فجاءت هذه الجملة وما بعدها جواباً لهذا السؤال.

وأرجِّح كونها حالية لضمير الخطاب في ﴿يسومونكم﴾ ولو كانت استئنافاً لقـال: (يسومونهم) لتتوافق مع السؤال الذي تقديره وماذا فعلوا بهم؟ وقوله تعالى: ﴿يُقتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ تفصيل للإجمال في ﴿يسومونكم

سوء العذاب﴾ وإن أمرَّ شيء على النفس أن يقتل ولدك أمامك وأنت عاجز عن الدفاع عنه، وأن تُستحيا امرأتك لتخدم غيرك رغماً عنك، والمعنى: إن الله الذي خلصكم من ذلك كله هو الحقيق بالعبادة والتأليه لا تلك الأصنام العاجزة؛ فكيف نسيتم صنعه بكم؟

والإشارة في قوله: ﴿وفي ذلكم﴾ راجعة إلى العذاب، والخطاب لبني إسرائيل، والمعنى: فذلكم العذاب الذي شهدتم أحداثه امتحان عظيم حلّ بكم، فمَن خلصكم منه أولى بأن يُعبد، ويجوز أن ترجع الإشارة إلى الإنجاء وهو الأقوى والأقرب لقوله تعالى: ﴿بلاء من ربكم﴾ والمعنى: وفي إنجائكم من هذا العذاب اختبار عظيم لكم من ربكم ليظهر به شكركم من كفركم، فهل يليق بكم وأنتم حديثو عهد بهذه النعم أن تطلبوا من نبيكم أن يُجيز لكم الكفر بمن هذا شأنه معكم؟ وهل يجوز أن تعكفوا على عبادة ذلك الإلـه المقترح منكم؟ إن ذلك لخزي عظيم لكم في الدنيا، وهوان شديد لكم في الآخرة إن لم تتوبوا وتستشعروا قبح طلبكم.

المبحث الثاني
تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة

قال تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[1].

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى ـ عليه السلام ـ التي أُرسل لها، انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب من فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدسة.... ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى... مهمة الخلافة في الأرض والقيام بدين الله.... ولقد رأينا في الآيات السابقة كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ في قلوبهم، ولم يمضِ إلا القليل على نجاتهم من ذل فرعون، وتحويل البحر لهم إلى طريق يبس، وإغراق عدوهم أمام أعينهم لما أصر على ملاحقتهم... فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم... ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله ـ تعالى ـ لعبده موسى ـ عليه السلام ـ ليلقاه ويتلقى عنه، وكانت هذه المواعدة بمثابة التهيئة لموسى ـ عليه السلام ـ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

استعداداً لذلك الموقف العظيم[١].

فقوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ بمعنى وعدنا، وبذلك قرأ أبـو عمرو ويعقوب، ويجوز أن تكون الصيغة على بابها بناءً على تنزيل قبول موسى ـ عليه السـلام ـ منـزلة الوعد، ويجوز أن يكون ﴿ووعُدنا﴾ من باب الموافاة وليس من الوعد[٢] قال الألوسي ـ رحمه الله ـ: «روي أن موسى ـ عليه السلام ـ وعد بني إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكـر خلوف فمه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله أن يزيد عشرة أيام من ذي الحجة».

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «أخرج الديلمي[٣] عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى ـ عليه السلام ـ ربه ـ عز وجل ـ وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه ـ سبحانه ـ وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لِمَ أفطرت؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: أي رب، كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال: أَوَمَا علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى ـ عليه السلام ـ الذي أمره ربه، وذلك قوله

---

(١) بتصرف من (في ظلال القرآن) لسيد قطب، (٩/٦٣١).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (١/٢٥٧)، (٩/٤٣).

(٣) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول (٣/٤٢٧) ذكـره بنحوه مع اختلاف في بعض الألفاظ. الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ) ٣/٤٢٧.

سبحانه: ﴿وأتممنـٰها بعشر﴾»[١].

«وعبر - جل وعلا - بالليالي في قوله: ﴿ثلاثين ليلة﴾ لأن الليالي غرر الشهور، أو إشارة إلى مواصلة الصوم ليلاً ونهاراً، ولو قال ثلاثين يوماً لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي فهم من قوة الكلام أنه واصل المدة المشار إليها في الآية أربعين ليلة بأيامها»[٢].

قلت: وإلى ذلك أشارت رواية الديلمي: «وقد صام ليلهن ونهارهن» ولا يستغرب ذلك من موسى - عليه السلام - وليس لقائل أن يقول: إن الامتناع عن الأكل والشرب هذه المدة قد تؤدي إلى هلاك الإنسان، أو إلى إضعاف قواه بحيث لا يكون مستعداً لتلقي شيء أو فهمه، فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد أُعطوا من القوة الروحية ما يمكنهم من ذلك وأكثر منه، وهذا يدلنا على قوة موسى - عليه السلام - وعظيم معرفته بربه حيث استحيا أن يلقى ربه بجوف فيه أثر الطعام لعلمه أن الطعام وإن كان فيه قوة البدن إلا أنه حجاب كثيف يعطل الروح عما تريد الوصول إليه لو تخففت من الطعام بتركه بعض الوقت، ولذلك كان نبي الله داود - عليه السلام - يصوم يوماً ويفطر يوماً، وقد سماه الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل الصيام، ولا يصح أن نقيس أحوالنا بأحوال الأنبياء فيما هو من خصائصهم لأن ذلك تجاوز واعتداء يؤديان إلى صرف العبد في النهاية عن الطاعة أو إلحاق أضرار بالبدن لا يطلبها الشرع، ولذا نهى الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - عن الوصال، فلما قال أصحابه - صلى الله عليه وآله وسلم -: إنك تواصل، قال

---

(١) تفسير الألوسي (٩/٤٣) وانظر: تفسير ابن أبي حاتم لسورة الأعراف، تحقيق الأخ الزميل/ حمد بن أحمد بن أبي بكر (٢/ ٤٧٠) وقد حقق إسناد الحديث وقال: إسناد حسن؛ وانظر: الدر المنثور، (٣/٥٣٥، ٥٣٦).

(٢) تفسير الألوسي، (١/ ٢٥٧).

لهم: «وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[١] وأخرج الإمام مسلم أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى»[٢] فإني بهذا الحال مستغنٍ عما لا تستغنون عنه ولا تقدرون في الاستمرار عليه، وقد ضعف الألوسي القولَ بأن وعد موسى كان لقيام الليل.

فقال ـ رحمه الله ـ: «والقول بأن ذكر الليلة كان للإشعار بأن وعد موسى ـ عليه السلام ـ كان بقيام الليل ليس بشيء لأن المروي أن المأمور به الصيام لا القيام»[٣].

وقوله: ﴿وأتممناها بعشر﴾ تفصيل لما أجمل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[٤] وإنما أمره الله ـ سبحانه ـ أن يتم الثلاثين بعشر ليتخلص مما تناوله من نبات الأرض ليدفع به خلوف فمه حتى لا يلقى ربه بفم متغير، فأخبره الله بأن حاله التي كان عليها أولاً هي الأحب إلى الله ـ عز وجل ـ ولذا أمره أن يتمها بعشر لتعود إليه الحالة أتم ما كانت عند صيام الثلاثين، وغني عن الإيضاح ما لخلوف فم الصائم من مزية عند الله ـ عز وجل ـ ففي الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك»[٥].

---

(١)، (٢) صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (٢/٧٧٤)، بيروت دار إحياء التراث العربي.

(٣) تفسير الألوسي (١/٢٥٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (٥١).

(٥) صحيح البخاري مع شرح عمدة القاريء للشيخ الإمام العلامة ابن محمد محمود بن أحمد العيني (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١٠/٢٧٧.

فإن قيل: ما معنى ﴿فتم ميقـٰت ربـه أربعـين ليلة﴾ مع أن المتبـادر للسامع من ضم العشرة إلى الثلاثين هو أن الميقات كان أربعين ليلة؟ والجواب على ذلك: لإزالة التوهم من أن تلك العشر ليست من الثلاثين لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين، كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإبهـام»(١)، هذا ما نُقـل عن المفسرين. والذي أراه ـ والله أعلـم ـ أن المقصود من ذكر هذا المعلوم هو الإشادة بموسى عليــه السـلام؛ وبطاعته إذ مَن صام ثلاثين يوماً فقد بلغ به الجهد، فإذا أمر بفعل عشرٍ بعد هذا الجهد فامتثل وفعل فذا يدل على شدة يقينه وأن رغبته في مرضاة ربه لا في مطلوب نفسه.

وهذا درس لنا لنتعلم منه العزم والقوة على طاعة الله ـ تعالى ـ التي كلفنا بها على قدر طاقتنا، فلا نتهاون بشيء أمرنا به، مُستنِّين في الأخذ بالعزائم بسنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد يتساءل متسائل عن الوقت الذي صامه موسى ـ عليه السلام ـ وقد تكفل المفسرون ببيانه، وقد اخترت منه ما قاله الحافظ ابن كثير:

قال ـ رحمـه الله ـ: «اختلف المفسرون في قولـه: ﴿وأتممنـٰهـا بعشر﴾ والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر: عشرُ ذي الحجة، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكلم لموسى ـ عليه السلام ـ وفيه أكمل الله الدين لمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾»(٢).

ولـما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٤٣)، وانظر: فتح القدير للشوكاني، (٢/٢٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٤٣)، وانظر: تفسير الألوسي (٩/٤٣).

ـ عليه السلام ـ على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[1].

ولقد خصص موسى أخاه هارون بالخلافة من بين سائر الصالحين من بني إسرائيل لأسباب منها:

١ ـ لأن هارون نبي ولا تخفى أفضلية النبي على غيره.

٢ ـ لأن هارون كان وزيراً لموسىٰ ـ عليه السلام ـ قال تعالى على لسان موسى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴾[2] ولا شك أن الوزير بالنسبة للأمير يكون من أقرب الرعية إليه، لا سيما وأنه تربطه به صلة قرابة، فيكون الحرص على القيام بتبعة الخلافة أشد وأقوى.

والمراد بقوله: ﴿وأصلح﴾ أي. ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم إذا ظهر منهم ما يخالف ما تركهم عليه نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ.

عن ابن عباس أن المراد: الرفق بهم والإحسان إليهم[3].

وقوله: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي، ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد[4] وهذا من باب التذكير والتنبيه والتأكيد لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ معصومون من فعل الفساد، ومعصومون من متابعة فاعليه.

وقد أتى بنو إسرائيل في غيبة موسى بعظيمة هي غاية في القبح لم تعرف إلا لهم في الموحدين وهي عبادة العجل، ولقد حاولوا حمل هارون ـ عليه

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

(٢) سورة طه: الآيتان (٢٩، ٣٠).

(٣) تفسير الألوسي (٩/٤٤).

(٤) المصدر السابق.

السلام ـ على أن يعبد معهم ما عبدوه، فكانت العصمة ومقالة موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ مؤججين لاستدامة يقينه، وعدم تأثره بمخالفة بني إسرائيل بما هو عليه وأخوه موسى ـ عليهما السلام ـ.

وسيمر بنا[1] دفاع هارون عن نفسه لما لقي ما لقي من غضب موسى ـ عليه السلام ـ لعدم اللحوق به لإخباره بما فعل بنو إسرائيل: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ[2] أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ[3] ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[4].

---

(١) انظر ص (٥٠٣) من بحثنا هذا.

(٢) أي موسى ـ عليه السلام ـ.

(٣) أي هارون ـ عليه السلام ـ.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

المبحث الثالث
طلب موسى من ربه الرؤية

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾(١).

وقوله: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ أي: للوقت الذي وقّتنا له، أي تمام الأربعين لتلقي ما سنمليه عليه من الشرائع التي بها يستقيم حال أمته، وقوله: ﴿وكلمه ربه﴾ أي. أسمعه كلامه ولم يكن فيما بينه وبين الله - عز وجل - وفيما سمع واسطة، ولذلك سمي بموسى الكليم، وذلك بعدما هيَّأه الله - تعالى - لذلك الموقف العظيم بالصيام والانقطاع عن الناس.

ولقد كلم الله - عز وجل - نبيه موسى - عليه السلام - قبل هذا الموقف مراراً كما جاء في سورة طه(٢) والنمل(٣)

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) قال تعالى: ﴿وهل أتـك حديث موسى. إذ رأى ناراً فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارًا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتـها نودي يـموسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحىٰ. إنني أنا الله لا إلـه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري..... ﴾ سورة طه: الآيات من (٩) إلى (١٤).

(٣) قال تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله: إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون. فلما جآءهـا نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحـٰن الله رب العالمين يـموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جآنّ ولّى مدبرا ولم يُعقِّب يـموسىٰ لاتخف إني لايخاف لدي المرسلون... ﴾ سورة النمل: الآيات من (٧) إلى (١٠).

والقصص[1] ولم يسبق هذا الكلام بهذه التهيئة ولابهذا الميعاد لأن الفرق بين ما مضى من كلام الله له وميقـاته ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف أنه في هذه المرة سينزل الله عليه كتابه التوراة جملة واحدة كما سيمربنـا[2] ولاشك أن للوحي ثقله الذي يحتاج إلى تهيئة خاصة، قال الله ـ تعالى ـ لحبيبه ونبيه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ ﴾[3] ومعلوم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، ومـع تقطيعه نجوماً وصفه الله بالثقل، فما بالك بتلقي كتاب بأكمله يُسمعه الله ـ جل وعلا ـ بنفسه كليمه موسى ـ عليه السلام ـ؟ إن الأمر ولاشك يحتاج إلى إعداد خاص، وكون هذا الإعداد قد تم بالصوم لا باستدامة الصلاة والذكر يدل على ما للصوم من منزلة رفيعة عند الله ـ عز وجل ـ ويدل على ما له من أثر عظيم في ترقية الـروح إلى معـارج القـدس، وترقية البدن الذي هو قالب هذه الروح فيحتمـل ما لا تحتمله الأبدان الكثيفة التي حجبت أرواحها بالشهوات سيما شهوة الطعام والشراب اللذين للنفس بهما تعلق شديد.

ولما اطمأن موسى ـ عليه السلام ـ على أن خاصيته التي خصه الله بها من بين سائر الأنبياء ـ إلا نبينا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم ـ هي كلامه مباشرة طمح قلبه إلى رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ لفرط شوقه إليه، فإن من تمام الفضل أن ترى من تكلمـه، ولذا أجيبت ﴿لما﴾ بقوله تعالى: ﴿قال رب أرني أنظر

---

(١) قال تعالى: ﴿فلمَّا أتـها نودي من شـطيء الواد الأيمن في البقعة المبٰركة من الشجرة أن يـموسى إني أنا الله رب العـلمين. وأن ألق عصاك فلما رآهـا تهتز كأنها جآن ولّى مدبرًا ولم يعقب يـموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين. . . .﴾ سورة القصص: الآيتان (٣٠، ٣١).

(٢) انظر: من ص (٢٣٢) إلى ص (٢٣٤) من بحثنا هذا.

(٣) سورة المزمل: الآية (٥).

إليك﴾ قال الإمام البخاري: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أرني﴾ أعطني»[1].

وقد سلك موسى ـ عليه السلام ـ بقوله هذا مسلك الاستعطاف وغاية الأدب حيث قدم لطلبه بقوله: ﴿ربِّ﴾ أي: يا مَن أنت حَفِي بي، وتفضلت علي بتكليمي مباشرة، ويا من ربيتني في بيت عدوك، ويا من رددتني على أمي، ويا من نصرتني على فرعون وقومه، فعهدي بك دوام فضلك عليَّ ورعايتك لي رعاية خاصة ﴿أرني أنظر إليك﴾ أي: أرني ذاتك الجليلة أنظر إليك، ومكني من رؤيتك بأن تتجلى لي حتى أراك.

وما خطر ببال موسى ـ عليه السلام ـ أن سؤاله هذا فوق طاقته، وأن بشريته وروحه مهما كان من قوتهما لا يُمَكِّنانه من ذلك إذ الأمر أجل وأعظم، ولو خطر على باله أن ذلك محظور ماطلبه، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد ظن أن إباحة تكليمه مسوغ لهذا الطلب، ولذا طلبه بقوله: ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ فأجابه بقوله: ﴿لن تراني﴾ أي: في دار الدنيا، إذ المؤمنون جميعاً سيرون ربهم في الآخرة كما يرون البدر متكاملاً لا يُضامون في ذلك، أي لا يشق عليهم فيه، بل يمكنهم ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك بفضله، فنفي الرؤية منصب على الحالة الدنيوية، أما في الآخرة فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم في روضات الجنات.

أخرج البخاري في صحيحه ـ في كتاب الأذان، باب فضل السجود ـ

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب التفسير ـ سورة الأعراف ـ (٩/٣٧٢) وقوله: ﴿أرني﴾ أعطني، يعني: أعطني قدرة تمكنني من النظر إليك، وإنما فسرها ابن عباس بذلك لأن الرؤية هي النظر، والمطلوب هو القدرة على النظر.
انظر: تفسير ابن عباس، تأليف الدكتور/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، (١/ ٤٣٠).

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن الناس قالوا: «يارسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **فهل تمارون**[١] **في الشمس ليس دونها سحاب؟** قالوا: لا، قال: **فإنكم ترونه كذلك...**»[٢] الحديث.

وأخرج مسلم في صحيحه عن صهيب أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ـ عز وجل ـ**»[٣] فإذا وقع ذلك للمؤمنين فوقوعه للأنبياء ولاشك أحق، ووقوعه للكليم الذي برح به الشوق إلى ربه متأكد، ولكي يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ذلك فوق طاقته، وأنه ليس مسموحاً له به في الدنيا قال ـ تعالى ـ له استدراكاً على قوله تعالى: ﴿لن ترني﴾ ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترني﴾ أي. لن تطيق رؤيتي يا موسى وأنت في هذه الحياة الدنيا بحالتك التي أنت عليها ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ الذي هو أقوى وأشد صلابة منك.

وفي هذا الاستدراك ﴿ولكن انظر﴾ تسلية لموسى ـ عليه السلام ـ وتلطف معه في الخطاب وتكريم له، وتعظيم لأمر الرؤية وأنه لا يقوى عليها إلا

---

(١) تمارون: من المماراة وهي المجادلة.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري (٢/ ٤٣٦) وانظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١/ ٤٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ١٧) باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

من قواه الله بمعونته[١] ﴿فإن استقر مكانه﴾ أي إن ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت ويندك لعظمتي ﴿فسوف تراني﴾ أي: تثبت لرؤيتي إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتي، وعبر بكلمة ﴿سوف﴾ لبيان أن ذلك لو وقع فلن يتحقق لك في الدنيا إلا بعد أن تتهيأ تهيئة خاصة لأن ﴿سوف﴾ إذا دخلت على المضارع تفيد وقوعه في المستقبل البعيد، فكيف والأمر على خلاف ما تظن؟ فلا بقاء للجبل حال تجلي له فكيف تطلب الرؤية؟ ولو زاد التجلي عليك حال الكلام ما كان لك بقاء، ولذهبت منك كل استطاعة، والمراد بالجبل على ما قاله الألوسي هو طور سيناء[٢].

قال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ والتجلي هنا: هو الظهور بالكيفية التي تليق بجنابه ـ تعالى ـ[٣]، فظهر ـ جل وعلا ـ للجبل ظهوراً بلا كيف[٤] قال الحافظ ابن كثير: «ما تجلى منه إلا قدر الخنصر»[٥] وساق ـ رحمه الله ـ آثاراً أكتفي منها بما أخرجه الحاكم في مستدركه والترمذي في سننه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا. . .﴾ قال حماد: هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن قال: فقال حميد لثابت: تحدث بمثل هذا؟! قال: فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال: رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا

---

(١) انظر: تفسير الأعراف للدكتور/ أحمد السيد الكومي، والدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ص(٢١٥).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٤٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) النسفي، (٢/٧٥).

(٥) تفسير ابن كثير، (٢/٢٤٤).

أحدث به[1] قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وفي رواية للترمذي أيضاً عن أنس أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قرأ هذه الآية: ﴿فلما تجلىٰ ربه للجبل. جعله دكًا﴾ قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى قال: فساخ الجبل[2] ﴿وخرَّ موسى صعقًا﴾[3] وقوله: ﴿جعله دكًا﴾ أي: تراباً مهشماً مدقوقاً مفتتاً.

قال الألوسي: «﴿دكًا﴾ أي مدكوكاً متفتتاً، والدك والدق أخوان كالشك والشق»[4] فنبه ـ سبحانه وتعالى ـ على أن الجبل مع شدته وصلابته ما دام لم يستقر عند هذا التجلي فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر، وفيه تسكين لفؤاد موسى بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه[5].

قال الألوسي: «وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم»[6] «وقوله: ﴿وخر موسى﴾ أي: وقع وقوعاً شديداً من هول التجلي فارتطم على الأرض ارتطاماً أحدث صوتاً شديداً؛ إذ الخرور هو الوقوع المصاحب للصوت الشديد؛ كما فرق بعض اللغويين بين السقوط والخرور بأن السقوط مطلق، والخرور سقوط له صوت كالخرير»[7].

﴿وخرَّ موسى صعقاً﴾ أي: سقط من هول ما رأى من الأنوار التي بهرته

---

(١) المستدرك للحاكم، (٢/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) أي: غاص في الأرض وغاب فيها.

(٣) سنن الترمذي، (٥/ ٢٦٥).

(٤) تفسير الألوسي، (٩/ ٤٥).

(٥) انظر: تفسير القاسمي ـ محاسن التأويل، (٥/ ٢٤٧).

(٦) تفسير الألوسي (٩/ ٤٥).

(٧) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦)، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص(١٤٤).

وأسقطته على الأرض مغشياً عليه كمن أصابته صاعقة، وهذا رأي ابن عباس والحسن ـ رضي الله عنهما ـ. وعن قتادة أنه مات ثم أحياه الله بعد ذلك، وعلى هذا الرأي يكون موسى قد ذاق الموت في الدنيا مرتين، ويكون ذلك استثناءً من قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] وقد ذاق الموت في الدنيا أكثر من مرة جماعات منهم مَن أحياهم موسى ـ عليه السلام ـ معجزة له ودليلاً على نبوته ـ عليه السلام ـ ومنهم أيضاً من ذكرهم الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ[2] وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾[3] ورغم وقوع ذلك فالرأي الأول عندي أرجح لقوله تعالى: ﴿فلما أفاق﴾ إذ الإفاقة تكون من الغشية والإحياء يكون بعد الإماتة، فلو كانت الصاعقة موتاً لقال تعالى: (فخر ميتا) ولقال: (فلما أحييته قال سبحانك) وقوله: ﴿فلما أفاق﴾ الإفاقة رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابها عنه بسبب من الأسباب[4].

وقوله: ﴿قال سبحانك﴾ أي تنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء، ويدأ بالتسبيح لاستشعاره بأنه طلب ما لا حقّ له فيه، وهو أمر عظيم لا يكفّره إلا التسبيح، كما أنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يمهد به لبيان توبته الصادقة عن

---

(١) سورة الدخان: الآية (٥٦).

(٢) قيل هي: (واسط) وقع فيها الطاعون فخرج أهلها هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حزقيل ـ عليه السلام ـ وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. انظر: تفسير النسفي، (١/١٢٣).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

(٤) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٤٦).

طلب ما لا قدرة له عليه.

﴿تبت إليك﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن، ولم يقل: تبت إليك عن هذا الطلب ليبين ـ عليه السلام ـ توبته الشاملة عما بدر منه وعرفه، وعما قد يظن أنه بدر منه ولم يعرفه، والغرض من قوله: ﴿تبت إليك﴾ إظهار الافتقار والمسكنة لربه، والرضا التام بمقدوراته.

﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك، أو: أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد من خلقك في حالته الدنيوية[1] فالأولية هناك ليست على إطلاقها بل هي مقيدة بما ذكرت لأنه ـ عليه السلام ـ قد تقدمه مؤمنون كثيرون أنبياء وغير أنبياء.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/٤٦).

المبحث الرابع
مسألة اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله

اختلف علماء أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة فيرى أهل السنة جواز وقوع رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا عقلاً، إذ لا مانع منها إلا عدم تحملها، كما يقطعون بوقوعها في الآخرة للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾(١) وهي وجوه المؤمنين قطعاً بقرينة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾(٢) وبقوله ـ تعالى ـ في شأن الكفار كما يدل عليه السياق، والسياق ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾(٣) ولما أسلفته من الحديث الصحيح عن مسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿قال: لن تراني﴾(٤) أما المعتزلة فيرون استحالة وقوعها في الدنيا والآخرة لأنها علقت في الدنيا على مستحيل والمستحيل لا يتصف بالوقوع، فما علق عليه فهو مستحيل مثله، وقد أوجزت شيئاً من رد أهل السنة، قالوا: إن قوله تعالى: ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ يدل على إمكان وجواز الرؤية وذلك من وجهين:

أولها: إن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ سألها بقوله: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾ ولو كانت مستحيلة ما سألها موسى ـ عليه السلام ـ وهو كما هو معلوم

---

(١)، (٢) سورة القيامة: الآيات من (٢٢) إلى (٢٤). وقوله: ﴿باسرة﴾ أي: كالحة شديدة العبوس، انظر: تفسير الجلالين ص(٤٩٤).

(٣) سورة المطففين: الآية (١٥).

(٤) انظر: ص(٣٥٣) من بحثنا هذا.

من أولي العزم من الرسل ولا يتصور أن يسأل موسى ـ عليه السلام ـ المحال، فإن قيل: إن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن عالماً بالاستحالة؟ فالجواب أنه يلزم من ذلك أن يكون آحاد المعتزلة ومن حصل على طرف من علومهم أعلمَ بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة، وحيث بطلَ القول بالاستحالة تعيّنَ القول بالجواز[1] ولاشك أن اعتقاد ما لا يجوز ولا سيما في الأمور العقائدية كفر، ولا يجوز أن يجهل موسى ـ عليه السلام ـ مثل ذلك لأن معرفة الأنبياء ليس فيها نقص، ومما يقوي ما ذهب إليه أهل السنة من جواز الرؤية أن الله ـ تعالى ـ لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: (لا أرى) ألا ترى أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لما قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[2] أنكر عليه ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[3]؟.

ولقد سبق أن بينا معنى ﴿لن تراني﴾ وقلنا: إنها مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قال الله حين قال موسى ذلك؟ فكان الجواب ﴿لن تراني﴾ أي: لن تطيق رؤيتي وأنت على هذه النشأة والحالة الدنيوية التي أنت عليها[4].

ثانيهما: ومما يدل على جواز الرؤية ويقوي ما ذهب إليه أهل السنة أنه ـ جل وعلا ـ علقها على استقرار الجبل وذلك ممكن في نفسه، وما علق على الممكن ممكن، فدل على أنها جائزة، ألا ترى أن دخول الكفار إلى الجنة لما

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٤٦، ٤٧).

(٢) سورة هود: الآية (٤٥).

(٣) سورة هود: الآية (٤٦).

(٤) انظر: ص (٤٦٢).من بحثنا هذا.

استحال علّقه بمستحيل فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾؟ [١] فلما استحال دخول المكذبين والمستكبرين إلى الجنة علق ذلك على المستحيل[٢].

والحق الذي أدين الله به أن رؤيته - تعالى - في الآخرة متحققة للمؤمنين لا محالة لما أسلفته من الآيات والأحاديث، وأن المعتزلة في هذه المسألة مخفقون محجوجون، وأدلتهم واهية، وتوهمهم أنها علقت في الدنيا على مستحيل قد رددتُ عليه في خلاصتي، وهَبْهَا عُلِّقت على مستحيل في الدنيا فهل تقاس أمور الآخرة بالدنيا؟ وهل يقاس الغائب على الشاهد؟ اللهم لا.

وقد ذكرت هذه المسألة لأنها تصور الصراع بين الحق والباطل في أجلى صورة إذ النصوص ثابتة بثبوت الرؤية في الآخرة، ولا ينفع المعتزلة قتالهم على العقل مع وجود النص.

قال شارح العقيدة الطحاوية: «وهذه المسألة من أشرف مسائل الدين وأجلها وهي الغاية، شمّر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون»[٣] والله أعلم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

(٢) وقد توسع الألوسي في بيان وجهة كل فريق، ومن أراد التوسع فليرجع إلى تفسيره (٩/٤٦-٥٣).

(٣) وقد بسط الشارح الإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الكلام في هذه المسألة، ومن أراد التوسع فليراجع كتابه شرح العقيدة الطحاوية ص، (٢٠٣-٢١٤).

المبحث الخامس
تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن منع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿قال ياموسى﴾ استئناف مسوق لتسلية موسى ـ عليه السلام ـ من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر عليه[2].

وقد ناداه ـ جل وعلا ـ باسمه تكريماً له ومؤانسة ومباسطة فإن مما يسر عبدالملك أن يذكره الملك باسمه للدلالة على التقارب والتآلف وقوله: ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾ أي: اخترتك، وهو افتعال من الصفوة، وأكد الحق ـ جل وعلا ـ ذلك بـ (إنَّ) لبيان شدة اعتنائه ـ سبحانه وتعالى ـ بموسى فلقد كان هارون ـ عليه السلام ـ نبياً ومع ذلك لم يصل إلى هذه المرتبة، والمعنى: أني اخترتك من بين عالمي زمانك لرسالاتي ولكلامي مع أن في عالمي زمانك من لو هيأته لهذا الاصطفاء لصلح كأخيك هارون ـ عليه السلام ـ فليكن ذلك مني مدعاة لمزيد شكرك لي، ومزيد استشعار منتي عليك، وقال تعالى: ﴿إني

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٤، ١٤٥).

(٢) تفسير الألوسي، (٩/٥٥).

اصطفيتك على الناس﴾ دون أن يقول على الخلق؛ لأن الملائكة يسمعون كلام ربهم بلا واسطة فلو قال الحق - تعالى - اصطفيتك على الخلق لشاركته الملائكة في هذه المزية.

واختيار الله له واصطفاؤه بالرسالة وبالكلام - كما سيأتي - هو كتفضيله قومه على عالمي زمانهم بقوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

وقوله: ﴿برسـٰلـٰتي﴾ أي: بأسفار التوراة، وجاءت بصيغة الجمع نظراً إلى أن التوراة التي أوتيها - عليه السلام - كانت أسفاراً متعددة، كل سفر منها رسالة، أو لأن الله أوحى إليه مرة بعد مرة وكلمه كثيراً، وفي كل مرة يفيض عليه ويعطيه، فهي بمثابة رسالة فصحّ الجمع بهذا المعنى.

وقرأ نافع وابن كثير: ﴿برسـٰلتي﴾ بالإفراد، وهذه القراءة لا تعارض قراءة الجمع لأنها صيغة من صيغ العموم، وصيغ العموم يصح إحلالها محل الجمع، أو لأنها مصدر كما قال الفخر الرازي. «وكثيراً ما يُعَبَّر عن المعاني المتعددة بالمصدر مفردا»[2] وقد يسأل سائل: أيّ مزية لموسى - عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالتي﴾ وقد سبقه في هذا الاصطفاء رسل كما لحقه آخرون؟ والجواب عن هذا التساؤل: إن مزية موسى - عليه السلام - حصلت بمجموع الأمرين بالاصطفاء بالرسالة وبالكلام مباشرة بينما غيره اصطُفي بالرسالة وجاءه الوحي بالواسطة، ولا شك أن تكليم الحق لموسى مباشرة فيه مزية عظمى له؛ إذ الفرق عظيم بين أن يخاطبك الملك بنفسه وبين أن يخاطبك بوزيره. ﴿فخذ ما ءاتيتك﴾ أي: احرص عليه غاية

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٧).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٦).

الحرص ولا يهوّنه عليك أني منعتك رؤيتي لعدم تهيئك لها، وحاشا لموسى ـ عليه السلام ـ أن يكون هان عليه ما أتاه ربه إياه، أو أن يكون قد توقف في أخذه، فليس ذلك هو المقصود من الأمر، وإنما المقصود تهيجه على مزيد الشكر، وتخفيف وطأة منع الرؤية عليه بمؤانسة قلبه بالتشبث بما آتاه وخلع عليه، وقد حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿ما ءاتيتك﴾ إما للعلم به وهو التوراة، أو لأن الله آتاه أسراراً وعطيات تخصه، فيكون المعنى: فخذ ما آتيتك مما هو بيني وبينك والذي لم أطلع عليه غيرك في زمانك، والتوراة التي بعثتك بها لإصلاح بني إسرائيل.

ولا غرابة في حذف هذا المفعول لأنه عائد على اسم موصول، والعائد كثيراً ما يحذف، وإذا حملنا (ما) الموصولة على معناها الخاص وهو التوراة فالتعبير عنه بـ (ما) إشادة به وبعلو شأنه إذ هو لظهوره لا يحتاج إلى ذكر اسمه.

﴿وكن من الشاكرين﴾ أي: دُم على الشكر، وقم بموجبه علماً وعملاً، فالأمر هنا ليس لطلب ما لم يكن موجوداً، بل هو للثبات على ما تخلّق به موسى ـ عليه السلام ـ من شكره لربه وعبوديته له، ثم فصّل ـ جل وعلا ـ بعض النعم التي منحها لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[1].

والمراد بالألواح ألواح التوراة، واختُلف في عددها وفي ماهيّتها، ولم يرد نص صريح عن النبي ـ ﷺ ـ في عددها وماهيتها، فالأفضل تفويض معرفة ذلك إلى الله ـ تعالى ـ.

وهذه الألواح هي الصحف التي أخبر عنها ـ جل وعلا ـ في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦﴾[1] وهي الكتاب والفرقان التي ذكرتها آية البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾[2].

والمعنى المراد من قوله: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا﴾ أي: كتبنا لموسى ـ عليه السلام ـ في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه؛ من الحلال والحرام، والحكم والعبر، والمحاسن والقبائح.

﴿موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾ بدل من الجار والمجرور أي: كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام[3].

﴿فخذها بقوة﴾ أي: بجد وحزم وعزيمة[4] وليس معنى هذا أن موسى ـ عليه السلام ـ سيقصرٌ في القيام بها، فهذا منتفٍ في حقه بمقتضى العصمة، وإنما المقصود والغرض من ذلك تنبيه بني إسرائيل على الاستمساك بما في هذه الألواح والحرص التام على العمل بما فيها، لأن أمرَ الله لكليمه أن يأخذها بقوة ـ والشأن فيه أنه كذلك بمقتضى العصمة ـ يقتضي أن يوجه هذا الأمر لقومه لأن التفريط متوقَّع منهم بل قد حصل كما سنعرفه قريباً[5].

﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أي: بأحسن ما فيها كالعفو والصبر فكان فيها القود والعفو فأمروا بالعفو... إلخ. فأفعل التفضيل إذن على بابه، ويجوز أن يكون أفعل التفضيل ليس على بابه وأنه جيء به لثبوت الوصف في نفسه، فيكون المراد من قوله: ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ أي: بحسنها إذ كل ما فيها

(١) سورة النجم: الآية (٣٦).
(٢) سورة البقرة: الآية (٥٣).
(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٠)، وتفسير الألوسي، (٩/ ٥٧).
(٤) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٥٨).
(٥) انظر: ص(٤٨٢) من بحثنا هذا.

حَسن، فليس في هذه الألواح شيء إلا وهو حسن، وجعل أحسن على بابها أقوى وأظهر.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ۝١٤٥﴾[1] المخاطبون هنا هم بنو إسرائيل، وقد التفت القرآن من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ إلى أسلوب الخطاب حملاً لبني إسرائيل على الجد في الامتثال بما أمروا به. والمقصود بقوله ـ تعالى ـ لبني إسرائيل: ﴿سأُوْريكم دار الفاسقين﴾ إما الوعيد والتهديد على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر وديار عاد وثمود وأضرابهم، أي: إنكم إن نأيتم عما أمرتكم به، وكفرتم بما أنزل عليكم، فعلت بكم مثل ما فعلته بهؤلاء الذين أريتكم ديارهم، وقد خَلت منهم وحلَّ بهم من العذاب ما لا يخفى عليكم؛ وإما على جهة الوعد، وأن المقصود بهذا القول الكريم تمكينهم من أرض فلسطين التي كانت ديار العمالقة والجبارين في ذلك الوقت، مع أنها كانت في السابق موطن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ كما كانت ديار توحيد وطاعة لله ـ عز وجل ـ والمعنى على هذا الرأي: إنكم إن التزمتم بما أنزل إليكم وأخذتم بأحسن ما جاءكم هديتكم وسلكت بكم سبيل الرشاد، ومكنت لكم من عدوكم. ولبيان هـٰذين المعنيين بيَّن لهم في الآيتين التاليتين حال المتكبرين والمكذبين بآيات الله ـ تعالى ـ حمانا الله وحفظنا، إنه سميع مجيب[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

(٢) بتصرف من تفسير أبي السعود، (٣/٢٧١).

المبحث السادس
تحذير بني إسرائيل
بتجنب مسالك الهالكين والضالين

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾(1).

قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ استئناف مسوق لتحذير بني إسرائيل عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي كتبت في ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية، التي من جملتها ما وُعِدوا إراءته من دار الفاسقين، ومعنى صرفهم عنها: منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ(2)﴾(3).

والآية الكـريمـة تصور لنا بوضوح مسالك الذين أعمى الله بصيرتهم وطمس على قلوبهم بأسلوب معجز، فهم عاجزون عن فهم الحجج والأدلة على

(1) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٦، ١٤٧).

(2) سورة الصف: الآية (٥).

(3) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٠).

عظمتها، والآيات التنزيلية التي فيها هدايتهم ورشدهم، وذلك بسبب تكبرهم وجحودهم وظلمهم.

ومعنى قوله: ﴿يتكبرون﴾ أي: يرون في أنفسهم أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وصفة التكبر صفة ذم في جميع العباد وصفة مدح في الله ـ جل جلاله ـ لأنه يستحق إظهار ذلك على مَن سواه، لأن ذلك في حقه حق وفي حق غيره باطل.

وقوله: ﴿بغير الحق﴾ إما حال، أي: يتكبرون غير محقين لأن التكبر بالحق لله وحده[1] ويجوز أن تكون جملة ﴿بغير الحق﴾ صلة للتكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط[2].

وصرف أهل الباطل عن الحق من أعظم المحن لأن هؤلاء المتكبرين المصروفين عن الحق يرون الحق باطلاً والباطل حقاً ـ أسأل الله لي ولك العافية والسلامة ـ وقد شاهد بنو إسرائيل أمثلة واضحة جلية لأمثال أولئك، وهم قوم فرعون الذين ابتلاهم الله ـ جل وعلا ـ بالآيات العظيمة المخيفة، التي لم يُبتلَ بها أحدٌ من الأمم التي سبقتهم بما ابتلاهم الله به، والتي وصفها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه بقوله: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[3] ومع ذلك كانوا كلما أتتهم آية ينكثون وعدهم، ويعودون إلى كفرهم وضلالهم، وقد أشرت إلى ذلك سابقاً[4].

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٧٧).
(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٧٢).
(٣) سورة الزخرف: الآية (٤٨).
(٤) انظر: من ص (٢٨٣) إلى ص (٢٨٩) من بحثنا هذا.

فهل ذلك يكون رادعاً لبني إسرائيل وزاجراً لهم؛ فيتجنبوا الباطل ويكفوا عن كفرهم؟ وفي أيامنا هذه ما أكثر مَن يرون الحق واضحاً جلياً، ومع ذلك يصرون على الباطل حتى طبع على قلوبهم، ونسوا خالقهم ومدبر أمرهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] وليس ذلك لعلم امتازوا به عن غيرهم، أو لأن الحق ملتبس عليهم، بل لنسيانهم قانون الله الذي لا يتبدل والمذكور في هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كل ءاية لا يؤمنوا بها﴾ هو نتيجة لصرف المتكبرين في الأرض بغير الحق عن آياته ـ تعالى ـ لأنهم بالصرف قد حِيل بينهم وبين تدبرها، والمراد بالآيات ما يعم المُنَزَّلَة والكونية، فهم لصرفهم لا يصغون للآيات التنزيلية عند سماعها ولا يعتبرون بالآيات الكونية عند رؤيتها، فهم مصروفون عن الإيمان بكل آية على حدة، ولا يتوقع منهم التأثر بأيَّة آية تنزيلية أو كونية وفي التعبير بـ﴿إن﴾ و﴿كل ءاية﴾ إعجاز ظاهر وتصوير دقيق لنفسية أولئك المتكبرين، فرؤويتهم للآيات لا تقع منهم إلا على قلة، وهي وإن وقعت لا يستفيدون منها بحال، والعجيب في الأمر في إنسان زماننا الحاضر أنه مُكِّن له بالصعود إلى القمر ورؤية هذا الكون العجيب وما فيه من الآيات الباهرة التي تدل على الخالق العظيم، والوقوف عليها من قرب، ومع ذلك نراه ممعناً في كفره وباطله، والسبب في ذلك ما أشارت إليه خاتمة الآية الكريمة: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بأياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ وقوله تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الرشد﴾ أي: الهدى ﴿لا يتخذوه سبيلا﴾ في أي وقت من الأوقات، ولا ينحازون إليه بحال لأن سبل الهدى لا تُعرف إلا من الآيات المُنَزَّلَة أولاً، فلا سبيل للاهتداء إلا بذلك، والتفكير بالآيات الكونية معضد لما جاءت به الآيات التنزيلية، فكيف

(١) سورة الحشر: الآية (١٩).

يسلكـون سبيل الرشاد وقد استولى الشيطان عليهم، وطبائعهم منجذبة إلى الباطل، منصرفة كل الانصراف عن الحق؟ إن ذلك لا يكون منهم أبداً فهم مصروفون حتى عن محاولة ذلك، وقوله تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الغيِّ﴾ أي: الضلال وعدم الاهتداء ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ يلازمونه ولا ينفكون عنه بحال من الأحوال على حـد قولـه تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1] فكيف يستجيب المصروفـون عن الحق وينـأون عن الباطل وقد صرفهم الله المالك لقلوبهم التي لا تميل إلى الاهتـداء أو تنصرف إليه، وقـد حجبهم الله عن الاهتداء، فلا يكون منهم إلا سلوك سبيل الغواية؟

وقوله تعالى: ﴿يتخذوه سبيلا﴾ يدل على شدة تشبثهم بسبيل الضلالة والـدفاع عنه بكل وسيلة، ولذا نرى أهل الكفر ودعاة الباطل يستعذبون في سبيل باطلهم إزهاق أرواحهم مع ظهور بطلان باطلهم!!

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ بيان لسبب صرف المتكبرين في الأرض بغير الحق، وعدم إيمانهم بآيات الله ـ تعالى ـ ونأيهم عن سبل الرشد، واستمساكهم بسبل الغواية.

والإشارة بقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ راجعة إلى كل ما ذُكر من أحوالهم في هذه الآية، والمعنى: إن ما وصفوا به من تلك الأوصاف راجع إلى تكذيبهم بآيات الله المنزلة على ألسنة رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إن قلنا: إن الآيات هي التنـزيلية، وإن قلنـا بما يعم التنزيلية والكونية يكن المعنى: إنهم لفرط كفرهم وتكذيبهم بكل آية ينسبون الآيات الكونية لغيره ـ سبحانه وتعالى ـ أو: لا يرون أنه المنفرد بخلقها.

---

(١) سورة يونس: الآيتان (٩٦، ٩٧).

وكلمة ﴿كذبوا﴾ تدلك على أنهم أبعدوا في التكذيب بهذه الآيات غاية الإبعاد، ولم يتركوا للتصديق بها مجالاً في قلوبهم، فهم عنها في غاية الغفلة، ولذا ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وكانوا عنها غـفلين﴾ أي: هم غافلون عنها باستمرار، وجيء بـ (كان) لبيان تحقق هذه الغفلة واستمرارها.

ثم آيس تعالى الذين كذبوا بآيات الله وبلقاء الآخرة من أن يقبل منهم أي عمل صالح جرى على يديهم في الدنيا وصلة رحم، أو إغاثة ملهوف، أو إحسان إلى مسكين؛ لأنهم لم يعملوها لله ـ عز وجل ـ وإنما عملوها بدوافع نفسية أملتها عليهم بيئتهم المحيطة بهم.

فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡۚ ﴾[1] أي: الصالحة، أي: أزيلت وذهبت، فلا ينتفعون بها أيَّ انتفاع على حد قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَـٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[2] والهباء مايخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيهاً بالغبار[3] وهو رغم ضآلته التي يستحيل معها تجميعه وُصف بالمنثور، أي: المفرق، بقصد تيئيس الكفار من الانتفاع بأعمالهم الصالحة.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[4] معناه: ما يجزون إلا بالجزاء الذي يناسب أعمالهم في الدنيا، من التكبر في الأرض بغير الحق، والكفر بآيات الله كلها، وإهمال سبل الرشد، وسلوك سبل الضلالة، أي أن عملهم من الصالحات لا ينتفعون به كما ينتفع المؤمنون، وما عملوا من السيئات لا يغفر

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).
(٢) سورة الفرقان: الآية (٢٣).
(٣) تفسير النسفي، (١٦٣/٣).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).

لهم بل يجازون عليه بالعذاب الأليم، وقد عبر عن ذلك بأسلوب الاستفهام إمعاناً لتأكيد معاقبتهم على سوء أعمالهم، وعدم انتفاعهم بصالحها، ولما له من أثر في نفوس السامعين، وحتى لا يغترّ بأعمالهم المؤمنون، ولا يركن إليهم ذو عقل سليم.

ورغم تحذير بني إسرائيل بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين بيَّنتا فعل الحق ـ سبحانه ـ بالمتكبرين في الأرض بغير الحق، فإن بني إسرائيل من عهد موسى ـ عليه السلام ـ وإلى أن تقوم الساعة لم ينتفع منهم بهذا التحذير إلا فريق منهم على حد قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[1] ومنهم أمم كثيرة أعرضت عن الحق، وكفرت بالواحد الأحد، وناصبت أهل التوحيد العداء، وحاربتهم بألوانٍ شتى من المحاربة تحدث القرآن الكريم عنها في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[2].

وسترى في الآيات التالية كفر قوم موسى بربهم، واتخاذهم العجل معبوداً لهم من دون الله ـ تعالى ـ وموقف نبيهم منهم، وتوبتهم ثم تكرر معصيتهم، وإذا وقع ذلك منهم في عهد موسى ـ عليه السلام ـ فوقوعه منهم بعده أشيع وأكثر كما فصّله القرآن وبيّنه في آيات كثيرة لا يتسع لذكرها موضوعي هذا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٩).

(٢) سورة البقرة، الآية (٦١).

المبحث السابع
عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ وعدم انتفاعهم بما وعظهم الله به

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[1]

على الرغم من النعم التي حباها المولى الكريم بني إسرائيل، وقلدها رقابهم، وأغدقها عليهم، وذلك في تخليصهم من الذل الذي عاشوا فيه قروناً عديدة تحت وطأة حكام مصر وملوكها الفراعنة، وإنجائهم من الغرق في البحر وإغراق عدوهم أمام أعينهم، وغير ذلك من النعم العظيمة، مع ذلك جحدوا نعم الله عليهم، ومالت نفوسهم إلى الشرك بالله بعد خروجهم من مصر وهم في طريقهم إلى الطور، فما إن شاهدوا أناساً يعكفون على أصنام لهم حتى قالوا لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ: اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة، فقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[2] ثم ذكرهم في الآية التي تلي الآيات السابقة بنعم الله عليهم[3] ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٣) انظر: ص(٤٤٥) من بحثنا هذا في بحث (جحود بني إسرائيل).

نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾(١).

ثم إنهم انتهزوا انقطاع وغياب موسى عنهم عند ذهابه للقاء ربه، فصنع لهم السامري(٢) من حليهم عجلاً عبدوه من دون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتبجحوا بتلك العبادة غاية التبجح، حتى إنهم كادوا يقتلون هارون ـ عليه السلام ـ لما نصحهم ببطلان ما هم عليه: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾(٣) ثم زعموا أن العجل هو إلـههم وإله نبيهم موسى ﴿ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٤).

وقد بدأت سورة الأعراف بالحديث عن اتخاذ بني إسرائيل العجل معبوداً لهم، وتركت الحديث عمن صنعه وأغراهم بعبادته لسورة طه ولذا أجدني مضطراً قبل تفسير آية الأعراف ﴿واتخذ قوم موسى . . . ﴾ وما بعدها أن أتعرض لما أحالته سورة الأعراف على سورة طه لسببين:

أولاً: لأنه يجلي الصراع بين الحق والباطل الذي هو موضوع هذه الرسالة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

(٢) السامري: هو موسى بن ظفر. ينسب إلى قرية من قرى بني إسرائيل تدعى سامرة، وكان منافقاً، وهو الذي أضل بني إسرائيل، وقد جُوزي على ذلك بأن منع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحُرِّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته، وإذا اتفق أن مس أحدًا حمَّ الماس والممسوس، وكان يهيم في البرية يصيح: لا مساس، قال تعالى: ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ سورة طه: الآية (٩٧). انظر: تفسير القرطبي (٧/٨٤)؛ وتفسير النسفي (٣/٦٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٤) سورة طه: الآية (٨٨).

ثانياً : لكي تكـون القصة مكتملة بين يدي القاريء حتى لا يبقى مشغوفاً بالبحث عن مقدماتها.

وسأحاول الإيجاز فيه ما استطعت، وتبدأ قصة هذا الصراع في سورة طه بقـوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤﴾[1] والاستفهـام في هذه الآية إنكـاري قصد به معـاتبـة موسى ـ عليه السلام ـ لتقدمه على قومه ؛ لأن تقدمه عليهم أوقعهم في إضلال السامري وفتنته إياهم بالعجل الذي صنعه لهم.

والمـراد بالقـوم في قولـه: ﴿عن قومـك﴾ هنا إما السبعون المختارون لمصاحبته أثناء تكليم الله له كما صرحت به آية الأعراف والتي سيأتيك نبأها[2] وإما بنو إسرائيل بعامة.

وعـلى التفسير الأول لكلمة القوم، يكون المختارون من بني إسرائيل لمصاحبة موسى قد أصابهم إضلال السامري كما أصاب عامة بني إسرائيل، وقد اعتذر موسى ـ عليه السلام ـ لربه باعتذارين:

أولهما : قوله تعالى: ﴿قال هم أولاء على أثرى﴾ أي: ليس بيني وبينهم مكان شاسع، أو زمان متطاول، أي: هم قريبون مني، وتقدمي عليهم بمثابة تقدم إمام القوم إلى الملك ليهيىء لهم المكانة عنده.

والاعتذار الثاني: هو قوله تعالى: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ أي: ليدوم رضاك عليّ، وليظهر عظيم شوقي إلى لقائك، واقعاً كما علمته مستتراً في قلبي، ولعل سبب هذا العتاب هو اجتهاد موسى ـ عليه السلام ـ في العجلة

---

(١) سورة طه: الآيتان (٨٣، ٨٤).

(٢) قال تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا﴾ سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

إلى ربه دون أن ينتظر الوحي الذي يحدد له ميعاد مفارقته قومه لمناجاة ربه ـ تعالى ـ فلم يقره الله على هذا الاجتهاد(١).

وقد بيّن الله سر هذه المعاتبة فقال: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾(٢) أي :أوقعناهم في الفتنة، وهي عبادة العجل من دوننا، وهذا يرجح أن المراد بالقوم هم الذين خلف عليهم موسى أخاه هارون، وهم عامة بني إسرائيل لا المختارون، وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: بإغوائه إياهم بعبادة العجل، وصرفهم عن عبادة الواحد الأحد، واستخفافه بعقولهم، وعلمه بأنهم مهيأون لعبادة غير الله بما تعودوه في مصر، وتأثرهم بعبادة المصريين للأشخاص أو الحيوانات على ما تذكره كتب تاريخ مصر القديم(٣).

وقد اختلفوا في أن السامري من بني إسرائيل أو من غيرهم، وهذا لا يعنينا كثيراً، إنما المهم المقصود هو إضلاله بني إسرائيل، وكيف راجت عندهم خدعته، وقد وجدوا من عناية ربهم بهم وإفاضته نعمه العظام عليهم ما يحول بينهم وبين ما وقعوا فيه، لو تأملوها وتذكروها، لكنهم كانوا قليلي التأمل والتذكر.

وقوله تعالى: ﴿فرجع موسى إلى قومه﴾ أي: المفتونين بما صنعه السامري، من حيث كان يناجي ربه، وقد أعلمه ربه بما أحدث قومه من عبادة العجل ﴿غضبٰن﴾ ممتلئاً غضباً ﴿أسفا﴾ أي شديد الحزن ـ كما روي عن

---

(١) بتصرف من تفسير الفخر الرازي، (٢٢/٩٨، ٩٩).

(٢) سورة طه: الآية (٨٥).

(٣) انظر: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم بك (١/٩٣-٩٨) والديانات والعقائد في مختلف العصور لأحمد عبد الغفور عطار ص(٣٠٧) مكة المكرمة: ١٤٠١هـ.

ابن عباس[1] ـ من كفر قومه بالله ـ عز وجل ـ وعكوفهم على عبادة العجل في غيبته، ولذا عاتبهم العتاب الشديد، ووبخهم أشد التوبيخ على ما وقعوا فيه.

﴿قال ياقوم ألم يعدكم ربكم﴾ الواحد الأحد الذي أنجاكم من عدوكم، وجعل لكم البحر طريقاً يبساً «والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده، أي: وعدكم»[2].

﴿وعدا حسنا﴾ يأتيكم على يدي أثناء غيبتي عنكم، وهو مجيء التوراة التي فيها صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم، أو الثواب على طاعاتكم بينما العجل الذي عبدتم لا يعرفكم ولا يشعر بتقربكم له بالعبادة، ثم زاد في توبيخه وإنكاره عليهم، قال تعالى: ﴿أفطال عليكم العهد﴾ والمراد بالعهد هنا: الزمان، أي: لم تطل غيبتي عنكم حتى تنسوا عبادة الواحد الأحد، وتعبدوا ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً، والاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي، أي: لم تطل غيبتي عليكم حتى تعتذروا بها عما وقعتم فيه، وقد خلفت عليكم، أخي هارون، نبي الله ـ تعالى ـ فكيف عصيتموه؟

ثم أضرب عن هذا التوبيخ إلى بيان دخائل نفوسهم، وما رغبوا فيه، وهو الوقوع في غضب الله ـ تعالى ـ باكتسابهم ما يؤدى بهم إليه ﴿أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي﴾ الذي وعدتموني أثناء غيبتي عنكم باستقامتكم وثباتكم على الدين الحق.

وقد استشعر بنو إسرائيل قبح ما صنعوا فحاولوا أن يعتذروا لموسى ـ عليه السلام ـ بما لا يصلح اعتذاراً ﴿قالوا ما أخلفنا موعدك بمَلْكِنَا﴾ أي: برغبتنا

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١٦/ ٢٤٤).

(٢) تفسير الألوسي، (١٦/ ٢٤٤).

وإرادتنا ﴿ولـكنا حملنا أوزارا من زينة القوم﴾ أي: حملنا حلي المصريين التي استعرناها منهم لنتجمل بها في يوم عيد لنا، ثم خرجنا بها من مصر ولم ندرِ ماذا نفعل فيها. فأشار علينا السامري بإلقائها في حفرة، وقد ألقى ما معه من حلي في تلك الحفـرة ليغرينا بإلقائها لئلا ننتظر توجيهك فيها، فأوقد عليها النار، وصنع منها عجلاً جسداً له خوار أضلنا به، وأغرانا بعبادته، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾[1].

والآن أعود إلى سورة الأعراف ـ موضوع رسالتي ـ لأتناول آيات هذه القصة بالتفسير وبذل الجهد فيها. والله المستعان وعليه الاتكال.

قال تعـالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[2]

أي: اتخذوه إلهاً معبوداً، والتضعيف في كلمة ﴿اتخذ﴾ يدل على أنهم تكلفوا ذلك وافتعلوه، ولو فكروا أدنى تفكر لما حامت نفوسهم حول هذا الاتخاذ ولكن شهوة تقليدهم للمصريين الذين عاشروهم دهـراً طويلاً هي التي حملتهم على هذا الاتخاذ، وهي التي جعلتهم يقولون لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿اجعل لنا إلـها كما لهم ءالهة﴾ وقوله تعالى: ﴿مـن حُليِّهم﴾ بيانٌ أن ما عبدوه أصله عندهم معروف، وهو معدن من معادن الأرض، فكيف عبدوه من دون الله ـ تعالى ـ؟ وهل يليق في العقل أن تُحوَّل الحلي والزينة إلى شكل آخر ـ مهما ظهرت له من صفات مستغربة ـ يستدعى أن يكون إلـهاً؟

وقـولـه: ﴿عجـلا جسدا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وسأنقل لك

---

(١) سورة طه: الآية (٨٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

نصوصهم في ذلك مرجحاً ما غلب على قلبي، والله أعلم بالصواب.

قال الفخر ـ رحمه الله ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار﴾ ما نصه: «اختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حياً أم لا؟

فالقول الأول: لا ـ أي ليس ذلك الجسد حياً ـ لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد الضال، بل السامري صوّر صورة على شكل العجل، وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل.

والقول الثاني: أنه صار حياً، وخار كما يخور العجل، واحتجوا عليه بوجوه:

أ ـ قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[1] ولو لم يَصِر حياً لما بقي لهذا الكلام فائدة.

ب ـ إنه ـ تعالى ـ سماه عجلاً، والعجل حقيقة في الحيوان، وسماه جسداً وهو إنما يتناول الحي.

جـ ـ أثبت له الخوار، وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعي الألوهية جائز لأنه لا يحصل الالتباس، وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع»[2].

والراجح عندي ـ والله أعلم ـ أنه كان عجلاً حقيقياً لقوله تعالى: ﴿عجلا﴾ والعجل حقيقة في ولد البقر، ولوصفه له ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿جسدا﴾ والجسد إنما يطلق على ما فيه الروح ولا غرابة في ذلك، فتحويل الحلي إلى عجل حقيقي على يد السامري ليس خلقاً من السامري إنما وقع بخلق الله ومراده لاختبار بني إسرائيل الذين غفلوا عن نعمه، واشتهوا عبادة غيره ـ كما

---

(١) سورة طه: الآية (٩٦).

(٢) تفسير الرازي (٢٢/١٠٣، ١٠٤).

ذكرته مراراً ـ فجَعْلُ الحلي عجلاً حقيقياً أظهر في وقوعهم في تلك الفتنة من القول الأول القائل بأنه صور الحلي بصورة عجل وجعل فيه مجاري يمر فيها الريح فيحدث الصوت، ولو كان هذا الرأي قوياً لقال الله ـ عز وجل ـ: (عجلاً جسداً له صوت) ولكنه قال: ﴿له خوار﴾ والخوار حقيقة في صوت البقر، ومما يزيدني استمساكاً بما رجحته قول الألوسي: «وإلى القول بالحياة ذهب كثير من المفسرين»[1] ومما يؤيد كون العجل كان قد نفخ فيه الروح ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده قال: حدثنا أبي[2] ثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني[3] ثنا محمد بن ثور[4] عن معمر[5] عن قتادة[6] في قوله: ﴿من حليهم

---

(١) تفسير الألوسي (٩/ ٦٤).

(٢) وهو: أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي، أحد الأئمة الحفاظ، ولد سنة ١٩٥هـ، وهو من الطبقة الحادية عشرة.
انظر: الجرح والتعديل، (١/ ٣٤٩)؛ وسير أعلام النبلاء، (١٣/ ٢٤٧)؛ وتذكرة الحفاظ، (٢/ ٥٦٧)؛ وتهذيب التهذيب، (٩/ ٣١)؛ وتقريب التهذيب، (٢/ ١٤٣).

(٣) محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، البصري، ثقة من الطبقة العاشرة، مات سنة خمس وأربعين.
انظر: التهذيب، (٩/ ٢٨٩)؛ وتقريب التهذيب (٢/ ١٨٤).

(٤) محمد بن ثور الصنعاني أبو عبد الله العابد، ثقة، من التاسعة، مات سنة تسعين ومائة تقريباً.
انظر: تهذيب التهذيب، (٩/ ٨٧)؛ وتقريب التهذيب (٢/ ١٤٩).

(٥) معمر بن راشد الأذدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن، ثقة ثبت فاضل، من كبار السابعة، مات سنة أربع وخمسين.
انظر: التهذيب، (١٠/ ٢٤٣)؛ وميزان الأعتدال، (٤/ ١٥٤).

(٦) قتادة: قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، وهو رأس الطبقة الرابعة، مات سنة مائة وبضع عشرة.
انظر: ابن سعد، (٧/ ٢٢٩)؛ والجرح والتعديل، (٢/ ٣/ ١٣٣)؛ والميزان، (٣/ ١٨٥)؛ والتهذيب، (٨/ ٣٥١)؛ والتقريب، (٢/ ١٢٣).
درجة الأثر: (صحيح الإسناد) ورجاله ثقات.

عجلا جسدا له خوار﴾ قال: استعاروا حَليًّا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلاً، فجعله الله جسداً لحماً ودماً له خوار[1].

وقوله تعالى: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم﴾ توبيخ لهم وتقريع، والمقصود أنه لا يتأتى منه الكلام، فهو خالٍ من آية صفة تصلح لجعله إلهاً.

وقد اختار القرآن نفي صفة الكلام عن هذا العجل بالذات دون السمع والبصر وغيرهما لأن بني إسرائيل كانوا يعلمون يقيناً أن الله ـ تعالى ـ يكلم موسى ـ عليه السلام ـ وأنه يتلقى من ربه بلا واسطة، فكيف يعرضون عن عبادة هذا الإله إلى عبادة عجل لا يتكلم؟

ثم نفى اتصاف هذا العجل بأية صفة تستدعي التباس الأمر عليهم فيه فقال: ﴿ولا يهديهم سبيلا﴾ بوجه من الوجوه، لأنه عارٍ عن سائر الصفات التي تمكّنه من ذلك.

ولذلك ختمت هذه الآية ببيان طبيعة بني إسرائيل، وهي استمرارهم على الظلم بوضع الشيء في غير موضعه، وتعاميهم عن الحق مع ظهوره ﴿ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[2] أي: إن المعصية دأبهم، فليس اتخاذهم العجل بأول منكر فعلوه.

وهكذا تصور لنا الآيات السابقة ضلال وكفر بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي يذبحونه بأيديهم ليأكلوه، وكونه منقلبًا عن ذهب ـ كما رجحته سابقا ـ لا يخرجه عن كونه عجلاً يتلذذ الإنسان بأكل لحمه، وكان عليهم أن يجتهدوا في عبادة ربهم الذي حول ذهبهم إلى عجل جسد له خوار، فالسامري

---

(١) الدر المنثور للسيوطي، (٩/٥٦٣)؛ وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ـ سورة الأعراف ـ تحقيق/ حمد بن أبي بكر، (٢/٥٢١).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٤٨).

لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بقبضة من أثر جبريل عليه السلام[(١)] وما كان لأثر جبريل هذا التأثير إلا لكونه عبدًا لباريء السماوات والأرض.

أخرج ابن أبي حاتم قال: «حدثنا أبي[(٢)] ثنا أبو صالح[(٣)]، حدثنا معاوية بن صالح[(٤)] عن علي بن أبي طلحة[(٥)] عن ابن

---

(١) قال تعالى في سورة طه: الآية (٩٦): ﴿قال ما خطبك يٰسمري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾ فالمراد: فقبضت قبضة من التراب الذي مر عليه فرس جبريل كما صرحت بذلك الروايات في كتب التفسير. انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٤).

(٢) سبقت ترجمته ص (٣٤٦).

(٣) أبو صالح: هو أبو عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني مولاهم المصري، قال عبدالملك حفيد الليث: ثقة مأمون، وقال أحمد: كان أول أمره متماسكاً ثم فسد بآخره، وقال أبو زرعة: لم يكن عندي ممن يتعمد الكذب في الحدث، وقال ابن عدي: هو عندي مستقيم، وقال ابن حجر: صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه وكانت فيه غفلة، من الطبقة العاشرة، مات سنة اثنتين وعشرين وله خمس وثمانون سنة.
انظر: الميزان، (٢/ ٤٤٠)، والتهذيب، (٥/٢٥٦)، والتقريب (١/ ٤٢٣).

(٤) معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد بن فهد الحضرمي من أبو عمرو وقيل أبو عبد الرحمن الحمصي، وثّقه ابن مهدي والعجلي والنسائي وأبو زرعة وابن سعد والبزار، وقال مرة: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عدي وابن خراش: صدوق، قال ابن حجر: صدوق له أوهام، من الطبقة السابعة، مات سنة ثمان وخمسين وقيل بعد السبعين.
انظر: تهذيب التهذيب، (١٠/ ٢٠٩)، والتقريب (٢/ ٢٥٩).

(٥) علي بن أبي طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمي، يكنى أبا الحسن وقيل غير ذلك، أصله من الجزيرة وانتقل إلى حمص، أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد فلم يذكر اسم مجاهد بل أرسله عن ابن عباس، وثّقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال: له أشياء منكرة، وقال ابن حجر: صدوق قد يخطيء، من الطبقة

عباس[1] قال: وكان السامري قد أبصر جبريل ـ عليه السلام ـ على فرس، وأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب فقال حين مضى ثلاثون ليلة: يابني إسرائيل إن معكم حلياً من حلي آل فرعون وهذا حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم نحرقها، فأتوه ما كان عندهم فأوقدوا ناراً فألقى الحلي في النار، فلما ذاب الحلي ألقى تلك القبضة من تراب في النار فصار عجلاً جسداً له خوار، فخار خوارة لم يثن»[2].

= السادسة، مات سنة ثلاث وأربعين.
انظر: ميزان الاعتدال (٣/١٣٤) والتهذيب (٧/٣٣٩) والتقريب (٢/٣٩).

(١) ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وتوفي سنة سبع أو ثمان وستون.
انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٣٣١).

(٢) درجة الأثر: هذا أصح الأسانيد عن ابن عباس في التفسير، وما يرويه ابن أبي حاتم بهذا السند هو النسخة المشهورة لعلي بن أبي طلحة.
قال أحمد بن حنبل: «بمصر صحيفة في تفسير القرآن رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً» ولولا صحة هذه النسخة لما قال فيها أحمد ما قال.
قال ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، وهي عند البخاري عن أبي صالح وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس».
انظر: الإتقان (٤/٢٠٧) في النوع الثمانين طبقات المفسرين.

المبحث الثامن
ندم قوم موسى على عبادتهم العجل

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ كناية عن شدة الندم الذي حل بهم بعد عبادتهم للعجل، وبالغ تأسفهم على مخالفتهم أوامر نبيهم - عليه السلام -.

وقد عبر عنه بالسقوط في اليد؛ لأن النادم يعض على يده فتصير يده مسقوطة فيها لأن فاه قد وقع فيها[٢] ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[٣] أو يضرب بإحدى يديه على الأخرى من الندم كما قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾[٤].

وقوله: ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي تبينوا ضلالهم باتخاذهم العجل، وأيقنوا أنهم جاروا عن قصد السبيل، وانحرفوا عن دين الله الحق إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر، وقد تبينوا ذلك كأنهم قد أبصروه بعيونهم وعاينوه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٩).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٧، ٨).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٧).

(٤) سورة الكهف: الآية (٤٢).

وفي تقديم الندم على الرؤية مع كونه متأخراً عنها للمسارعة إلى بيانه، والإشعار بغاية سرعته(١).

ولفرط ندمهم وتأسفهم على ما وقع منهم قالوا مبتهلين إلى الله ـ جل وعلا ـ وجلين: ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء فيتوب علينا ويكفر عنا سيئاتنا.

﴿ويغفر لنا﴾ بتجاوزه عن خطيئتنا.

﴿لنكونن من الخـٰسرين﴾ جواب قسم تقديره: والله لئن لم يرحمنا ربنا، وتوبتهم هذه كانت بعد رجوع موسىٰ ـ عليه السلام ـ من ميقات ربه، وإنكاره لما وجدهم عليه، وتأنيبهم وتوبيخهم، بدليل قوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم عندما نهاهم هارون عن عبادة العجل: ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾(٢) وبدليل الوهلة والغضب الذي أصاب موسى ـ عليه السلام ـ عندما رآهم عاكفين على عبادة العجل، فطرح الألواح على الأرض ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَـٰنَ أَسِفࣰا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِی مِنۢ بَعۡدِیۤۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ ﴾(٣) وسوف يمر عليك بعد هذا المبحث تفصيل ذلك.

قال بنو إسرائيل: ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: الهالكين لا محالة، مُقدِّمين الرحمة على المغفرة لبيان قبح ذنبهم وأنه لا يغفر إلا برحمة عظيمة من الله ـ تعالى ـ فهل رحمهم وغفر لهم؟

سأرجيء الجواب عن هذا السؤال إلى تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبࣱ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةࣱ فِی ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَ ٰلِكَ نَجۡزِی ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾(٤).

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٤، ٦٥).
(٢) سورة طه: الآية (٩١).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

المبحث التاسع
توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾[1].

وقوله: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه﴾ بعد أن استوفى الميقات الذي ضربه له ربه ليكلمه بعده، ولينزل التوراة التي فيها موعظة وتفصيل لكل شيء مما يحتاج إليه بنو إسرائيل، وقد أعلمه ربه بما أحدثه قومه من عبادة العجل في غيبته أثناء هذا الميقات ـ كما بينته سابقا ـ[2] رجع ـ عليه السلام ـ إلى قومه وهو غضبان عليهم أشد ما يكون الغضب لما أحدثوه في غيبته ﴿أسفا﴾ أي: حزيناً أشد ما يكون الحزن على فعلة قومه النكراء، وعلى أنهم لم يذكروا ما أنعم الله ـ تعالى ـ به عليهم مما أشرت إليه أكثر من مرة، وأنهم لخفة عقولهم وقلة يقينهم تقبلوا خدعة السامري لهم برغبة وحب، إلى حد أنهم قطعوا الطريق على هارون ـ عليه السلام ـ لما بيّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة العجل، بما قصّه الله عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[3] بل لقد همّوا بقتله كما ستقف عليه في آخر هذه الآية الكريمة، ولذا عبرت الآية عن غضب موسى وحزنه بصيغتين من صيغ المبالغة (فعلان وفعل).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) انظر: ص(٤٨٩) من بحثنا هذا.

(٣) سورة طه: الآية (٩١).

فقوله ﴿غضبـٰن﴾ أي: ممتلئاً غضباً، وشدة الغضب في الله من خصال الخير، وشدة الحزن كذلك، وكان نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت حرمات الله غضب لذلك غضباً لا يقوم معه شيء، وأن قرابة بني إسرائيل لم تغن عنهم شيئاً عنده لما حادوا عن الحق، وقد اشتد حزنه عليهم لكفرهم بالله وهو بين أظهرهم، ولأنهم أبناء أنبياء كرام، فانحرافهم عن الحق يستتبع انحراف غيرهم عنه غالباً، ولا تستغرب إذا قلت لك: إن اليهود أو بني إسرائيل ـ سمِّهم كما شئت ـ هم سبب نكبة أغلب العالم قديما وحديثا.

وقوله ﴿أسفا﴾ قال الإمام الفخر الرازي: «في الأسف قولان:

الأول: إن الأسِف الشديد الغضب، وهو قول أبي الدرداء وعطاء عن ابن عباس، واختيار الزجاج، واحتجوا بقوله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[1] أي: أغضبونا.

والثاني: وهو أيضاً قول ابن عباس والحسن والسدي: إن الآسف هو الحزين، وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «إن أبا بكر رجل أسيف» أي: حزين.

قال الواحدي: «والقولان متقاربان؛ لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو من دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً، فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل، أسفاً حزيناً لأن الله فتنهم، وقد كان ـ تعالى ـ قال له: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾[2]»[3]

(١) سورة الزخرف: الآية (٥٥).
(٢) سورة طه: الآية (٨٥).
(٣) تفسير الرازي، (١٥/ ١٠).

وجواب (لما) قوله تعالى: ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾.

فـ(ما) نكرة موصوفة، تفسر فاعل بئس المستتر، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتموني بها أثناء غيبتي عنكم لأتلقى من ربي ما فيه صلاحكم.

والخطاب في قوله: ﴿خلفتموني﴾ إما لعبدة العجل، وهو الراجح عندي، وإما لهارون ومن معه ممن ثبت على إيمانه، والمعنى على هذا التقدير الأخير: إن موسى ـ عليه السلام ـ لام هارون ومن معه على تقصيرهم في مَنْعِ عبدة العجل من عبادتهم، ولم يكن يعلم ـ عليه السلام ـ مقاومة هارون لهؤلاء العبدة، ولا همّهم بقتله، بل ظن أنه ومن معه قد خافوهم لكثرتهم فلم ينصحوهم.

ولكن حمل الخطاب على العبدة أوفق ليتلاءم مع قوله تعالى: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ لأن العجلة غير متصورة من هارون ـ عليه السلام ـ ولأن آخر هذه الآية صريح في لوم هارون، فلو جعل الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين لخلت الآية من لوم عبدة العجل مع أنه الأولى بالذكر، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾؟ إنكاري تحقيقي على معنى قد عجلتم أمر ربكم، وإنما عدل عن التحقيق لإبراز إنكار موسى عليهم لتلك العجلة، وقد قيل في معنى العجلة: هي فعل الشيء قبل وقته بخلاف السرعة فإنها فعل الشيء في أول وقته، ولذا ذم بعضهم العجلة ولم يذم السرعة(١).

والمراد بأمر ربهم الذي استعجلوه هو وعده ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ أن يأتي ربه بعد مضي ثلاثين ليلة وقد عرفت ـ فيما أسلفنا ـ(٢) أن

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي (١٥/ ١٠، ١١).

(٢) انظر: ص(٤٥٢، ٤٥٣) من بحثنا هذا.

موسى ـ عليه السلام ـ صام كل هذه الأيام بلياليها، وأنه لما أنكر رائحة فمه تسوك، فزاده الله عليها عشراً، فلما لم يرجع إليهم على رأس الثلاثين ظنوا أنه قد مات، فغيروا وبدلوا، وكفروا بالله مع وجود هارون النبي بينهم واستخلاف موسى إياه عليهم، وهذا أمر عجيب حقاً يقتضي الإنكار عليهم، ويرى عطاء أن المراد بأمر ربهم الذي استعجلوه سخطه عليهم، وعذابه لهم، والمعنى على هذا الرأى الأخير: قد عجلتم عذاب ربكم لكم بعبادتكم العجل واستقرار حبه في قلوبكم.

وقد ذكرت الآية لشدة غضب موسى ـ عليه السلام ـ مظاهر:

١ ـ قوله لقومه: ﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وألقى الألواح﴾.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾.

وهذه المظاهر تبين لك تهاوي الباطل وتخاذله أمام الحق وشدته؛ فإن بني إسرائيل عبدة العجل لما رأوا شدة غضب موسى ـ عليه السلام ـ مع كثرتهم ـ رأوا أنفسهم كعصافير محبوسة في قفص لا يعي صائدها عن أخذها، وحاولوا أن يجتهدوا في الاعتذار إليه وذكر السبب الذي به ضلوا كما ذكرته سورة طه، وهو قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾[1] وقد تناولت هذه الآية في التقدمة لعبادة بني إسرائيل العجل، فتأمل موقف بني إسرائيل مع موسى القائم على الاعتذار، وعلى ما عراهم من خوفهم بطش الكليم بهم، وموقفهم من هارون

---

(١) سورة طه: الآية (٨٧).

حين قالوا له: ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾[1] فإنهم قالوا ذلك لاستضعافهم له، وعدم خشيتهم من صولته، وهكذا أهل الباطل يتبجحون بباطلهم ما فقدوا الرادع القوي، فإذا ردعوا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكادت قلوبهم تبلغ حناجرهم، وقوله تعالى: ﴿وألقى الألواح﴾ للمفسرين في هذه الجملة كلام طويل وكثير أنفذ إلى أقواه وأرجحه بلا دخول في سرد ما قالوه.

والسبب في كثرة ما قيل حول هذه الجملة الكريمة هو التعبير بكلمة ﴿ألقى﴾ مكان كلمة (وضع) فإن كلمة ﴿ألقى﴾ تعني: إلقاء ما في اليد بلا مبالاة، وكلمة (وضع) تعني: وضع ما في اليد بتريث وتحفظ لما وضع.

والواقع أن ﴿ألقى﴾ هنا بمعنى (وضع) وقد اختار القرآن التعبير بها ليمهد بها لما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ فإن الأخذ لا يكون إلا باليد، ولا يستطيع ذلك إلا إذا فرغت يده مما فيها، وموسى ـ عليه السلام ـ إنما أسرع بإلقاء ما في يده، لما يرى أن ما بعد من الأهمية بمكان، ولذا وضع ما بيده من الألواح ليتفرغ لمسألة أخيه والأخذ برأسه، لا أن شدة الغضب هي التي حملته على إلقاء الألواح بدون النظر لما يحدث لها بسبب الإلقاء، ومما يقوي ما ملت إليه أن هذه الجملة جاءت لمدح موسى وبيان شدة غيرته في دين الله تعالى.

وأما ما قيل من تكسر معظمها بالإلقاء، فرفع المكسر بما فيه، فلم يثبت في حديث صحيح حتى نعوِّل عليه، وفي جعل الإلقاء الذي أدى إلى تكسر الألواح ناشئاً عن استيلاء الغضب على موسى ـ عليه السلام ـ مما جعله ينسى قدسية الألواح التي بيده لا يساعده ظاهر النص لأن هذه الجملة كما قلت لم ترد للعتاب.

---

(١) سورة طه: الآية (٩١).

والذين قالوا بتكسر الألواح استدلوا بالحديث الذي أورده الألوسي في تفسيره: «أخرج أحمد وغيره وعبد بن حميد والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: **«يرحم الله ـ تعالى ـ موسى؛ ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فتكسر منها ما تكسر»**[1].

هذا الحديث أثبت تكسر بعض الألواح، وقد أخرجه الإمام أبو عبدالرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة وأثبت أيضاً التكسر وإليك نص الحديث:

حدثني أبو نا سريج ابن النعمان ناهشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: **«ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ـ عز وجل ـ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت»**[2].

قلت: الحديث إسناده ضعيف لأن فيه هشيم وهو ابن بشير السلمي أبو معاوية بن أبي حازم الواسطي، ثقة ثبت كثير التدليس والإرسال الخفي[3].

والحديث نفسه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك بدون ذكر التكسير، أخرج ابن أبي حاتم بسنده قال: «حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا عفان ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال النبي

---

(١) تفسير الألوسي (٩/٦٧).

(٢) ابن حنبل، الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد. كتاب السنة. تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، مكة المكرمة، ابن القيم.

(٣) انظر: التقريب، (٢/٣٢٠).

ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن قومه فتنوا فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح»(١).

أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب تفسير سورة الأعراف، (٢/٣٢١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

وقد ذكر ابن أبي حاتم بعد هذه الرواية رواية أخرى قال: «حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني يعلي ابن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنه ألقى موسى الألواح فتكسرت فرفعت إلا سدسها»(٢).

. وأخرج الحديث الذي نحن بصدد دراسته الحاكم في المستدرك بدون ذكر التكسير: «عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله خبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح» هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي(٣).

فقد تبين لنا من دراسة متن الحديثين وسندهما أن الحديث الذي لم يتعرض للتكسير حسن أو صحيح بينما الحديث الذي تعرض للتكسير والذي

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف الأخ الزميل / حمد بن أبي بكر، (٢/٥٢٥).

(٢) الحديث إسناده ضعيف لأن في سنده (حجاجاً) وهو ابن محمد المصيص الأعور أبو محمد، مولى سليمان بن مجالد، ترمذي الأصل، سكن بغداد ثم تحول إلى المصيصة، ثقة ثبت لكنه اختلط في آخر عمره لما قدم بغداد وقد مات بها سنة ست ومائتين.

انظر: الميزان (١/٤٦٤) والتهذيب (٢/٢٠٥) والتقريب (١/١٥٤) وانظر: تفسير سورة الأعراف الأخ الزميل/حمد بن أبي بكر (٢/٥٢٦).

(٣) المستدرك للحاكم (٢/٣٢١).

قد يشم منه الطعن على الكليم في الإلقاء ضعيف لا يُعوَّل عليه في مثل هذا المقام لأن الأنبياء معصومون عن الأحوال العادية التي لا تجوز في حقهم مع جوازها من غيرهم.

والذي يفهم من الحديث بيان سبب إلقاء الألواح، فهو بمثابة الاعتذار عن أخيه هارون مما قد يظن به مما لا يليق بمقامه ـ عليه السلام ـ وهو أيضاً مدح له كالآية تماماً، والله أعلم بالصواب.

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: «ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح، فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس في القرآن وإنه لجرأة عظيمة على كتاب الله، ومثله لا يليق بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ»[1].

(١) تفسير الرازي (١٥/ ١١).

المبحث العاشر
لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون
ودفاع هارون عن نفسه

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ . . . وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[1].

قبل أن أشرع في تفسير هذه الآيات الكريمة لابد أن أبين الحوار الذي حدث بين موسى وأخيه، والذي فصلته سورة طه، ليكون القاريء على علم بالأحداث التي صاحبت هذه الحادثة، ولأن القرآن وحدة متكاملة، فما أجمل في موضع يفصل في موضع آخر، وهذه إحدى سمات الإعجاز في كتاب الله العزيز.

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾؟[2] أي: لماذا لم تسارع إلى إخباري وإعلامي بما أحدثوه من عبادة العجل فمكاني منكم ليس ببعيد عنكم؟ ويستدل بالآية على حرص الرسل الشديد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على هداية أقوامهم، ونجاتهم وفلاحهم، واحترازهم البالغ من وقوع أممهم في المهالك.

﴿أفعصيت أمرى﴾؟ استفهام انكارى، أي: هل عصيت ما أمرتك به من استخلافك على قومي؟ كما قصّه القرآن ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).
(٢) سورة طه: الآيتان (٩٢، ٩٣).

هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾(١).

فأخذ هارون يدافع عن نفسه بقوله: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾(٢) يفهم من الآية أن الغضب قد أخـذ مأخذه من موسى لمخالفة قومه ما تركهم عليه، فقد آخـذ موسى بلحية ورأس هارون يجره إليه، يعنّفه على الذي حدث، فقال هارون: ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾.

أي: خشيت إن فارقتهم وأتيت إليك لإخبارك بما أحدثه قومك، ولحق بي مَن هم باقون معي على الإيمان، ولحق الفريق الآخر السامري أن تقول حينئذ: ﴿فرقت بين بني إسرائيل﴾.

﴿ولم ترقب قولي﴾ أي: لم تحافظ وتـراع ما قلتـه لك، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أخلفني في قومي وأصلح . . . ﴾ وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد.

وأعود إلى سورة الأعراف فقوله: ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ أي: بشعر رأس هارون ـ عليه السلام ـ ﴿يجره إليه﴾ ظناً منه أنه فرّط في نصحهم وكفِّهم، وقد فعل موسى ـ عليه السلام ـ بأخيه هارون ذلك مع أنه أكبر منه سناً، وذلك لشدة غضبه وفرْط غيظه، ولم يقصد موسى بهذا إهانته والاستخفاف به بل لِلَّوم والتأنيب علي التقصير المظنون بحكم الرئاسة وفرط الحمية.

هذا وقد فسر الرازي ـ رحمه الله ـ أخذ موسى رأس أخيه يجره إليه ليُسارّه ويستكشف منـه كيفية الواقعة(٣) وهذا يمنعه صريح منطوق الآية لأن دفاع هارون عن نفسه بقوله: ﴿ابن أم﴾ فيه استعطاف واسترحام، فهو يستجيش

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).
(٢) سورة طـه: الآية (٩٤).
(٣) تفسير الرازي، (١١/١٥).

عاطفة الأخوة في قلب موسى بنداء رقيق يا ﴿ابن أم﴾ لا تعجل بلومي وتعنيفي فما آليت جهداً في الإنكار عليهم، وما قصرت في نصيحتهم، لكنهم لم يستمعوا لنصحي، واستضعفوني وأوشكوا أن يقتلوني، فلا تفعل بي ما هو محل شماتتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ.

﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي: بغضبك عليَّ وذلك من هارون ـ عليه السلام ـ تواضع تام وأدب جم مع أخيه موسى، الذي له الرئاسة، والذي بطلبته وبرغبته نال هارون ـ عليه السلام ـ النبوة والوزارة لموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ(١) مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾(٣).

---

(١) أي: لموسى.

(٢) سورة مريم: الآية (٥٣).

(٣) سورة طه: الآيات من (٢٩) إلى (٣٦).

المبحث الحادي عشر
اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾(١)لما عرف موسى ـ عليه السلام ـ أن أخاه هارون لم يقصر في نصح القوم وأنهم تمالأوا عليه، وأن موسى قال له: ﴿اخلفني في قومي﴾ ولم يقل له: «إن بدت منهم مخالفة فاتبعني لتخبرني بها» سأل ربه أن يغفر له ما بدر منه مع أخيه، وأن يغفر لأخيه إن كان قد حصل منه تقصير ـ ولم يقصر ـ هذا ما قرر المفسرون(٢) وهو كلام حسن، والذي أراه ـ والله أعلم ـ أن موسى ـ عليه السلام ـ طلب المغفرة عامة له ولأخيه ولم يحصرها في شيء محدد كما ذكر المفسرون، لا لأنه أساء في الحقيقة لهارون فهو معذور فيما فعل معه، وإنما طلب المغفرة له ولأخيه اعتذارًا إلى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ لا عن شيء حدث، وإنما يرى أنه مع شدة غضبه وأسفه وتوبيخه لقومه لم يبلغ في نظر نفسه غاية ما هو مطلوب، وإن كان في الواقع قد فعل أقصى ما يمكن فعله اعتذارًا إلى الله ـ تعالى ـ إن كان قد قصر ـ وهو في الحقيقة لم يقصر ـ.

وصَدْرُ هذه الآية يعلمنا أننا مهما حصَّلنا من التقوى، ومهما اجتهدنا من العمل الصالح، فلا نغتر بما عملنا، بل ننحو على أنفسنا باللائمة والاتهام، وقوله تعالى: ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ أي: أدخلني وأخي في رحمتك التي

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥١).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٦٨)، والرازي، (١٥/١٢)، والنسفي، (٢/٧٩).

خصصت بها أحبابك، والتي لا ينالهم معها ضيم، والتي لا تخرجهم منها بكرمك.

وقوله: ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ تذييل أريد به سعة رحمة الله ـ تعالى ـ والمعنى: فأنت يا حي يا قيوم بفرط رحمتك لا حرج عليك إذا أدخلتنا في رحمتك.

المبحث الثاني عشر
نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

في هذه الآية الكريمة بيَّن ـ جل وعلا ـ نقمته في الدنيا والآخرة على مَن صنع العجل، أو ساعد في صنعه، أو حرّض السامري على فعله ـ كما سأرجحه ـ.

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة، والذي رجح عندي بعد استعراض ودراسة أقوالهم أن هذه الآية في السامري وأصحابه الذين أُشربوا حب العجل في قلوبهم، ولم يعتذروا إلى ربهم قصَّه الله سلفاً عن المعتذرين ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[2].

فالمعنى إذن: إن الذين صنعوا العجل ليكون إلـهاً لبني إسرائيل بقصد إضلالهم وفتنتهم عن التوحيد كالسامري ومشايعيه في هذا الأمر لا يتوب الله عليهم في الدنيا وإن تابوا، فهم مستثنَون من آيات التوبة كما استُثنى إبليس لعنه الله. والاتخاذ هنا بمعنى: الصنع، ولذا لم يصرح القرآن بالمفعول الثاني لـ ﴿اتخذوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿سينالهم﴾ بالسين هو إخبار لموسى ـ عليه السلام ـ عن

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٩).

حال هؤلاء الصانعين، وأن ما ذكر من العقاب واقع بهم عن قرب، وقد كان كما قصته سورة طه.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾[1].

فهاتان الآيتان صريحتان في أنه لا توبة للسامري، وأنه إن تاب لا يتوب الله عليه، وهذا ما أجملته سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿سينالهم غضب من ربهم﴾ أي: سيحل عليهم غضب شديد من ربهم، الذي شأنه رحمتهم ورعايتهم، لكنه رفع عنهم الرحمة لكونهم ليسوا بأهل لها، وأن هذا الغضب واقع عليهم في الدنيا والآخرة، ولذا جاء به القرآن مُنكَّراً لتستشعر فظاعته وشدته، ووصفه بأنه ﴿من ربهم﴾ لتعلم أن الرحمن إنما حرمهم الرحمة لأنهم لا يستحقونها، وأنه جعل الذلة والهوان نصيبهم في الدنيا وأنهم مُزْدَرون، لا يُمسون ولا يُخالطون، وإذا كانت آيتا طه قد بينتا حالة السامري فآية الأعراف قد بينت مآله ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ الذلة التي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس[2] مع أشياعه الذين تميزوا عن سائر بني إسرائيل بشدة الضلال والإضلال، ثم ختم ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآية بقوله: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ أي: وكهذا العقاب الشديد الدنيوي

---

(١) سورة طه: الآيات من (٩٥-٩٧).

(٢) يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدُهم أحداً غيرهم حمّوا جميعاً. والله أعلم. انظر: تفسير أبي السعود، (٣/٢٧٥).

والأخروي الذي حلّ على السامري وأضرابه نجزي ونعاقب به كل مفترٍ في دين الله وكل مبتدع، وكل متقول على الله ما لم يقل، إذ الافتراء هو قولُ الزور والبهتان.

هذا وإن كل يهودي لا يؤمن بالأنبياء بعد موسى ـ عليه السلام ـ ويُعِينُ على قتلهم كما قصّه القرآن، ولايؤمن بإمام الرسل نبينا محمد ﷺ داخل في هذه الآية وفي هذا الغضب الشديد، وتلك الذلة إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

هذا ما رَجَحَ عندي، وللمفسرين محامل أخرى أذكرها فيما يلي باختصار إكمالاً للفائدة:

حمل بعضهم الآية على اليهود المعاصرين للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بتقدير: إن الذين اتَّخذ آباؤهم العجل سينالهم غضب من ربهم[2] . . . . . إلخ، كما حصل لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وليهود خيبر وفدك ووادي القرى، وأخبارهم في السيرة معروفة . . .[3].

وحملها بعضهم على عموم بني إسرائيل وأن شدة الغضب التي حلت عليهم قد تمثلت في شكل توبتهم التي لم يعامل بها أحد قبلهم ولا بعدهم[4]

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦١).

(٢) قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: «فإن تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف، منه قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسا . . . .﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى . . . .﴾ الآية.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/٥٢، ٢٠٠، ٢٤٤، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٢).

(٤) حديث: أمروا بقتل بعضهم بعضا . . . كما سوف يمر علينا بيانه.

وأن الـذِّلة التي أصابتهم في الدنيا هي خزيهم بعبادة العجل، واستحقارهم أنفسهم لمًّا استنارت قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿والذين عملوا السيئات﴾ أي: الكفر فما دونه من الذنوب ﴿ثم تابوا من بعدها﴾ أي: من بعد فعل تلك السيئات ورجعوا عنها وأقلعوا ﴿وآمنوا﴾ بالله حق الإيمان وأنه لا يليق أن يعصوه أو أن يكفروا به، واستصحبوا ذلك الإيمان وتلك التوبة حتى خرجوا من هذه الدنيا، فإن الله يقبل توبتهم، ويفرح بها، بل يحبهم برجوعهم إليه أشد الحب، قال تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ وقوله: ﴿إن ربك﴾ أي: يا محمد ـ صلى الله عليك وآلك وسلم ـ والإضافة هنا للتشريف فهو رب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، فاختصاص الإضافة مصرِّح بعلو شأنه عند ربه ﴿من بعدها﴾ أي: من بعد تلك التوبة الصادقة.

﴿لغفور﴾ أي: ستور وصفوح عن زلاتهم.

﴿رحيم﴾ بهم، أي: يقيل عثراتهم، ولا يبقيهم أسرى لذنوبهم، وقد أكد ذلك بـ (أن) و(اللام) ليطمع عباده في كرمه، ولئلا ييأسوا من رحمته مهما قبحت ذنوبهم ومهما أتوا من الكفر، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾[2].

وهذه الآية بشارة عامة للمؤمنين من كل أمة، وهي بأمة سيدنا محمد

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٣).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٨).

ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ألصق، غير أن توبة الله على بني إسرائيل كانت أمراً عجباً يماثل كفرهم الأعجب والأغرب، وقد تكفلت سورة البقرة ببيان تلك التوبة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال موسى لقومه: ﴿توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه ـ عز وجل ـ أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل وأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل مَن قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة»[2].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قال السدي في قوله: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان مَن قُتل من الفريقين شهيداً، حتى كَثُرَ القتل حتى كادوا أن يَهلِكوا، حتى قُتِل سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقيةَ البقيةَ، فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قُتِلَ منهم من الفريقين شهيداً

---

(١) سورة البقرة: الآية (٥٤).
(٢) تفسير الطبري، (٢/ ٨٦).

ومن بقي مُكَفَّراً عنه، فذلك قوله: ﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾»[١].

ولو تمعّنا في توبة الله لبني إسرائيل باقترانها بقتل بعضهم بعضاً، وكيف يتوب الله ـ جل وعلا ـ على المذنبين من أتباع الأمة المحمدية ـ على نبيها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ لرأينا رحمة الله بهذه الأمة، إذ إن العاصي مهما كانت معصيته، أو المذنب مهما كان ذنبه، أو المشرك والمرتد عن دينه يكفي في توبتهم الندم والاستغفار وعدم الرجوع إلى ما كانوا عليه، والمبادرة إلى الأعمال الصالحة، بشرط أن يتوبوا قبل أن تصل أرواحهم حناجرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[٣] وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير، (١/٩٢).
(٢) سورة النساء: الآيتان (١٧، ١٨).
(٣) سورة المائدة: الآية (٣٩).
(٤) سورة الفرقان: الآية (٧١).

المبحث الثالث عشر
حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ السكت والسكوت خلاف النطق[2] أي: الإقلاع عن الكلام وتركه، والتعبير القرآني هنا بقوله: ﴿ولما سكت. . . .﴾ يجسد الغضب كأنما هو كائن حي يدفعُ ويحثُّ موسى على الغضب ثم تركه بعد ذلك، والجملة هنا استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آخر يدفعه ويقوِّيه على ما فَعل، ويقول له: قل لقومك بئسما خلفتموني من بعدي، ويأمره بأن يأخذ برأس أخيه ويجره إليه، فلما زال عنه الغضب صار كأنه سكت. وهذا من بديع الاستعارة، أو أن قوله: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ جعل سكون الغضب سكوتاً، ويكون معنى الآية: ولما سكن وهدأ الغضب عن موسى.

والغضب: هو الأنفعال الشديد الذي يصيب الكائن الحي نتيجة مؤثرات خارجية لا توافق هواه، وهو إما محمود وإما مذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، ولابد للإنسان إذا غضب أن يتمالك نفسه ويعي ما يفعل وما يقول، لذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٤).

(٢) لسان العرب: (٢/ ٤٤).

ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١) وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يغضب إلا إذا انْتُهِكَت محارم الله.

وقوله تعالى: ﴿أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة﴾ ظاهر الآية أن الألواح لم تنكسر، ولم يرفع من التوراة شيء، وأنه أخذ الألواح التي ألقاها ﴿وفي نسختها﴾ أي فيما نسخ فيها وكتب(٢) ﴿هدى ورحمةٌ﴾ أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب.

وقـوله تعالى: ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي: يخافون أشد الخوف منه، واللام الأولى في قوله: ﴿للذين﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمته، أي: بكائنة لهم، أو هي لام العلة، أي: هدى ورحمة لأجله؛ واللام الثانية في قولـه: ﴿لـربهم﴾ لتقوية عمل الفعل المؤخر، كما في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣﴾(٣) أو هي أيضـاً لام العلة والمفعول الثاني محذوف، أي: يرهبون المعاصي لأجل ربهم لا للرياء والتباهي(٤).

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جمعه/محمد فؤاد عبد الباقي، (الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٣٩٧هـ)، ٢/٧٠٧.

(٢) تفسير أبي السعود، (٣/٢٧٦).

(٣) سورة يوسف: الآية (٤٣).

(٤) بتصرف من تفسير الألوسي، (٩/٧١)، وتفسير أبي السعود، (٣/٢٧٦).

المبحث الرابع عشر
منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾.

اختلف المفسرون في سر هذا الاختيار:

فذكر بعضهم أن سبب هذا الاختيار هو الاعتذار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عما صنع بنو إسرائيل من عبادة العجل، وأنه كان تمهيداً لطلب توبة الله عليهم، والرغبة إليه أن لا يهلكهم بتلك الفعلة، ويسألوه التوبة على مَن تركوهم وراءهم من قومهم[2].

ويرى بعضهم أن سبب هذا الاختيار موت هارون ـ عليه السلام ـ دون أن يطّلع عليه بنو إسرائيل، وقد أمر الله موسى أن ينطلق بهارون إلى مكان موته

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٥٥، ١٥٦).

(٢) قاله السدي، انظر: زاد المسير لابن القيم، (٣/٢٦٨).
وقاله ابن إسحاق، انظر: تفسير أبي السعود، (٣/٢٧٧).

من طور سيناء، فذهب بهارون وابنه، فلما مات هارون رجع موسى وابن أخيه حزينين إلى بني إسرائيل فاتهموه بقتله، فاختار هؤلاء السبعين ليحي الله لهم هارون فيعودوا إلى قومهم مصدقين موسى في مقالته لهم بموت هارون، وأنه لم يقتله كما يفترون[١].

ولا غرابة في صدور ذلك عنهم، فكم لاقى الكليم عنتاً وأذى مما اقتضى تحذير المؤمنين من إيذاء النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تشبهاً ببني إسرائيل الذين آذوا موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾[٢].

وكذلك اختلف المفسرون في الميقات، والراجح عندي أنه ميقات مخصوص يغاير الميقات الأول المذكور في قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه . . . ﴾ الآية، فإن هذه الآية صريحة في أن موسى هو الذي أُمِر وحده بالذهاب إلى ميقات ربه، ولم يكن معه أحد.

ومعنى ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلًا لميقاتنا﴾ أي: انتقى وتخير موسى ـ عليه السلام ـ سبعين رجلاً من قومه ليطّلعوا على بعض أحوال موسى ـ عليه السلام ـ عند تكليم الحق ـ جل وعلا ـ له، فيستشهد بهم في وصفه لبني إسرائيل، وليثبتوهم على الإيمان، فيكونوا بمثابة الوزراء والخلصاء لموسى ـ عليه السلام ـ وهذا يرجح ما مِلتُ إليه من كون ميقات هؤلاء السبعين غير الميقات الأول.

﴿فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإيَّي﴾ المراد

---

(١) ذكره الألوسي نقلاً عن ابن أبي الدنيا وابن جرير وغيرهما عن علي ـ كرم الله وجهه ـ.
انظر: تفسير الألوسي، (٩/٧٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٦٩).

وقوله: ﴿وإياي﴾ عند قتلي للقبطي في مصر، ومع ذلك لم تهلكني بما أستحق رحمة منك، بل رحمتني لما اعتذرت إليك، بما قصَّهُ الله من اعتذاره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[1].

وقوله: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا﴾ يؤكد لك أن هؤلاء السبعين لم يرتكبوا ذنباً يستحقون به هذه الرجفة، والمراد بالسفهاء عبدة العجل، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع على معنى: إنه لا يكون منك إهلاك قوم بذنب آخرين، فإنك لا تفعله تفضلاً وعدلاً، أو على معنى النفي، أي: لا يكون منك ذلك، فإنك تعاليت وتعاظمت وقد حرّمت الظلم على نفسك.

وفي قوله: ﴿أتهلكنا﴾ يعود الضمير على موسى ومن معه، وهذه من أقوى الأدلة على أن الرجفة كانت للهيبة وعدم التحمل لا لمقالة قالها السبعون، فإنه جمع نفسه معهم، ومحال أن يقرن نفسه بسفهاء متطاولين، وقوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ يقصد به: إما فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل ـ وهو ما أرجحه، وهذا أيضاً يؤكد ما ملت إليه من أن الرجفة كانت للهيبة وليست لمقالة قالوها ـ وكأن موسى يقول لربه ـ عز وجل ـ: إن هي إلا فتنتك التي أخبرتني عنها عند مناجاتي معك في الميقات الأول، حيث أخبرتني بقولك جل جلالك: ﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك﴾[2].

أو كما قيل: إن المراد بالفتنة[3] هنا الابتلاء مطلقاً لعباده في كل زمان، إذ الفتنة في كلام العرب هي الابتلاء والاختبار.

وقوله تعالى: ﴿تضل بها من تشاء﴾ لعلمك أنه سيختار الضلال ويُصِرُّ

---

(١) سورة القصص: الآية (١٦).

(٢) انظر: ص(٤٨٤) من بحثنا هذا (عند تفسير هذه الآية).

(٣) في قوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾.

بالرجفة هنا: صعقة أصابتهم لهول ما عاينوا، أو أن الجبل قد رَجَفَ بهم فماتوا أو غُشِيَ عليهم. وقد اختلف المفسرون في سبب أخذ الرجفة لهم:

فقال بعضهم: هيبة المقام التي لم يحتملوها.

وقال بعضهم: إنهم لما سمعوا كلام الله لموسى وأمره ونهيه قالوا بعد انتهاء المكالمة: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة لذلك(١)...

وقد أطال المفسرون في ذلك، والذي يظهر لي أن الرجفة أخذتهم للهيبة لا لتلك المقالة، وأن تلك المقالة صدرت عن غير هؤلاء السبعين، ومما يقوي ذلك ما قاله موسى ـ عليه السلام ـ معتذراً إلى ربه بقوله: ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ وبقوله: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ وطلبه المغفرة والرحمة بقوله: ﴿فاغفر لنا وارحمنا﴾ فإن كل ذلك يدل على أن هؤلاء السبعين الصلحاء من بني إسرائيل رُجِفَ بهم لأنَّ طاقتهم لم تحتمل الحالة التي أحيط بها موسى ـ عليه السلام ـ فقد روي أنه ـ عليه السلام ـ لما أتى الجبل تغشاه عمود الغمام، وأنه أمر السبعين أن يدخلوا فيه فلما دخلوا خروا سجداً، وسمعوا كلام الله ـ تعالى ـ(٢) ولذلك ضعفت قواهم عند هذا السماع وتزلزلوا.

وقوله تعالى: ﴿لو شئت أهلكتهم من قبلُ﴾ أي: قبل حضورهم معي إلى هذا الميقات الذي جعلته لهم بأمرك سبحانك، فإن هؤلاء السبعين مع صلاحهم لم يفارقوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يبالغوا في الإنكار عليهم، فهم بذلك يستحقون الإهلاك، فإذا أمهلتهم وهم بهذه المثابة فلا تهلكهم وهم معي لئلا يظن بنو إسرائيل أني قتلتهم، فلا يأمنوني بعدُ على أحدٍ منهم.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧٣، ٧٤)؛ وأبي العود، (٣/ ٢٧٧)؛ وزاد المسير، (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٧) نقلاً عن السُدِّيِّ.

عليه ﴿وتهدي من تشاء﴾ أي: ممن اختار الهدى وثبت عليه.

ثم دعا موسى ربه ﴿فاغفر لنا وأرحمنا﴾ وقدم المغفرة هنا التي هي محو الذنب بالعفو عنه من باب التخلية قبل التحلية، فإن بقاء العبد مذنباً يعرضه لسخط الله ـ عز وجل ـ فإذا حليَّ بالعفو كان أهلاً للرحمة، وقد عمم ـ عليه السلام ـ في طلب المغفرة والرحمة لتشمل مغفرته ـ تعالى ـ ما كان من الذنب وما سيكون، وليستديم ـ عليه السلام ـ رحمته ـ تعالى ـ به وبقومه، ثم أثنى على ربه بقوله: ﴿وأنت خير الغافرين﴾ أي: خير العافين لأن عفو غيرك غايته سلامة الدنيا أما عفوك وغفرانك ففيهما سلامة الدنيا والآخرة، كما أن غيرك لا يعفو إلا بتحنينك وتعطيفك، فأنت العفو والغفار على الحقيقة.

هذا وإن للمفسرين في هذه الآية كلامًا طويلاً، وخلافات وردوداً على تلك الخلافات، وروايات منها ما لا يصح ومنها الضعيف الذي لا يُعوَّل عليه، وقد استخلصت بفضل الله ـ تعالى ـ لُباب كلامهم، وما ذكرته واخترته هو خلاصة لقراءاتي لما وقع في يدي منها[1].

ثم سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربَّهُ أن يكتب له ولقومه الفعلة الحسنة في الدنيا، وأن يثبتهم عليها، والمثوبة الحسنى في الآخرة، وأن يوفقهم لتحصيل أسبابها.

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ والكتابة هنا ليس معناها تغيير القضاء الأزلي بل معناها: اجعل لنا، وتعطّف علينا وتفضل. ومن حق كل مؤمن أن يسأل ربه ما يشاء من أمور الخير، وأن يدرأ عنه كل شر، فإن قضاء

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٧١-٧٥)؛ وتفسير الرازي؛ (١٥/١٥-٢٠)؛ وتفسير أبي السعود، (٤/٢٧٦، ٢٧٧)؛ وتفسير الطبري، (٩/٧٧)؛ وتفسير ابن كثير، (٢/٢٤٩، ٢٥٠)؛ والبحر المحيط، (٤/٣٩٨ ـ ٤٠١)؛ وزاد المسير لابن القيم، (٣/٢٦٧ ـ ٢٦٩).

الله غيب عنه، وهو مأمور بالدعاء.

ونكّر ﴿حسنة﴾ إمعاناً منه ـ عليه السلام ـ في إكرام الله له ولقومه بكل خير الدنيا والآخرة، ثم أردف طلبه بذكر السبب الذي يستدعي قبول دعائه ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي رجعنا وتبنا، فشأنك وأنت الكريم أن تعود على من رجع إليك تائباً بمسرته في الدنيا والآخرة.

هذا وإن لفظ (يهود)(1) مستعمل الآن في ضد ما كان عليه بنو إسرائيل وقت هذا الدعاء، فيهود في الأصل فعل مضارع من هاد يهود بمعنى: رجع عن الشر إلى الخير، وتاب إلى الله وأناب، أما هو الآن فمعناه الرجوع عن الخير إلى الشر، وقد تُنوسي كونه فعلاً وصار اسماً بالنقل لفسدة بني إسرائيل، ولذا نقول: فعله يهود كذا بالتنكير، وفعله اليهود كذا بالتعريف، وقوله: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ وهو جواب سؤال دل عليه الكلام، تقديره: فبماذا أجاب الله موسى ـ عليه السلام ـ؟

ومعنى ﴿أصيب به من أشاء﴾ من قومك وغيرهم، فدعاؤك مقبول في الصلحاء منهم، وفي هذا الجواب إشارة إلى حال بني إسرائيل بعده ـ عليه السلام ـ ونظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾(2) أي: إن الظالمين من ذريتك لا ينالهم عهدي. فكذلك الضالون من بني إسرائيل لا تنالهم رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي: ليس في الدنيا والآخرة

---

(1) (هَوْد): الهود التوبة، هاد يهود هوداً وتهوَّد: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد، وفي التنزيل العزيز ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي: تبنا إليك.... انظر: لسان العرب، (٣/٤٣٩).

(2) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

ساكن أو متحرك، عاقل أو غير عاقل إلا ورحمة الله فيه ظاهرة، ويجوز أن يكون المعنى: إن رحمتي واسعة في الدنيا والآخرة، لا تضيق بمخلوق، ولكني قضيت بها لمن اتصفوا بالأوصاف الموصِّلة إليها، ولذا قال بعد ذلك: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ وقد عمم وخصص في هذا النص الكريم حيث قال: ﴿للذين يتقون﴾ فهو ينتظم سائر المأمورات وجميع الخيرات، وخصص بذكر الزكاة والإيمان بجميع الآيات، لعلمه ـ تعالى ـ أن الزكاة كانت وستظل من أشق التكاليف على بني إسرائيل لأنهم عبيد الدينار والدرهم، ومَن كان هذا حاله يبعد أن يؤدي تلك الفريضة، ولعلمه ـ تعالى ـ بأن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه، ويكتبون كتباً ينسبونها إلى الله زوراً، فيها ما لم يأذن به الله، تلبيساً على العامة، وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وقد تجلى ذلك واضحاً في كفرهم بالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإن الإيمان به جزء من كتابهم قبل أن يؤمروا بالإيمان به في القرآن، ولأجل ذلك قال: ﴿ويؤتون الزكاة والذين هم بياتنا يؤمنون﴾ أي: بالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، فلم يفعلوا، من أجل ذلك جانبتهم الرحمة، وذهب عنهم التوفيق، ويجوز كما قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ أن المراد بقوله: ﴿والذين هم بأياتنا يؤمنون﴾ أن: «فيه تعريض بهم ويكفرهم بالآيات العظام، والتي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البينات، كتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى»[1].

وقد تعرضت لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

(١) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٩).

إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1] عند ذكري لمبحث الآيات الخاصة بالحض على الإيمان، فاكتفيت بما ذكرته هناك[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٢) انظر: ص(١٤) من بحثنا هذا.

المبحث الخامس عشر
ثناء الله تعالى على صلحاء بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على فريق قليل من قوم موسى ـ عليه السلام ـ ثبتوا على الحق، وهدوا غيرهم إليه وجعلوه شعارهم في أحكامهم وسلوكهم.

وقوله: ﴿ومن﴾ للتبعيض وفيها القلة، وذكر هذا البعض القليل تعريض بأكثرهم الذين كانوا يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، وليس المقصود بهذا الفريق الصالحين المعاصرين لموسى ـ عليه السلام ـ بل المقصود صلحاء بني إسرائيل من عهده ـ عليه السلام ـ إلى عهد نبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهم غير أنبيائهم لأن هداية الخلق بالحق ولزومه في الأحكام من ضرورات النبوة، فلا يحمد الثناء عليهم به، وإنما المقصود صلحاء بني إسرائيل غير الأنبياء، ولا تعارض بين ما قررته من قلتهم، وقوله تعالى: ﴿أمة﴾ فالأمة تطلق على الجماعة الكثيرة[1] وتطلق على القليلة إذا كانت ذات شأن، وقد يسمى الواحد أمة لما تميز به من خصال الخير كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[2]. . . الآية.

ومعنى قوله: ﴿يهدون بالحق﴾ أي: يهدون الناس إليه، وهم متلبسون

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٥/٣١).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٠).

به ثابتون عليه، لا يقولون ما لا يفعلون، بل يدعون غيرهم إلى ما عرف من أحوال هؤلاء الصلحاء، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار الصورة الماضية لا لأن ذلك حاصل الآن إذ مهمة بني إسرائيل قد انتهت ببعثة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فمَن أسلم منهم فهو يهدي بالحق ويعدل به لا لأنه من قوم موسى - عليه السلام - بل لأنه مسلم متبع لنبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -.

ومعنى: ﴿وبه يعدلون﴾ أي: في أحكامهم وسياساتهم، وهذه الآية جاءت لبيان أن رحمة الله ليست مكتوبة للذين يتبعون الرسول النبي الأمي فقط بل هي لهم ولمن سلف قبلهم ممن هدى بالحق وعدل به من قوم موسى - عليه السلام -.

وهذه الآية تُرينا مدى الصراع بين الحق والباطل في اتباع موسى - عليه السلام - فأغلبهم دعاة باطل، والقليلون منهم هم الثابتون على الحق، ولذلك تجد القرآن الكريم يؤكد على وقوع بني إسرائيل في سوءتين قبيحتين، هما: الكفر بالله، وقتل الأنبياء بغير حق، ذكر ذلك مرة في البقرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾[1] والضمير في ﴿بأنهم﴾ راجع إلى بني إسرائيل، والإشارة راجعة إلى ضرب الذلة والمسكنة عليهم.

وفي سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦١).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٢١).

وفي سورة آل عمران أيضاً: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٢).

المبحث السادس عشر
نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم

إن سورة الأعراف قد عدّدت من تلك النعم خمسة، ذكرها الله في قوله ـ جل من قائل ـ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾[1].

النعمة الأولى:

هي قوله تعالى: ﴿وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما﴾ ومعنى ﴿قطعنٰهم﴾ أي: فرّقناهم وصيّرناهم إلى هذا العدد لأنهم من نسل أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ الاثنى عشر، والذين سماهم القرآن الكريم بالأسباط، وكان كل نسل يعتز بأبيه ويرى لنفسه الرئاسة، فإذا لم يقسموا بحيث يلي كلَّ سبط منهم رجلٌ يلي أمرهم ويسوسهم فإن التهارج والتحاسد والتباغض ينتشر بينهم، وهم كما عرفت من خلال ما سلف من أحوالهم أمة قلقة نافرة، كثيرة التقلب، قليلة الشكر، مندفعة في الكفر، فكان هذا التقطيع بالنسبة لهم نعمة وخيراً.

وتأمل الفرق بيننا وبينهم فالله ـ تعالى ـ يقول في حق أمة الإسلام ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2] أي: فلا أرضى تمزيقها ولا تفريقها، فإن

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٠). (٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

فعلتم فقد ذهبت ريحكم، بينما بنو إسرائيل لايستقيم حالها إلا بالتقطيع كما أن حال أمة الإسلام لا يستقيم أمرها إلا بالاتحاد والتجمع.

النعمة الثانية:

هي استسقاء موسى لقومه لما قحطوا في التيه وكاد العطش يقتلهم، وهو مقصود قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى﴾ أي: أعلمناه وأمرناه استسقاء قومه، أي: أوحينا إليه في ذلك الوقت الذي طلب منه قومه الاستسقاء لهم بالسبيل الذي تحصل به السقيا، ولم نبطيء عليهم، والسبيل هو قوله تعالى: ﴿أن أضرب بعصاك الحجر﴾ فامتثل موسى أمر ربه فضرب، وإنما أُمر بضرب الحجر لأن خروج الماء غير معهود منه، فهو لاكتناز أجزائه وصلابته لا ينفذ منه الماء ولا يدخل فيه ولا يثبت عليه لملامسته، فإذا خرج الماء من الحجر وهو بهذه المثابة كان بذلك معجزة ظاهرة لموسى ـ عليه السلام ـ ولفتاً لأنظارهم إلى قدرة الله على إخراج الماء من مكان لا يُتصور منه عادة خروج الماء، وهي تبكيت لهم بالفحوى على عبادة العجل من قبل.

والعصا المذكورة في هذه الآية هي عين العصا التي انقلبت حية فخافها موسى والتي لقفت ما يأفكه السحرة فانتصر بها الحق، وهي التي فلق بها البحر، وهي التي كان يهش بها موسى على غنمه، وهي التي كانت تضيء له في ظلمة الليل، وهي التي كانت تنقلب إلى شجرة ذات أغصان وأوراق تظله إذا نام ـ عليه السلام ـ وقيل إنها من الجنة، نزلت مع آدم، وتوارثها الصلحاء حتى وصلت إلى موسى ـ عليه السلام ـ وأما الحجر: فقد اختلفوا فيه: أهو حجر معهود؟ أو هو أقرب حجر مرّ به موسى بعد هذا الأمر؟ أم هو حجر كان موسى يحمله معه ينبع منه الماء إذا احتاج إليه؟ أقوال وآراء الله أعلم بحقيقتها، ولا يترتب على العلم بها حقيقة دينية، والمهم أن الماء انبجس من الحجر كما ذكرته

سورة الأعراف[١] وانفجر كما ذكرته سورة البقرة.

وفـرّقوا بين الانبجاس والانفجار بأن الانبجاس هو أول خروج الماء، والانفجار هو فورانه وتواليه وتكاثره. وكلا المعنيين جميل دال على قدرة الله[٢] وقد أخرج الله لبني إسرائيل اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط منهم عين مخصوصة به، يجري في جدول يتصل به لا يختلط بجدول غيره، حمايةً لهم من التزاحم على المـاء الـذي هو أساس الحياة، والذي قد يؤدي الازدحام عليه إلى قتل الأنفس والوقوع فيما يغضب الله، ولذا نص الله ـ تعالى ـ على علم كل سبط بمشربه، أي: بمكان شربه وعينه المخصوصة به النابعة من الحجر ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي: قد علمت كل جماعة من بني إسرائيل مشربها فلا تنازع ولا تزاحم ولا تقاتل.

النعمة الثالثة:

تظليلهم بالغمام أثناء تيههم بسيناء؛ فإنهم لمّا أُمروا بمقاتلة الجبارين في الأرض المقدسة فلسطين أرض آبائهم إسحاق ويعقوب وأبنائه الأسباط الاثني عشر، وقد استولى الجبارون عليها أثناء إقامتهم في مصر وصيّروها دار كفر بعد أن كانت دار توحيد امتنعوا عن ذلك ـ وسيأتيك خبره قريباً ـ[٣] فعاقبهم الله بالتيه في سيناء أربعين سنة. وسيناء إلى الآن أرض قليلة الشجر والمطر، شديدة الحر، ولذلك ظلّلهم الله بالغمام أثناء هذا التيه رحمة منه ـ تعالى ـ بهم، ولعلمه أن في أصلابهم من سيسترد الأرض المقدسة من أيدي الجبارين بقيادة يوشع بن نون[٤] ـ عليه السلام ـ والغمام هو السحاب الأبيض وسُمِّيَ غماماً لأنه يحجب وجه السماء.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٧٠). (٢) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٧١) و(٩/ ٨٨).

(٣) انظر: ص(٥٣٢) من بحثنا هذا.

(٤) سبق أن ترجمت له، انظر: ص(٤٣٨) من بحثنا هذا.

النعمة الرابعة:

إنزال المنّ عليهم وهو ـ على الراجح ـ طعام حلو ينزل عليهم أول كل يوم كالطلّ، وقد أمروا أن يأخذوا منه حاجتهم ليومهم فقط ولا يدخروا، إلا يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخروا فيه ليوم السبت لأنه يوم انقطاع وعبادة، وقد حرّم الله عليهم العمل فيه[١]،[٢].

النعمة الخامسة:

والسَّلْوىٰ وهو طائر[٣] كان يأتيهم متى شاءوا، ينتقون منه ما يشاءون ويتركون ما لا يحبون، وقيل: إنه كان ينزل عليهم مطبوخاً. فسبحان من يقول للشيء كن فيكون[٤].

ومع ذلك لم يشكروا تلك النعم كعادتهم فكفروا وظلموا وعايشوا النعم بالإلْف لا بالشكر فضلوا ضلالاً بعيداً، وخالفوا أمر ربهم في الادخار فنكبت بهم البشرية إلى أن تقوم الساعة بتعفن أطعمتها الطرية وسريان السوس إلى الصلبة كالحبوب مما كلف البشرية معاناة كبيرة وخسارة فادحة، وحتى مع التحضر في حفظ الأطعمة فإن ذلك محدود بأمد؛ أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»[٥].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/٢٦٣).

(٢) روى ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان المن ينزل على الشجر فيأكلون منه ما شاءوا، وعن قتادة: كان المن يسقط عليهم سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل. انظر: فتح الباري (٩/٢٣٠).

(٣) طائر يشبه السُّماني، روي ذلك عن ابن عباس. وعن وهب بن منبه قال: هو السُّماني، وعنه قال: طائر سمين مثل الحمام. انظر: فتح الباري (٩/٢٣٠).

(٤) انظر: تفسير الألوسي (١/٢٦٤).

(٥) انظر: صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/١٧٧).

قال ابن حجر: يَخْنِزَ ـ بفتح أوله وسكون الخاء وكسر النون وفتحها أيضاً بعدها زاي ـ أي: ينتن، والخنز: التغيُّر والنتن، قيل أصله أن بنى إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك. حكاه القرطبي وذكره غيره عن قتادة وقال بعضهم: معناه: لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن[1].

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وما ظلمونا﴾ أي: بقلة شكرهم لنعمنا ويكفرهم بنا لأن أحداً لا يملك من أمرنا شيئاً ولا يستطيع أن يصل إلينا حتى يضرنا.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾ معطوف على مُقدر دَلّ عليه سياق الكلام تقديره: فجحدوا نعمنا وما شكروها.

وقـوله: ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: إن كفرهم ومعاصيهم راجعان إليهم، وفي ذلك من التنديد والتحقير لهم ما يجل عن الوصف لأن كل إنسـان يحب نفسه ويحرص عليها، وأن وقوع الظلم منه لنفسه أمر مستغرب ومستبعد، لكنه على الكفار بعامة وبنى إسرائيل بخاصة ليس بمستغرب ولا مستبعـد، وقـد حوى هذا النص الكـريم الفعل الماضي والمضارع ﴿كانوا﴾ و﴿يظلمون﴾ لإفادة ثباتهم على هذا الحال، واستمرارهم عليها في كل الأزمنة رغم مضرتها لأنفسهم، لكنهم لفرط بلادتهم لا يشعرون بما يسيئون به لأنفسهم.

---

(١) انظر: فتح الباري (١٧٧/٧) وقوله: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها» فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم للأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك. فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين به إبليس حتى زينته لآدم... وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفاحشة ـ حاشا وكلا ـ لكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذلك لآدم عُدّ ذلك خيانة له، أمـا من جاء بعـدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها. اهـ. فتح الباري بتصرف (١٧٧/٧).

المبحث السابع عشر
مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[1].

ففي هاتين الآيتين يبين الله ـ تعالى ـ شنيعة قبيحة من شنائع بني إسرائيل، وأنهم كانوا يستفيدون بالمواعظ استفادة وقتية ثم لا يلبثون أن تغلب عليهم طبيعة المخالفة والتباعد عن الحق، فإن المتتبع لأحوالهم السالفة منذ طلبهم من موسى ـ عليه السلام ـ أن يجعل لهم إلـهاً يعبدونه من دون الله كإله مَن مروا عليهم بعد انفلاق البحر لهم، وتوبيخهم الشديد على هذا الطلب، يَظُنُّ أنهم لم يعودوا بعد إلى ما يحط من شأنهم ويدل على سفاهة عقولهم، لكنه يرى هذا الظن قد تبدّد بعبادتهم العجل من دون الله كما مر، ثم بتأمل المتتبع لتوبة الله عليهم التي هي غاية في المشقة والشدة يعود إليه ظنه بأنهم لن يقدموا بعد على شناعة تسقط مكانتهم عند ربهم، ثم يتبدد هذا الظن عندما يأمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ووعده محقق، فإذا علموا أنه ـ تعالى ـ كتبها لهم سهل عليهم دخولها، ومع ذلك يتعللون بما قصَّه القرآن الكريم عنهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١، ١٦٢).

يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

وقد عوقبوا بالتيه في سيناء هذه المدة لمخالفتهم نبيهم ـ عليه السلام ـ في دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة، ثم لما سهل الله لهم دخول الأرض المقدسة بعد التيه، وقيل كان ذلك في حياة موسى ـ عليه السلام ـ حيث دخل بهم أريحاء ثم مات، وأكمل بعده يوشع بن نون ـ فتى موسى وخليفته عليهم ـ دخول بيت المقدس، وقيل: إنهم دخلوا الأرض المقدسة بعد موت موسى ـ عليه السلام ـ وفي عهد يوشع، وأمرهم الله بأوامر يلتزمونها عند دخول قرية بيت المقدس على ما هو الراجح[2] وكان المتوقع منهم أن يلتزموا ولا يغيروا ولا يبدلوا فيما أمرهم الله ـ تعالى ـ به ولكنهم ومع ما مر بهم من المواعظ والعقوبات على المخالفات خالفوا أيضا تلك الأوامر في هاتين الآيتين.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير ألفاظ هاتين الآيتين اللتين نحن بصدد دراستهما من سورة الأعراف.

فقوله: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية﴾ القائل هو الله ـ عز وجل ـ بواسطة الوحي ﴿إذ﴾ منصوب على المفعولية بتقدير فعل محذوف خوطب به النبي ﷺ وخوطبنا به نحن لنعتبر ولنتعظ بأحوال بني إسرائيل فلا ننحو منحاهم

(١) سورة المائدة: الآيات من (٢٢) إلى (٢٥).
(٢) انظر: تفسير الألوسي (١/٢٦٥).

الذي قال الله فيه لبني إسرائيل كيت وكيت فبدَّلوا وغيَّروا. لتتعظ أمتك ولئلا تطمعوا في إيمان اليهود، وليعلم المعاصرون لك منهم جرائم آبائهم الذين هم عليها مقيمون حتى لا يرفعوا رأساً بمجادلتك، وبنى الفعل لما لم يُسمَّ فاعله جرياً على سنن الكبرياء، وللعلم بالفاعل وأنه لا يحتاج إلى التنصيص عليه، واكتفاءً بالتصريح به في سورة البقرة في نفس تلك القصة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[1] وذكرهم بقوله: ﴿لهم﴾ ليشعرك من أول الأمر بأنهم سيخالفون، وأنهم ليسوا من المطيعين حتى يقال: «وإذ قيل لبني إسرائيل» ولموافقة الضمائر في آية ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا[2]﴾[3].

والقرية: هي بيت المقدس، وقيل: أريحاء، وهذا كان على لسان موسى ـ عليه السلام ـ وقيل: على لسان يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ.

ويقول الألوسي ـ رحمه الله ـ: «الأمر بالسكنى في القرية للإباحة»[4] على معنى: أبحت لكم سكنى هذه القرية، ويستأنس لرأيه بعطف ﴿كلوا من طيبت ما رزقناكم﴾ عليه، ورأى أن الأمر بسكنى تلك القرية للوجوب، وأنهم أمروا أن لا يبارحوها، وأن لا يفسدوا فيها حتى تكون لهم وطناً ولأن غيرها لا تصلح لإيوائهم لأنها مهد آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، فلزومهم لها يقودهم إلى سلوك نهج آبائهم، فإن أفسدوا فيها سلب الله منهم الأمن، وسلط عليهم من لا يرحمهم كما قال ـ تعالى ـ في سورة الإسراء: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا

(١) سورة البقرة: الآية (٥٨).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).
(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٣).
(٤) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٥).

كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾ أي: من طعامها وثمارها ولم يذكر كلمة ﴿رغدا﴾ في الأعراف كما ذكرت في البقرة اكتفاءً بدلالة ﴿حيث شئتم﴾ عليه، فإنك إذا أكلت من بلدك حيث شئت، وكنت فيها حر التصرف دلَّ ذلك على هناء عيشك ورغده.

وعطف ﴿وكُلوا﴾ بالواو هنا لأن زمن الأكل واحد، والمعنى: اجمعوا بين الأمرين، وعطف بـ (الفاء) في البقرة لأن الأكل مترتب على الدخول، وأن الدخول هو الموصل إليه، فحسن عطفه هناك بـ (الفاء) لهذا المعنى، وهذا سر عظيم من أسرار الإعجاز، منتشر في الكتاب العزيز، جدير بأن يلتمس، وقد كتب فيه مؤلفون في القديم والحديث(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقولوا حِطةٌ﴾ أي: مَسأَلَتُنا لك ربنا حين دخولنا هذه القرية وبعده أن تحط عنا ذنوبنا، وأن تغفر لنا ما كان منا، ورفعت ﴿حطة﴾ لأنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: مسألتنا حطةٌ، أخرج البخاري بسنده عن همام

---

(١) سورة الإسراء: الآيات من (٤) إلى (٨).

(٢) انظر: إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني؛ والإعجاز في دراسات السابقين لعبد الكريم الخطيب؛ وبيِّنات المعجزة الخالدة. د/ حسن عتر.

ابن منبه أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ادخلوا البابَ سُجدًا وقولوا حِطةٌ نغفر لكم خطاياكم﴾ فبدّلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة» قال ابن حجر: كذا للأكثر، وكذا في رواية الحسن المذكورة بفتحتين، وللكشمهيني «في شِعيرة» بكسر المهملة وزيادة تحتانية بعدها. والحاصل أنهم خالفوا ما أُمروا به من الفعل والقول فإنهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكراً لله ـ تعالى ـ وبقولهم حطة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا حنطة بدلَ حطة[1].

وقوله: ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ إن قلنا فيه إن (أل) للعهد كان المراد به باباً معيناً هو باب الحطة أو باب التوبة، كذا رُوي عن السلف، وإن أريد بها الجنس كان المعنى: ادخلوا أبواب هذه القرية ـ بيت المقدس ـ سجداً لله وشكراً له على أن أعادكم إلى موطن آبائكم وخلّصه لكم من أيدي الجبارين.

والمراد بالسجود هنا إما حقيقته اللغوية بمعنى الخضوع والانحناء والتطامن، وإظهار ما يدل على الخشية، ولذا رُوي عن ابن عباس في معنى ﴿سجدًا﴾ أي: راكعين[2] وإما أن يراد به حقيقته الشرعية وهو وضع الجبهة على الأرض، وأن يسجدوا سجوداً حقيقياً لله ـ عز وجل ـ: وأنا أميل إلى الرأي الثاني.

وقد وعدهم الله إذا التزموا بهذين الأمرين قولهم حطة، ودخولهم الباب سجداً أن يغفر لهم خطيئة المخطئين منهم، وأن يزيد المحسنين منهم ثواباً وإكراماً، وقال في سورة البقرة: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ وفي سورة الأعراف:

---

(١) انظر: فتح الباري؛ (٩/ ٣٧٤).

(٢) تفسير الألوسي؛ (١/ ٢٦٥).

﴿نغفر لكم خطيئتكم﴾ تفننا في القول، ودليل على الإعجاز، حيث روعة النظم مع اختلاف التعبيرين.

وقال في سورة البقرة: ﴿وسنزيد﴾ بالواو وفي الأعراف بدونها لأن الكلام في الأعراف استئناف وقع جوابًا لسؤال مقدر تقديره: وما لغير المخطئين؟ فقيل: سنزيد المحسنين. وهذان الأمران غاية في السهولة واليسر، فأحدهما قول لا يكلف شيئاً والآخر فعل تعشقه قلوب الطائعين، فهل التزم بنو إسرائيل بهما؟!

هذا ما ستجيب عنه الآية الثانية، قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ أي: فعلوا خلافاً لما أمروا به، أي: بدلوا بالقول الذي أمروا به وبالفعل الذي أمروا به قولاً غيره وفعلا غيره، و(بدّل) تتعدى إلى مفعولين أحدهما مجرور بالباء وهو المتروك، والآخر غير مجرور وهو الذي عمله بنو إسرائيل من التبديل.

وفي ذكرهم بـ ﴿الذين ظلموا﴾ غاية التشنيع عليهم لأن المعنى: بدل الذين شأنهم الظلم دائماً ما أمروا به وأتوا بخلافه.

وفي قوله: ﴿منهم﴾ إنصاف وأي إنصاف لأنّا عرّفنا به المخالفين من بني إسرائيل وغير المخالفين، ولم تذكر ﴿منهم﴾ في البقرة اكتفاء لأن ﴿الذين ظلموا﴾ تشعر بأن منهم ظالمين وغير ظالمين، وجعل الله ذلك الإشعار حقيقة في الأعراف بقوله: ﴿منهم﴾ وقوله: ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا مكان ما أمروا به بأن يقولوه ﴿حِطةٌ﴾ أي حط عنا ذنوبنا، واغفر لنا، فقالوا مكانه: (حنطة) فدَلَّ ذلك على مبلغ حبهم للدنيا، وانهماكهم في تحصيلها، وانصرافهم

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٢).

عن الآخرة، مع أن الله قد ضمن له رغد العيش في هذه القرية، وكفاهم هَمّ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾[1] وبقوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾[2] ودخلوا زاحفين على أستاههم أي: أدبارهم، ولم يسجدوا كما أمرهم الله ـ تعالى ـ تكبراً منهم واستعظاماً.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَبدَّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ ولذا لم يمهلهم الله ـ تعالى ـ بل أرسل عليهم فَوْرَ ذلك ﴿رجزاً من السماء﴾ قيل: هو الطاعون، وقيل: عذاب عام أهلك الظالمين منهم، ويدلك على فورية هذا العذاب العطف بـ (الفاء) ﴿فأرسلنا عليهم﴾ ويدل الجار والمجرور على لزوم هذا العذاب للظالمين، وأنه لم يَتَخَطَّهُمْ إلى الصالحين منهم، والتنصيص على كونه من السماء للدلالة على شدته وهوله، ولذا قال بعض المفسرين: مات منهم أربعة وعشرون ألفاً في ساعة واحدة[3].

ثم علل الله تعذيبه لهم لاستمرارهم على الظلم وإقبالهم عليه مع وجود الزواجر الشديدة الصارفة لهم عنه، وأتى بـ (كان) ماضيه وبـ (يظلمون) للمضارع ليدل على أن ذلك العذاب لم يكن نتيجة تلك المخالفة بل لأجلها ولاستمرارهم على الظلم والفسق واجتهادهم في ذلك.

وقد ذكر الفخر الرازي أجوبة على تغاير بعض الألفاظ في آيتي البقرة والأعراف والقصة واحدة، وقد ضعّفها الألوسي ولم يرتضها، وفضّل عليها ما ذكره الزمخشري في الكشاف، وقد أعجبني نقد الألوسي لأجوبة الفخر

---

(١) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٧)؛ وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٤)؛ وتفسير الكشاف، (١/ ٢٨٣).

واسترحت إلى ما استراح إليه، وأحيل القاريء إلى نقد الألوسي لتلك الأجوبة، ولم أذكرها خشية الإطالة[١] واكتفيت بذكر أجوبة الزمخشري.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف اختلفت العبارة هنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا ...﴾[٢] وبين قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾[٣] لأنهم إذا سكنوا القرية فتتسبب سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخّروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما، وتَركُ ذكر الرَغَدِ لا يناقض إثباته.

وقوله: ﴿نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾ مُوعِدٌ بشيئين: بالغفران والزيادة، وطرح الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿سنزيد المحسنين﴾ وكذلك زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان. وأرسلنا، وأنزلنا، ويظلمون، ويفسقون من وادٍ واحد[٤].

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٥/٣٤-٣٦)؛ وانظر: تفسير الألوسي، (١/٢٦٧-٢٦٩).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦١).
(٣) سورة البقرة: الآية (٥٨).
(٤) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/١٢٤، ١٢٥)، وتفسير النسفي (٢/٨٢).

المبحث الثامن عشر
جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل
في عهد موسى ـ عليه السلام ـ

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾[1].

وقبل أن أشرع في تفسير هذه الآية ينبغي أن أذكر السبب الذي لأجله رفع الجبل على بني إسرائيل، وقد بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة البقرة، وهو أنه ـ تعالى ـ أخذ على بني إسرائيل ميثاقاً مؤكداً بعبادته وحده، والإحسان إلى الوالدين، وأن يقولوا للناس حسناً، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ثم تولوا عن هذا الميثاق وأعرضوا عنه وذلك في عهد نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فرفع الله الطور عليهم ليحملهم على الاستمساك بهذا الميثاق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

ملاحظة: يلاحظ المتتبع للبحث أنني تركت تفسير الآيات من قوله: ﴿وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾... الآية (١٦٣) إلى قوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين﴾.. الآية (١٧٠) وذلك لأنني سوف أتحدث عنها في بحث الصراع بين نبينا محمد ﷺ وبين قومه ـ الفصل الثامن ـ لمناسبتها ولأنها خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يسأل اليهود عن القرية التي كانت حاضرة البحر... انظر: ص(٤٣٦) من بحثنا هذا.

وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]

وقيل: إن موسى ـ عليه السلام ـ لما جاءهم بالتوراة استثقلوا ما فيها من التكاليف، وأبوا قبولها، وقد مر بك قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ والمقصود بقوله بأحسنها[2] وأبى بنو إسرائيل أن يأخذوا بشيء منها فرفع الله عليهم الجبل ليحملهم على الأخذ بالتوراة.

والرأيان متقاربان لأن مواد الميثاق المأخوذ عليهم هو بعض ما في التوراة، فالأخذ بالتوراة أخذ بالميثاق؛ ولذا نجد القرآن الكريم في غير سورة الأعراف يقرن رفع الطور بأخذ الميثاق، فيقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3]

ويقول أيضاً في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الآية[4].

والخطاب في آيات سورة البقرة لليهود المعاصرين لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهم وإن لم يرفع الطور عليهم فقد نقضوا الميثاق، وكفروا بالله ـ عز وجل ـ وأكل الحقد أكبادهم ببعثة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بحجة ذهاب النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل ـ العرب ـ.

وفي سورة النساء يقول تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾[5]

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٣).

(٢) انظر: ص (٤٧٥) من بحثنا هذا.. سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

(٣) سورة البقرة: الآيتان (٦٣، ٦٤).

(٤) سورة البقرة: الآية (٩٣).

(٥) سورة النساء: الآية (١٥٤).

والكـلام أيضاً مع اليهود في عصر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذين سألوه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء في ألواح كما نزل على موسى من قبل، فسلّى الله نبيه عن هذا التبجُّح بذكر ما سألوه موسى ـ عليه السلام ـ من قبل، فهو أكبر بكثير مما سألوه نبينا محمدًا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣)﴾[(١)] يحجزهم عما قالوا وعما فعلوا، ويحملهم على قبول شرائع الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكنهم ما قبلوا إلا برفع الطور عليهم، وقد ربط الله رفع الطور بالميثاق في سورة النساء، وجعله سبباً في هذا الرفع، ولم يعطفه على الميثاق كما سلف في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾[(٢)] أي: بسبب نقضه بعد قبوله، أو: بسبب الامتناع عن تحمله أصلاً.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى آية الأعراف، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾[(٣)] الضمير فيه لبني إسرائيل الذين جرى الحديث معهم في هذه السورة منفردين عن فرعون، من قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾[(٤)] إلى هذه الآية، وهو قدر كبير من هذه السورة، يزيد على خمسها، وقد فصَّلناه وبيَّناه فيما مضى.

والخطاب في هذه الآية للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ و﴿إذ﴾ في

---

(١) سورة النساء: الآية (١٥٣).
(٢) سورة النساء: الآية (١٥٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧١).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٨).

هذه الآية مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الوقت الذي نتقنا فيه الجبل فوق بني إسرائيل، وذكر الوقت يستدعي ذكر ما حصل فيه، والقصد من ذلك تسليته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما لقيه موسى من تعنت بني إسرائيل واستكبارهم عن الحق وهم من نسل الأنبياء، وشدة عداوتهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتي فاقت عداوة المشركين.

ومعنى: ﴿نتقنا﴾ قلعنا الجبل من مكانه قلعاً تاماً، وجعلناه فوق رؤوس بني إسرائيل لنحملهم على قبول التوراة.

قال الإمام البخاري: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «﴿وإذ نتقنا الجبل﴾ رفعنا»[1]، والمراد بالجبل الطور للتصريح باسمه مراراً كما سلف لك.

ومعنى ﴿كأنه ظلة﴾ أي: كأنه سقيفة مظلة لهم كسقف البيت[2].

وعبر القرآن بـ (كأن) لأن المقصود برفعه فوق رؤوسهم التهديد بإهلاكهم بسقوطه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا شرائع التوراة، فكان لهذا المعنى مشبهاً بالظلة وليس بظلة حقيقية لأنه لا يبقى كذلك بقصد التظليل.

﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ أي: وظن بنو إسرائيل أن الجبل سيسقط عليهم، وعبر بـ ﴿ظنوا﴾ مكان أيقنوا مع تيقنهم بوقوعه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا الشرائع ليبين ـ تعالى ـ أنه مع رؤية الخطر الداهم لهم بأعينهم لم يصلوا

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/٢٤١) وانظر: تفسير ابن عباس ومروياته

(١) في كتب السنة، تأليف الدكتور/ عبد العزيز الحميدي (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى)، ١/٤٣٢.

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/٩٨).

إلى مرتبة اليقين، وهذا يدل على قساوة قلوبهم، فلما عاينوا ذلك قَبلُوا أحكام التوراة ورَضُوا بها فيها.

وقال الله لهم: ﴿خذوا مآ ءاتينٰكم بقوة﴾ أي: بجد وعزم، وقد نقلهم الله بعد الإعراض عن التوراة من الأخذ بأحسنها إلى الأخذ بكلها، فلم يرخص لهم في ترك شيء منها عقوبة لهم، والمعنى: خذوا التوراة التي آتيناكموها كلها دون أن نجعل لكم فيها مفروضاً ومسنوناً ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي: ما في هذا الكتاب من أحكام وأخلاق ومواعظ لتستعينوا بهذا الذكر على القيام بكل ما في هذا الكتاب قراءة وتطبيقاً.

ولأجل هذا النسيان ابتُليت أمة الإسلام في هذا العصر بمحن ورزايا لم تُعهد من قبل، وما ذلك إلا لأن أغلبهم لم يذكروا ما في القرآن الكريم فجهلوا المهمة التي أُنيطت بهم وهي كونهم مسئولين عن دعوة كافة الخلق باسم نبيهم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى التوحيد، والأخذ بمحاسن الأخلاق، وإماتة المنكرات في مهدها، أو تضييق الشُقَّة عليها حتى لا تنتشر.

ثم علل هذين الأمرين[1] لبني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي: لا سبيل لكم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ التي هي وصية الله لأنبيائهم كلهم ولعباده الصالحين إلا بالالتزام بهذين الأمرين، والثبات عليهما، وقد حاد عنهما بنو إسرائيل بعد ذلك فكانوا أعداء الرسل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكانوا سبب كل داء أصيبت به البشرية بحيدهم عن هذين الأمرين، قال أبو السعود في معنى ﴿لعلكم تتقون﴾: «بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين» اهـ[2].

---

(١) الأخذ بالتوراة بقوة وعزم ثم تَذَكُّر ما في التوراة من أحكام وأخلاق ومواعظ.

(٢) تفسير أبي السعود، (٣/٢٨٩).

الفصل الثامن

الصراع بين نبينا محمد ﷺ وبين قومه

الفصل الثامن
الصراع بين نبينا محمد ﷺ وبين قومه(*)

تمهيد :

المبحث الأول : الصراع بين نبينا محمد ﷺ وبين قومه .

المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوته .

المبحث الثالث : موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين .

(*) المقصود بقومه من كان على الشرك ولم يدخل بعد في دين الإسلام .

تمهيـــد

لما كان الإيمان بالله ـ عز وجل ـ هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها دعوات جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لذلك كان موكب الإيمان الذي قاده الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق في صرامة وصراحة، بقول الأنبياء جميعاً لأقوامهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

والمتمعن في سورة الأعراف المكية يجدها من بدايتها تعرضت للمعجزة الخالدة التي ختم الله بها الرسالات السماوية قال تعالى: ﴿ المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[3] ذلك الكتاب الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أعجز الثقلين أن يأتوا بآية من مثله، ذلك الكتاب الذي فيه سعادة الناس أجعين، فهو النعمة العظمى من الرحمن للبشرية جمعاء لإنقاذهم من دياجير الظلمات وركام الأوهام والخرافات.

وكما هو معروف أن القرآن الكريم عني بالدرجة الأولى بتثبيت العقيدة، وترسيخها في قلوب المسلمين آنذاك، ولفت أنظارهم إلى موجد هذا الكون،

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١، ٢).

ومـا فيه من أجـرام سماوية ومخلوقـات هي في غاية الإبداع وأن يدعوا عبادة الطواغيت التي يعبدونها من دون الله، والتي لا تعي ولا تسمع ولا تبصر ولا تجلب نفعاً ولا ضراً، وأن يتجهوا إلى عبادة الواحد القهار ويتبعوا ما شرعه لهم، فيحلوا ما أحله لهم، ويحرموا ما حرمه عليهم، ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، لأنه ـ جل وعلا ـ خالقهم ومربيهم ومدبر أمرهم، والعليم بما فيه مصلحتهم، وحذرهم من أن يتخذوا معه شركاء، يزينون لهم الباطل، ويصرفونهم عن دينه القويم، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

المبحث الأول
دعوة النبي ﷺ لقومه

لقد بعث الله ـ جل وعلا ـ نبيَّهُ محمدًا ﷺ إلى الناس كافة عُرباً وعُجماً، وكان أول من واجه من الناس العرب باعتباره ﷺ من أنفُسِهم ومن أنفَسِهم، فقابلوا دعوته بالعناد والتكذيب شأنُ سائر الأمم الذين فصَّلَ الله علينا خبرهم في سورة الأعراف موضوعُ الدراسة.

ولم تختلف شبهاتهم وأساليب عنادهم في مواجهة دعوة النبي ﷺ عما فعله السابقون مع الرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1] والضمير في ﴿من قبلهم﴾ راجع إلى مشركي قريش، وسنبينُ إن شاء الله تعالى في هذا المبحث الأساليب التي اتبعها ـ عليه الصلاة والسلام ـ في دعوة المشركين من خلال سورة الأعراف، وسيقتضي البحث أن نتعرض لآيات في آخر السورة قبل التعرض لآيات في أوائلها أو في وسطها تبعاً للعناوين. ومن تلك الأساليب:

أسلوب الترغيب والترهيب:

وهما منتشران في هذه السورة. تطالعك ثالث آية فيها وهي قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢، ٥٣).

جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] وقد سبق التعرض لهذه الآيات عند دراستي للآيات الخاصة بالحضّ على الإيمان[2] والآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لاريب فيه[3]، والقصد من ذكرها هنا توضيح أسلوب النبي ﷺ في دعوة المشركين من خلال هذه السورة، والناظر في هذه الآيات يجدها تركز على أربع نقاط رئيسية:

أولاً: ترغيبهم في اتباع القرآن بوصفه بأنه أحسن ما أنزل، وأنه أنزل لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنه من ربهم الحفي بهم القائم بمصالحهم والمدبر لشؤنهم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[4] والخطاب في هذه الآية[5] للمشركين بقرينة قوله تعالى: ﴿قليلا ما تذكّرون﴾.

ويدخل فيه ضمنا جميع المكلفين باتباع ما أنزل وهو القرآن، كما أنه - تعالى - نهاهم عن اتباع أولياء من الجن والإنس من دون الله حتى لا يحملوهم على الكفر بربهم الذي أنزل القرآن لأجلهم.

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٣) إلى (٩).

(٢)، (٣) انظر: ص (٩) و: ص (٢٢) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الزمر: الآية (٥٥).

(٥) قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ سورة الأعراف: الآية (٣).

ثانياً: تلخيص مصير كثير من المكذبين السابقين ومجيء العذاب لهم في أي وقت يشاؤه الله ـ تبارك وتعالى ـ وما كان قولهم حين جاءهم العذاب إلا وصفهم أنفسهم بالظلم علّ ذلك يخلصهم من هذا العذاب، لكن تلك المقالة ما أغنت عنهم شيئاً ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾[1] والضمير في ﴿دعواهم﴾ يرجع إلى المكذبين السابقين. والغرض من هذه الآيات وعظ قريش بحال السابقين، وأنهم ليسوا بأعز منهم، مما يحملهم على الإقبال على الإيمان، لكنهم مع ذلك لجوا في العناد فاستحقوا ما وصفوا به.

﴿قليلا ما تذكرون﴾ نفى عنهم التذكر البتة أو أنه تذكر قليل لا يؤدي إلى المطلوب.

ثالثاً: التنبيه على البعث بذكر بعض ما فيه وهو سؤال الذين أرسل إليهم عن إيمانهم وعنادهم، وسؤال المرسلين عن تبليغهم واجتهادهم في نصح قومهم تبكيتاً للمكذبين ومسرة للمؤمنين، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾[2]

رابعاً: الحديث عن وزن الأعمال وحقيقة الميزان، وأنه يثقل بالأعمال الصالحة، وأنه يخف بالكفر وسيء الأعمال، وأن المفلحين هم الذين ثقلت موازينهم بإيمانهم وصالح أعمالهم، وأن الخاسرين هم الذين خفت موازينهم لخلوها من الإيمان والعمل الصالح، وأنهم ظلموا أنفسهم بعدم اتباعهم ما أنزل إليهم من ربهم، فكانوا لها ظالمين ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم

(١) سورة الأعراف: الآية (٥).
(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٦، ٧).

﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾[1] والأسلوب في هذه الآيات عام وشامل لسائر المكذبين وليس لوماً مباشراً لمشركي العرب على كفرهم وعنادهم، وسبب هذا العموم التفاوت الكبير بين عقلية الأمة المحمدية والعرب منها بخاصة وعقلية الأمم السابقة.

ومن أسلوب الترغيب:

ترغيب المشركين بالإيمان بالله ـ عز وجل ـ وتذكيرهم بنعم شاملة لهم ولمن سبقهم من البشر، ولمن سيأتي بعدهم، كقوله تعالى: ﴿ولقد مكنّٰكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ولقد خلقنٰكم ثم صورنٰكم. . .﴾ الآية، وقد سبق التعرض لهذه الآية في الفصل الأول[2].

ومنها ذكر قصة آدم ـ عليه السلام ـ التي بدأت بسجود الملائكة له، تكريماً لآدم خاصة وللنوع البشري عامة، وبيان عداوة الشيطان للإنسان، وكيف احتال الشيطان في إخراج آدم وحواء من الجنة، وتعريض الجنس البشري للتكاليف والكدح في هذه الحياة، وسطو الشيطان عليهم لإغواء أكثرهم بالكفر وصرفهم عن طريق الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۝١٣﴾ . . . إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨، ٩).

(٢) انظر: ص (٢٢) من بحثنا هذا.

ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾(١) وقد سبق التعرض لها وتحليل الآيات بالتفصيل(٢).

ومنه الامتنان على بني آدم بما أنزله إليهم من اللباس الذي يسترون به عوراتهم، والرياش التي يهيئون بها منازلهم أو يجملون بها حياتهم، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾(٣) وقد سبق التعرض لها في الفصل الأول(٤).

ومنه إسداء النصح العام لبني آدم بتحذيرهم من فتنة الشيطان، والمشركون المخاطبون بهذه الآيات داخلون في هذا النصح دخولاً أوّلياً، قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾(٥) وقد سبق التعرض لها أيضاً في الفصل الأول(٦).

ومنه حضهم على ما تُقوِّىٰ به أرواحهم من طاعته وعبادته، والتجمل بزينة اللباس عند فعل بعض هذه الطاعات، وما تتقوى به أبدانهم للقيام بما كلفها الله ـ تعالى ـ به بإعطائها حقها من الأكل والشرب، ونهيهم عن الإسراف الذي يجر عليهم كل بلاء، ويعرضهم لسخطه في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١١) إلى (٢٤).
(٢) انظر: من ص (٨٩) إلى (١٢٥) من بحثنا هذا.
(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٦).
(٤) انظر: من ص (١٢٥) إلى (١٢٩) من بحثنا هذا.
(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٧).
(٦) انظر: من ص (١٢٩) إلى ص (١٣٢) من بحثنا هذا.

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ قال صاحب الكشاف: «أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاووس: لم يأمرهم بالحرير والديباج وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانتُزعت عنه لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل تفاؤلاً: ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب» اهـ[2].

قال الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة وعلى فرجها خرقة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فنزلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ونزلت: ﴿قل من حرم زينة الله﴾ الآيتان[3] رواه مسلم[4] عن بندار عن غندر عن شعبة مع اختلاف يسير، قال صاحب الكشاف: «والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «كل ما شئت، والبس

(١) سورة الأعراف: الآية (٣١).
(٢) تفسير الكشاف، (٢/٧٦).
(٣) أسباب النزول للواحدي، تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط دار القبلة، ص (٢٢٢).
(٤) صحيح مسلم، (٤/٢٣٢٠) تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي.

ما شئت، ما أخطأتك خصلتان؛ سرف ومخيلة» ويحكى أن الرشيد[١] كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد[٢]: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأعطِ كل بدن ما عودته» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً».

ذكر هذه القصة الزمخشري في كشافه[٣] والنسفي في تفسيره[٤] ونقلها ابن الجوزي في زاد المسير[٥] وعلّق على الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ بأنه لم يثبت. اهـ.

---

(١) هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ): هو هارون بن محمد بن المنصور العباسي، أبوجعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، ولد بالري لما كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان، ونشأ في دار الخلافة ببغداد وولّاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة (١٧٠هـ) فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه، وكان عالمًا بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحًا شجاعًا، كثير الغزوات، حازمًا كريمًا متواضعًا، يحج سنة ويغزو سنة؛ انظر: الأعلام للزركلي (٨/٦٢).

(٢) علي بن الحسين بن واقد: مولى الأمير فاتح خراسان عبدالله بن عامر بن كريز القرشي، الإمام المحدث الصدوق أبوالحسن المروزي، ولد سنة ثلاثين ومئة، وقال البخاري: توفي سنة إحدى عشرة ومئتين . اهـ. انظر: سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (١٠/٢١١).

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/٧٦).

(٤) النسفي، (٢/٥١).

(٥) زاد المسير لابن الجوزي، (٣/١٨٨).

قلت: ذكره الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره[١] والله أعلم.

ومن أسلوب الترغيب في هذه السورة الحديث عن الكون: **عُلويّهُ وسُفليّه**:

وأن الله ـ عز وجل ـ هو وحده المنفرد بخلقه والمدبر له، والمُصرِّف ما فيه بقدرته، والحديث أيضاً عن بعض الظواهر الكونية التي لها علاقة وثيقة بالبيئة العربية، والتي ينبه بها المشركين على رحمة الله وفضله عليهم، واستخدام ذلك البعض في توضيح حقيقة البعث الذي أنكروه وتجليته بما ينتزع الشك من نفوسهم، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[٢].

فقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «أراد السموات والأرض وما بينهما، وقد فصّلها في ﴿حم﴾ السجدة، أي: من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئاً فشيئاً؛ وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عمل يوماً، ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر يصرِّفه على اختياره ويجريه على مشيئته.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار

---

(١) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للحافظ السخاوي؛ ص(٣٨٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

كما تقوله المشبهة باطل لأنه كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان لأن التغير من صفات الأكوان.

﴿يغشى الليل النهار﴾ أي: يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل.

﴿يطلبه حثيثًا﴾ حال من الليل، أي: سريعاً، والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار ﴿والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره﴾ أي: مذللاتٍ ﴿ألا له الخلقُ والأمر﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء وله الأمر ﴿تبارك الله ربُّ العالمين﴾ أي: كثر خيره، أو: دام بره»[1].

وقوله: جل شأنه ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحـابـاً ثقـالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته﴾ بشراً: جمع بشـير لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿حتى إذا أقلت﴾ أي: حملت ورفعت، واشتقـاق الإقـلال من القلة لأن الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿سحاباً ثقالاً﴾ بالماء ﴿سُقناه لبلدٍ ميت﴾ أي: لأجل بلد ليس فيه مطر ﴿فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك﴾ مثل ذلك الإخراج هو إخراج الثمرات ﴿نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ فيؤديكم التذكر إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/٥٦).

(٢) تفسير النسفي بتصرف واختصار، (٢/٥٧).

﴿إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾(١).

وقوله: ﴿والبلد الطيب﴾ الأرض الطيبة التراب ﴿يخرج نباته بإذن ربه﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال كأنه يخرج نباته حسناً وافياً لأنه واقع في مقابلة نكداً، وقوله: ﴿والذي خبث﴾ صفة للبلد، أي: والبلد الخبيث ﴿لا يخرج﴾ أي: نباته، فحُذف للاكتفاء ﴿إلا نكدا﴾ هو الذي لا خير فيه، وهذا مَثَلٌ لمن ينجع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيـت﴾ نرددها ونكررها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها(٢).

أما أسلوب الترهيب للمشركين فقد ساقته سورة الأعراف بأساليب متنوعة أجمل منها ما يلي:

أولاً: مناقشتهم في شُبَهٍ أثاروها وافتراءات لبيان الحق فيها، وأسوق لذلك أربع آيات: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾(٣).

﴿فاحشة﴾ الفاحشة: هي الفعلة القبيحة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا عبادة الأصنام، وطوافهم بالبيت عراة، وسائر ما كانوا يأتونه في جاهليتهم، وقد تعللوا بصلاح ما فعلوا ـ مع أنه قبيح ـ لوجود آبائهم عليه، وهم أقرب إلى ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولو كان سوءاً ما فعلوه، ثم يتعللون بأن الله أمرهم بذلك، إذ لو كان ما يأتونه قبيحاً لحوّلهم عنه أو لعاقبهم عليه، ويرد الله عليهم

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٨).
(٢) تفسير النسفي بتصرف واختصار، (٢/ ٥٧، ٥٨).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

بقوله: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ لأنه ـ جل وعلا ـ جرت عادته على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾[١] الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون، ولكي يثير في نفوسهم قبح ما يقولون، وليبين لهم كبر جرمه، والأصل في المأمور به أن لا يكون إلا أمراً حسناً واجباً، كان مندوباً أو مباحاً، حتى يستحق أن يؤمر به، فأما الفواحش فلا يؤمر بها أصلاً بل يزجر الفاعل عن فعلها، فإذا رغب فيها راغب فذلك لبعده عن الإيمان وتحول فطرته من الخير إلى الشر.

ثانياً: ثم أمر الله نبيه أن يعرفهم ما يأمر الله ـ تعالى ـ به عباده حتى لا يبقى لبس في أن فواحشهم التي يأتونها ليست مما أمر الله به ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي: بالعدل، وبكل خير شرعه الله على ألسنة رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم ـ ثم أمر الله عباده كافرين ومؤمنين إن أرادوا الخير لأنفسهم أن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، وأن يدعوه مخلصين له الدين.

قال تعالى: ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ قوله: ﴿أقيموا وجوهكم﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها، في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود ﴿وادعوه﴾ واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: الطاعة، مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم[٢] والمعنى: إنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة، فكما قَدَرَ على البدء بلا كلفة فهو قادر على الإعادة لا

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٥٤).

محالـة، فإذا اهتـدى مهتـدٍ فبتوفيق الله، وإذا أعرض معرض فبخذلان الله ﴿فريقا هدى. وفريقا حق عليهم الضلالة﴾ بما اختاروه لأنفسهم من تكذيب الرسول ﷺ والإعراض عن الحق الذي جاءهم به، واتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله يطيعونهم في ما يحملونهم عليه من الشر، ويحسبون مع ذلك أنهم على هدى، وهم في الحقيقـة ليسـوا بمهتـدين، قال تعـالى: ﴿إنهم﴾ أي: الكـافـرين الـذين حق عليهم الضلالة ﴿ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده. . ﴾ الآية.

كان المشركون ـ كما أسلفت[2]ـ يطوفون بالبيت عراة، ويدَّعون أن الله حرّم الزينة والتجمل باللباس في هذه المواطن، كما أنهم كانوا إذا أحرموا يمنعون أنفسهم من أكل لحوم الضأن ودهونها وألبانها، فخطأهم الله في ذلك بقوله: ﴿قل من حرم زينه الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ والاستفهام في هذه الآية إنكـاري، قصد به تقبيح هذا المُدَّعَى من قائليه لأن التحريم لله وحده، وهو لم يحرم ذلك على عباده، ثم أخبر ـ تعالى ـ أن الزينة وطيبات الرزق للذين آمنـوا في الحياة الدنيا أصلاً وللكافرين تبعاً، وأنها خالصة يوم القيامة للمؤمنـين لأنهم صاروا إلى دار الكرامة التي هي مستقر الزينة والطيبات من الـرزق، فأمـا الكافرون فقد صاروا إلى دار المهانة التي ليس فيها إلا الهوان والعـذاب الأليم، وختم هذه الآية ببيان شافٍ يقاس عليه غيره من آياته في الموضـوع وظهـور الحجـة، لا يـدرك ذلك إلا من رزقـه الله العلـم النافـع

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٠).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يا بني آدم خذو زينتكم عند كل مسجد﴾ انظر: ص(٥٨٤) من بحثنا هذا.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

رابعاً: ثم بيَّن ـ جل وعلا ـ في الآية الرابعة ما حرمه على عباده حقا، وما لم يأذن لهم فيه، فقال: ﴿قل إنما حرم ربِّيَ الفواحش﴾ أي: القبائح من الذنوب ﴿ما ظهر منها﴾ كالزنا وشرب الخمر ووأد البنات، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية بلا حياء ﴿وما بطن﴾ كالحقد والكبر والخيانة وسائر الرذائل النفسية ﴿والإثم﴾ أي: شرب الخمر أو كل ذنب ﴿والبغي﴾ الظلم والكبر ﴿بغير الحق﴾ متعلق بالبغي[2] ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾ أي: وحرم عليكم أيها المشركون ما اتخذتموه من الأصنام التي تدعون شركيتها لله ـ عز وجل ـ أو نِدِّيتها له، تعالى الله عما يشركون ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3] أي: وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون أنه أذن فيه أو قاله ـ جلّ جلاله ـ، تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً.

ومن أسلوب الترهيب:

تهديد المشركين بأوخم العواقب وقد سلكت السورة بذلك أساليب متنوعة:

أ ـ تهديدهم بسوء المصير والخلود في العذاب كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4].

ب ـ تهديدهم بسقوط مكانتهم عند الله وأنه ـ تعالى ـ لا يسمع دعاءهم وأنه

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٢).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/٥١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

حَرَّم عليهم الجنة، وأنهم لا يدخلونها البتة حتى لو وقع ما يستحيل وقوعه في العقل، فإنهم لا يدخلونها بحال، ليقطع عليهم أطماعهم التي نطقوا بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[١] أي: الجنة، أو: الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة[٢] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٣].

جـ - **تصوير واقع أهل الجنة وأهل النار** وأنهما متجاوران، وشتان ما بينهما من الحالة التي وصل إليها كل فريق، فمع ما هم عليه أهل الجنة من فرح وسرور وحبور بما وجدوه من وعد الله الحق لهم ينادي أهل الجنة أهل النار ويسألونهم: ﴿هل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم﴾ وهذا إقرار من أهل النار بما هم فيه من هوان، والاستفهام في الآية للتهكُّم لأن أهل الجنة موقنون بأن ما وجده أهل النار فيها مما وعدهم الله به في الدنيا حق لا ريب فيه، فحينئذ يؤذِّنُ مَلَك من ملائكة الحق وينادي بصوت يخلع القلوب عقيب حوار الفريقين بعضهما لبعض... قال تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين. الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي: يصدون أنفسهم وغيرهم بالعناد والتكذيب والشبه الباطلة والتشكيك في القرآن ونبي القرآن.

﴿ويبغونها عوجا﴾ أي: موافقة لأهوائهم وضلالهم.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٥٠).

(٢) تفسير النسفي، (٤/ ٩٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[١] أي: بالدار الآخرة وما وعد الله عباده فيها. ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ فلا يصل أهل الجنة لأهل النار، ولا أهل النار لأهل الجنة.

د ـ ومن الأساليب التي سلكتها السورة في تهديد المشركين **وصف حالة أهل النار واستغاثتهم بأهل الجنة**، وطلب أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ليطفئوا ما بلغ بهم من العطش والحر الشديد، حتى إن ألسنتهم نزلت من أفواههم، فهم يلهثون كما تلهث الكلاب، ويتوسلون إلى أهل الجنة أن ينيلوهم شيئاً مما رزقهم الله إياه من النعيم، وكان كل همهم أن يفيضوا عليهم بعضاً من الماء ليستريحوا به شيئاً من الاسترواح من أكل الزقوم[٢] والغِسلين[٣] ومن شرب الحميم وهو الماء الحار المتناهي في الحرارة، فيجيبهم المؤمنون بأن الله حرم ذلك على الكافرين، وإنما سأل أهل النار ذلك مع يأسهم من حصوله لأن المتحير المكروب ينطق بما يفيد وبما لا يفيد[٤] قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٤٥).

(٢) الزقوم: طعام أهل النار، قال ـ تعالى ـ في وصفها: **﴿أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لأكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبًا من حميم﴾** سورة الصافات: الآيات من (٦٢) إلى (٦٧).

(٣) الغسلين: قال تعالى: **﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾** سورة الحاقة: الآية (٣٦). والغسلين: غسالة أهل النار وهو ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم. انظر: النسفي، (٤/٢٨٩).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٢/٥٥).

أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

هـ - ومرة أخرى يبين لهم أنهم منسيون في النار لا يصلون إلى رحمته بولولتهم ولا بتذمرهم لأنهم اتخذوا دينهم الذي اعتنقوه وانتسبوا إليه لهواً ولعباً فحرّموا ما شاءوا، وأحلوا ما اشتهوه، وغرهم طول البقاء في هذه الدنيا ونسوا لقاء ربهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

والتقدير: فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء هذا اليوم وكما كانوا بآيات الله يجحدون. وهذا يصور لك مبلغ عدم اكتراثهم بيوم القيامة وإمعانهم في التكذيب به، وإمعانهم في إنكار آيات الله - تعالى -.

و- وتارة يذكرهم بأنهم سوف يعترفون بأن القرآن الذي جحدوه في الدنيا حق لا ريب فيه، وأن الرسل الذين كذبوهم قد جاءوهم بالحق الذي لا مَعْدِلَ عنه، وأن اعترافهم هذا لا يغني عنهم شيئاً لأنهم قالوه بعد فوات أوانه، وأنهم سيطلبون لأنفسهم شفعاء يشفعون لهم عند الله فلا يجدون، وأنهم يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا من جديد ليعملوا ما امتنعوا عن عمله من قبل وأن ذلك لن يتحقق لهم، وأنهم قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في العذاب الذي كذبوا به، وأن ما كانوا يفترونه من شركهم في الدنيا قد غاب عنهم؛ ولم يجدوا له نفعاً، قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي: هل ينتظرون إلا عاقبة هذا الكتاب الذي كذبوا به حين يعلمون يوم القيامة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥١).

أنـه ما جاءهم إلا بالهـدى والـرحمة، لكنهم اجتهدوا في الإعراض عنه ففوجئوا بها لم يتوقعوا.

﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي: تظهـر الحقائق التي أخبر عنها ماثلة للعيان، فالجنـة حق، والنار حق، والنبيون حق، ونبيهم محمد ﷺ الذي كذبوه حق ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٥٣ ﴾[1].

ثم لم تكتف السورة بها مضى بل قصت عليهم حال نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، وهود ـ عليه السلام ـ مع عاد، وصالح ـ عليه السلام ـ مع ثمود، وشعيب ـ غليه السلام ـ مع مدين، وموسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ومع بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون؛ ليتعظ المشركون بهذا القصص وليعتبروا بحال الأقوام ومآلهم.

ولعلي أكون قد وفقت ببيان ما سلكته السورة في حجاج المشركين وتجلية الصراع بينهم وبين النبي ﷺ.

وكـما سلكت السـورة مع المشركين عدة مسالك ألمحت إليها، كذلك سلكت مع اليهود عدة مسالك، أقامت بها الحجة على المعاصرين منهم للنبي ﷺ وبينت أخطاء أسلافهم، وقد تعرضت لها من خلال تناولي لقصة موسى ـ عليه السلام ـ وهي تتلخص في ذكر ما أنعم الله به عليهم، وبيان ما قابلوا به هذا الإنعام من الجحود والنكران، وارتكاب أشنع المخالفات ـ كما فصلته سابقاً ـ[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٣).

(٢) انظر: من ص (٥٤٢) إلى ص (٥٤٤) من بحثنا هذا.

ولم تكتف السورة مع اليهود بما بسطته من خلال قصة موسى ـ عليه السلام ـ بل ذكرت لهم ثلاثة أشياء محدودة تحملهم على متابعة النبي ﷺ والإيمان به؛ حتى لا يحدث لهم ما حدث لأسلافهم:

أولاً: بيان شرف النبي ﷺ وأنه رحمة مهداة للعالمين، وهم جزء من العالمين وأنه ﷺ رحمة خاصة لهم، وتجد ذلك واضحاً في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾[1]

أي: التي حرمت عليهم وعلى أسلافهم بما ارتكبه أسلافهم من مآثم استوجبت تلك المعاقبة.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من الربا والرشوة وشرب الخمر وأكل الخنزير وغير ذلك مما شاع في اليهود من محرمات.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ كاشتراط قتل النفس في قبول التوبة[2] وأخذهم بالقود في قتل العمد والخطأ على سواء، وقطع ما تنجس من ثيابهم وجلودهم، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت وغير ذلك. والإصر هو الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه عن الحراك لثقله، والمراد التكاليف الصعبة المشار إليها آنفاً، والأغلال جمع غُل ـ بضم الغين ـ وهي في الأصل الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، وُشّبهتْ التكاليف بالغل للزومها لزوم الغل[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٢) كما أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: **﴿وإذ قال موسىٰ لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾** سورة البقرة: الآية (٥٤).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٨٨)، وأبي السعود، (٣/ ٢٧٩، ٢٨٠)، والنسفي (٢/ ٨٠).

ثم بين الله ـ تعالى ـ كيفية متابعة هذا النبي الأمي ﷺ فحصرها في أربعة أشياء:

أ ـ في تحقيق الإيمان به، قال تعالى: ﴿فالذين آمنوا به﴾.

ب ـ توقيره وتعظيمه وفداؤه بالنفس والمال والولد، قال تعالى: ﴿وعَزَّرُوه﴾.

جـ ـ نصرته ومساعدته على نشر دينه، والقيام بعده بنشر هذا الدين والاجتهاد في تبليغه إلى العالمين، قال تعالى: ﴿ونصروه﴾.

د ـ اتباع النور الذي أُنزل معه وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾.

قال تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ ولم أفض كثيراً في هذه الآية لأنني ذكرتها في الفصل الأول[1].

ثانياً: أَمَر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن دقيقة انفردوا بمعرفتها، ولم يعرفها عنهم غيرهم، ولم يُعرف أنه ﷺ جالسهم فأخبروه بها ألا وهي قصة أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، والتي اعتدى أهلها بالعمل في يوم السبت، وكان قد فرض عليهم تعظيمه وتخصيصه بالعبادة لما اختاروه لأنفسهم بأهوائهم، وتركوا ما اختار الله لهم وهو يوم الجمعة، فكان اختيارهم سبب نكبتهم ومسخهم قردة وخنازير، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن هذه القصة ليعلموا أنه ﷺ قد عرفها من قِبل الوحي، لعل ذلك يحملهم على الإيمان به وتصديقه فيما جاءهم به عن الله ـ عز وجل ـ.

وقد انفردت سورة الأعراف بتفصيل هذه القصة بينما أشار القرآن إليها بإيجاز في سورة البقرة بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا

---

(١) انظر: ص (١٣) من بحثنا هذا.

لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1] وقوله ـ تعالى ـ في سورة النحل: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[2] أي: إنما جعل البلاء على اليهود المختلفين في يوم السبت الذين آثروه على يوم الجمعة، قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «روي أن موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوما للعبادة، وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاروه، وبعضهم اختاروا عليه يوم الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم[3] لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله»[4].

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع؛ اليهود غداً والنصارى بعد غد**»[5].

ويوضح الحديث الذي أخرجه البخاري الأثر الذي رواه أبو صالح[6]

(١) سورة البقرة: الآيتان (٦٥، ٦٦).
(٢) سورة النحل: الآية (١٢٤).
(٣) هكذا في الأصل والصواب (أما أعقابهم لم...).
(٤) تفسير النسفي، (٢/٣٠٤).
(٥) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الجمعة (٣/٤-٦).
(٦) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/٥٠٥).

عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه قال: «أمر موسى - عليه السلام - اليهود بالجمعة، وقال: تفرغوا لله - تعالى - في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله - تعالى - فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فَجُعل عليهم، وشدد فيه الأمر، ثم جاء عيسى - عليه السلام - بالجمعة فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق»(١). وإليك تفصيل قصة أصحاب السبت من سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾(٢)

أي: اسأل يا محمد - صلى الله عليك وآلك وسلم - اليهود المعاصرين لك المناوئين لدعوتك سؤالَ توبيخ وتَقريع عن أمر يختص بآبائهم، لا يعلمه أحد غيرهم إلا إياك، فإنا أعلمناك به ليعلموا أن ما جئتهم به هو الحق، سَلْهم عن أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، قيل: «آيلة»(٣) وقيل غير ذلك ﴿إذ يَعْدُون في

(١) تفسير الألوسي (١٤/٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

(٣) آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم - البحر الأحمر - مما يلي الشام، كانت مدنية جليلة في زمن داود - عليه السلام - وهي القرية التي ذكرها الله - تعالى - حاضرة البحر، كان أهلها يهوداً حرم الله - تعالى - عليهم يوم السبت صيد السمك، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرَّعاً بيضاً سماناً كأنها الماخض حتى لا يرى وجه الماء لكثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان وسوس لهم وقال: إنما نهيتم عن صيدها يوم السبت فاتخذوا حياضاً حول البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت، فتبقى فيها محصورة واصطادوا يوم الأحد، وفي غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد، ففعلوا ما أمرهم الشيطان خائفين...

انظر: آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا القزويني، ص(١٥٣).

السبت﴾ بمعنى إذ يعتدون فيه بفعل ما حرم الله عليهم فعله في هذا اليوم من العمل الدنيوي، فإنهم أمروا أن يتفرغوا فيه تفرغاً تاماً لعبادة ربهم، وقد ابتلاهم الله بذلك لما أعرض أغلبهم عن يوم الجمعة الذي اختاره الله لهم، مدعين أن يوم السبت هو اليوم الذي فرغ الحق - تبارك وتعالى - فيه من خلق السموات والأرض.

﴿إذ﴾ ظرف في محل جر بدل من القرية، وقوله تعالى: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً﴾ أي: ظاهرة بادية على وجه الماء، كثيرة يسهل اصطيادها بلا عناء وكلفة.

وسبت من ﴿سبتهم﴾ مصدر سبتت اليهود تسبت سبتاً، أي: انقطعوا لعبادتهم، وقد ابتلاهم الله بذلك نقمة منهم ليصطادوا في هذا اليوم الذي نهوا عن العمل فيه والذي اختاروه لأنفسهم ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ أي: لا تأتيهم حيتانهم في سائر أيام الأسبوع التي لا يسبتون فيها و﴿ويوم﴾ ظرف منصوب بـ ﴿لا تأتيهم﴾ مما جرّأ سفهاءهم والضالين منهم على الاصطياد يوم السبت مما أدى إلى هلاكهم، وقوله تعالى: ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ أي: كهذا البلاء، وهذا الافتتان الحاصل لهم بمجيء حيتانهم يوم سبتهم شرَّعاً، وانقطاعها في سائر أيام الأسبوع مما سهل عليهم المعصية، نبتليهم بأنواع أخرى من البلايا الشديدة بسبب استمرارهم على الفسق وإلْفهم له.

ولذا استخدم القرآن كلمة (كان) الدالة على الاستمرار في مثل هذا التعبير وبالفعل المضارع الدال على تجدد الفسق منهم، ووقوعه حيناً بعد حين دون مبالاة بعواقبه[1].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢١٤)، وتفسير النسفي (٢/ ٨٢).

وقوله تعالى: ﴿وإذ قالت أمة منهم﴾ أي: أُمَّة صالحة من اليهود كانت قد يئست من رجعـة أولئك السفهاء عن الاصطياد في يوم السبت، فتركت وعظهم لقوم آخرين صالحين استمروا على وعظهم، ولم يكفوا عنه مع استمرار هؤلاء السفهـاء على المخـالفـة: ﴿لم تعـظون قومـا الله مهلكهم؟﴾ أي: مستـأصلهم في الدنيا بما يشاء لهم من العذاب الخاص بهم، المناسب لتلك الجريمة النكراء[1].

﴿أو معذبهم عذابا شديدا في الدنيا؟﴾ دون الإهلاك، مع ما ينتظرهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكان هؤلاء القائلون قد سلكوا كل وسيلة في وعـظهم لينزجروا عن جريمتهم، فلم ينجح فيهم، وقد أجابهم الصالحون المستمـرون على وعـظهم ﴿قـالـوا معذرة إلى ربكم﴾ أي: نعظهم لا لأنهم سيرجعون بل لنُظهر عذرنا عند ربنا وأننا لم نكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن بدا أن المنهيين لا يرجعون ﴿معذرةً﴾ مفعول لأجله وهي قراءة حفص، وقراءة الجمهور ﴿معذرة﴾ بالرفع، والتقدير: موعظتُنا عذرٌ إلى الله ـ سبحـانـه وتعـالى ـ لئـلا ننسب إلى التقصـير في النهى عن المنكر[2] ومعنى القـراءتـين متقـارب ﴿ولعلهم يتقـون﴾ أي: رجاء لأن يتقوا بعض التقاة، واستخدام الواعظين كلمة (لعل) للدلالة على أن الأمل في تقواهم قليل.

وقد بيّن تعالى أنهم لما نسوا ما ذُكِّروا به من نهيهم عن العمل يوم السبت لما يجره عليهم من الـويل نجّى الصـالحـين منهم، وأهلك المفسدين بعذاب خاص بهم، لم يعـذب به أحـدًا قبلهم ولا بعـدهم وقد سماه الله باسم عام ﴿بعذاب بئيس﴾ لتذهب النفس فيه كل مذهب، ثم عيّنه ليريح القلوب من

---

(١) أعني: اصطيادهم يوم السبت.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٨٥).

التفكير فيه، وليبين لها أنه شيء لم يخطر على البال، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾(١) أي: فلما نسي الظالمون من اليهود ما ذكرهم به الصالحون وما خوّفهم به من عذاب الله ـ تعالى ـ ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي: أنجينا الصالحين منهم برحمتنا لأنهم تحلوا بما يؤهلهم لها وهو النهي عن السوء، ولم يقل: (ينهونهم) ليعلم أن هؤلاء الصالحين كانوا ينهون عن السوء الواقع من هؤلاء السفهاء ومن غيرهم، أي: كانت طبيعتهم كراهية السوء والنهي عنه مطلقاً، بلا تأثر بقرابة ولا جاه ولا مال ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ أي: بقدرتنا وقهرنا، واستخدم القرآن الكريم اسم الموصول مزيداً في تعيينهم، وكأنهم الظالمون لا غيرهم ﴿بعذاب بئيس﴾ في الدنيا، أي: شديد غريب لم يخطر مثله على البال ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي: بسبب فسقهم واستمرارهم عليه، وقد عمّم ـ تعالى ـ في وصفهم بالفسق ليعلم أن المعاصي كلها تجر إلى البلاء، فهو ـ تعالى ـ لم يقل: بما كانوا يفسقون في يوم السبت، والذي كان سبباً في هذا العذاب البئيس، بل قال تعالى: ﴿بما كانوا يفسقون﴾ ثم قال تعالى: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي: أعرضوا عن ترك ما نهوا عنه كل الإعراض، وصدوا عن وعظ الواعظين منهم الصدود التام فاجأهم الله بما لم يكن في حسابهم ﴿قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين﴾ أي: جعلناهم قردة حالة كونهم خاسئين خاسرين أذلاء، لا يستطيعون أن يدفعوا ما نزل بهم، وهذا الكلام حقيقي لا دخل للمجاز فيه البتة، فقد حولهم من صورهم الآدمية إلى قردة حقيقية، وتأمل قوله تعالى: ﴿قلنا لهم كونوا﴾ وهنا سؤال مهم وهو: هل مُسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير؟ أم مُسخ العاصون في يوم السبت كلهم قردة ومُسخ أناس آخرون من غيرهم خنازير؟ يرى بعض المفسرين أن شبابهم مسخوا قردة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٥).

وشيوخهم مُسخـوا خنازيرَ للتفاوت ما بين الشباب والشيوخ، ويرى البعض الآخر أنهم مسخوا كلهم قردة، وأما الذين مسخوا خنازير فهم الكافرون من بني إسرائيل بعد نزول المائدة التي طلبوا من الله نزولها في زمن المسيح ـ عليه السلام ـ والتي قال الله ـ جل وعلا ـ في آخر قصتها: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[1] وكان الممسوخون يعرفون صلحاءهم وأنسباءهم ويبكون لكنهم لا ينطقون، والجمهـور على أنهم ماتـوا بعد ثلاثة أيام، وقيل: إن هذه القردة قد عاشت وتناسلت، والله أعلم بالصواب[2].

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٥) قال النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة﴾. . . سورة المائدة: الآية (٦٠) يعني أصحاب السبت، والخنازير أي: كفار أهل مائدة عيسى ـ عليه السلام ـ أو كلا المسخين من أصحاب السبت؛ فشبانهم مُسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير. . . تفسير النسفي، (١/ ٢٩٠).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (٣/ ١١٢)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٧)، والنسفي (٢/ ٨٣).

(٣) سورة الأعراف: الايات من (١٦٣) إلى (١٦٦).

ثالثاً: أخبر الله نبيه ﷺ بعقوبات تلازمهم إلى يوم القيامة منها:

١ - أنهم كلما اجتمعوا لا يجتمعون إلا على الشر، سلط الله عليهم من ينزل بهم سوء العذاب إلى يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾(١).

فمعنى قوله: ﴿وإذ تأذن﴾ أي: وإذ أعلم وأخبر، وفيه معنى القسم كما يقول النسفي، ولذا أجيب بما يجاب به القسم(٢) وهو قوله تعالى: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾.

٢ - والعقوبة الثانية أنه فرقهم في الأرض، ولم يأذن باجتماعهم في مكان واحد إلى يوم القيامة، وأنه - تعالى - ابتلاهم بالنعم تارة، والنقم أخرى، لعلهم يرجعون عما هم فيه من غي، فما اتعظ بذلك إلا قليلٌ منهم، وأما أغلبهم فأقاموا على الفساد والضلال، وهذا هو حالهم إلى يوم القيامة، فقلَّ أن تجد فيهم مهتدياً إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾(٣).

وهم كذلك إلى عصرنا هذا فرغم قيام الدولة اليهودية في فلسطين إلا أنها لاتضم أكثر من خمسهم، وهم يحاولون جاهدين أن يستقطبوا كثيرين ممن

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦٧، ١٦٨).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/٨٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٨).

يقيمون في دول أخرى، لكن أغلبهم إلى الآن لا يطيب لهم العيش في هذه الدولة ـ أعني فلسطين ـ لأن تقطيعهم وتفريقهم حكم من الله عليهم، وأحكام الله لا تنقض، وحتى القاطنون في هذه الدولة تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، يدلك على ذلك كتلهم وأحزابهم التي أصون هذه الرسالة عن ذكر أسمائها، وهي لا تخفى على مَن له أدنى دراسة بأحوالهم.

وهؤلاء الـذين وُصف بعضهم بالصلاح وبعضهم بالفساد مضَوا، أما اليهود المعاصرون لنا فلا خير فيهم، ولم نسمع بأن أحدهم قد اعتنق الإسلام، بل هم كما قال تعـالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾[1].

و(الخَلْف) بسكون اللام بدل السوء، بخلاف (الخَلَف) بفتح اللام فهو الصـالـح، والمعنى: فخلف من بعـد هؤلاء المذكورين قبل بعثة النبي ﷺ خلفٌ؛ وهم الـذين كانـوا زمن رسـول الله ﷺ قوم لا يتورعون عن الحرام ﴿يأخذون عَرضَ هذا الأدنىٰ﴾ أي: يأخذون الدنيا الفانية الحقيرة الزائلة بطرق غير مشروعة، كأخذ الرشا وأكل الربا وتحريف الكتاب ليشتروا به عرضاً قليلاً من هذه الدنيا، ويتذرعون إلى تبرير ما أخذوه بقولهم: ﴿سيغفر لنا﴾ أي: ليس هذا الذنب الذي ذكرته الآية بل كل ذنب، ولا غرابة في هذا التفكير، فإنهم يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه، وهم يقولون ذلك ليبرروا أخطاءهم، وليكذبوا القرآن فيما أخبر به من عقوبة الكافرين والظالمين.

والواو في قوله: ﴿ويقولون: سيغفر لنا﴾ واو الحال، أي: حالهم الملازمة لهم أنهم لا يشعـرون بقبـح ما صنعوا بل هم قائمون على تبريره وتسويغه، وهؤلاء الخَلْف ـ كما أسلفت ـ هم اليهـود المعـاصرون لرسـول الله ﷺ ومَن

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٩).

بعدهم إلى يوم القيامة، والكتاب الذي ورثوه هو التوراة وكانوا في عهد النبي ﷺ يعلمـون الحق من كتابهم، ويكتمونه، ويخلطونه بالباطل ليشوّشوا على النـاس، وقد نهاهم الله عن ذلك بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1] ولذلك وبخهم الله بقوله: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثـق الكتـب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ أي: قد أخذ عليهم هذا الميثاق ولكنهم تنكبوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿ودرسوا ما فيه﴾ بيان لتمكّنهم من علم ما في كتابهم من الحلال والحرام، فهم لم يفعلوا ما فعلوه من السوء بجهل، بل فعلوه وهم عالمون ببـطلانه، ولذا وعظهم الله بموعظة عامة فقال: ﴿والدار الأخرة خير للذين يتقون﴾ أي: خير من عرض هذا الأدنى الذي حملكم على استحلال ما حرم الله عليكم.

قال الحافظ ابن كثير: «قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهودَ أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضي ارتشى فيقال له: ما شأنـك ترتشي في الحكم؟ فيقـول: سيغفـر لي، فتَـطْعَنُ عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِعَ وجُعِلَ مكانه رجل ممن كان يُطْعَنُ عليه فيرتشي»[2].

ثم قال: ﴿أفلا تعقلون﴾ وهذا الاستفهام غاية في التوبيخ والتبكيت، و(الفاء) عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، تقديرها: أأصابكم الجهل بعد كل ما أنزل إليكم فلا تعقلون؟

(١) سورة البقرة الآية (٤٢).
(٢) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٦٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾[1] وقد ناسب بعد ذكر أحوال المكذبين الغاوين ذكر المؤمنين الذين يمسكون بالكتاب ابتغاء وجهه ـ تعالى ـ ويحلون ما أحل الله ويحرمون ما حرم، ويجتهدون في دعوة غيرهم إلى ذلك، ويقيمون الصلاة التي هي أهم فريضة بعد التوحيد، والتي هي جزء من الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في تبيين الحق للناس ولا يكتمونه، والذي أهملوه بالكلية كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[2].

كما ناسب أن يُطمئنَ هؤلاء المتمسكين بالكتاب على سلامة فعلهم وحسن مصيرهم، وأن ما فعلوه لن يضيع عند ربهم، فهو يجازيهم عليه أحسن الجزاء، قال تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾.

رابعاً: أمر الله نَبِيَّهُ ﷺ أن يتلو على اليهود نبأ رجل منهم آتاه الله علماً خاصاً، فلم يهتد به، بل انسلخ من تلك الآيات، وابتعد عنها كل الابتعاد حتى صار شيطاناً يقتدي به إبليس ويقترن به، فكان من الغاوين في الشر، الراغبين عن الخير، وقد بعثتك يا محمد لهؤلاء وغيرهم وأوحيت إليك من علم هذا المنسلخ الذي لا يعرف حاله إلا اليهود لعلهم يرجعون بما تتلوه عليهم ويعتبرون بحال هذا المنسلخ.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٨٧).

ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[1].

قال الواحدي في بيان سبب نزول هذه الآية: «قال ابن مسعود: نزلت في بلعم بن أبـره[2]ـ رجـل من بني إسرائيل ـ وقـال ابن عبـاس[3] وغيره من المفسرين: هو بلعم بن باعوراء، وقال الوالبي: هو رجل من مدينة الجبارين يقـال له: بلعم، وكان يعلم اسم الله الأعظم، فلما نزل بهم موسى ـ عليه السلام ـ أتاه بنو عمه وقومه وقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادعُ الله أن يردّ عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فانسلخ منها﴾»[4].

قال ابن كثير: وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، وذكر القصة السابقة مروية عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس[5].

﴿فَأَتبعَهُ الشيطان﴾ فلحقـه الشيطان وأدركه وصار قريناً له، أو أنَّ

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

(٢) وفي طبعة أخرى لكتاب أسباب النزول للواحدي (ابن عاعورا) وهي الطبعة الأولى المطبوعة في مطبعة أمين هندية بالقاهرة سنة ١٣١٦هـ، كما أشار إلى ذلك المحقق فضيلة الشيخ / السيد صقر، والتي ذكر أنها مليئة بالأخطاء، وذكر لذلك أمثلة كثيرة في المقدمة.

(٣) الدر المنثور (٣/١٤٥) وتفسير البغوي (٢/٢٥٨).

(٤) الواحدي. أسباب النزول. تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، (مكة المكرمة: دار القبلة، ١٤٠٤هـ).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/٢٥٦) وتفسير الرازي (١٥/٥٣، ٥٤).

الشيطان سلّط عليه كفار الإنس وغواتهم من جنوده، فجعلهم أتباعاً له ﴿فكان من الغاوين﴾ فصار من الضالين الكافرين ﴿ولو شئنا لرفعنه﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء، وذلك بأن نحُول بينه وبين الكفر قهراً وجبراً، لكننا تركناه مع اختياره ﴿بها﴾ بتلك الآيات التي آتيناه إياها ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي: مالَ إلى الدنيا ورغب فيها ﴿واتبع هواه﴾ في إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه﴾ أي: إن تزجره وتطرده[1] ﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «قال الليث: اللهث هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدْو وعند شدة العطش فإنه يُدلِعُ لسانه من العطش، واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب وإنما يقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل وجوه:

الأول: إن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حالة الإعياء، وفي حالة العطش، وفي حالة الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك مَن آتاه الله العلم والدين، وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس والفعل القبيح لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة لا لأجل الحاجة والضرورة.

الوجه الثاني: إن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا فذلك

---

(١) انظر: تفسير النسفي بتصرف، (٢/ ٨٥، ٨٦).

إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولاشك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات، يُدلعُ لسانُه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبداً من غير حاجة ولا ضرورة، بل لمجرد طبيعته الخسيسة.

الوجه الثالث: إن الكلب اللاهث لا يزال لهثه البتة، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتة»(١).

ثم بيّن ـ جل وعلا ـ الغرض من ذكره لهذا المثل، فقال تعالى: ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيـٰتنا﴾ من اليهود بعد أن قرأوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فاقصص القصص﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿لعلهم يتفكرون﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو مسيرته ﴿ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآيـٰتنا﴾ أي: مثل القوم، فحذف المضاف، وفاعل ساء مضمر، أي: ساء المثل، ونصب مثلاً على التمييز ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ معطوف على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة، أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب(٢).

ولي على هذه الآيات استنتاجات أحب أن أنبه عليها للفائدة:

النتيجة الأولى:

إن أحدًا لا يغلب الله بمعصيته، وإن شرود الشاردين ليس لعجز الله ـ تعالى ـ عن ردهم إليه ـ تعالى الله أن يوصف بالعجز أو يخرج عن قدرته شيء ـ

---

(١) تفسير الرازي، (١٥/ ٥٦، ٥٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٨٦).

وإنك لتجد هذا الاستنتاج واضحاً في قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي: ولكننا لم نشأ ذلك، فتركناه لغوايته وما اختاره لنفسه.

النتيجة الثانية:

هي قوله تعالى: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي: مال إلى الدنيا فآثرها، واجتهد في العمل لها، وترك الآخرة وأعرض عما يوصل للسعادة، ولو كان ذلك الميل إلى الدنيا والإعراض عن السعادة عن جهل لكان الأمر أهون، لكنه فعل ذلك وهو على رتبة عالية من العلم والمعرفة.

ولابـد لي أن أشير إلى أن الدنيا مهما كثرت في أيدي أصحابها، فهي ليست بغاية يُسعَى إليها، ولكنها لكي تكون صالحة مرضياً عنها من ربها، فلابد أن تكون وسيلة إلى السعادة في الآخرة، فإذا خرجت عن ذلك فهي بلاء ونقمة على أصحابها، نسأل الله العفو والسلامة.

النتيجة الثالثة:

أسوأ ما يُبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة ولذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ في شأن هذا الإسرائيلي ﴿واتبع هواه﴾ أي: صار مَن يعقل تبعاً لما لا يعقل.

فعلى العاقل أن يلاحظ هواه، فإن كان تبعاً للكتاب والسنة متّنه واجتهد في تمتينه، وإن كان على خلاف ذلك فَلْيَعْلَمْ أنه مريض بمرضٍ عُضال، يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغالٍ حتى يُرَدَّ إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها، حيث يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ (٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) ﴾[1].

---

(١) سورة التين الآيات من (٤) إلى (٦).

النتيجة الرابعة :

ذكـر قصص المـاضيين من أنجـع الدواء الذي يعالج به اللاحقون، فتواصل الأجيال لابد منه، ووقوف اللاحق على حال السابق لابد منه لينتفع بما فيه المنفعة، ويحترس عما فيه المضرة، ولذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقص على بني إسرائيل القصص بعامة: قصص بني إسرائيل وغيرهم ﴿لعلهم يتفكرون﴾ في أحوال أسلافهم وغيرهم ممن تنكبوا الحق فهلكوا، فلعل ذلك يفتح قلوبهم المغلقة، ويوصلهم إلى الهداية.

ولذا ينبغي لكل داعٍ ومصلح من المسلمين أن يهتم بدراسة القصص في الكتاب والسنة ليخرج منه الرحيق الذي يشفي النفوس من عِلَلِها، فإنَّ الحق والباطل يتصارعان إلى يوم القيامة، ومن أدوات انتصار الحق على الباطل أن يقص أصحـابُ الحق القصصَ الحق على أهـل البـاطـل؛ لينتشلوهم من باطلهم، أو ليصرعوهم بهذا السلاح الشديد المضاء. والله من وراء القصد.

المبحث الثاني
أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوة النبي ﷺ

من خلال ما سبق دراسته لمواقف الأمم السابقة مع أنبيائهم تتجلى لنا حقيقة واضحة وهي أنه ما من نبي إلا وواجه أمام دعوته التي بعثه الله لتبليغها المشاق الصعبة، والاتهامات الباطلة، والافتراءات الكاذبة، من فئة خاصة من أقوام ممن ألفوا الباطل وعميت بصائرهم عن الحق، وصمت آذانهم عن سماع ما فيه سعادتهم.

وهـذه سنة الله في الأمم، فما من رسول أتى قومه إلا كذبوه، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا [1] كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[2] وهـذا ومما يجدر الإشارة إليه «أن الطغيان وقف بجانب الكثرة الكاثرة من دعاة الباطل، يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى رسالات الله، ووقف الهدى بجانب القلة القليلة من أتباع الحق وأنصاره، واحتدمت المعركة بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وكانت النتيجة انتصارَ الإيمان على الكفر، والحقِّ على الباطل، وتلك سُنَّة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، لن يغلب الباطل الحقَّ أبداً وإن كانت معه قوةَ جميع أهل الأرض، فإن للحق صولة، وللباطل جولة، والمنتصر دائماً جندُ الرحمن، مصداقاً لقول الله العلي الكبير: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ

---

(١) قوله ﴿تترا﴾: أي متتابعين واحداً بعد واحد.

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾[١] »[٢].

وأستطيع أن أوجز موقف الكافرين المعاندين لدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين بما يلي:

أولاً: تكذيبه فيما جاء به:

لقد بعث الله حبيبه ومجتباه بين أقوام العرب الذين كانوا يتخبطون في دياجير الوثنية، والمعتقدات الزائفة، والعصبيات الجاهلية، فضلاً عن الانحطاط الخلقي وانتشار الرذيلة، ولقد كان للفترة الطويلة بين بعثة رسول الله ﷺ وبين أخيه عيسى ـ عليه السلام ـ عامل كبير في وصول العرب إلى ما وصلوا إليه مما أشرت إليه آنفا.

فقد أخرج البخاري بسنده عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً قال: «فترة بين عيسى ـ عليه السلام ـ ومحمد ﷺ ست مائة سنة»[٣].

ولذلك ما إن سمع أهل مكة ببعثة رسول الله ﷺ حتى كذبوه، واستبعدوا أن يكون يتيم قريش رسولاً من عند الله، وتعجبوا أن يختار الله رجلاً من الناس يرسله إليهم مع قدرته على بعثة الملائكة المقربين، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «لما بعث الله ـ تعالى ـ محمداً ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله مَن يرسله إلا يتيمَ أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ

---

(١) سورة غافر: الآيتان (٥١، ٥٢).

(٢) قبس من نور القرآن للشيخ / محمد على الصابوني، (٤/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (٨/ ٢٨٠).

ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾[1]»[2] ثم إنهم كذبوا بكل ما جاء به، فكذبوا بالقرآن وما جاء فيه من الآيات الباهرات، وقالوا: إن هو إلا أساطير الأولين، كما قصَّ الله مقولتهم تلك بقوله: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[3]

ولقد توعد الله ـ جل وعلا ـ المكذبين في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها بتخليدهم في النار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[4].

فهذه الآية الكريمة وإن كانت حكماً عاماً في كل مكذب إلا أنها ألصق بمشركي مكة، إذ هم الذين يباشرون تكذيب رسول الله ﷺ فيما جاء به.

وقد اشتملت هذه الآية على سببين مهمين من أسباب تكذيب الرسول ﷺ في دعوته:

أ ـ إمعان الكفار في تكذيبه ﷺ مع ظهور أن ما جاء به هو الحق.

ب ـ استكبارهم عن هذه الآيات وإباؤهم لها لأنها ضد أهوائهم وما أَلِفوه في جاهليتهم.

وقد رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أن المراد بهذه الآية أهلُ مكة[5] فهو يريد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أهلَ مكة داخلون في الوعيد بهذه الآية

---

(١) سورة يونس: الآية (٢).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص(٢٦٧)؛ وتفسير القرطبي، (٨/٣٠٦)؛ وتفسير الطبري، (١٥/١٣)؛ وتفسير ابن كثير، (٢/٤٠٦)؛ وتفسير الدر المنثور، (٤/٣٤٠)؛ وتفسير الخازن، (٣/١٤١)؛ وتفسير البغوي (٣/١٤١).

(٣) سورة القلم: الآية (١٥) وسورة المطففين: الآية (١٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٥) انظر: تفسير الرازي، (١٥/٧٣).

دخولاً أولياً. ولم تقتصر السورة بهذا الوعيد للمكذبين، بل جاء في نهاية السورة وعيدٌ آخر، وهو قوله جل شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ ﴾[1] والمعنى: سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يُراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجُرمٍ، أو أقدموا على ذنب، فتح الله عليهم باباً من أبواب النعمة والخير في الدنيا ازدادوا بَطَراً وانهماكاً في الفساد وتمادياً في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفلَ ما يكونون[2].

ثانياً: عدم تفكرهم في حاله ﷺ :

عاش ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين قومه أغلب عمره وهم يعبدون الأصنام، ويأتون ما يأتون من قبائح الجاهلية، فلم ينكر عليهم، ولم ينههم عن شيء كانوا يقارفونه، سوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد زهد في أحوالهم، فلم يتلطخ بشيء منها بما حرسه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل النبوة، وبما هداه إليه من سلوك الصراط القويم، وبما فطر عليه قلبه الكريم ﷺ من حب الخير، وشديد الرغبة فيه، وكراهيته وبغضه لتلك الشرور، فكيف يأتيهم بما أتاهم به بعد أن انسلخ من عمره أربعون سنة؟ لو كانت دعوته شهوة نفس، أو حبَّ رئاسة، أو سعياً إلى مُلك وسيادة لأعلن عليهم ذلك قبل سنّه هذه بوقت طويل، لكنها النبوةُ، وتجد ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٢).

(٢) انظر: تفسير ، الرازي (١٥/٧٣).

(٣) سورة القصص: الآية (٨٦).

فـ ﴿إلا﴾ بمعنى: لكن، والاستثناء هنا في هذه الآية منقطع[١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: ما كنت تدري تفاصيل ما أوحينا إليك، وحقائق ما بعثناك به قبل أن نوحي إليك: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢].. الآية.

ومما يؤكد ما ذكرته استغرابه لنزول الوحي عليه في أول مرة لولا أن الله ألهم السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبره أن ما جاءه هو الناموس والوحي الذي أُنزل على موسى ـ عليه السلام ـ[٣].

فلو تفكّر الكفار المكذبون له، والمعاندون لدعوته في حاله تفكيراً هادئاً لا تحرّكـه عصبيتهم لباطلهم لسَهُل عَليهم من أول الأمر أن يصدقوه، ولذا جاءت آية الأعراف تنعى عليهم عدم تفكرهم في حاله، وتنكر عليهم ذلك أشد الإنكار؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾[٤] فالهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، دل عليها سابق الكلام ولاحقه، والمعنى: أَعَمُوا عن حالِك وهو أبين ما يكون ظهوراً ولم يتفكروا فيه؟ مع أنهم لو تفكـروا فيه حق التفكـر، لأسرعوا إلى الإيمان بك والتصديق بما جئتَهُم به، وهذا السبب يطول ذكره، وقد اكتفيت بما ذكرت طلباً للاختصار. والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: تفسير الكشاف، (٣/١٩٤).

(٢) سورة الشورى: الآية (٥٢).

(٣) انظر: صحيح البخاري مع فتح الباري، (١/٢٤-٣٠).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

ثالثاً: اتهامه ﷺ بالجنون:

عندما يُلجِم الحقُّ ألسنةَ أهل الباطل، وتقوم الحجج الواضحة والأدلة المقنعة بما يدفع أي ريب في دعوة النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به هو وحي من عند الله، ولم يبقَ أمام المعاندين المكذبين أي مخرج يواجهون به رسول الله ﷺ ليصرفوا الناس عن دعوته، فإنهم يلجأون إلى أسلوب الاحتقار والاستهانة وهو أسلوبٌ ماكرٌ، يُقْصَدُ من ورائه إبعاد الناس ـ وبالأخص العامة ـ عن اتباع النبي ﷺ وصرفهم عن دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وذلك برميه ﷺ بالجنون، فإن المجنون لا يُتَّبعُ بحال من الأحوال، ولذا ناقشهم القرآن في هذه القضية في سور كثيرة[1] لا أطيل بذكرها بل أكتفي بما جاء في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾[2] وقد ذكر أبو السعود والألوسي ثلاثة أوجه في تفسير هذه الآية، ألخصها لك من تفسير الألوسي: قال تعالى: ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾:

الوجه الأول:

إن الهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه السياق والسباق، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما بصاحبهم﴾ تحتمل أن تكون استفهامية إنكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر ﴿بصاحبهم﴾ ويحتمل أن تكون نافية اسمها ﴿جِنَّة﴾ وخبرها ﴿بصاحبهم﴾ و﴿جِنَّة﴾ مصدر كالجِلْسةِ بمعنى

---

(١) مثل: سورة الحجر الآية (٦) وسورة الشعراء: الآية (٢٧) والصافات: الآية (٣٦) والدخان: الآية (١٤) والذاريات: الآية (٣٩) كذلك الذاريات: الآية (٥٣) والطور: الآية (٢٩) والقمر: الآية (٢) والآية (٥١) والتكوير: الآية (٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

الجنون، والتنكير للتقليل والتحقير، والتفكُّر التأَمل وإعمال الخاطَر في الأمر، وهو من أفعال القلوب فحكمه حكمها في أمر التعليق، ومحل الجملة النصب على نزع الخافض، ومحل الموصول نُصِبَ على ذلك في الوجه الأخير، أي: أَكذَّبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم الذي هو من أعظم الهادين للحق، وعليه أنزلت الآيات؟ أو في أنه ليس بصاحبهم من جنة حتى يؤديهم التفكر في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحةِ نبوته، فيؤمنون به وبما أنزل عليه من الآيات، أو في الذي بصاحبهم من جِنة بزعمهم، ليعلموا أن ذلك ليس من الجنة في شيء فيؤمنوا.

الوجه الثاني:

واختار هذا الوجه الطبرسي وهو أن الكلام قد تم عند قوله: ﴿أو لم يتفكروا﴾ أي: أَكذبوا ولم يتفكروا في أقواله وأفعاله، أو لم يفعلوا التفكير؟ ثم ابُتديء فقيل: أي شيء بصاحبهم من جِنة ما؟ على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت، أو قيل: ليس بصاحبهم شيء منها.

والمراد ﴿بصاحبهم﴾ رسول الله ﷺ والتعبير عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك لتأكيد النكير وتشديده لأن الصحبة تطلعهم على نزاهته ﷺ عن كل شائبة مما ذُكر. وعلى هذا الوجه بنيت تقسيمي لمواقف الكافرين المعاندين لدعوة النبي ﷺ.

الوجه الثالث:

إن هذه الآية نزلت للرد على عظيمتهم الشنعاء، فقد أخرج ابن الطبري وغيره عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا، فدعا قريشاً فخذاً فخذاً: يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ـ تعالى ـ ووقائعه إلى الصباح، حتى قال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يُهوِّتُ[1] حتى أصبح، فأنزل الله

---

(١) أي: يصوت.

- تعالى - الآية[١]. وعليه فالتصريح ينفي الجنون للرد على عظيمتهم الشنعاء[٢].

الوجه الرابع :

تأثير القرآن الكريم فيهم، وأخذه بمجامع قلوبهم، مما جعلهم يقترحون عليه ﷺ أن يأتيهم بقرآن غيره، أو يبدله بكلام من عند نفسه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[٣]... الآية.

وقد بدأت سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾[٤].

فالمعنى: لا يكن في صدرك شك في أنه حق، أنزله إليك رب السموات والأرض، فلا تبال بمن كذبوا به، أو: لا يكن في صدرك ضيق بسبب تكذيبهم له، وخوف من إخبارهم بما فيه لئلا يتبعوه، فما عليك إلا البلاغ.

ولأجل هذا التثبيت الإلهي الناتج عن النهي في سورة الأعراف، قال الله له في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ ﴾[٥] أي: إذا قصرت في تبليغه إليكم أو أنقصت منه ما لا يعجبكم ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا

---

(١) انظر: تفسير الطبري، (٩/١٣٦).

(٢) تفسير الألوسي بتصرف، (٩/١٢٧، ١٢٨).

(٣) سورة يونس: الآية (١٥).

(٤) سورة الأعراف: الآيتان (١، ٢).

(٥) سورة يونس: الآية (١٥).

تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾[1].

الوجه الخامس :

حديث سورة الأعراف عن اليوم الآخر وما فيه من سوء مصير المكذبين وحسن مصير المؤمنين ؛ فإن المكذبين لدعوته ﷺ ممن خاطبهم بالآيات المتحدثة عن اليوم الآخر وما فيه عزّ عليهم أن يكون مصيرهم كما تلاه رسول الله ﷺ في آي القرآن التي تكفلت ببيان هذا المصير، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾[2] وقد أشرت إلى بعض ذلك في هذا الفصل عند حديثي عن المكذبين، وعقدت موضوعاً خاصاً بالآيات الخاصة باليوم الآخر في الفصل الأول من هذه الرسالة[3].

الوجه السادس :

حديث هذه السورة عن تحريم الفواحش ما ظهر منها كالزنا وقطع الأرحام، وأكل الميتة، ووأد البنات، وتحريم ما كانوا يهدونه لآلهتهم من الذبائح، إلى غير ذلك من عاداتهم، وتحريم الفواحش الباطنة كالحقد والحسد والكبر وسوء الظن والعصبية للباطل، وغير ذلك مما كان سائداً في الجاهلية، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4].

---

(١) سورة يونس: الآية (١٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥١).

(٣) انظر: من ص (٢٢) إلى ص (٤٠) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

فكـان هذا من أقـوى الأسبـاب في تكـذيبـه، والوقوف أمام دعوته، وإنكارهم لها لأنها خالفت ما استحسنته نفوسهم مما هو محرم وباطل لا يرضاه الله ـ جل وعلا ـ ويأباه رسوله ﷺ.

المبحث الثالث
موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين

لقد واجه رسول الله ﷺ من قومه عناءً ومشقةً وإعراضاً شديداً، وقد سبق في المبحث السابق التعرض لبعض ذلك، لكن ذلك لم يفتّ في عضده، ولم يمنعه تكذيبهم وإعراضهم عن المضي بعزيمة وثبات أمام تلك المحن وذلك الصدود، فكان ﷺ يترفّق بهم ويتحمل صنوفَ الأذى ومختلفَ الإساءات والافتراءات الكاذبة، ولم يمنعه ذلك من أن يداهمهم في مجالسهم وأنديتهم، داعياً لهم للدخول في دين الله، ومنذراً لهم من حلول بأسه وعقابه، ومسفّهاً أحلامهم، ومقبحاً لأصنامهم، فلم يألُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ جهداً في دعوتهم ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، ومن عجيب أمر هذا النبي الكريم ﷺ أن أمته في المعاندة والتكذيب في أول الأمر كانت كالأمم السابقة ـ قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ عليهم السلام ـ وآل فرعون وبني إسرائيل ـ لكن النبي ﷺ أخذ يجتهد في الدعاء لهم، ويصبر على بلائهم، ولم يتعجل لهم العذاب والعقاب حتى هداهم الله في آخر الأمر، ونجّى الله منهم مَن علم أنه لا يؤمن دون أن يصيب الكفار بعذاب الاستئصال يقضي عليهم عن بكرة أبيهم، مع أنهم قد أجمعوا أمرهم على أن يخرجوه من مكة ليستريحوا من دعوته، أو يقتلوه، أو يوثقوه بالحبال في سجن يلقى إليه الطعام والشراب من خلال كوة حتى يموت مما جعله ﷺ يبادر بالهجرة إلى المدينة بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو ومَن آمن به ممن قَدَرَ على الهجرة، وقد أصبح المشركون بينهم مستضعفون من الرجال والنساء والولدان ممن آمن به ﷺ وهم لا يستطيعون حيلة للخروج،

يؤذونهم بأشد أنواع الأذى، ومع ذلك لم يعاجلهم الله بالعذاب العام كما فعل بالأمم السابقة ـ الذين ذكرتهم آنفاً ـ وفصلت أحوالهم فيما مضى من فصول.

قال ـ تعالى ـ في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ محرضا همّ المؤمنين على مقاتلة المشركين الذين يستضعفون إخوانهم من المؤمنين ويصدونهم عن دين الله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[2].

ولقد كان لهم إلف شديد بما هم عليه، ولم يكن من السهل عليهم أن يتركوا ما تعودوه، بل لقد وصل بهم الأمر إلى تحريم بعض الطيبات، مثل:

(البحائر) جمع بحيرة، وهي الناقة التي أَنتَجت خمسة أبطن آخرها ذكر، فإن أهل الجاهلية يبحرون أذنها، أي: يشقونها، ويمتنعون عن ركوبها وذبحها، ولا تُمنع عن ماء ولا مرعى.

و(السوائب) جمع سائبة، وهي أنهم كانوا في الجاهلية يقول الرجل منهم: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.

و(الوصيلة) وهي أنهم كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، ولم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية (٧٥).

و(الحام) وكانوا في الجاهلية إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره، فلا يُركب، ولا يُحمل عليه، ولا يُمنع من ماء ولا مرعى[١].

قال تعالى: ﴿ما جعل الله﴾ أي: ما شرع الله ﴿ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٢].

والمعنى: ما شرع الله تحريم هذه المباحات التي حرموها على أنفسهم ونسبوا تحريمها وامتناعهم عن الانتفاع بها إلى الله - جل وعلا - كذباً وافتراء، قال تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرُهم لا يعقلون﴾ فتوارثوا هذه العادات والمعتقدات عن آبائهم دون أن يُعمِلوا عقولهم، ويمعنوا في التفكير في حقيقة ما يفعلونه.

وبعد هذه المقدمة فأقول وبالله التوفيق: لقد أجملت سورة الأعراف أحوالهم تلك فقال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[٣] وقال جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٤] وقد سبق تفسير هذه الآيات بما يغني عن إعادتها[٥].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٨٦) وانظر: تفسير النسفي (١/٣٠٥).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٠٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

(٥) انظر: من ص (٥٦٠) إلى ص (٥٦٣) من بحثنا هذا.

ولقد امتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه بمجاهدتهم على هذا الدين جهاداً كبيراً، ولم يستجب لأيّة محاولة قُصِدَ بها ثنيه عن دعوته بحال من الأحوال رغم عِظم تلك المحاولات والمغريات[١] حتى قال ﷺ قولته المشهورة: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته**»[٢].

ولقد رسمت سورة الأعراف للنبي ﷺ المنهج السوي القويم الذي يتَّبعُهُ في معاملة الخلق كافة: مؤمنهم وكافرهم، فقال سبحانه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[٣].

ولقد التزم النبي ﷺ بهذا المنهج تمام الالتزام، فما من كافر معاند أتاه مسلماً إلا رق له ورفق به، وأظهر له من الجميل ما يحمل ذلك الكافر إما على نسيان ماضيه مع النبي ﷺ وإما على الاجتهاد في أمر هذا الدين ببذل غاية جهده في نصرته كما بذل من قبل غاية جهده في محاربته، وكم تألّف ﷺ قلوباً بكرائم الأموال على الإسلام.

---

(١) منها قول الوليد بن المغيرة لرسول الله ﷺ: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه.
انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للشيخ/ محمد أبو شهبة (١/٣١٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، (١/٢٨٥)؛ وانظر: السيرة النبوية تأليف أبي الحسن علي الحسن الندوي، ص(١٠٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿العفو﴾ على معانٍ كثيرة يروق لنا منها معنيان:

أولهما: (العفو) ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس.

ثانيهما: أن يراد بـ (العفو) ظاهره، أي: خذ العفو عن المذنبين، والمراد أعفَ عنهم، وفيه استعارة مكنية إذ شبه العفو بأمر محسوس يطلب فيؤخذ، وإلى هذا ذهب جمع من السلف[1].

فهـذا وحشي قاتل عمه حمزة أحب الناس إليه، ينيب ويسلم لله رب العالمين فيعفو عنه، ولا يستبشع ذنبه مع أنه بشع، ومع أنه ﷺ ما غضب في موطن كغضبه في هذا الموطن، لا سيما وقد مثّلوا به فبقروا بطنه وقطعوا كبده، فلما نظر إليه ﷺ كذلك ترحّم عليه وأثنى، ثم قال: «**والله لئن أظفرني الله بهم لأقتّلنَّ بسبعـين منهم مكـانـك**» ثم ذكـر قول الله تعـالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾[2] فاختار الصبر كما أمره الله، وكان ينهى عن المثلة[3]

وعفوه ﷺ عن المذنبين وتغاضيه عن أخطاء عتاة الكافرين أكثر وأشهر من أن يذكر، وقوله تعالى: ﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل معروف، وبكل خلق حسن، فإن مَن جفاك وعادى دعوتك لا يمكن إلا أن ينصاع لهذا المعروف الذي تأمر به، فإن المعروف محبب إلى كل قلب، أو المعنى: وأمر بكل ما أمرك الله به وعرفته من قِبل الوحي، وقد قام ﷺ بالأمرين جميعاً خير قيام؛ فهو المتمم

---

(١) انظر: تفسير الألوسي بتصرف (٩/١٤٦، ١٤٧).

(٢) سورة النحل: الآيتان (١٢٦، ١٢٧).

(٣) حدائق الأنـوار ومطلع الأسرار لابن الديبع الشيباني الشافعي، تحقيق الشيخ/ عبد الله الأنصاري، (٢/٥٢٧).

لمكارم الأخلاق، وهو الذي جاهد على هذا الدين جهاداً كبيراً كما أمره ربه، ولم تضعف عزيمته في ذلك ولم تهن مع شدة ما لاقاه من الأذى كما وصفت آنفاً.

وقوله: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ يعم المشركين وأهل الجهالة من المؤمنين، والدليل على شمول اللفظ للفريقين هو أن الوصف لازم لهما، فالكفر ناشيء عن الجهل، واللجوء إلى السفاهة والمخالفة من عصاة المؤمنين سببه الأول الجهل، قال الألوسي ـ رحمه الله ـ: «ولا يخفى حسن موقع هذا الأمر بعد ما عدّ من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق حمله، وإذا قيل بأن ﴿الجاهلين﴾ موضوع موضع ضمير أولئك المشركين ـ حيث إن الكلام فيهم تسجيلاً عليهم بعدم الارعواء، واقناطاً كلياً منهم، التأمت أطراف الكلام غاية الالتئام، وقد فسر هذه الآية للنبي ﷺ جبريل ـ عليه السلام ـ بعد أن سأل ربه عن معناها، فقال جبريل ـ عليه السلام ـ للنبي ﷺ: «**إن الله ـ تعالى ـ أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**»[1].

ويحسن أن أختم هذا الفصل بموقفه ﷺ من الطلقاء بعد أن مكّن الله له من فتح مكة، فإنه من أوضح التطبيقات لهذا المنهج الرباني الذي ذكرته سورة الأعراف.

إن الدروس التي لقنها ﷺ للإنسانية عامة، ولأهل مكة خاصة تكفي وحدها في إبراز ما نحن بصدده ـ بيان موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين ـ لقد دخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً، وكان المشركون قد أخرجوه منها وهي أحب بقاع الأرض إليه بعد أن أذاقوه فيها المتاعب، وبعد أن نكّلوا بأصحابه المستضعفين منهم وفعلوا بهم ما تقشعر له الأبدان، وتصطك منه

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١٤٧/٩).

الآذان، فماذا كان جزاؤهم عنده حين وقعوا في قبضته وضاقت بهم الأرض بما رحبت؟ قال لهم قولته المشهورة: «**لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء**» بل لقد قال ﷺ وألوية النصر تخفق من حوله، والمشركون باسطو أيديهم يلقون بالسلم: «**بل اليوم يوم المرحمة**» رد بها على سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ وقد استبد به نشوة الظفر وهو يردد: «اليوم يوم الملحمة» وهذا لو حدث لما كان فيه أي لائمة، فجزاء سيئة سيئة مثلها، والبادىء أظلم، ولكن نفسه العظيمة وأخلاقه الطاهرة التي لا أطهر منها لا تعرف الثأر، إنه لم يجيء لينتقم لنفسه، ولا ليثأر لأصحابه، إنما جاء وبُعث ليُعلي كلمة الله، والرحمة أنجح دواءٍ لجمع القلوب وتوحيد الصفوف، وهو الرحمة المهداة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1].

وتوالت بعد ذلك الفتوح ودان له العرب قاطبة، ولم يقبضه الله حتى راسل الملوك والأمراء ممن حوله يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وخرج لمقاتلة الروم في شمال الجزيرة العربية في غزوة تبوك، وظل هكذا مجاهداً صابراً محتسباً حتى نزل عليه قوله ـ جل وعلا ـ ينعي له نفسه ويخبره بدنو أجله ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٢) سورة النصر.

الفصـــل التاســـع

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ

الفصـل التاسـع

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ

تمهيد

لم يخلق الله - عز وجل - الإنسان عبثا في هذه الحياة - تعالى الله عن ذلك - بل خلقه ليؤدي رسالة أنيطت به، وضحتها الآية الكريمة في سورة الذاريات من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾[1].

ولقد ميز الله - جل وعلا - الإنسان عن سائر مخلوقاته بالعقل، وهو بمثابة المؤدب يأمره بالعدل فيما يجتنب ويجتلب، وإلى جانب ذلك ركّب فيه الهوى والشهوة، فكان نتيجة لذلك أن الناس كانوا على فريقين: مهتدٍ وضال، أو مؤمن وكافر، وبعث - جل وعلا - الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - دعاة هداة إلى الحق، فمن استمسك بشرعهم وهداهم وقبل دعوتهم واستنار قلبه فهو التقي السعيد، ومن أعرض عن هداية الله ورفض دعوة الرسل فهو الخاسر الشقي، وهكذا كان موكب الإيمان - موكب الأنبياء - عبر تاريخ الأمم والشعوب، من لدن نوح - عليه السلام - إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يدعون بلسان واحد إلى منهج ثابت لا يختلف، إلى إفراد الله بالعبادة ونبذ عبادة كل ما سوى الله، ويحذرونهم من كيد الشيطان وأتباعه وسلوك سبيله، ويذكرونهم باليوم الآخر وأنه حق لا ريب فيه، وفي ذلك اليوم يلاقي كل إنسان نتيجة عمله وسعيه؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) سورة الذاريات: الآيات من (٥٦) إلى (٥٨).

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾[1].

والمتمعن في دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ ومواقف أقوامهم منهم يجد أن الشبه بين ذلك واضحٌ ومتميز، ولأنني قد سبق أن فصلت القول فيها عند كل فصل من الفصول السابقة ـ حسب موضوع الفصل ـ. أكتفي الآن بالإشارة باختصار إلى مباديء دعوة كل نبي مؤيداً ذلك بالآية الكريمة التي تؤيد ما أشرت إليه، ومن ثَمّ الإشارة إلى وجه الشبه بين دعواتهم جميعاً ـ عليهم السلام ـ ثم أشرع في بيان موقف كل أمة من نبيها، واستنباط وجه الشبه بين مواقف الأمم جميعاً حسب ما ورد في سورة الأعراف وغيرها إن لزم الأمر؛ كل موقف بآية أو آيتين من كتاب الله.

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٣٥، ٣٦).

المبحث الأول
دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ لأقوامهم

أولا: دعوة نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ

أ ـ دعا قومه إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ ﴾ ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾(١).

ب ـ دعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر وحذرهم منه فقال: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾(٣).

جـ ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق وذلك أنه لم يقابل إساءتهم بمثلها عندما اتهموه بالضلال فقالوا له: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾(٤) فقال لهم: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾(٥) فلم يرمهم بالضلال مع أنهم كانوا متلبسين به.

د ـ دعاهم إلى تقوى الله واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾(٦).

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة نوح: الآيتان (١٧، ١٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٦١). (٦) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

ثانيا: دعوة هود - عليه السلام - لقومه:

أ - دعاهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[(1)].

ب - دعاهم إلى تقوى الله - عز وجل - حيث قال لهم بعد دعوتهم إلى توحيد الله - عز وجل -: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾[(2)].

جـ - دعاهم إلى مكارم الأخلاق لما تسافهوا عليه، ولم يقابل تطاولهم بوصفهم بما هم أهله من سوء الخلق، بل رد عليهم رداً جميلاً ينفي ما وصفوه به، ويبين لهم أنه رسول من رب العالمين، أرسله الله إليهم ليبلغهم رسالاته، وينصحهم بما يصلحهم في أولاهم وأخراهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾[(3)].

د - ذكّرهم بنعم الله عليهم وآلائه، قال تعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة﴾ أي: آتاكم هيئات عظيمة في أجسادكم، وقوّى بُنْياتِكم بحيث قَدْرِتُم على ما عجز عنه غيركم، وقوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾[(4)] أي: اذكروا نعمه الكثيرة عليكم، غير تلك النعمتين السابقتين فإن تذكركم يؤدي إلى فلاحكم.

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (٦٦) إلى (٦٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٩).

ثالثا: دعوة صالح - عليه السلام - لقومه:

أ - دعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾(١).

ب - ذكرهم بنعم الله - عز وجل - وآلائه، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾(٢).

جـ - حذرهم من الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾(٣).

د - دعاهم إلى مكارم الأخلاق، وواجههم بالرد المقنع على إنكارهم نبوته، وأنه لم يزد بالنبوة إلا رفعة وكمالاً، فإنهم كانوا يُجلّونه قبل النبوة ويعظمونه ويكبرونه لما تميز به من أخلاقه وسلوكه، قال - تعالى - في سورة هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾(٤).

رابعا: دعوة لوط - عليه السلام - لقومه:

أ - دعاهم إلى توحيد الله - عز وجل -، لكن القرآن الكريم لم يصرح بذلك بل ندّد بذكر فاحشتهم التي انفردوا بها عن سائر العالمين والتي بها من

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).
(٢، ٣) سورة الأعراف: الآية (٧٤).
(٤) سورة هود: الآيتان (٦٢، ٦٣).

الشناعة والقباحة ما لا يخفى.

ب - دعاهم إلى مكارم الأخلاق، وإلى ترك فاحشة اللواط التي كانوا يأتونها علنا في نواديهم، وأمرهم أن يأتوا ما أباحه لهم من نسائهم، وأن ينتهوا عن كل منكر وخلق قبيح كانوا يفعلونه، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾(١).

جـ - نهاهم عن قطع السُبل والتعرض لأرواح وأموال الناس وأعراضهم، وقد أشارت إلى ذلك سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾(٢).

خامسا: دعوة شعيب - عليه السلام - لقومه:

أ - دعا قومه إلى نبذ عبادة الأصنام وإخلاص العبادة لله الواحد القهار، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾(٣).

ب - أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾(٤).

جـ - نهاهم عن بخس الناس حقوقهم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨٠، ٨١).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٥).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

د ـ نهاهم عن الإفساد في الأرض: قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾(٢).

هـ ـ نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(٣).

و ـ ذكرهم بنعم الله عليهم وآلائه، ولا سيما أنه كثّر عددهم فأصبحوا كثرة يهابهم من حولهم من الأعداء، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾(٤).

سادساً: دعوة موسى ـ عليه السلام ـ

أولا: دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ: قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٥) فهاتان الآيتان مصرحتان بأنه لارب في الوجود جدير بأن يعبد سوى الله ـ عز وجل ـ خالق الخلق وموجدهم.

ب ـ دعاهم إلى عدم الظلم الذي كان منتشراً بينهم حيث كانوا يستعبدون الإسرائيليين، ويجعلونهم في أردأ وأسوأ الأعمال وأشقها، كما أمر فرعون

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٦).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٦).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٦).
(٥) سورة الأعراف: الآيتان (١٠٤، ١٠٥).

مَن تحته مِن المصريين والإسرائيليين بعبادته من دون الله، قائلاً لهم ما حكاه الله على لسانه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[١].

جـ - نهاهم عن الإفساد في الأرض، فقال - تعالى - مخاطباً نبيه محمداً - ﷺ - يقص عليهم خبرهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[٢].

د - دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[٣].

ثانيا: دعوة موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل:

أ - دعاهم إلى توحيد الله - جل وعلا -. قال تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[٤].

ب - ذكرهم بنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾[٦].

جـ - تحذيرهم من اتباع مسالك الهالكين والضالين، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).
(٣) سورة غافر: الآية (٢٧).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٠).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤١).
(٦) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[1].

د ـ تحذيرهم من التكذيب بآيات الله ـ عز وجل ـ ولا سيما اليوم الآخر وأن ذلك يؤدي إلى إحباط أعمالهم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[2].

هـ ـ دعاهم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[3] كما دعاهم إلى التمسك والمحافظة على الصلاة لأنها عماد الدين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[4].

سابعا: دعوة خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ لقومه:

أ ـ دعا ﷺ قومه إلى التوحيد وهجر عبادة الأصنام التي كانت منتشرة بين قبائل العرب، ودعاهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم الذي أنزله الله بواسطة الوحي على قلب نبيه ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[5] وقد عضّد دعوته لهم بلفت أنظارهم إلى بعض الظواهر

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٦).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧٠).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٣).

الكونية التي لها علاقة وثيقة بحياتهم اليومية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

ب - دعاهم ﷺ إلى مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ . . . ﴾[2] الآية.

جـ - حذرهم من مكايد الشيطان وفتنه، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

د - دعوته ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، وأن وقوعه حق لا ريب فيه، وفيه يُجازَى كلُ إنسان بعمله، وضَرَبَ القرآن لذلك الأمثال المشاهدة في بيئة العرب وغيرهم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[4]

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٢٨، ٢٩).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٧).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

هـ- تذكيرهم بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾(١).

ونكتفي بهذا القدر؛ طلباً للاختصار.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٠، ١١).

وجه الشبه بين دعوات الرسل

والمتمعن في دعوات الرسل من خلال العرض الموجز الذي ذكرناه آنفاً يجد التشابه واضحًا إلى حد كبير، ونستخلص من ذلك ما يلي:

أولاً: إن الأنبياء جميعاً بُعثوا من أجل إعلاء كلمة التوحيد، وجاهدوا وكابدوا أهل الباطل من أجل إقناعهم وإفهامهم حقيقة ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[2].

ثانياً: دعوتهم جميعاً إلى مكارم الأخلاق، وزجرهم عن ارتكاب كل ما هو مستقبح.

ثالثاً: تذكيرهم بنعم الله وآلائه لأن تلك النعم والآلاء من أهم العوامل التي تؤدي إلى إيمان الأمم.

رابعاً: دعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه، فمن ثقلت فيه موازينه فأولئك الذين أصابوا الفلاح والسعادة، ومن خفت فيه موازينه فأولئك الذين ظلموا أنفسهم وجَنَوْا لها الخسارة والعذاب والهلاك.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

المبحث الثاني
مواقف الكافرين المعاندين من دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ

أولاً: موقف الكافرين من دعوة نوح ـ عليه السلام ـ

أ ـ تكذيبهم بما جاء به نبيهم ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾(١)

وقال ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾(٢) والخطاب في الآية لنوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن به.

ب ـ رميُ نبيهم بما هو بريء منه وذلك بوصفه بالضلال، وكِبرُهم واستعلاؤهم على نبيهم، وكذلك وصفهم له بالجنون: أما رميهم له بوصفه بالضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾(٣) وأما كبرهم واستعلاؤهم على نبيهم فقد أشارت إليه الآية الكريمة في سورة هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾(٤) ولقد رموه بالجنون، وأشارت سورة المؤمنون إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

(٢) سورة هود: الآية (٢٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٠).

(٤) سورة هود: الآية (٢٧).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٢٥).

جـ - إنكارهم بعث رسول بشراً وتعجبهم من ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾(١) وقال - تعالى - في سورة هود: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾(٢) وكانوا يعتقدون أن الملائكة أولى بالرسالة من نبيهم.

د - كذبُهُم وافتراؤهم على نبيهم بدعواهم أن ما جاءهم به نوح - عليه السلام - لم يسمعوا به في آبائهم، ولم يخبروهم عن ذلك أي خبر، وذلك منهم جحود وتكذيب وعناد، قال - تعالى - في سورة المؤمنين: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٣).

هـ - طلبهم العذاب من نبيهم قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾(٤).

ثانيا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم هود - عليه السلام - :

أ - تكذيبه فيما جاء به، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾(٥).

ب - طلبهم العذاب، وهذا منهم نهاية التكذيب والتحدي لنبيهم، وقصدوا بذلك أنه إن لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذباً(٦) قال تعالى: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٧).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).
(٢) سورة هود: الآية (٢٧).
(٣) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).
(٤) سورة هود: الآية (٣٢).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٦٦).
(٦) انظر: ص(٢٣٠) من بحثنا هذا.
(٧) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

جـ - طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه ولم تصرح سورة الأعراف بطلبهم هذا وقد صرحت به سورة هود عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[١] أي: جئتنا بحجة وبرهان قاطع على ما تدعيه.

د - رمي نبيهم بما هو بريء منه وهو قذفه بالجنون، وهذه الفرية أيضاً لم تصرح بها سورة الأعراف وذكرتها سورة هود في قوله - تعالى -: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[٢] أي: أخبلك ومسك بالجنون[٣].

هـ - تكذيبهم بيوم البعث والجزاء، قال - تعالى - حكاية عن قوم هود: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٤].

و- إنكارهم لبشريته، قال - تعالى -: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٥] وقصدوا أن البشر لا يصلحون لأن يكونوا أنبياء بل يجب أن يرسل الله لهم ملكاً من السماء.

ثالثا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم صالح - عليه السلام -

أ - كذّبوا نبيهم فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[٦]... الآية. وهذا منهم تكذيب بدعوته، وقال - تعالى -

---

(١) سورة هود: الآية (٥٣).
(٢) سورة هود: الآية (٥٤).
(٣) انظر: ص(٢٣٤) من بحثنا هذا.
(٤) سورة المؤمنون: الآية (٣٥).
(٥) سورة المؤمنون: الآية (٣٤).
(٦) سورة الأعراف: الآية (٧٥).

في سورة القمر حكاية عن قوم صالح -: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[١] أي: بطر متكبر، حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك[٢] وقال تعالى في سورة هود: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾[٣].

ب - استنكروا بشريته، وطلبوا أن يكون المرسل إليهم جنساً أعلى من البشر وهم الملائكة، وقد وضحت هذا الاستنكار سورة القمر، قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[٤] أي: جنون أو عناء. فهو اسم مفرد، وقيل: جمع سعير، كأنهم عكسوا عليه فرتّبوا على اتباعهم إياه ما رتّبَهُ على عدم اتباعهم له[٥].

جـ - كذبوا بالبعث، ولم تذكر سورة الأعراف ذلك صراحة لكن سورة الشعراء ذكرت إنكار نبيهم عليهم جحودهم للنعم العظيمة التي حباهم الله بها، والتي لم تزدهم إلا بطراً وكفراً وبُعْداً عن اتباع الحق، ونسياناً للبعث واليوم الآخر، فقال تعالى: يقص علينا إنكار نبيهم صالح عليه السلام ذلك: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾[٦].

د - رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأن السحرة أثّروا على عقله بعد أن

---

(١) سورة القمر: الآية (٢٥).
(٢) تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤).
(٣) سورة هود: الآية (٦٢).
(٤) سورة القمر: الآية (٢٤).
(٥) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤)، وتفسير القاسمي، (١٥/ ٢٦٩).
(٦) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٨).

سحروه كثيراً حتى صار يتكلم بما لا يعقل ولم يسمعوا قطّ كلامه من قبل، وقد بينت هذه الفرية سورة الشعراء عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾(١) أي: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله(٢).

هـ - طلبهم المعجزة الحسية التي تؤيد صدقه فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ ﴾(٣) وقد كان هذا بطلب منهم كما أشارت إلى ذلك آية الشعراء، قال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ ﴾(٤) أي: ائتنا بآية حسية خارجة عن نطاق العادة تؤيد صدقك فيما جئتنا به.

و- طلبهم العذاب، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ ﴾(٥) أي: بما تعدنا من العذاب.

رابعاً: موقف الكافرين المعاندين من دعوة لوط - عليه السلام -

أ - تكذيب نبيهم في ما جاءهم به، ولم تصرح سورة الأعراف بالتكذيب صراحة إنما يُفهم ذلك من المعنى العام لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(٦) وقال - تعالى - في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ ﴾(٧)

---

(١) سورة الشعراء: الآية (١٥٣).
(٢) تفسير النسفي (٣/١٩٢).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).
(٤) سورة الشعراء: الآية (١٥٤).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٧).
(٦) سورة الأعراف: الآية (٨٢).
(٧) سورة الشعراء: الآية (١٦٠).

وقـال ـ تعالى ـ في سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾[١].

ب ـ طلبهم العذاب وتهكمهم على نبيهم، قال ـ تعالى ـ في سورة العنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٢].

خامسا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ

أ ـ تكذيبه فيما جاء به، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[٣].

ب ـ رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأنه مسحور، قد أفسد السحرُ عقله وتفكيره فأصبح يتفوّه بما لا يعرف وما لم يسمعوا به قط من قبل، قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[٤]

جـ ـ أنكروا بشريته واتهموه بالكذب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[٥].

د ـ استكبروا على نبيهم لأنه جاءهم بما يخالف أهواءهم وهددوه بطرده وإخراجه من قريتهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ﴾[٦]... الآية.

---

(١) سورة القمر: الآية (٣٣).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٩٢).

(٤) سورة الشعراء: الآية (١٨٥).

(٥) سورة الشعراء: الآية (١٨٦).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

هـ - تهكّموا به واستهزأوا بدعوته، ولم تتعرض سورة الأعراف لهذا الخلق السيء الصادر منهم، وقد ذكرته سورة هود عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

و- اتهامه بالضعف في منطقه فلم يفهموا دعوته، وتهديده برجمه بالحجارة، قال - تعالى - أيضاً في سورة هود: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[2].

ز- استعجالهم للعذاب، قال تعالى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[3].

سادساً: موقف الكافرين المعاندين من دعوة موسى - عليه السلام -

أولا: موقف فرعون وقومه من دعوة نبيهم موسى - عليه السلام -:

أ - تكذيبه وعدم تصديقه فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[4].

ب - رميه بالسحر، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[5].

جـ - مخادعتهم لنبيهم ونقضهم لعهودهم، قال تعالى -: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ

---

(١) سورة هود: الآية (٨٧) انظر: ص (٣٣٨، ٣٣٩) من بحثنا هذا.
(٢) سورة هود: الآية (٩١).
(٣) سورة الشعراء: الآية (١٨٧).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٠٦).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾(١).

ثانيا : موقف بني إسرائيل من دعوة نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ:

أ ـ ميل نفوسهم إلى عبادة الآلهة من دون الله رغم عِظَم النعم التي حباهم الله بها، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾(٢).

ب ـ عبادتهم للعجل من دون الله ـ عز وجل ـ أثناء غيبة موسى ـ عليه السلام ـ عنهم لتلقى التوراة من ربه ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾(٣).

جـ ـ كفرهم بنعم الله عليهم وظلمهم لأنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾(٤)

وقال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ

---

(١) سورة الأعراف: الأيتان (١٣٤، ١٣٥).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾(١).

د ـ تبديلهم القول والكلم غير الذي أمروا به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾(٢).

هـ ـ مخالفتهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ فيما يأمرهم به، وقد ذكرت ذلك سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٣).

و ـ امتناعهم عن الأخذ بتعاليم الله وتهديدهم برفع الطور على رؤوسهم ورميه عليهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).
(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١، ١٦٢).
(٣) سورة المائدة: الآيات من (٢١) إلى (٢٤).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

سابعا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة النبي المصطفى ﷺ:

أ - تكذيبه فيما جاء به ﷺ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾(٢).

ب - عدم تفكرهم في حاله مما أداهم إلى اتهامه ﷺ بالجنون والسحر والشعر والكهانة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾(٤).

أما اتهامهم له ﷺ بالسحر فالآيات على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾(٥)

وجعلوا كذلك الآيات البينات التي جاء بها نبيهم من عند الله لهدايتهم بمثابة السحر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾(٦) أما اتهامهم له بالشعر والجنون، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾(٧) وقد

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٦).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٢).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).
(٤) سورة القلم: الآية (٥١).
(٥) سورة يونس: الآية (٢).
(٦) سورة الأحقاف: الآية (٧).
(٧) سورة الصافات: الآية (٣٦).

نفى الله عنه كون أن ما جاءهم به من قبيل الشعر، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[1] وقد نسبوه أيضاً ﷺ إلى أنه كاهن مجنون ـ وحاشاه ﷺ من ذلك ـ قال تعالى:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾[2].

جـ ـ تكذيبهم للبعث، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾[3].

د ـ تعنتهم بطلب الآيات الدالة على صدق رسالته بعد أن تبين لهم إعجاز القرآن، وأنهم عاجزون كل العجز أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[4] أي: تفجر لنا من أرض مكة عيناً غزيرة من شأنها أنها تنبع بالماء ولا تنقطع ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[5] أي: قطعاً، يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[6] ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾[7] أي: كفيلا بما تقول شاهداً بصحته

---

(١) سورة يس: الآية (٦٩).
(٢) سورة الطور: الآية (٢٩).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٥١).
(٤) سورة الإسراء: الآيتان (٨٩، ٩٠).
(٥) سورة الإسراء: الآيتان (٩١، ٩٢).
(٦) سورة سبأ: الآية (٩).
(٧) سورة الأسراء: الآية (٢٩٢).

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ أي: ذهب ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي: تصعد إليها ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا ﴾ أي: من السماء فيه تصديقك ﴿ نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1]

هـ - إنكارهم بشريته ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ ﴾ يعني: أهل مكة ﴿ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ أي: النبي والقرآن ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[2] أي: إلا شبهة تمكنت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر[3].

و - استعجالهم العذاب، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[4] واستعجال المشركين للعذاب بهذه الألفاظ يصوّر لنا منتهى العناد الذي واجهوا به الحق، وأبوا كل الإباء أن يُذعنوا له ويستسلموا لسلطانه فلم يسعهم أمام هذا الكبر والتأبي عن قبول الحق إلا أن يسألوا الله - وقد سمعوا آياته وحججه على لسان نبيه ﷺ - أن يصيبهم بالعذاب العاجل، وهـذا شأن الفطرة إذا انعكست عن كونها فطرة سوية؛ إذ شأن الفطرة السليمة عندما تنزل بها غمة الشبهة ويلتبس عليها الأمر أن تسأل الله - تعالى - أن يكشف ما بها، وأن يهديها إلى الحق الذي عمي عليها معرفته لعل الله يدركها برحمته فيقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهـدنا إليه وأرشدنا طريقه؛ لكنهم أخذتهم العزة بالإثم فآثروا الهلاك العاجلَ على الخضوع للحق[5].

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٩٢، ٩٣).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٩٤).
(٣) تفسير النسفي (٢/٣٢٧).
(٤) سورة الأنفال: الآية (٣٢).
(٥) انظر: معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي (٢/٦٩٦).

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

إن المتمعن في مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل ـ والتي استعرضتها لك بإيجاز ـ يجدها تكاد تكون متشابهة إلى حد كبير جداً، وإليك أوجه الشبه التي تشابهت فيها مواقفهم تجاه رسلهم ـ عليهم السلام ـ.

أولاً : التكذيب فيما جاءتهم به رسلهم من عند الله وهذا ملاحظ في قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وخاتمهم نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم أجمعين ـ وغيرهم ممن لم تذكرهم السورة الكريمة. ويؤيد قولي هذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ أي: متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد[1] ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾[2] أي: أمعنوا في تكذيبهم ومعاندتهم وإصرارهم على الكفر مدلين بحجج هي أوهى من بيوت العنكبوت، وكان يتزعم أولئك المكذبين «الملأ» وهم كما ـ أسلفت ـ أصحاب النفوذ والوجاهة والغنى.

ثانياً : إنكار الأمم جميعاً لبشرية أنبيائهم وكانت هذه إحدى شبهات الأمم التي أثاروها لإنكار رسالة أنبيائهم، ونلاحظ ذلك في موقف قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، ونبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ. اقرأ الآيات في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

(١) الكشاف للزمخشري (٣/٣٣).

(٢) سورة المؤمنون : الآية (٤٤).

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[١].

ثالثاً: تكذيبهم للبعث وعدم إيمانهم باليوم الآخر، وإن من الأصول العقائدية التي أجمعت عليها الديانات السماوية هي قضية البعث وإمكانية وقوعه، وهذه القضية كانت راسخة في قلوب جميع المكذبين للرسل، وكانوا يستبعدون البعث كل الاستبعاد وينكرون اليوم الآخر وما فيه من أحداث كل الإنكار، ولا يؤمنون بذلك البتة، لذلك كانت دعوة الأنبياء جميعاً إلى ترسيخ البعث واليوم الآخر في قلوب أقوامهم شاغلَهم الأول بعد قضية التوحيد واجتهدوا في ذلك وسعهم، ولقد مرّ بنا قريباً إنكارُ كلِّ أمة من الأمم للبعث وكفرهم باليوم الآخر بما يغني عن إعادته هنا.

رابعاً: اتهامهم لأنبيائهم بما يشينهم ويقلل من مكانتهم، وهذه الرذيلة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، فجميع الرسل ـ عليهم السلام ـ واجهوا من أممهم شتى أنواع التهم والافتراءات الكاذبة، وهذه التهم لا تكون من المكذبين إلا عند عجزهم عن مواجهة أنبيائهم الذين أيدّهم الله بالحجج والآيات والمعجزات الباهرة فيقفوا مكتوفي الأيدي، فعندئذٍ يلجأ أهل الباطل إلى رمي أنبيائهم بالضلال والسفاهة والكذب والسحر والكهانة والجنون، وغير ذلك من

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٩، ١٠).

التهم التي يلصقونها بأنبيائهم، وهم أبعد ما يكونون عنها بل هم صفوة خلق الله الذين اصطفاهم الله لإبلاغ شرعه وهدايته، واختارهم وطهّرهم لأداء رسالته، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾[1] وقد بيّنا ذلك في العرض الموجز لمواقف الأمم مع أنبيائهم بما يغني عن الإعادة.

خامساً: طلبهم للآيات تعنتاً، وقد جرت سنة الله - تعالى - أن لا يبعث رسولاً إلا ويؤيده بالآيات البينات الدالة على صدق دعواه لتلزم بذلك الحجة على الناس، وكان موقف الأمم من رسلهم إزاء هذه الآيات البينات التكذيب والتعامي عن الحق، والإصرار على الكفر مع وضوح الحجة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٠١ ﴾[2]

هكذا كان موقف الأمم مع أنبيائهم - عليهم السلام - التكذيب بآيات الله الواضحة لمّا جاءتهم مع العلم بأن الذي حملهم على التكذيب ليس هو خفاء الآيات في ذاتها، أو ضَعْفُ البرهان والحُجّة فيها، بل هي الرغبةُ في الإعراض عن الحق؛ إما عناداً واستكباراً وهذا ما يحصل من أكابر القوم، وإما تقليداً وتمسكاً بما كان عليه الآباء وهذا ما يحدث من عامتهم ممن عميت بصائرهم عن رؤية الحق، وعلى الرغم من وضوح الآيات التي يأتي بها الرسل - عليهم الصلاة والسلام - نجد أن هؤلاء الكفار لا يكتفون بها في الاستدلال على صدق الرسل، لكنهم يطلبون منهم آيات أخرى حتى لَكأنّ الرسل لم يأتوا بشيء من الآيات، ومرادهم من ذلك ليس الاهتداء إلى الحق بل يطلبونها لمجرد التعنت، ولذلك كانوا إذا أجيبوا إلى طلبهم ثم لم يؤمنوا يعاجلهم الله - سبحانه - بالعقوبة

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢، ٥٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠١)

الرادعة، يقول ـ تعالى ـ مشيراً إلى تعنت الأمم بطلب الخوارق والآيات وعدم الاكتفاء بما أيد الله ـ تعالى ـ به رسله من الحجج[1] ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[2] قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «﴿بسلطان مبين﴾ أي: بحُجَّةٍ بيِّنةٍ، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات ـ كما ذكرت ذلك أول الآية الكريمة ـ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً»[3].

سادساً: طلبهم إنزال العذاب، فمن مواقف الأمم مع أنبيائهم أسلوب التحدي لهم وطلبهم إنزال العذاب العاجل عليهم، وهذا يحمل في طيّه التكذيب للرسل وكأنهم يقولون لرسلهم: لستم صادقين في دعواكم وبالتالي كيف تكونون صادقين في وعيدكم؟ قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم نوح: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[4] وقال ـ تعالى ـ مشيراً إلى طلب قوم هود ـ عليه السلام ـ للعذاب:

---

(١) انظر: معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي، (٢/٦٦٨، ٦٦٩).

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان (٩، ١٠).

(٣) تفسير النسفي (٢/٢٥٦).

(٤) سورة هود: الآية (٣٢).

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1] وقد طلب العذاب أيضا قوم صالح - عليه السلام -: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾[2] وطلب العذاب كذلك قوم لوط وشعيب وطلبت قريش العذاب أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

المبحث الثالث
كفر كل أمة ومعصيتها ونوع العقاب الذي عوقبت به

لقد اجتمعت الأمم قاطبة على الكفر بالله ـ عز وجل ـ والكفر بالآيات والكتب التي أنزلها الله لهدايتهم، كما جمعوا إلى الكفر الذي هو أقبح المعاصي معاصي أخرى كثيرة.

وتنوع عقاب الله ـ جل وعلا ـ للكفرة الملحدين المعاندين لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ كل بما تقتضيه إرادته وحكمته فهو ـ جل وعلا ـ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾[1] وله الحكمة البالغة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾[2].

وسأشرع في بيان معصية كل أمة وعقاب الله الرادع لها.

أولا: قوم نوح ـ عليه السلام ـ:

وقد أصر قوم نوح على تكذيب رسولهم، وعلى كفرهم وعنادهم، وعبادتهم آلهتهم من دون الله كانت نهايتهم الغرق، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾[3].

ثانيا: قوم هود ـ عليه السلام ـ:

ولقد أصر قوم هود ـ عليه السلام ـ على كفرهم وعبادتهم لأصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، وتبجَّحوا على نبيهم بطلبهم العذاب كما أشار إلى

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).
(٢) سورة يونس: الآية (٤٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾(١) فأنزل الله عليهم عذابه، ونجّى الله نبيه ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾(٢) وقد فصّلت ذلك العذاب سورة الحاقة، قال تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ أي: شديدة الصوت، أو: باردة فهي تحرق من شدة بردها ﴿عاتية﴾ شديدة العصف ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ أي: متتابعة لا تنقطع، أو أنها حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾ أي: جثثا هامدة، وصرعى جمع صريع ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي: ساقطة أو بالية ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾(٣) أي: إن الريح أهلكتهم واستأصلتهم فلم تبقِ منهم أثراً(٤).

ثالثا: قوم صالح - عليه السلام -

أما قوم صالح - عليه السلام - أصحاب الحجر - فكانوا أيضاً يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، فلما استعصوا على نبيهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وجحدوا آياتِ ربهم، وعتوا عن أمر ربهم، وتحدوا نبيهم بأن يأتيهم ما يعدهم به من العذاب عاقبهم الله - جل وعلا - بالرجفة وهي الزلزلة الشديدة التي أماتتهم وهم في أماكنهم لا يستطيعون دفع ذلك عنهم، قال

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٠).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٢).
(٣) سورة الحاقة: الآية (٨).
(٤) انظر: تفسير النسفي بتصرف، (٤/ ٢٨٦).

تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾[1].

رابعا: قوم لوط - عليه السلام -

أما قوم لوط - عليه السلام - فكانوا أيضاً كفرة ملحدين عبدة للأصنام فجاءهم نبيهم لوط - عليه السلام - من عند الله لهدايتهم، ودعوتهم إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والتخلي عما عرفوا به من قبيحتهم[2] والتي لم تعرف فيمن سبقهم من العالمين، لكنهم أصروا وتمادوا في طغيانهم وراودوه عن أضيافه يريدون فعل الفاحشة بهم، فقلب الله عليهم قريتهم فجعل عاليها سافلها بعد أن رفعها إلى السماء وألقى بها على الأرض، ثم أكمل عليهم بأن أمطر عليهم مطراً من حجارة مخصصة ومعدة لتعذيبهم وملائمة لفظاعة فاحشتهم، فردمتهم وأهلكتهم ودفنتهم هم وفجورهم وفسادهم، قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾[3] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[4]

خامسا: قوم شعيب - عليه السلام -

وأيضاً كان الشرك بالله وعبادة الأصنام عبادتهم التي كانوا يألفونها ويعتنقونها بالإضافة إلى أخلاق شاعت فيهم اتخذوها دستوراً لحياتهم، يرونها مظهراً من مظاهر طغيانهم، وسبباً لنماء ثروتهم، ذلك أنهم كانوا ينقصون الكيل والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ويصدون عن سبيل الله، ويمنعون

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٢) ألا وهي فاحشة اللواط.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٤).

(٤) سورة هود: الآيتان (٨٢، ٨٣).

الناس عن الاستجابة لما فيه هدايتهم فعاقبهم الله - جل وعلا - بالرجفة - الزلزلة الشديدة - التي صاحبها صوت شديد فلم تبقِ في حي حياة ﴿فأصبحوا في دارهم جـثمين﴾ أي: خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة.

سادسا: معصية قوم فرعون وعقاب الله لهم:

وفرعون كفر بالله وطغى وتجبر، وأمر الناس بعبادته من دون الله، قائلاً لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾[1] وظلم مَن تحته من بني إسرائيل أشد الظلم، فقتل أبناءهم، واستحيا نساءهم، وأنزل بهم من البلاء ما لا يوصف، فأرسل الله إليه نبيه موسى - عليه السلام - يدعوه إلى عبادة الله وحده وترك الظلم، وأن يسمح له بإخراج بني إسرائيل من مصر كي يعود بهم إلى الأرض المقدسة - أرض آبائهم - ليعبدوا الله فيها، وليستردوها من أيدي العمالقة الذين طغوا فيها، فأبى وكذّب وعصى، فأراه الآيات الدالة على صدقه لكنه أصرّ على الكفر والتكذيب، فكانت نهايته الغرق في اليم هو وجنوده، وقد نجّى الله بدن فرعون من الغرق ليكون عبرة لمن لم يدركه الغرق من قومه ولمن يأتي بعدهم، قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ ﴾[2].

---

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

معاصي بني إسرائيل وعقاب الله لهم

أولاً : جحدوا نعم الله عليهم ؛ فبعد أن أنعم الله عليهم بنجاتهم من فرعون وخلصهم من الذل والاستعباد، وتقتيل الأبناء واستحياء النساء وإهلاك عدوهم ـ فرعون ـ أمام أعينهم طلبوا من نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[1].

ثانياً : اتخاذهم العجل في أثناء غياب موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة وعبادتهم له من دون الله، قال جل شأنه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[2].

وقد عاقبهم الله ـ جل شأنه ـ على ذلك بعقوبتين هما: الغضب والذلة في الحياة الدنيا[3] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٣) انظر: ص (٥٠٩) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الاية (١٥٢).

ثالثاً: تبديلهم ما أمرهم به الله من القول والفعل عند دخولهم الأرض المقدسة، وذلك أن الله أمرهم أن يقولوا: ﴿حطة﴾ أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزأوا وقالوا: حنطة في شعيرة، وأمروا أن يدخلوا الباب سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤوسهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾[1].

وقد عاقبهم الله ـ عز وجل ـ على ذلك بأن أرسل عليهم رجزاً من السماء لاستمرارهم على الظلم والفسق، وقد اختلف في المراد بالرجز فقيل: الطاعون، وقيل: عذاب عام أهلك الظالمين منهم، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[2]

رابعاً: نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3].

وقد عاقبهم الله ـ جل وعلا ـ لنقضهم الميثاق بأن رفع عليهم جبل الطور وصار كالمظلة على رؤوسهم ليحملهم على الاستمساك بذلك الميثاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦١).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٢).
(٣) سورة البقرة: الآية (٨٣).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

خامساً: تعدِّيهم على محارم الله، وذلك باصطيادهم في اليوم الذي حَرَّم عليهم الصيد فيه، وذلك أنهم اختاروا لأنفسهم يوم السبت للعبادة فابتلاهم الله - جل وعلا - بأن تأتيهم حيتانهم في يوم سَبْتِهم ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

ولما أصروا على معصيتهم مسخهم الله قردة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾[2].

والمتمعن في تاريخ بني إسرائيل على مرِّ السنين يجدهم أنهم لم يَدَعُوا أيَّ جناية أو جريمة إلا فعلوها؛ فقد تعدَّوا على مقام الألوهية الأسنى، وتجنَّوا على أنبيائهم بالقتل والقذف والاعتداء، وحرَّفوا كتبهم، وأكلوا الربا، وأثاروا نار العداوة والتفرقة بين الأمم أينما حلوا أو ارتحلوا فحقت عليهم لعنة أنبيائهم وسخط ربهم، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٦).

(٣) سورة المائدة: الآيات من (٧٨) إلى (٨٠).

معصية قريش والعرب ممن حولهم

كان معظم العرب وثنيين يعبدون الأصنام من الحجارة[1] والأوثان والأنصاب بل كان بعض معبوداتهم الأشجار، ومن العرب من كان يعبد الملائكة ويسميها بنات الله، ومنهم من كان يعبد الجن زاعماً أن بينها وبين الله نسباً وصهراً، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[3].

وأنكروا البعث، والآيات على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[4] ولقد حرّموا على أنفسهم الكثير مما أباحه الله، وأحلوا كثيراً مما حرمه الله، فضلاً عما كان منتشراً

---

(١) يرى فريق من العلماء أن أول من أدخل الأصنام إلى بلاد العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي، قدم بها من الشام أيام العماليق فنصبها على الكعبة ومنها هبل. انظر: السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة (١/ ٧٠).

(٢) سورة الصافات: الآيات من (١٤٩) إلى (١٥٤).

(٣) سورة الصافات: الآية (١٥٨).

(٤) سورة المؤمنون: الآيات من (٣٥) إلى (٣٧).

بينهم من الفواحش والرذائل ووأد البنات كما أخبر عنهم ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[1] فبعث الله إليهم خاتم رسله ﷺ لهدايتهم ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، ورغم أن قريشاً كانت أشد عناداً ممن سبقها، ورغم أنها استعجلت العذاب كما استعجل الأمم السابقون إلا أنه ـ جل وعلا ـ لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم ينزل على هذه الأمة عذاب الاستئصال كما فعل بالأمم السابقة ويرجع ذلك إلى أمرين:

الأمر الأول: اهتمام هذا النبي الرؤوف الرحيم بأمته ورحمته بها؛ فإنه لم يفتر لسانه عن مناجاة ربه وتضرّعه وتوسله إلى ربه بأن يهدي قومه، ويجنبهم مزالق الغواية، والأدلة على ذلك كثيرة أسوق منها قصته ﷺ مع أهل الطائف عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، فإنهم رجموه بالحجارة حتى أدمَوا عقبه وسال دمه الزكي على أرض الطائف، ثم غادرها رسول الله ﷺ وهو مهموم النفس مكلوم الفؤاد وهو يدعو ﷺ الدعاء المشهور: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى[2] حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[3] وتابع سفره ﷺ إلى مكة حزيناً فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب[4].

---

(١) سورة التكوير: الآيتان (٨، ٩). (٢) أي: الاسترضاء.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦١، ٦٢).

(٤) أي: لم يفطن لنفسه وينتبه لحاله وللموضع الذي ذهب إليه إلا وهو بقرن الثعالب، وهو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد.

وهنا نقف ونذكر بقية ما حدث من صحيح مسلم كما حدّثت بذلك السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين سألت رسول الله ﷺ قائلة: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال ﷺ: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال[1] فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا جبريل فناداني، فقال: إن الله ـ عز وجل ـ قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم» قال ﷺ: «فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»[2] فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا»[3].

فهذه القصة توضح مبلغ رحمته ﷺ بأمته وقد جاء في بعض الروايات: «فقال له ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم»[4].

الأمـر الثـاني: إن الله ـ جل وعلا ـ ما كان ليعذب أمته ﷺ وهو بين أظهرهم لكرامته على ربه ـ جل وعلا ـ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[5] وهـذا هو الأمان الأول لهذه الأمة، وقد جعل الله لها أماناً ثانياً بعد

---

(١) وهو من أشراف ثقيف من أهل الطائف.

(٢) جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله قعيقعان.

(٣) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووي، (١٢/١٥٤، ١٥٥).

(٤) انظر: السيرة الحلبية، (٢/٥١-٥٨) والسيرة النبوية للدكتور محمد أبو شهبة، (١/٤١٧).

(٥) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

التحاق نبيها ﷺ بالرفيق الأعلى ألا وهو الاستغفار، قال تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ واختُلف في تفسيرها؛ فقال بعضهم: المعنى: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون، فاللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد: وإن بعضهم، وقال آخرون: المراد: ما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه، فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم، وقال بعض أهل العلم: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب، وقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله والاستغفار، أما النبي فقد مضى وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة.

الفصـــل العاشـــر

الصراع كما تراه وتصوره النظريـات الحديثـة

الفصـــل العاشـــر
الصراع كما تراه وتصوره النظريـات الحديثـة

مقدمـة :

- نشأة النظريات القديمة والحديثة .
- نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع .
- الصراع عند هيجــل .
- الجدلية في منظار الماركسية (كارل ماركس) .

نظريات التطـور:

أ ـ نظرية لامارك .

ب ـ نظرية داروين .

جـ ـ نظرية داروين الحديثة للعالم الهولندي Hugode Veries .

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة :

نشأة النظريات القديمة والحديثة :

انصرف العقل البشري منذ فجر التاريخ إلى التأمل في حقيقة الوجود وما فيه من بدائع المخلوقات فضلاً عن التأمل في ذاته وأصله ومآله، وقد سلك هذا التفكير طرائق ضمن ألوان من التخبط الفكري سرعان ما اتخذ ديانات ومِللاً ومظاهر فلسفية مختلفة انعكست على شكل معتقدات كثيرة اعتنقتها أمم وشعوب شتى، ولكن الحق - جل وعلا - لم يدع عباده يهيمون في متاهات الأهواء والتخيلات بل كان يبصرهم بحقيقة الوجود وحقيقة الإنسان ومنتهاه؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾(١) وهكذا ظهر على صعيد الفكر الإنساني منهجان عن حقيقة الكون والإنسان والحياة:

أحدهما : التزم بما هو أصل الفطرة الإنسانية وأيدته الشرائع الإلـهية.

والثاني: اجتمع على ركان الأوهام والخرافات والعصبيات والتخيلات التي نشأت تحت وطأة الحضارة والثقافة التي ترزح تحتها.

فكان لابد لهؤلاء أن يصلوا إلى نتائج فكرية واعتقادية تختلف باختلاف العوامل فيما بينهم، ولكل وجهة هو موليها، ولا يسلم من الذلل والوقوع في

---

(١) سورة فاطر: الآية (٢٤).

الوحل إلا من تمسك بشرع الله الحنيف وبهداية العقل الصافي عن الأهواء والعصبيات.

ولقد تخبط الفلاسفة على مدار التاريخ في رحلة البحث عن حقيقة الكون تخبطاً يختلف باختلاف بيئاتهم ومفاهيمهم ومقدرة عقولهم في القرب أو البعد عن جادة الصواب، وكان من أهم الفلاسفة وأخطرهم وأبعدهم عن جادة الصواب مَن جعل الصراع - التناقض - جزءاً أساسياً في تكوين الكون، واعتبر آخرون أن الصراع - التناقض - هو الأصل في نشوء الكون، وقد بدأ الفيلسوف هيرقلط - ٦ . ق . م - في إيجاد أول مصطلح لهذه المفاهيم اعتمد عليه الغربيون والماديون بشكل خاص فيما بعد؛ يقول هيرقلط: «كل شيء يتغير ويجري ويتطور من حال إلى أخرى فهو في حالة صيرورة مستمرة ضمن ذاته»(١).

وكان هيرقلط وجماعته يردون على مَن كان يقول في ذلك الوقت: إن جميع الأشياء جامدة الذات والمحتوى فهي لا تتغير ولا تتحرك، وأطلق عليهم الميتافيزيائيين.

ولقد انتشر رأي هيرقلط بين العلماء والفلاسفة ولاقى قبولاً كبيراً منهم، وتم تهذيب هذا الرأي على مرِّ السنين فقالوا في مرحلة تالية: إن كل ما في الكون ينقسم إلى قسمين:

١ - مادة: وهي كالأخشاب، والأحجار، والمعادن.

٢ - قوة: وهي كالكهرباء، والحرارة، والحركة.

---

(١) انظر: المواقف للعضد الأيجي وشرحه للشريف الجرجاني، (٢ / ١٥١ فما بعد)؛ وشرح مطالع الأنوار للأصفهاني، ص(١٢٢، ١٢٣).

وكـلا القسمين مختلفان وفي ذات الوقت متلازمان؛ لأن كل شيء يتغير ويتحرك ضمن ذاته وهذا هو القاسم المشترك، لكن اختلف الفلاسفة حول هذا التحرك؛ هل هو بقوة ذاته أو قوة كامنة خارجة عنه؟ لم يقرر الفلاسفة أي شيء في ذلك الوقت.

نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع

*** تنبيـه :**

قبل أن نشرع في عرض لبعض النظريات الحديثة نرى من الضروري أن نلفت نظر القاريء الكريم إلى حقيقة هي غاية في الأهمية، وهي أن البيئة التي نشأت فيها تلك النظريات هي بيئة بعيدة كل البعد عن الدين، وأكثر من ذلك أن أوربا موطن ولادة تلك النظريات كانت معادية تمامَ العداوة للكنيسة والقائمين عليها، وهي لم تعرف الدين الصحيح المنزّل من عند الله، وإنما اعتنقت ديناً محرَّفاً ممزوجاً بالوثنية[1] لذلك كانت آراؤهم ونظرياتهم ـ كما ستلمس ذلك من خلال عرض لتلك النظريات ـ بعيدة كل البعد عن الحق، وكانت وبالاً على أصحابها فضلاً على أقوامهم ومَن تبعوهم.

ولقد اخترت لك نماذج من أبرزهم :

هيجل [2] : (١٧٧٠ - ١٨٣١م) :

فيلسوف ألماني، استخدم مبدأ النقيض كي يصل إلى هدفه الذي هو

---

(١) من أراد التوسع في معرفة الحالة التي كانت عليها أوروبا والكنيسة ورجال الدين فليرجع إلى : مذاهب فكرية معاصرة للشيخ / محمد قطب ص، (٩ ـ ٣٣) وص(٥٣ ـ ٦٦).

(٢) هو أحد الفلاسفة المشهورين في العصر الحديث، ألماني، كان على درجة واسعة من الثقافة فقد درس الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والفنون والاجتماع، عُيِّن أستاذاً بجامعة أيينا سنة ١٨٠١م والتقى هناك بفختي وشلنج، ثم عين أستاذاً بجامعة هيدلبرخ =

مجال الفكـرة، عمّق بيان العـلاقة الجدلية بين ما سماه الفكر المطلق، والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق، وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله ـ عز وجل ـ[1].

فقد وصل إلى الحق لكنه لم يصرح به، فحاول أن يغلّف الحق بما سماه الفكر الكلي أو الوجود المطلق، يقول الدكتور البوطي في شرح نظرية هيجل هذه:

«إذن فالفكر الكلي هو مظهر تجلي الموجودات في مرحلتها المثالية الأولى ثم تتجسد في وجودها الخارجي صورة مطابقة للأصل في مرحلتها الثانية، وهذه الموجودات في مرحلتها الفكرية الأولى تكون متشابكة متآلفة بحيث لا وجود لمعنى التشاكس والتناقض فيما بينها حتى إذا برزت إلى ساحة الوجود الخارجي ظهرت حواجز التناقض والتضاد بين كثير منها، ثم إن الفكر لا تنقطع علاقته بها عندما تتحول منفصلة عنه إلى عالم المحسوسات الخارجية بل يظل الفكر يأخـذهـا ويردها في منهاج تطويري لا نهاية له. . . . . يأخذها إليه مشروعاً للتحسين والتطوير، ويردها إلى الوجود الخارجي تجربة نافذة، ثم لا يلبث أن يأخـذهـا إليه ثانية ليضيف إليها تطويراً جديداً، ويعيدها إلى ساحة الوجود الخارجي في طور أكمل. . . . وهكذا دواليك»[2].

= سنة ١٨١٦م فأستاذاً بجامعة برلين سنة ١٨١٨ حيث بلغ ذروة الشهرة والمجد، والتف حوله التـلاميذ النـابهون، شغل منصبه إلى وفاته، وكانت وفاته بالكوليرا، وله سبعة مؤلفات، وأسلوبــه غاية في التجــريد والتعقيد، انـظر: تاريخ الفلسفـة الحـديثـة ليوسف كرم، ، ص(٢٦٤).

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص(٩٩-١٠٢).

(٢) نقض أوهام المادية الجدلية، للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٢٠).

وإليك توضيح فلسفة هيجل :

لقد اكتشف هيجل على حسب حدسه الفلسفي أن الجدلية(١)= الحركة المتغيرة ممتدة من أعمق أعماق الشعور ودنيا المجردات لتنتهي إلى علاقة ما بين الماهية والجوهر.

فالجـدلية عند هيجل قانون لابد من اعتباره في حركة الفكر والروح، ولابد من اعتباره في القول، ولابد من أخذه بعين الاعتبار بصدد فهم الطبيعة، وتتمثل في ثلاثة أطوار:

١ - أطروحة : نظام الشيء في ذاته.

٢ - نفي : نظام الشيء من أجل ذاته.

٣ - نفي النفي : نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته.

إن رحلة الكشف عن أي حقيقة تكمن في ساحة الطبيعة أو تتجلى في علياء الروح إنما تبدأ - بنظر هيجل - من أطروحة مجردة تنشأ في أعماق الفكر، وهو الوجود المطلق أو نظام الشيء في ذاته - أي : نظام الشعور - ثم تنعكس إلى الواقع لتتحول إلى ماهيَّة، إذ تتولد من ذلك الوجود المطلق حقيقة ذات حدود وتعينـات خارجية، وتتشخص وتتبـين بواسـطة نقائضها التي تلامس بعضها البعض، وهذا هو نظام الشيء من أجل ذاته، ثم ترد هذه الماهية إلى الفكر لتتركب من جديد مع الوجود الذهني فتغدو مفهوماً، وتلك هي مرحلة نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته معاً.

تلك هي أطوار الحركة التناقضية الثلاثية عند هيجل، وهذه الحركة في حد ذاتها تتكرر وتتقدم في كل مرة بتركيب أفضل من الأول وأغنى منه ؛ إذن هيجل يقرر أن الحركة تبدأ في الوجود المطلق متمثلة في الفكر متجهة إلى سائر

---

(١) الجدلية = التناقض = الصراع.

مظاهر الموجودات الخارجية وإلى سائر الأحاسيس والقيم العلوية ثم عائدة إلى منطلقها الأول. فهيجل يخبرنا عن النظام الذي يسيّر الكون وفقه طبقاً لما يراه حدسه الفلسفي في ذلك(١).

ما المحور الذي تدور عليه فلسفة هيجل؟

إن المحور الذي تدور حوله فلسفة هيجل هو أن وجود الشيء على الصعيد الخارجي إنما هو ثمرة الإبداع الفكري له، فالفكر يبدع الشيء صورة ومثالاً ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال، ونقول على وجه التقريب: كما أن الوجود الأصلي للشجرة كامن في نواتها، والوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته، والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من الآلات المشاهدة كامن في مدونة اللحن ـ النوتة ـ كذلك الوجود الأصلي لأي شيء من الموجودات التي نراها من حولنا كامن في جذورها التي أشرقت قبل كل شيء مثالاً وتصوراً في ساحة الفكر(٢).

إن رسالة الإنسان الكامل عند هيجل هو الفيلسوف الباحث عن الحكمة الخفية في الكون. وتتطلب منه ألا يقف وراء المظاهر فقط بل يجب عليه أن يغوص ليعرف الأسباب كالذي يقف في سذاجة أمام فرقة موسيقية يعزف أفرادها إيقاعات وألحان تبدو أنها متخالفة ومتعارضة، ولو أراد أن يتجاوز حدود هذه المظاهر لعرف أن مدونة اللحن ـ النوتة ـ تتجلى فيها الوحدة الحقيقية الكاملة، ويتبدى فيها معنى الوجود المطلق الذي يُحيا في فكر كل عازف على حدة ليقودهم جميعاً ـ كُلًا حسب طريقته ـ نحو غاية متسقة متكاملة.

ومن هنا فعلى الإنسان المتأمل لمنثورات العلوم والقوانين لهذا الكون عليه

---

(١) انظر: نقض أوهام المادية الجدلية، د. محمد، سعيد رمضان البوطي ص(٢٥-٢٨).

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د./ محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٩٩).

أن يقف أمام مدوَّنة اللحن العلوي الكامل لمعزوفة هذا العالم[١].

والخلاصة :

إن هيجل ـ كما أسلفت ـ عمق بيان العلاقة الجدلية بين ما سماه الفكر المطلق، والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق، وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله ـ عز وجل ـ.

غير أن ماركس ـ كما سوف نفصِّل ـ عمد إلى نظرية هيجل هذه عن الجدل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها علاقة محصورة بين أجزاء المادة نفسها، وحذف الفكر المطلق الذي جعله هيجل مصدر الخلق والتطور، فهيجل لم يكن أكثر من سلاح بيد الماركسيين.

(١) بتصرف من كتاب : نقض أوهام المادية الجدلية ص(٢٨ ، ٢٩).

الجدلية في منظار الماركسية (*)
كارل ماركس (**)

يقول الماركسيون: إن هيجل وضع الديالكتيك ـ أي: الجدلية ـ ولكن مُنكّساً على رأسه، فجاءت الماركسية وأقامته منتصبًا على قدمه؛ إن الخط العريض الهام الذي طرأ على نظرية هيجل من وجهة نظر الماركسيين هو ما يلي:

١ ـ إذا كانت الأشياء في صيرورتها وتطورها الخارجي انعكاساً لما يجري في الفكر أو الروح عند هيجل فإنّ ما يجري في الفكر والروح ليس إلا انعكاساً لصيرورة الأشياء وتطورها في الخارج عند ماركس ورفاقه، أي أن الفكر والروح أصل عند هيجل والمادة من ثمراته بينما المادة هي الأصل عند ماركس والفكر والروح من ثمراتها (!).

أيهما الذي أقام النظرية مستوية على قدميها؟ وأيهما الذي نكّسها؟

(*) انظر كتاب: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، ص(٣٦٨)؛ وموقف الإسلام من نظرية ماركس، ص(٦١١، ٦١٢).

(**) كارل ماركس هو مؤسس المادية التاريخية، وحاخام الشيوعية، وفيلسوفها الأكبر النافخ في نارها حتى أشعلها ثورة عالمية؛ ولد من أبوين يهوديين، وكان جده حاخاماً يهودياً كبقية آبائه وأجداده، درس القانون في جامعة برلين ثم هجره إلى الفلسفة وحصل على الدكتوراه فيها سنة ١٨٤١م، طُرد من الجامعة وضويق فيها بسبب اتهامه بالإلحاد فاضطر إلى الهجرة إلى باريس، كان عصبي المزاج أناني الطبع لئيماً حقوداً دوّن كتبه الكبرى وهي: نقد الاقتصاد السياسي، ونداء إلى الطبقات العاملة في أوربا، وكتابه الأشهر رأس المال؛ ويتألف من المادية التاريخية والجدلية على طريقة هيجل ممزوجاً بالشيوعية الإلحادية التي هي نتيجتها.

٢ ـ ترى الماركسية أن جدل الأطروحة ونفيها ونفي النفي لا يتم بين الفكر والمادة كما يقرر هيجل بل يتم بين المادة ذاتها دون أي عمل خارجي من الفكر أو غيره، وذلك وحده هو سر تطور الكون والموجودات المختلفة التي لا تعدو أن تكون من جنس المادة أو من ثمراتها، والدستور الفلسفي الجديد ـ الماركسي ـ يقرر أن الذرَّة مثلاً وهي أصغر أجزاء المادة محشوة بالوحدات المادية المتناقضة المتصارعة؛ بعضها صائر إلى الفناء وبعضها متجدد صاعد نحو البقاء، ومن صراع ما بينها يتماسك وجودها ويمتد نموها.

ويتحقق هذا التناقض في العلوم بأشكال مختلفة؛ فهو مثلاً في الرياضيات ضمن الزائد والناقص، وفي الميكانيكا ضمن الفعل ورد الفعل، وفي الفيزياء بالتيار الموجب والتيار السالب، وفي الكيمياء باتحاد وتفكك الذرات، وفي علم الاجتماع بصراع الطبقات.

ويتحرك صراع الأضداد هذا ضمن الإيقاعات الثلاثة التي قررها هيجل؛ فالأطروحة هنا كامنة في أحشاء المادة ذاتها، أي: خارجة ومستقلة عن الوعي الإنساني، والنفي الأول يتجلى في الانعكاسات التي تأتي رداً أو نتيجة للانبثاق، وتختلف هذه الانعكاسات في أشكالها، ونفي النفي يتجلى في بلوغ تلك الانعكاسات ذروتها، إنها عندئذ عائدة إلى الأطروحة حيث تتحول الأطروحة إلى حقيقة غنية ثابتة.

ثم إن هذه الحقيقة الجديدة لا تلبث تحت صراع الأضداد أن تنبثق منها أطروحة جديدة أكثر تقدماً وغناء من الأولى في حركة لولبية نحو التطور المستمر الذي لا انقضاء له، وأبرز مثال يعتز به الماركسيون لبيان زعمهم هذا هو ما يلي:

إن انبثاق حبة الحنطة في الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو

الإثبات هو ما نعنيه بالأطروحة، فإذا انعكس عن تلك العوامل النبات الأخضر المتصاعد فهو الطباق، أي: النفي الأول، ثم إذا عاد النبات سنبلاً متراكباً من الحنطة فذلك هو التركيب، أي: نفي النفي، ثم إن حبات تلك السنبلة ما تلبث هي الأخرى أن يتحول كل منها إلى أطروحة من جديد، وهكذا دواليك.

ذلك هو لبُّ الجدلية والباعث لحركتها وتطورها في نظر الفلسفة الماركسية، إلا أنه بالإضافة إلى هذه النظرية الأساسية هناك قوانين أخرى تؤمن بها المادية الجدلية، وتعتبرها أيضاً سرَّ فاعليتها ومن أسس دعائمها، وإليك هذه القوانين:

القانون الأول: قانون تحول الكم إلى كيف:

تقرر المادية الماركسية أن التغيرات التي تطرأ على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كيفياته، مثال ذلك: الحجارة التي تتراكم شيئاً فشيئاً في مجرى النهر، تتحول عند حد معين من تطورها الكمي إلى كيفية جديدة لم تكن من قبل؛ إذ إنك تنظر فترى ركام الحجارة وقد أصبح سداً.

ومثال آخر: الماء الذي تشتد سخونته تطرأ عليه تغيرات تتعلق بالكم إذ ترتفع درجة حرارته من (٥٠)° إلى (٦٠)° إلى (٧٠)° وهكذا ما إن تتجاوز المائة حتى يتحول الماء إلى بخار، أي: إلى كيفية أخرى جديدة.

إلا أن التغير في الكيفية لا يتحقق بتدرج تبعاً لما يتم في التغير الكمي عقلا، وإنما يكون تغيُّر الكمية في نظر الماركسية بمثابة التهيؤ والإعداد لولادة كيفية جديدة منتظرة على شكل قفزة، وهذه القفزة تختلف باختلاف الطبيعة التي هي موضوع التغيير؛ فما يحدث في الطبيعة الميتة غير العضوية يختلف تماماً

عما يتم في الطبيعة الحية على حد تعبيرهم[1].

القانون الثاني: قانون وحدة الأضداد وصراعها :

لقد أثبتت المادية الماركسية حسب فهمها أن كل شيء متغير متطور، لكن ما هو العامل الأساسي لهذا التطور؟ تجيب الماركسية عن هذا السؤال بأن مصدر التطور في كل شيء إنما هو أضداد موجودة متزاحمة ضمن الشيء الواحد بل ضمن الذرة الواحدة، والعامل المباشر للتطور هو الصراع الذي يتم بين هذه الأضداد ضمن وحدات المادة.

القانون الثالث : نفي النفي :

والحقيقة أن هذا القانون هو في الوقت ذاته يعد الركن الثالث من الدائرة الجدلية ذات الإيقاعات الثلاثة ـ أطروحة، ونفي، ونفي النفي.

هذا القانون يمتاز من وجهة الفلسفة الماركسية بما يلي:

أ ـ الاستمرار الذي لا توقف له، فما من كيفية إلا وتحمل في باطنها بذور نسخها بما هو أتم وأفضل.

ب ـ والنسخ لا يعني القضاء على كل العناصر بل هو نفي من شأنه أن يحتفظ بأفضل خصائص القديم، ويمتاز عليه بخصائص لم تكن موجودة. فنفي النفي الجدلي الماركسي يفترض النفس والمحافظة على حد سواء[2].

هكذا تتكامل عملية نفي النفي في كل دورة بشكل أفضل وأغنى، وترى الماركسية في نظرية التطور وانتخاب الأصلح التي طرحها داروين أكبر ثروة في مجال الاستشهاد على صحة هذا القانون.

---

(١) القضايا الأساسية في الماركسية لبليخانوف، ص(٣٧)
ما هي الديالكتيك؟ تأليف ع. كورسانوف، ص٤٣.

(٢) موجز المادية الديالكتيكية، لبودوستنيك وياخوت، ص(١٠٦).

إن هذه القوانين الثلاثة هي أركان المادية الجدلية الماركسية، ولهذه القوانين مستلزمات لابد منها:

أولا: إن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق:

وذلك هو حجر الزاوية في الفلسفة المادية بكل ما لها من عمق وشمول فالمادة هي أول الموجودات وأقدمها، والمادة موجودة خارج وعي الإنسان ومستقلة عنه وأسبق في وجودها من وجود الوعي.

يقول لينين[1]: «إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية، ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس، فالمادة هي الشيء الأول، والإحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين»[2].

ثانيا: ملازمة المادة للحركة:

تقول الماركسية: «إن الحركة هي نمط وجود المادة في أي زمان وأي مكان، ولم توجد أبداً مادة بلا حركة، ولا يمكن أن توجد»[3].

ثالثا: سرمدية العالم ووحدته:

تقول الماركسية: إن المكان بلا نهاية، والزمان سرمدي، والعالم ينبسط في جميع الجهات بلا نهاية، ولم تكن له بداية ولم تكن له نهاية.

فالمادية عند الماركسية قديمة أزلية، وهي منذ فجر وجودها الذي لا أول له تتحرك وتتطور، فالجديد من المادة هو أشكالها أما ذاتها فتغوص إلى أغوار سرمدية لا أول لها...[4].

---

(١) لينين: (١٨٧٠-١٩٢٤م) اسمه الحقيقي فلافمير أيلبتشي لينين، اعتنق الماركسية ١٨٩٤م وشارك في التنظيمات الشيوعية، أهم كتبه: تطور الرأسمالية في روسيا.

(٢) المادية والمذهب التجريبي النقدي، للينين، ص(٤٣).

(٣) انظر: المادية والمذهب التجريبي، للينين، ص(١٧١).

(٤) انظر: الدفاتر الفلسفية، للينين، (١/ ٧٧).

رابعا: الوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ:

وهذا يعني لا وجود للوعي بدون مادة.

خامسا: تفاعل السبب والمسبب:

يقول أنجلز: «يوجد في المجتمع تفاعل عام قوامه أن السبب والنتيجة يتبادلان الأماكن على الدوام، إنّ ما يكون في بعض ظروف المكان والزمان سبباً يصبح في ظروف أخرى نتيجة، والعكس بالعكس، فبين السبب والنتيجة إذاً جدلية مستمرة.

وتؤكد المادية الجدلية أن حركة الأسباب والمسببات لا تنبثق إلا من قوانين الطبيعة ذاتها ومقتضياتها الكاملة فيها، والتي تجمع بين الضرورة والمصادفة في آنٍ واجد فلا يسمى بالعلة الغائية في تفاعل الأسباب والمسببات بعضها لبعض، والماديون يهزأون من كل تفسير لحركة الطبيعة يستهدف القول بالغائية»[1].

سادسا: علاقة المعرفة - الحقيقة النسبية - بالحقيقة المطلقة:

يقول الماديون الجدليون: إن الحقيقة المطلقة القائمة بذاتها إنما تتركب من حقائق نسبية، وإنما تتركب الحقائق النسبية من تراكمها وتكدسها في الذهن، ولا يكون ذلك في لحظة خاطفة بل من خلال طريق للمعرفة معقد تاريخي لا نهاية له، والبشرية لم تنهه ولم تنجزه[2].

إن الفكر البشري لا يمكن أن يحيط بالحقيقة المطلقة التي تدل عليها أجزاؤها، كيف يمكن للفكر أن يؤمن بما لم يصل إليه؟ من أين يعرف أن من وراء هذه الظواهر النسبية حقيقة مطلقة؟ لا يمكن لنا التوسع في معرفة الإجابة

---

(١) انظر: الدفاتر الفلسفية، (١/٥٧).

(٢) المادية والمذهب التجريبي النقدي ص(١٢٦) والموجز في المادية الديالكتيكية ص(١٨٤).

عن هذه الأسئلة، ومن أراد ذلك فعليه مراجعة كتاب نقض أوهام المادية الجدلية ص(١٩٠).

سابعا : المادية التاريخية :

وهي من أخطر النتائج المترتبة على المادية الجدلية المتعلقة بالطبيعة وأحكامها، فإن الفكر الإنساني طبقاً للنظرية المادية الجدلية شكل من أشكال المادة، وكذلك الروح من بعض ثمار المادة ونتائجها، فلابد أن تكون هذه المرحلة التاريخية التي قطعها الإنسان إلى اليوم منذ بدء الخليقة هي أيضاً من ثمرات المادة وآثارها، إذاً فلابد أن تخضع حركة التاريخ الإنساني للقانون ذاته الذي خضعت له المادة في أطوارها وتقلباتها، إنه قانون صراع الأضداد بدءًا من الأطروحة فالنفي فنفي النفي.

وإليك هذا المثال العلمي الواقعي حسب الفلسفة المادية الجدلية.

الأطروحة : تبدأ منها حركة المجتمع الإنساني، فقوى الإنتاج التي يملكها الإنسان ووسائله التي استفادها من الطبيعة أرغمت الناس على الدخول في علاقات إنتاجية متبادلة، وذلك من أجل العيش وتطوير أسباب الرفاهية في الحياة.

ومع مضي الزمن تزداد وسائل الإنتاج تقدماً وتعقداً مع بقاء علاقات الإنتاج متخلفة ـ ملكية جماعية تحت سلطان العشيرة أو القبيلة ـ وبذلك تظهر بذور التناقض بين وسائل الانتاج وعلاقات الإنتاج حيث لا يلبث أن ينفجر أخيراً هذا الصراع بظهور الإقطاع وهو **النفي الأول**.

إلا أن هذا الطور الجديد للملكية يحمل في أحشائه بذور نقيضه وهي طبقة المستعبَدين والمستغَلِّين، حيث تثور هذه الطبقة ـ المستعبدين ـ على سيطرة الإقطاع وتقضي عليها فيكون ذلك إيذاناً بتحقيق نفي النفي وتعود الملكية إلى حالتها السابقة.

إلا أن هذه الأطروحة الثلاثية وحسب النظام المادي الجدلي لا يلبث أن يصبح أطروحة جديدة يتولد عنها نفي جديد ونفي نفي جديد، يكون أسمى وأغنى، أو بتعبير آخر تحل البرجوازية ـ الطبقة الكادحة المستعبدة ـ مع الزمن محل الإقطاع ويعود التناقض بين البرجوازية والطبقة الكادحة المستعبَدة التي كانت في يوم ما درعاً لها، وفي اللحظة المناسبة يحل عصر الانتقال إلى عصر التركيب الجديد؛ إنه عصر الشيوعية المطلقة حيث تذوب الفوارق الطبقية نهائياً وإلى غير رجعة، ويتم إنقاذ البشرية من الظلم الاجتماعي كله، وتزول الحاجة إلى رقابة الدولة وقيادتها، فتنتهي الدولة نفسها، وآنذاك تهدأ حالة التاريخ البشري بعد طول صراع ويلقي عصاه آمناً مطمئناً في ظل ظليل من الشيوعية الوارفة[1] (!!!).

---

(١) انظر: كتاب نقض أوهام المادية الجدلية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٣٠-٥٠).

نقد المادية الجدلية

إن أركان النظرية المادية الماركسية ـ كما ذكرنا ـ ثلاثة قوانين:

أولاً : قانون تحول الكَمِّ إلى كيف.

ثانياً : قانون وحدة الأضداد.

ثالثاً : قانون نفي النفي.

ومن مستلزمات المادية الماركسية ما ذُكر آنفاً وهي:

أولاً : المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق.

ثانياً : ملازمة المادة للحركة.

ثالثاً : سرمدية العالم ووحدته.

رابعاً : الوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ.

خامساً : تفاعل السبب والمسبب.

سادساً : علاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة.

سابعاً : المادية التاريخية.

وستقتصر هذه الدراسة على نقد القوانين الثلاثة الرئيسية أما المستلزمات فأحيل القاريء إلى كتاب نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي؛ من ص (٩٧ ـ ٢٤٢).

هذا، وبعد أن فرغنا من استعراض النظرية بدءًا من أصولها إلى محطتها الجدلية الماركسية سنشرع في نقد قوانين الفلسفة المادية الماركسية، ولن أتطرّق لتطوراتها المختلفة بدءًا من هيرقلط مروراً بهيجل؛ لأن آراءهم قد تحولت إلى

قاعـدة أقيمت على أسسهـا الفلسفـة الماركسية التي سننقدها بإذن الله بدقة وأمانة، وليس أمامنا إلا ميزان واحد وضعه الإسلام بأصلَيْه الكتاب والسنة، هو ميزان المنطق العلمي وبراهينه الراسخة.

أولا: قانون تحول الكم إلى كيف:

شرح مفهوم الكم والكيف: من المعلوم أن أي شيء يتكون من جوهر وظـواهـر؛ الجـوهـر هو ذات الشيء، والظواهر تجلياته وخصائصه الواضحة للعيان، هذه الظواهر تخضع لأحد مفهومين:

الكم: وهو ما يحدده العدد أو الحجم أو القياس أو الوزن، والكم ينقسم إلى قسمين: كم متصل، وكم منفصل.

- **الكم المتصل:** وهو تعبير عما يحققه الحجم أو القياس من التراكمات والأحجام.
- **الكم المنفصل:** تعبير عما يحدده العدد مما يؤثر الزيادة عليه أو النقص منه.

أما مقولة **الكيف:** فهو كالليونة والبرودة والحرارة.

إن المادية الجدلية تقرر أن التغيرات الطارئة على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كميتـه، هذا التقرير صحيح إلى حد ما ولكنه يحوي على مغالطات كثيرة، أما كونه قانوناً عاماً لكل شيء فهذا غير صحيح البتة وإليك التفصيل: إن الكم كمّان كما ذكرنا؛ فالكم المنفصل لا يبدع عن طريق الزيادة أو النقصان أيّ كيفية ذات قيمة يمكن أن تنشأ من إضافة عشرة أحجار إلى خمسين حجراً، نعم إلا في حالة واحدة، إذا تدخل الوعي الإنساني فإنه بإمكانه أن يستغل تزايد الكـم المـنـفصـل لاستخـراج كيفية جديدة ذات أهمية، فإذا ازداد عدد المستضعفين فلا يمكن أن يتحول كمهم إلى كيفية جديدة إلا إذا حكّموا وعيهم فإنهم حينئذ يستفيدون منه. نستنتج من هذا كله ما يلي:

أولاً: إذا لم يظهر عامل خارجي من شأنه أن يحدث خللاً في تفاعل

الأسباب مع المسببات لن تحقق القفزة بل تظل الأمور سائرة بتدرج ورتابة.

ثانياً : ليس حتماً أن تتجه هذه القفزة حيثما وجدت إلى الأعلى بل قد تتجه إلى الأسفل، فالقانون غير صحيح.

مثال ذلك: زيادة عدد السكان بدون موارد إنتاجية، إنها زيادة كمّ ومع ذلك فهي قفزة إلى الأسفل لا إلى الأعلى لأنها تتمخض عنها مجاعات وصراعات[١].

ثانيا : قانون وحدة الأضداد:

وهو قانون باطل؛ فمن أحكام الضدين أنهما لا يمكن أن يجتمعا تحت ظلٍ من وحدة الموضوع والمحمول والزمان والمكان وقيود الصفة، أي: فالسواد القاتم والبياض الناصع لا يمكن أن يلتقيا في ذات واحدة أو في حيز مكاني واحد. وكذلك إذا عرفنا أن اجتماع الضدين في حيز واحد أو في زمان واحد كالليل والنهار أو في صفة واحدة كأن يكون الشيء أبيض وهو في نفس الوقت أسود، لا يمكن أن يكون ذلك بحال من الأحوال. فحينئذ بطل قانون اجتماع الضدين الذي يقول به الماركسيون[٢].

ثالثا : قانون نفي النفي:

وهـو ما يعبر عنه بالتركيب، ففي مثال الحنطة المذكور آنفاً[٣] لم تحقق عمليات الزرع المتلاحقة خلال آلاف السنين أي تطور للحنطة، فأين الصعود

---

(١) انظر: نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي ص(٣٤، ٣٥) وص(٦٧) وص (٧٣).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) انظر: ص(٦٦٩) من هذا الفصل.

اللولبي الذي ذكره قانون نفي النفي؟ كذلك في صراع الطبقات تقرر النظرية أن نهاية العالم تكون في قيادة الشيوعية المطلقة وتحت ظلها، أي بتعبير آخر: يتوقف القانون الثالث للتطور ـ قانون نفي النفي ـ وينسفونه من جذوره، وإلا فحسب ادعاءاتهم يجب أن تسقط الشيوعية المطلقة ببذور أضدادها من الداخل ويظهر تركيب أرقى وأغنى.

ويتبين لنا من ذلك أن تلك القوانين لا تعتمد على أي أصل علمي راسخ[1] وسوف نعود مرة أخرى إلى نقد الفلسفة الماركسية من الناحية العقائدية في الفصل القادم ـ إن شاء الله ـ عند حديثي عن موقف الإسلام من الصراع[2].

(١) باختصار وتصرف من العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/محمد سعيد البوطي.

(٢) انظر: ص(٦٨٩) من بحثنا هذا.

نظريــة داروين

داروين ـ صاحب نظرية التطور والارتقاء ـ

لقد نالت نظرية التطور والارتقاء من الشهرة والانتشار ما لم تنله نظرية حديثة في هذا العصر، ولعل السبب يرجع إلى أنها تدور حول خلق العالم وتكوين الإنسان والروح، ولكونها كانت بمثابة العون لدعاة الإلحاد وسلاحاً لهم في مجال الدعوة إلى الإلحاد والتحلل والقول بإنكار الخالق.

عرض موجز لأهم نظريات التطور:

• يجب أن نعلم في البداية أنها ليست نظرية واحدة تلك الفكرة التي تتصور أن الإنسان تصاعد من مخلوقات أدنى، ولكنها سلسلة نظريات متلاحقة متخالفة، كلها يفرض أن الحياة تطورت على وجه هذه الأرض تطوراً آلياً، ثم تفرق عن بعضها في طرائق مختلفة لتفسير هذا التطور وتحليله، وسنعرض باختصار وإيجاز لأهم هذه النظريات وهي تتلخص في ثلاث نظريات:

١ ـ النظرية اللاماركية.

٢ ـ النظرية الداروينية.

٣ ـ النظرية الحديثة للعالم الهولندي Hugode Veries.

أولا: النظرية اللاماركية:

النظرية اللاماركية نسبة إلى لامارك العالم الفرنسي المولود سنة ١٧٤٨م، وهو زعيم الجناح الإلحادي في هذه النظرية، وهو أول من نادى بنظرية التطور، ولكن في غمرة النقاش والجدال الذي دار حامياً حول داروين وما سجله من

بحوث بشأن نظريته؛ نسي الناس لامارك واضعَ النظرية وأصبحت تُعرف فيما بعد بنظرية داروين.

وتتلخص نظرية لامارك في أن الأنواع الحيوانية غير ثابتة على حالها، ومردّ ذلك هو الظروف المناخية المختلفة التي تتقلب على كل منها كالإقليم والغذاء وطراز الحياة وحالة الطقس والطبيعة؛ ذلك لأن اختلاف شيء من هذه العوامل يؤثر في اختلاف العادات ويؤثر بدوره في اختلاف الوظائف والأعمال واختلافهما لابد أن يؤثر مع الزمن في اختلاف الشكل والأعضاء إذن فمحور نظريته هو الظروف والعوامل المناخية المختلفة التي تؤثر في نظره على تطور الأنواع وليس لها أي علاقة بالأصلح والقول بأن البقاء للأصلح.

ولقد دعم لامارك نظريته هذه ببعض من الأمثلة المحسوسة المشاهدة وجد فيها الدليل لما يقول، فالفقاريات التي تتغذى بدون مضغ تضمر أسنانها وتصبح مع الزمن خفية في اللثتين. والحوت وآكل النمل مثالان أيضاً على ذلك، والخلد الذي يعيش في الظلام يتمتع بعينين صغيرتين جدا كل تلك الأمثلة تدل في نظره أن العوامل الطبيعة والمناخية لها أثر واضح في تغيير المعالم. وهو ليس إلا دليل بدوره على السير في الطريق إلى اختلاف الأنواع.

وهكذا سرعان ما شاع في الأذهان ذلك التصور الذي تصوره لا مارك واستقبله الناس بالقبول والرضا لا سيما من أولئك الذي يعيشون خفي فراغ فكري تجاه مسألة اليقين بوجود مبدع للكون كله، وراحوا يفسرون به الحياة الإنسانية العجيبة المعقدة وتطورها من حال إلى حال خلال الأجيال والقرون المنصرمة.

نقـد نظرية لامـارك

لقد وضعت نظرية لامارك تحت مجهر البحث والنقد العلمي من قبل العلماء والمفكرين وإليك تلك الانتقادات.

١ ـ الانتقـاد الأول :

إن الأمثلة التي استشهد بها لامارك قرر فيها أن سير التطور يتجه إلى فائدة الحيوان وضمان استمراره في عمله الوظيفي وتكيفه بأكبر قدر مع أحوال المناخ والطبيعة. غير أن الواقع لا يؤكد ذلك ولا يثبته، فإن أنواعا كثيرة من الحيوانات قد انقرضت وبادت تحت وطأة تلك العوامل المناخية والطبيعية وقد كان من مقتضى افتراضات لامارك أن تتطور تلك الحيوانات وفقا لاختلاف الأحـوال الطبيعية حتى تتأقلم وتتناسق معها بحيث تضمن لنفسها استمرار بقائها النوعي على أقل تقدير ومن أمثلة الحيوانات التي انقرضت ولم يتطور وفقا لاختلاف الأحوال الطبيعية الداناصور.

٢ ـ الانتقاد الثانـي :

إن أكثر ما لاحظه لامارك من مظاهر التطور التي اعتمدها أساساً لبحثه ودليلاً على دعواه إنما يجري ضمن سلسلة الإفراد بعامل الوراثة، أي: من قبل أن يلتقي الحيوان مع الـظروف أو البيئـة التي تُلجئـه إلى نوع من التطور أو التشكل للانسجام معها.

فجلد الطفل يكون منذ ولادته أشد غلظاً على أخمص القدمين منه في أي

جهة أخرى من أجزاء الجسم، والجمال لها ثفنات في سويات رسغ اليدين والمرفقين بحيث تطابق السطح والتي تتحمل وطأة الوزن عندما يستنيخ البعير، غير أن هذه الثفنات موجودة في ولد الناقة منذ ولادته، ولا يمكننا في مثل هذه الحالة أن نعلل الأمر بتكيف سابق تأثر بالظروف والأحوال سيما وقد تبين أن تفاصيل الهيكل الحيواني منوط باقتران الصِّبْغيات والناسلات بكل نوع على حدة، ودعوى أن ما نشاهده اليوم من قوانين الصّبغيات لم يكن على هذا النحو الوراثي في غابر الزمن زعم غيبي بحت يتنافى مع الواقع المستمر المشاهد(١).

الانتقاد الثالث:

إن هذه الفرضية التي طرحها لامارك إنما تعالج مسألة أخرى أضيق بكثير من موضوع البحث، وهو مدى احتمال أن يكون سائر أنواع الحيوانات المختلفة قد تطور تطويراً نوعياً كاملاً لا يجده تبدل أشكال وألوان وأعضاء بل يأتي على التكوين الحيواني كله من حيث هو، بدءًا من الغريزة والفكر إلى الشكل والشعر والمخالب والأظفار.

أما التحليل الذي تذهب إليه النظرية اللاماركية بالنسبة لظاهرة الأشكال والأعضاء الجزئية تحت سلطان النوع الواحد فهو لا يفسر إلا جزءاً يسيراً جداً من موضوع البحث الأساسي الذي لا يزال يتطلب تحليلاً وشرحاً يجيبان عن أسئلة كثيرة تفرض نفسها في هذا المجال.

هذه الانتقادات الثلاثة لم تجد أي إجابة عنها، وهكذا طُوي بساط هذه النظرية عن الالتفات إليه والاهتمام به بعد أن خُدع بها الكثير، وقامت على أنقاضها نظرية أخرى هي نظرية داروين فما هي خلاصتها؟

---

(١) انظر: التطور والإنسان، للدكتور حسن زينو، ص (١٧).

ثانيا: النظرية الداروينية:

داروين [1] (١٨٠٩ - ١٨٨٢).

في عام ١٨٧١م أخرج داروين كتابه المشهور المسمى بـ (أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس) حاول أن يرد التطور إلى تغير آلي بحت بحيث يكون مستقلاً قدر الإمكان عن الأسباب الغائية، ولكنه اتخذ مع ذلك من مبدأ اختيار الأصلح سبباً للتطور.

خلاصة نظرية داروين :

يرى داروين أن ثمة صفات قد لا تكون ذات أهمية في الظاهر، يتفاوت الأفراد في اتصافهم بها، ولكنها ذات أثر فعال في المحافظة على صاحبها وترشيحه لمستوى أفضل، وعندما يدخل هؤلاء الأفراد في صراع مع الطبيعة من أجل الحياة يجري اصطفاء طبيعي يؤدي إلى بقاء أشد الأفراد كفاءة وصلاحية للبقاء بما تمتاز به من تلك الصفات، أو بما تمتاز به من الحصول على أعلى الرتب منها.

وهكذا فإن التفوق الذي يتمتع به الحيوان من حيث هو نوع بالنسبة للأنواع الأخرى، أو من حيث هو فرد بالنسبة للأفراد الأخرى.

---

(١) هو تشارلز داروين، صاحب نظرية التطور العضوي المعروفة، ولد بويلز في بريطانيا، وألف كتابه: (أصل الأنواع) بعد رحلة طويلة دامت خمس سنوات في دراسة عالم الأحياء على الطبيعة، وقد اطلع خلال هذه الرحلة على كثير من أسرار عالم الحيوان والنبات، وقد أحدثت نظريته انقلاباً فكرياً في معظم حقول المعرفة الأوربية نظراً للاستغلال العظيم الذي قام به المغرضون والهدامون من الملحدين ولا سيما اليهود، وأخيراً ألف كتابه: أصل الإنسان ١٨٧٤ وقد خصص هذا الكتاب لموضوع التطور الإنساني. بتصرف من موقف الإسلام من نظرية ماركس ص(٦٠٨).

وبتعبير أوضح : إن بقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة الصراع من أجل البقاء، فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل، وأما النوع الخامل الذي لايكافح من أجل البقاء فإنه يضمر ثم يضمحل ثم ينقرض(١).

وفي غمرة هذا التسابق الذي تم منذ أقدم العصور في عالم الأحياء ونتيجة لتفاوت الصفات الكامنة في أنواعها الكثيرة ـ وهي الطاقة الوحيدة لذلك التسابق ـ ظهر سلم الدرجات الذي صنف الأحياء إلى أنواع مختلفة ومتفاوتة شتى، وليس الإنسان في سلم.هذه الدرجات إلا واحدٌ من فريق تلك الحيوانات البسيطة التي بدأ السباق فيما بينها ضمن دائرة نوعية واحدة، فكان من حسن حظه أن كان له من الصفات الكامنة ما تقدم به صعداً في حلبة ذلك الصراع والسباق ورشحته ليتبوأ أسمى درجات الحياة من حيث تخلَّفَ زملاؤه عنه في درجات متفاوتة شتى.

ولكن على أي دليل اعتمد في الذهاب إلى أن الإنسان كبقية الحيوانات الأخرى تطور من نوع واحد؟

أدلة داروين على أن الإنسان كبقية الحيوان تطور من نوع واحد:

أولاً : استمد داروين دليله على ما يقول من علوم التشريح المقارن والأجنة ومن التراكيب الأثرية التي توجد في الإنسان، فقد وجد مثلاً أن أجزاء الهيكل العظمي للإنسان يمكن أن يُقارن بمثيله في بعض الحيوانات الأخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للجهاز العضلي أو العصبي حتى تركيب المخ وأجزائه يمكن مقارنتها بين الإنسان والحيوان واستخراج كثير من أوجه الشبه بينهما.

ثانياً: كما اعتمد على الأدلة التي استمدها من علم الأجنة، فقد لفت

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ / عبد الرحمن حبنكة الميداني ص(٣١٨).

نظره أن عملية تكوين الجنين في الإنسان ما هي إلا استعادة لأطوار الحياة في حيوانات أقل مرتبة، كما أن المراحل الأولى لتطوير الجنين تتشابه تشابهاً كبيراً في الإنسان والحيوان؛ فقد لاحظ مثلاً أن عَجُز الجنين ينتهي بما يشبه الذيل في جنين كل من الإنسان وحيوانات أخرى، وبتطور الجنين يختفي الذيل في جنين الإنسان ويبقى في الحيوانات الأخرى.

ثالثاً: استدل داروين بمظاهر من الترابط النفسي بين الإنسان وبعض الحيوانات مثل ظاهرة الوجدان والشعور والانفعالات النفسية[1].

(١) بتصرف واختصار من: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٢٣٥، ٢٣٦).

نقد الداروينية

وإليك بعض وجوه النقد العلمي الموجهة من العلماء للنظرية الدروانية.

١ ـ إن الواقع الذي نشاهده ونلمسه على صعيد الحياة يتنافى بشكل واضح مع ما أسماه داروين بقانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فإن الكون لا يزال بعد الذي قطعه من عمره المديد يعجّ بالأصلح وغير الصالح من شتى صنوف الحيوانات بدءًا بالهلاميات إلى القردة فالإنسان، ولو كان قانونه صحيحاً لكان من أبسط مقتضياته الواضحة أن يتجاوز موكب السباق الحيواني نقطة البدء على أقل تقدير مهما فرضنا البطء في حركة التطور والاصطفاء، ولكن ها هي نقطة البدء لا تزال تفور بحيواناتها الضعيفة المختلفة، ولا تزال تتمتع بحياتها وخصائصها المعيشية كما كان يتمتع بها السابقون مِثْلاً بمثل.

٢ ـ إن كل ما رصده الإنسان من معارف عن التاريخ والتاريخ الطبيعي دل على أن كل نوع من أنواع الحيوانات على اختلافها قوة وضعفاً تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن، لا تحت سلطان ما يسميه داروين البقاء للأصلح بل بسبب عوادٍ وعوامل طبيعية مختلفة تتقلب عليها، وهي حقيقة مشاهدة لا تنكر، فالموت والنجاة من الموت كثيراً ما يكون أمرهما إلى المصادفة المجردة[1] لا إلى صفات خاصة في الفرد.

---

(١) جرياً على مفهوم الذين لا يعتقدون وجود الخالق ـ عز وجل ـ وأن الطبيعة هي التي يعود عليها أمر هذا الكون وما فيه. ولا شك أنه ليست هناك قيد أنملة تتحرك أو تسكن إلا بتقدير العزيز الحكيم.

فالمستنقع العظيم الذي يجف مثلاً، والموجة الهائلة التي تتدفق على الرمل، والفيضانات والسيول الجارفة تبيد الألوف من الحيوانات وتنجو من الموت طائفة أخرى، ومن المعلوم أنه لا الموت اصطفى لنفسه الضعفاء ولا النجاة اختارت لنفسها الأقوياء بل الأمر كله جاء على سبيل المصادفة(١) وهذا يتعارض مع فكرة أن البقاء للأصلح وأن التطور يسير لمصلحته.

٣ ـ إن الموت من حيث هو ظاهرة عامة يتناقض مع ما يراه داروين من أن الطبيعة تسير مع جماعة الأحياء حسب قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فأي بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربّص به؟ على أن الدراسات الإحصائية التي أثبتها علماء هذا الشأن تبيّن أن الموت يداهم أول ما يداهم الأفراد الذين قد يرتفعون عن النمط العادي حيث يبقى بعد ذلك نمط المتوسط وما دونه وهي نتيجة تعاكس نظرية داروين وتنبؤاته(٢).

٤ ـ عملية الاصطفاء هذه عملية غائية يتدخل فيها الفكر والتدبير وليست حركة آلية، سواء اعتبرنا الاصطفاء أمراً صناعياً أو طبيعياً، فكيف يمكن إسناد هذا الاصطفاء إلى الطبيعة أو الحركة الآلية؟ إن السير الطبيعي والآلي لا مناص من أن يفسر ـ مهما تنوعت التعابير عنه ـ بالعشوائية المجردة، وأنّى للعشوائية أن تلتزم بالسير وراء قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح؟

وبتعبير آخر: إن انتخاب الأصلح لابد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح عمن دونه ويعلل ذلك ويوجهه، فعلى أي قانون تستند الطبيعة في انتخابها؟

---

(١) انظر: علم الحياة الحيوانية للدكتور/ عبد الحليم سويدان ص(١٣٢).

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٢.

٥ ـ إن وقـاية الحياة من أن يتسلل إليها ضعيف لا تتوفر فيه مجموعة الصفات الصالحة أيسر على الطبيعة ـ لو كان الأمر بيدها ـ من أن تذهل عنه، حتى إذا تسلل إلى الحياة وأخذ قسطه منها وراح يشارك أمثاله في القيام بكافة الـوظـائف الحياتية انتهت إليه فجـأة ثم راحت تلتقطه وأمثاله من بين سائر الحيوانات لتقضي عليه ولتصحح في محوه خطيئتها التي ما كان لها أن ترتكبها، أي: إذا كان هذا الضعيف محكوماً عليه بالتخلف فالزوال لأنه ليس من صنف الصالح أو الأصلح وقدّرنا أمر إيجاده عائدًا إلى الطبيعة، فلماذا أوجدت الطبيعة هذا الذي تريد اليوم أن تقضي عليه أو تؤخره عن الركب؟ أما إن قلنا إن أمر إيجاده لم يكن إليها فأحرى أن لا يكون إليها أيضاً أمر تهذيب الكون بإعدامه والقضاء على خطيئة وجوده.

٦ ـ إن في أصناف الحيوانات ما يتمتع بصفات ترشحها لتتبوأ الصدارة في سلسلة أنـواع الحيوانـات ـ لو أن الـطبيعة راعت فيها ذلك ـ ولكن هذه الحيوانـات لم ترقَّ فوق مرتبتهـا التي هي فيها وبقيت دون مستوى حيوانات أخـرى؛ لو صحت نظرية داروين فيهـا لسبقتهـا، وقد عرض داروين لهذا الاعتراض الوارد على نظريته في كتابه أصل الأنواع، ولم يعلق عليه بأكثر من قوله: «إننا لا ينبغي لنا أن نعثر على جواب محدود معين على هذا السؤال إذا ما عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة عن سؤال أقل من هذا تعقيداً»[١].

وهكـذا تكـاثرت الانتقادات على نظرية داروين من كل صوب فكان مصيرها في ميزان النقد العلمي شراً من اللاماركية التي سبقتها[٢].

---

(١) أصل الأنواع لداروين ص، (٤١٢).

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور البوطي، ص(٣٣٥، ٣٣٩).

ثالثا : الداروينية الحديثة :

غير أن العالم الهولندي Hugode Veries

أقبـل فأقـام على أنقاض تصوّرات داروين هذه نظرية ثالثة في تفسير نظرية التطور المفروضة بشكل إجمالي سلفاً، سرعان ما سميت بالداروينية الحديثة.

ويتلخّص فرق ما بين نظرية داروين وهذا العالِم الثاني أن داروين أفحم نفسه في متاهات محرجة لا مفر منها عندما أعطى الطبيعة القدرة على تصعيد أجناس الحيوانات إلى المستوى الأفضل، وهو عمل يدخل في صميم ما يسميه العلماء بالعلة الغائية، والعلة الغائية من أرقى وظائف الفكر والعقل.

أمـا هذا الثـاني فقد قرر أن الإنسان كغيره من الكائنات الحية يخضع للتـطور الجزئي والنوعي، ولكن عن طريق الطفرة لاعن طريق السعي نحو الاصطفاء وانتخاب الأصلح؛ فمن خلال طفرات نوعية أدركت الإنسان منذ أحقاب طويلة مرت أُتيحَ له أن يرقى صعداً إلى هذه المرتبة التي وصل إليها.

غير أن مآل هذا التصور الثالث لم يكن خيراً من مآل كل من الفرضيتين السابقتين فقد وجهت لها هذه الانتقادات الآتية:

١ ـ إن التـطور المفروض الذي هو أصل البحث تطور تقدمي، ولا ريب إذاً هو التصور المقترح لتدرج أصناف الحيوانات، فهل من شأن الطفرة أن تنطوي على هذا التطور التقدمي المطرد؟

المعروف أن الطفرة دائماً تنطوي على صفات الانتقاص والاضطراب، والموت أكبر مثال على ذلك، فكيف يفسر التطور التصاعدي المطرد هذا على أساس من هذا العامل الانتفاضي المضطرب؟

أي أن العاقل لابد أن يسأل: لماذا لا تتجه الطفرة يوماً ما في مسيرها

بالركب الحيواني نحو الانتكاس إلى الخلف بدلا من الصعود الشاق الدائب إلى الأمام ما دام أن المسألة طفرة وليس ثَمّ سائق يتجه به إلى أي هدف؟

٢ ـ إذا كانت الطفرة هي التي تتحكم فيما يطرأ على الكائن الحي من تغير وتطور، فأي موجب يبقى لافتراض نشأة الكائنات الحية من أصل واحد؟ إذ من المعلوم أن هذا الافتراض إنما لاقى قبولاً من أصحابه بناءً على ما لاحظوه من الشبه التصاعدي بين هذه الكائنات، وهي الملاحظة التي جعلتهم يقولون بمبدأ الاصطفاء وانتخاب الأصلح، فإذا نُسف هذا المبدأ بافتراض الطفرة فلابد من تجاوز ظاهرة التشابه التصاعدي بين أصناف الأحياء؛ إذ ليس من علاقة بينها وبين افتراض الطفرة وتصوُّر أنها هي عامل التطور[1].

وأخيراً الكشف العلمي الذي قضى على فرضيات التطور كلها، وقد كانت هذه الانتقادات كلها تتجه إلى هذه النظريات المتناسخة قبل أن يكتشف العلماء ما في داخل نواة الخلية الحيوانية، وهو الذي يسمونه اليوم بالكروموزومات أو الصبغيات، أما اليوم وقد دخل هذا الكشف طور الحقيقة العلمية التي لا مرد لها فقد قام هذا الكشف سدًا محكماً في وجه النظريات الثلاث التي درسناها، بل في وجه أي نظرية أخرى تفرض تطور الإنسان من كائن حيواني أقل شأناً؛ ذلك لأن الصبغيات تنطوي على شريط حُشدت عليه رموز شتى تدل على الطبائع والصفات والأشكال الإنسانية التي ستتفتح في حياة هذا الكائن الإنساني.

والدلالة الهامة التي ينطوي عليها هذا الكشف العلمي هي أن سائر ما يمتاز به الإنسان أو الحيوان من المقومات الإنسانية أو الحيوانية ـ سواء في مظهره أو طبائعه أو أخلاقه ـ نابعة من أصل تكوينها الذاتي وليست طارئة عليه بفعل

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور البوطي ص(٢٣٩ ـ ٢٤١).

التطور المزعوم الذي اعتمد على مجرد التشابه التدريجي في الأنواع.

وبعد، فتلك هي أبرز النظريات التي تلتقي تحت مظلة دعوى أن الكائنات الحية بما فيها الإنسان قد تطورت من بعضها، ومن عجيب الأمر حقاً أنك في الوقت الذي تجد علماء هذا الشأن يتسابقون إلى تحطيم هذه النظريات والتنبيه إلى دلائل الثغرات ومظاهر الخطأ فيها تجدهم يعودون من سباقهم المتعب هذا ليقولوا: ولكن لابد أن التطور النوعي خلال القرون هو التفسير الوحيد لنشأة الإنسان وبلوغه هذا الأوج من الملكات العجيبة التي تميز بها؛ يعرقون ويتعبون في تحطيم كل نظرية تنادي بالتطور ثم ينكفئون على أعقابهم ليقرروا في استكانة وذل أن القول بالتطور هو الملاذ الوحيد.

وليس هذا الوصف يقتصر بالذات على العلماء الأجانب لكنه للأسف هناك مَن تأثروا بمناهج أولئك من المسلمين اسماً، فراحوا يسيرون خلف أولئك كظلال شاحبة، فما هو تفسير هذا الموقف المتناقض العجيب[1]؟

تفسير ذلك أن أصحاب هذه النظريات وأتباعهم من الغربيين وأولي النزعة المادية في تفسير أصل الوجود ينطلقون إلى دراسة هذه الظاهرة من يقين سابق لم يضعوه قط موضع ريبة أو بحث ألا وهو اليقين بأن الطبيعة هي التي نسجت هذا الوجود الكوني.

حتى الذين يستريحون منهم إلى القول بوجود الله ضمن حدود اليقين بأن قوة خفية لابد أنها أبدعت هذا الكون لا يرقى إيمانهم هذا إلى درجة من القوة بحيث يفرض عليهم إزاحة سلطان الطبيعة من طريق الخلق والإبداع فهو إيمان تقليدي لا أهمية له.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، تأليف الدكتور/محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٤٢١ - ٤٤٣).

فكان من جرّاء ذلك أنهم وضعوا أنفسهم لدى محاولة البحث عن تفسير علمي صحيح لنشأة الإنسان أمام استقراء ناقص ، أي أنهم فرضوا عدة احتمالات لنشأة الإنسان وأبعدوا أنفسهم عن واحدٍ منها، ألا وهو احتمال أن يكون أمر نشأته بيد خالقٍ مبدع ، صوّره كما شاء، ثم قال له: كن فكان كما أراد، فلقد شطبوا وألغَوا هذا الاحتمال سلفاً ثم راحوا ـ وقد حصروا أنفسهم في باقي الاحتمالات ـ يتلمّسون الدليل العلمي في كل منها الواحد إثر الآخر، ولكن الدليل العلمي شطب على احتمالاتهم كلها، فكان مقتضى هذا الانغلاق الذي حكموا على أنفسهم به أن يختاروا التمسك بأحد تصورين اثنين: إما أن يُغمضوا فكرهم وبصائرهم ثم يقرروا أن الطبيعة تمخضت فجأة عن كائن حي يتمتع بأعلى درجات الفهم والإدراك، ويطمح إلى السماء بقوته وسلطانه ويهيمن على خير الأرض، وإما أن يريحوا أنفسهم عناء البحث في كيفية نشأته ويكتفو، بالقول إجمالاً بأنه تطور عن كائنات أقل شأناً خلال أحقاب طويلة من الدهر وإن لم ندرِ كيفية ذلك.

لا ريب أن المنطق النسبي ـ أي بالنسبة لمن حصر فكره ضمن احتمالات استقرائية ناقصة، وأبى أن ينطلق من الصفر في فرض كلِ الاحتمالات ـ يدفع هؤلاء الناس إلى الميل للقول بالرأي الثاني، فهو على عِلاّته وغموض السبيل العلمي إليه أقرب إلى قبول الذهن من تصور أن الطبيعة أوجدت فجأة هذا الكائن العجيب على سبيل المصادفة وطبقاً للعوامل العشوائية[1].

غير أن هذا المنطق النسبي جهل عظيم وانخداع خطير، وسأجلي لك الرد على هذه النظرية من القرآن الكريم والسنة المطهرة في الفصل القادم.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٣٤٣ ، ٢٤٤).

الفصــل الحادي عشــر
موقف الاسلام من الصراع
ويتضمــن
الرد على النظريات الحديثة

الفصـــل الحادي عشر
موقف الاسلام من الصراع ويتضمن الرد على النظريات الحديثـــة

تمهيـــد :

ويشتمل هذا البحث على ثلاثة جوانب :

أ ـ الجانب العقائدي : وفيه الرد على قضية الإلحاد.

ب ـ الجانب الاجتماعي : وفيه توضيح قضية نظام الطبقات.

جـ ـ الجانب الاقتصادي : وفيه توضيح قضية حق التملك.

تمهيد :

كل من يتمعن في الأسس التي احتوت عليها الشريعة الإسلامية يجد أنها تتضمن مجموعة من الأحكام الاعتقادية التي تخاطب في الإنسان عقله ووجدانه، وترشده إلى معرفة الله والإيمان به وبوحدانيته إيماناً لا يقبل الشك، كما أنها تتضمن مجموعة من أحكام العبادات التي تدعم صلة الإنسان بربه، وتزكي نفسه، وتسمو بروحه، وإلى جانب ذلك نجد مجموعة أخرى من الأحكام والمباديء التشريعية كالمباديء والقيم الأخلاقية التي تنظم أمور المجتمع تنظيمًا عادلاً متوازناً بما يؤدي إلى تخليصه من كل أسباب الصراع أو الشقاق أو الانحراف، وهذا يعني أن الإسلام يعتبر نظامًا شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شئون الحياة، وهذا الشمول لا يقبل الاستثناء أو التخصيص فهو شمول كامل بكل معاني الشمول، وسنتناول هذا البحث من ثلاثة جوانب، سالكين مسلك الاختصار تجنباً للإطالة.

أولا : الجانب العقائدي :

سنقتصر على قضية الإلحاد :

إن الإسلام فوق ما اشتمل عليه من مباديء خلقية سامية هو في ذاته ـ كما أسلفت ـ دين العقل، فما مِن أمر جاء به إلا وكان موافقاً للعقل يدركه ويصدقه، ويذعن له مادام غير معتكر بهوى غالب أو شهوات مسيطرة، فعقيدته هي الوحدانية لله ـ تعالى ـ في ذاته وفي صفاته، وخلقه وإبداعه أمر هو حكم العقل المستقيم، حام حوله الفلاسفة الأقدمون، وليس في إدراك تلك الوحدانية صعوبات تعوق العقل أو تمنعه بل إنها واضحة غير معقدة، يصل إليها العقل إذا خلا من الأوهام ولم ينزلق في الوثنية أو المادية.

والسورة الكريمة ـ التي نحن بصدد دراستها ـ بينت لنا نماذج من الأمم السابقة إلى عهد خاتم الأنبياء نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

وكيف أن الله بعث إليها رسله مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الخير والحق والسلام، فكان منهم المعارضون المنكرون ومنهم المطيعون المصدقون، فهذه سنة الله في خلقه؛ فعلى عهد كل رسول أرسل برسالة الله، كان المؤمن والكافر، وكان المهتدي والضال، وكان المتقي والفاجر، وكان المتواضع والمستكبر المتبع لغواية الشيطان.

وفي العصر الحديث تختلف وتتنوع أساليب الكفر والضلال، وإن كانت تختلف في مسمياتها لكنها تتفق جميعها في رفض كل معاني الحق والفضيلة، فتطالعنا أشهر النظم وأوسعها أفقاً وأبعدها عن منهل الحق وأشدها انغماساً في الكفر والإلحاد والضلال، ألا وهي النظرية الشيوعية التي اعتمدت في أساسها على إنكار وجود إله لهذا الكون، والقضاء على كل الأديان الموجودة في الأرض باعتبارها في نظرهم خرافات يتوارثها الأبناء عن الآباء، كما اعتمدت النظرية الشيوعية على أن المادة هي التي شكلت نفسها وما تزال تتطور حسب تفاعلات معينة؛ فالسماوات في اعتقادهم بما فيها من كواكب متحركة ونظامها الدقيق الذي لا يتغير منذ مئات الملايين من السنين، وتعاقب الليل والنهار ليست في عقيدتهم من خلق الله، والأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات وجبال وهضاب وسهول وبحار وأنهار كل هذا في نظرهم كان نتيجة لتفاعلات مادية.

وسنكتفي بنقد الفلسفة الماركسية دون التطرق لنقد فلسفة هيجل وذلك لأن ماركس ـ وكما أسلفنا عند عرض النظريات ـ قد عمد إلى نظرية هيجل عن الجدل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها علاقة بين أجزاء المادة نفسها، وحذف الفكر المطلق الذي جعله هيجل مصدر الخلق والتطور؛ أي بعبارة أوضح: إن كل ما في الكون من موجودات هو من خلق الطبيعة، وذلك نتيجة لتفاعلات أجزاء المادة بعضها ببعض وليس هناك أي اعتبار لخالق الكون ـ جل جلاله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

لكنَّ سؤالاً واحداً يُقوّض هذه العقيدة الماركسية من أساسها، والسؤال يقول: لو قُدِّر لواحد من هؤلاء ولنفرض أنه ماركس مثلاً، لو كان يسير في أرض قاحلة جرداء مترامية الأطراف لا ماء فيها ولا سكن ولا زرع فيها ولا شجر، وأثناء سيره في هذه الأرض الفسيحة رأى من بُعد بناء شامخاً في وسط هذه الأرض التي لا أثر للحياة فيها، وحينما بلغه وجده مصنعاً مجهزاً بكل ما تتطلبه التقنية الحديثة من أجهزة إلكترونية، وآلات حاسبة دقيقة، وتمديدات كهربائية، وأبراج للمياه، ومكائن ومعدات صناعية تعمل في نظام دقيق ودقة إنتاجية مدارة وفق أدق الدراسات الاقتصادية الحديثة، فماذا يا ترى يدور في لحظة هذه المفاجأة في فكر ماركس؟ هل يعتقد والحالة هذه أن هذا المصنع وجد نتيجة للتفاعلات المادية، وأنه لم يكن نتيجة عمل قام به مجموعة من المهندسين والحدادين والكهربائيين والفنيين وغيرهم؟.

إذا كان يعتقد أن الطبيعة أوجدته فهو بين أمرين: إما أنه مختل الشعور تماماً، أو أنه معاند لا يعترف بالليل بأنه ليل ولا بالنهار أنه نهار.!!

وإذا اعتقد أنه كان نتيجة جهود كبيرة بذلت من مهندسين وعمال فنيين، وأن عامل الصدفة لا مجال له هنا ففي هذا هدم للعقيدة الماركسية القائمة على الاعتقاد بأن التفاعلات المادية هي مصدر الخلق والتطور، وهنا نتساءل مع ماركس: لماذا تعتقد أن هذا المصنع الشامخ لم يكن من فعل الطبيعة وإنما هو من عمل الإنسان، ولا تعتقد أن هذا الكون بكل ما فيه مما نعلمه وما لا نعلمه من عمل خالق له وهو الله؟

سؤال لا نكاد نجد له جوابًا عند الشيوعيين إلا المكابرة والعناد والارتماء في أحضان الطبيعة وإسناد كل مقومات الحياة إليها، وما عرفوا أن الطبيعة هي ذاتها مخلوقة عاجزة عن أن تخرج قيد شعرة عما أراد الله لها أن تكون عليه، وما

عرفوا أن كل ذرة في هذا الوجود وما تحويه من أسرار إنما هي دليل على وجود خالق لها.

لقد تعرف ذلك الأعرابي(١) على إله هذا الكون من محسوسات وآيات كونية حوله، وهو أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يكن فيلسوفاً أو أستاذاً في إحدى الجامعات، فعندما سئل كيف عرفت الله؟ قال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

ويلخص هذا القول النظرية الثابتة لدى جميع الفلاسفة والتي تتضمن قانوناً بديهياً من البديهيات وهي أن كل عمل منظم له هدف لابد له من موجد؛ فالساعة عمل منظم هدفها ضبط الوقت لا يوجد مكابر يقول إنها وجدت بالصدفة، والطائرة عمل منظم هدفها اجتياز المسافات الطويلة والتي كان يقطعها المسافر في أسابيع بل في شهور، فتجتازها الطائرة في سويعات ولربما دقائق ولا يوجد مكابر يدعي وجودها بالصدفة، وهناك آلاف الأمثلة الحسية بين أيدينا تنطق ببداهة هذا القانون.

فإذا طبقنا هذا القانون على الكرة الأرضية وما حولها من أجرام المجموعة الفلكية لأدركنا أنه لابد أن يكون لنشأة هذا الكون من خالق، يقول عالم الطبيعة فرانك ألن(٢): «لو أزيحت الأرض إلى ضِعف بُعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل

---

(١) هو: قصيٌ بن سعيد الأيادي.

(٢) فرانك ألن: ماجستير ودكتوراة من جامعة كورنل، أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا (١٩٠٤-١٩٤٤) أخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا.

الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض، ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقاً، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة»(١).

ويقول عالم الطبيعة فرانك ألن: «إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية؛ فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول. . .، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتدحولها إلى ارتفاع كبير يزيد على ٥٠٠ ميل، ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا. .، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيي الأرض بعد موتها، والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. .»(٢).

ويقول أيضاً عالم الطبيعة فرانك ألن: «أما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل

---

(١) انظر كتاب: الله يتجلى في عصر العلم تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض، مبحث: نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟ كتبه فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية ص(١١-١٥).

(٢) المرجع نفسه.

الكـون أو أسـاسـه يرتبط بزمـان بدأ من لحظة معينـة، فهـو إذاً حدثٌ من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه»[1].

كل هذه التنظيمات الدقيقة المعجزة لها هدف، وهدف هذا العمل المعجز هو وجود الكائن الإنساني عليه، إذن لابد لهذا العمل من موجد حسب القانون السـابق، ألا وهو رب العباد، والذي استدل عليه الأعرابي بفطرته السليمة وتـوصَّـل إليه هذا العـالم الأمريكي ـ فرانك ألن ـ وغيره بما أتيحت لهم من دراسات عميقة في الطبيعة وما تحتويه من أسرار.

---

(١) المرجع نفسه.

القرآن الكريم استدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر

لقد استدل القرآن الكريم على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر لا بالفرض والوهم؛ فترى الآيات الكثيرة التي تدعو إلى النظر في المخلوقات وما فيها من أسرار تدل على وجود الله ـ تعالى ـ وأنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الخالق لهذا الكون، المدبر لشئونه، وله الحكمة البالغة في كل ما يجري على هذا الكون، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾[2].

---

(١) سورة الرعد: الآيات (٢ ـ ٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

واقرأ قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾(١).

ألا ترى في ذلك الاستدلال على الوحدانية ما يدعو إلى توجيه الأبصار والعقول وجميع الحواس إلى أسرار الكون ومافيه من بدائع المخلوقات؟ أليس هو بهذا التوجيه المنطقي ينير العقول ويدعو إلى النظر والتأمل والتفكير؟.

ولم يقتصر القرآن الكريم على توجيه العقول لمعرفة الله ـ تعالى ـ والاستدلال على وحدانيته بل دعاهم إلى النظر المستمر في الأشياء وفي الأحياء وإلى أصل الكون ودراسته، اقرأ قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) ﴾(٢).

ودعاهم أيضاً إلى النظر والتفكر في حقيقة أنفسهم وكيف خلقهم، قال

---

(١) سورة النمل: الآيات من (٦٠) إلى (٦٤).

(٢) سورة الغاشية: الآيات من (١٧) إلى (٢٢).

تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾(١) وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾(٢).

لكن أنّى لهم أن يصلوا إلى معرفة الله ـ عز وجل ـ وإدراك وحدانيته وهم يجاهدون بكل الوسائل المتاحة لهم للقضاء على الأديان ـ وبخاصة الإسلام ـ هذا ولقد شنت الشيوعية حرباً لا هوادة فيها ضد الإسلام في كل بلد تضع أقدامها فيه، ومارست كل الوسائل والضغوط لتحقيق أهدافها فأغلقت المساجد والكنائس، وأعدمت العلماء المسلمين ورجال الدين من النصارى، وقتلت الملايين من المسلمين وغيرهم، وشتت الملايين من ديارهم وأهلهم(٣).

وترجع أسباب محاربة الشيوعية للدين في نظري إلى سببين:

أولهما: لأن الشيوعية نتاج يهودي؛ فمعظم زعمائها وقادتها من اليهود، حتى ماركس المؤسس الأول للمذهب الشيوعي أصله يهودي(٤) فمعارضة الشيوعية للدين وحربها القاسية تعود إلى النفسية اليهودية التي تسعى جاهدة إلى تحقيق استعلاء شعب الله المختار، واليهود قوم معروفون بالحقد والكراهية للأديان الأخرى، ومجبولون على الطمع والجشع وحب المال والفساد، فهم ينتهزون كل فرصة لإفساد الناس وإبعادهم عن الدين القويم حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى هدم عقائد الناس وإفساد أخلاقهم، وبالتالي

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٢١).
(٢) سورة القيامة: الآيات من (٣٦(إلى (٤٠).
(٣) انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص(١٠٧ وما بعدها).
(٤) انظر؛ ترجمة ماركس ص(٦٩٧) من بحثنا هذا.

يسـوسـون الناس كما يريدون، والشيوعية من أهم الأسلحة التي استخدمها اليهود في مخططاتهم.

ثانيـاً: وجود نصرانية محرّفة على يد أباطرة ادَّعَوا حقَّ الآلهة، ومسخوا الـربـوبية، وخلطوا بين الخـالق والمخلوق؛ فبيعت الجنة صكوكاً، وأعطيت القياصرة حق الآلهـة بقـوانين من الكنيسة، وكانت الكنيسة تقف وراء ظلم هؤلاء القياصرة وتعطيهم حق الآلهة ممّا حَدا بالثورة أن تكفر بهذا الدين وبكل دين، وكان الأحرى بها أن تدرس بقية الأديان لا أن تشملها بحكم واحد.

والشيوعية بوصفها مذهباً أو عقيدة تحلُّ محل الأديان القديمة، وتحتقرها وتناهضها بالدعوة إلى الإلحاد والمادية التي تنكر الله ـ تعالى ـ ورسوله، لذلك شنت حملة فكرية على الأديان، فوصفوا الدين بأنه مخدر وأنه وهم، وأن المتدين رجعي متخلّف جاهل، والملحد تقدمي متحرر، يقول ماركس: «الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم تبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعوب إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى لنقد هذا الوادي الغارق في الدموع»(١).

(١) نقض أوهام المادية الجدلية، ص(٣٤) نقلاً عن الدفاتر الفلسفية، ص(٥٣ـ٥٧).

فطرية التوحيد

إنه مما لاشك فيه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلق الكون والإنسان بحكمته، والذي أودع في فطرة الإنسان التدين والتوجه إليه بالعبادة لم يترك خلقه يعتمدون على أنفسهم، فكان من حكمته إرسال الرسل لتصحيح العبادة للناس، وقد ذهب كثير من العلماء ـ وبخاصة جمهور أهل السنة من المسلمين، والعقلاء من علماء أوروبا ـ إلى أن عقيدة التوحيد فطرية في النفوس، وأن الإنسان بفطرته عرف الإله الواحد وتعلق به وعبده، وأن الشرك والوثنية أمور عرضت للعقيدة وانحرافات طرأت عليها.

ومن جملة من يؤيد هذا الرأي من العلماء الغربيين لانج الذي أثبت عقيدة الإله الأكبر عند القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان الذي أثبتها عند الساميين قبل الإسلام(١).

---

(١) انظر بتصرف: بين الدين والعلم، عبد الرزاق نوفل، القاهرة: مطابع الشعب، ص(٢٦).

مقالات وآراء لمجموعة من العلماء الأمريكيين عن اعتقادهم بوجود الله

يقول عالم الطبيعة روبرت بيبج[(١)]: «إذا أراد الإنسان أن يتثبت من صحة المعلومات الغيبية التي يخبره بها شخص آخر فلابد أن يشترك في التجربة ويتهيأ لها حتى يستطيع أن يحكم عليها، وكذلك الحال فيما يتعلق بالإيمان بالله، فلابد أن يدرس الإنسان أولاً نوع العلاقات التي يمكن أن تكون بينه وبين خالقه، وما ينبغي أن تكون هذه العلاقات، فإذا درس الإنسان الشروط التي يلزم توافرها لقيام هذه العلاقة، واتجه بقلبه وكليته نحو تحقيق هذه الشروط، فإنه سوف يشاهد هذه الحقيقة كاملة، عندئذ يغمر الإيمان قلبه ويؤثر في حياته، ولا يدع في نفسه مجالاً للشك، وإذ ذاك يكون الله أقرب إليه من نفسه ويصير إيمانه يقيناً»[(٢)].

ويقول عالم الطبيعة الفيلسوف ميريت ستانلي كونجدن[(٣)] في بحث بعنوان (درس من شجرة الورد): «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ـ سبحانه ـ ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر

---

(١) روبرت بيبج: حاصل على دكتوراة في العلوم من جامعة هاملين، كان أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٢٧ يعمل في الوقت الحاضر مديراً مساعداً في معامل بحوث البحرية الأمريكية، سجل نحو سبعة وثلاثين بحثًا معظمها في الرادار.

(٢) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، ص(٢١).

(٣) دكتوراة من جامعة بورتون، أستاذ سابق بكلية تزني بفلوريدا، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، أخصائي في علم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الإنجيلية.

هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطرق الاستدلالية فإننا لانفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»(١) .

ويقول المستشار الهندسي كلوردم هاثاواى(٢) في مقال له بعنوان (المبدع الأعظم): «إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين، ولابد له إذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكية الحرارية، ولابد أن يكون هذا المسبب الأول غير مادي في طبيعته، إنه هو الله اللطيف الخبير الذي لا تدركه الأبصار»(٣) .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص(٢٦).

(٢) كلود هاثواي، حاصل على درجة الماجستير من جامعة كلورادو، مستشار هندسي بمعامل شركة جنرال إلكتريك، مصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلي فيلد ، أخصائي في آلات الكهربائية والطبيعة للقياس.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص(٩٤-٩٧).

تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له

لا شك أن الإنسان بما منحه الله من عقل وتفكير أفضل من كل المخلوقات في هذه الحياة، فالإنسان هو سيد هذه الأرض يستطيع بما وهبه الله من العقل والتفكير أن يفجّر ينابيعها ويستنبت أرضها، ويستخرج منها كل خيراتها.

ونظرة الإسلام إلى هذا الإنسان نظرة فيها الكثير من معاني التقدير والتكريم والاحترام لسببين:

أولهما: إن الإنسان خليفة الله في أرضه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾(1) وقد أوجد الله هذه البسيطة وما عليها لعبادته ـ جل جلاله ـ كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾(2).

ثانياً: تكريم الله له بأمور لم تحصل لغيره من المخلوقات منها أمره ـ تعالى ـ للملائكة أن يسجدوا له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ(3) ﴿١١﴾﴾

(1) سورة البقرة: الآية (٣٠).
(2) سورة الذاريات: الآية (٥٦).
(3) سورة الأعراف: الآية (١١).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾[1].

ولهذا التكريم مظاهر أذكرها إكمالاً للفائدة.

أولاً: تحرير عقله من عبادة المخلوق إلى عبادة الله، كما قال - جل شأنه -: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية[2].

ثانياً: ومن مظاهر التكريم لهذا الإنسان إلغاء كل الفوارق بين الناس؛ فلا تكبر ولا استعلاء ولا تعاظم، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لغني على فقير، ولا لشريف على وضيع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾[3].

ثالثاً: تكريمه - جل وعلا - لبني آدم بالعلم دون غيره من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾[4].

رابعاً: تسخير الله له هذا الكون بما عليه من جبال وبحار وأودية وقفار وفضاء وأفلاك، ولولا هذا التسخير لما استطاع أن يستخرج المعادن من الصخور واللآليء من قاع البحار.

وحين ننظر في تعاليم الإسلام نجدها تطبق مبدأ المساواة موضع التنفيذ فأمام القضاء يقف الحق وحده بجانب صاحب الحق، وفي مجال التوحيد عدم

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٠).

(٢) سورة النساء: الآية (٣٦).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٤) سورة البقرة: الآيات (٣١ - ٣٣).

الخضوع لغير الله فيأمر الناس أن يتجهوا إليه وحده ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

مدى الفرق الكبير الشاسع الذي عليه الإسلام في أصل خلق الإنسان وما عليه نظرية التطور:

مَرَّ عليك في البحث السابق تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له، ونظرة الإسلام إلى الإنسان، ومدى الحفاوة والتقدير والتكريم الذي حظي به الإنسان في ظل الإسلام، وأضيف إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2] واقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3] واقرأ قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[4]

فلقد تكاثر الإنسان من نسل أبيه آدم، وكان الخالق ـ جل وعلا ـ يحيطه بكل ما يضمن هدايته ورشده، فلم يتركه هملاً بل كان يبعث إليه بين الحين والآخر رسلاً من بني جنسه يُذكِّرونه بالسبب الأول لإيجاده على هذا الكون وأنه

(١) سورة البقرة: الآيتان (٢١، ٢٢).
(٢) سورة الحجر: الآيات من (٢٨) إلى (٣١).
(٣) سورة التين: الآية (٤).
(٤) سورة الانفطار: الآيات من (٦) إلى (٨).

ما خُلق إلا ليعبد الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾(١) وقد تكفل الله له بالرزق كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾(٣).

بل تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٤) الآية.

وانظر إلى رأي داروين ـ صاحب نظرية التطور في أصل الإنسان ـ وكيف وصل إلى ما وصل إليه اليوم، يقول داروين: لقد سارت الحياة في سلسلة طويلة من الرقي التدريجي بدأت بالكائن وحيد الخلية وانتهت بالإنسان على النحو التالي ـ باختصار كثير من التفصيلات ـ: كائن وحيد الخلية كالأميبا، ثم فطريات متعددة الخلايا، ثم نبات، ثم نبات يشبه الحيوان، ثم حيوان يشبه النبات، ثم حيوانات فقارية أرقى كالثدييات الدنيا والثدييات العليا، ثم القردة العليا والغوريلا الأورانج أو تانج، ثم إنسان الغاب والشمبانزي والجبيبون، ثم الحلقة المفقودة، ثم القرد الشبيه بالإنسان أو الإنسان الشبيه بالقردة العليا، ثم الإنسان.

وقال داروين وهو يشرح نظريته: «إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق»(٥).

---

(١) سورة الذاريات: الآيات (٥٦، ٥٧).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٢٢).

(٣) سورة الذاريات: الآية (٥٨).

(٤) سورة الرعد: الآية (١١).

(٥) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص(٩٤).

وأوجز الرد على نظرية داروين وما سبقها وما لحقها من نظريات التطور بما يلي:

أولاً: إن نظريات التطور تتعارض مع ما توصل إليه العلم الحديث[١].

ثانياً: إن نظريات التطور تتنافى مع خبر السماء وما جاءت به السنة المطهرة. وقد أشرت إلى الآيات الكريمة التي مفادها أن الله كرّم بني آدم وخلقه في أحسن تقويم في صورة كريمة، وهي تختلف تماماً على ما عليه الصور الحيوانية، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾[٢].

ثانياً: الجانب الاجتماعي:

المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين افراد المجتمع:

لقد اهتم الإسلام بالفرد فعمل على تربية نفسه وروحه تربية مثالية ليكون أهلاً لوصفه بالإنسانية، واهتم الإسلام بالأسرة أيضاً باعتبارها اللبنة الأولى في المجتمع، فأحاطها بكل الحقوق، ووفر لها أجمل مناخ لجعلها تعيش في أرغد عيش وأهنأ بال؛ ذلك لأنها نواة المجتمع السليم السعيد، ذلك المجتمع الذي يقوم على أسس متينة من الرحمة والتعاون والمحبة، وعلى قاعدة قوية في أداء الحقوق والواجبات والتوازن بين حقوق الفرد والجماعة في إطار ما رسمته العقيدة الإسلامية الراسخة[٣].

---

(١) وقد سبق توضيح ذلك. انظر: ص(٥٢٦) من بحثنا هذا.

(٢) سورة السجدة: الآيات (٧ ـ ٩).

(٣) الأمثلة كثيرة واستعراض بعضها دون البعض لا يؤدي الغرض، فالأخلاق وما ينطوي تحتها من مثل، وتشريعات حكيمة فيها سعادة المسلم من صلاة وصوم وزكاة وحج، والعقوبات الزاجرة التي فيها حفاظ على قيم المجتمع، واهتمام الإسلام بالأسرة وتنظيمها، وحقوق الزوجية وما يضمن استمرار الحياة العائلية والعواصف التي يمكن أن تهز الحياة الزوجية.

وقبـل أن أبـيِّن المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع الإسـلامي فلعله من المفيد أن أذكـر القاريء الكريم أن الاجتماع الإنساني ضروري للفرد وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، وطالما أن المجتمع ضروري للإنسان. فلابد أن يكون لهذا المجتمع نظام يتضمن الحدود التي يجب أن يقف عندها كل أفراد المجتمع، والضوابط العامة التي يجب أن يلتزموا بها في سلوكهم حتى يسلم المجتمع من الصراعات التي تؤدي به إلى تدميره، وحتى يستطيعوا العيش في ظلاله في أمان واستقرار، وقبل أن أشرع في بيان أهم المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع لابد أن أشير إلى ركيزتين أساسيتين يقوم عليهما المجتمع المسلم:

الركيزة الأولى:

هي وحدة الأصل: حيث ينتسب البشر جميعاً إلى أب واحد وأم واحدة، ولا يمكن حجب هذه الحقيقة باختلاف الناس بالأنساب والأجناس **«كلكم لآدم وآدم من تراب...»**. الحديث.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١) هكـذا يـقـرر الإسـلام وحـده الأصل لكل الناس بحيث يمكن عن طريق وحدة العقيدة توجيه طاقاتهم لما يحقق النفع والخير لهم في الحياة الدنيا والآخرة.

الركيزة الثانية:

وحدة العقيدة: تلك الصلة التي تجعل البشر جميعاً عباداً لله - عز وجل - قال تعـالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾(٢) وقال تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾(٣) فهذه الآيات تقرر وحدة الإله، خالق السماوات والأرض وما بينهما،

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٢) سورة الإخلاص: الآية (١). (٣) سورة الحج: الآية (٣٤).

وإليه وحده يرد الأمر.

ومن هاتين الركيزتين تنبثق المبادىء الإسلامية والغايات النبيلة والضوابط الحكيمة التي تصيغ المجتمع المسلم، وأكتفي هنا بالإشارة إلى جانبين يتميز بها المجتمع المسلم وهما: الإخاء، والتكافل.

أولا: رابطة الإخاء.

تعتبر رابطة الإخاء بين المسلمين من المبادىء الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم، فقد حض عليها الشارع الحكيم ودعا إليها، يقول جل شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(1) وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**»(2) وتنبثق من رابطة الإخاء مظاهر، منها التودد، والتراحم، والتعاطف بين أفراد المجتمع، وقد شبه النبي ﷺ تلك المظاهر بقوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(3).

ورابطة الإخاء تكاد تنعدم في المجتمعات المادية التي لا هَمَّ لها إلا جمع المادة حيث تثور الصراعات بين الطبقات، فالغني لا هم له إلا في السبل التي ينمي بها ثروته، والفقير لا يكاد يجد لقمة العيش والمجتمع بأكمله في غفلة عنه، والأكثر من ذلك أن رابطة التوادد والتراحم لم تنزع فقط من بين أفراد المجتمع بل من بين الأسرة نفسها؛ فالابن أو الفتاة إذا ما بلغت الثامنة عشرة أو أقل من ذلك فلا مكان لها في منزل أسرتها، والجد أو الجدة متى تقدما في

---

(1) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(2) جزء من حديث طويل في صحيح مسلم (٤/١٩٨٦) بترتيب/ محمد فؤاد عبد الباقي.

(3) صحيح مسلم، بترتيب وتحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/١٩٩٩، ٢٠٠٠).

السن وأصبح لا مورد لها فإن مكانها الطبيعي هو الملجأ الذي يجب أن يكون له مقر في كل مدينة وقرية في أوروبا.

حدثني صديق لي طبيب مسلم وهو يعمل في أحد مستشفيات ألمانيا أنه جاءته سيدة طاعنة في السن تشكو من كسر في حوضها مما أعجزها عن المشي، وتم تقديم العلاج لها حتى تماثلت للشفاء وأصبحت تسير على قدميها، وقرر الطبيب المشرف على علاجها أن بإمكانها أن تذهب إلى منزلها، فاتصلت السيدة العجوز بابنتها التي كانت نادراً ما تزورها تخبرها بالذي قرره الطبيب وأن عليها أن تأتي لكي تأخذها إلى منزلها فجاءت الابنة لأخذ أمها وهي تزف إليها هذا الخبر: يا أمي لقد هيّأنا لك غرفة في الملجأ لكي تقيمي فيها: وإذا بالعجوز تسقط من ألم هذا الخبر وتودع الحياة مفارقة لها دون رجعة!

ثانيا: التكافل الاجتماعي:

من المباديء الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم مبدأ التكافل، والمقصود بالتكافل هو التعاون والتضامن بحيث لا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، ولا تضيع مصلحة الفرد في دوَّامة المجتمع، بل يبقى للفرد كيانه ومميزاته ويكون للجماعة هيمنتها وسيطرتها، فيعيش الفرد في كفالة المجتمع كما تكون الجماعة متلاقية في مصالح الآحاد ودفع الضرر عنهم، ومن ثَم فإن المجتمع الإسلامي لا يعترف بالنظام الطبقي ولا يعترف بصراع الطبقات وتناحرها بينما يقيم الماديون تفسيرهم للحياة البشرية على أساس أن الصراع الطبقي هو قوام هذه الحياة منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى حتى يعودوا إلى الشيوعية الثانية[1] وأن هذا الصراع الطبقي متعلق بالملكية

---

(١) الشيوعية الأولى: يزعم التفسير المادي للتاريخ أن الشيوعية كانت هي الطور الأول للبشرية، وأنها كانت شيوعية شاملة وتشمل كل نواحي الحياة البشرية بما في ذلك الجنس؛ =

الفردية[1] وبمجرد أن تزول الملكية الفردية يرجع الناس إلى الحياة الملائكية التي كانوا عليها أيام الشيوعية الأولى وتستريح البشرية من الصراع[2].

«صحيحٌ ما يقولون ولكنها صحة محددة بنطاق معين وليست صحة مطلقة، صحيح بالنسبة للجاهليات ففي الجاهليات يصدق القول بأن الذي يملك هو الذي يحكم، وحين يحكم يُشرّع لصالح نفسه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات، ومن ثم ينشأ صراع الطبقات، ويدور صراع حول متاع الأرض، ولأنه في غياب القيم العليا لا يبقى للناس إلا متاع الأرض يتصارعون حوله ويتقاتلون عليه.

أما في النظام الرباني فليست هناك باديء ذي بدء طبقات، ومن ثَم لا يوجد صراع طبقي؛ حقيقة أنه توجد ملكية فردية ويوجد في المجتمع أغنياء وفقراء لكن لا الأغنياء طبقة ولا الفقراء طبقة، ولا هؤلاء ولا هؤلاء يحكمون.

فالثروة في المجتمع الإسلامي دائمة التنقل من جيل إلى جيل بحيث لا تكون طبقة دائمة من أفراد معينين أو أسر معينة تتوارث وضعًا اجتماعياً معيناً، فأيّ فقير يمكن أن يتحول إلى غني، وأي غني يمكن أن يتحول إلى فقير، فلا

= فكانت القبائل البشرية الأولى تعيش في حالة من المشاعية الجنسية الكاملة مع مشاعية الأرض ومشاعية الطعام والشراب والسلاح، أما مرادهم من الشيوعية الثانية فهي الفترة الزمنية التي أعقبت الطور الأول للبشرية حيث إن البشرية تعلمت الزراعة، حيث أدى ذلك إلى انتهاء الفترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتي الرق والإقطاع. انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ص(٣٣٥، ٣٦٢) للشيخ/ محمد قطب.

(١) الملكية الفردية : سأتناول الملكية الفردية في البحث القادم عند حديثي عن الجانب الاقتصادي. انظر: ص(٥٥٤) من بحثنا هذا.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ص(٣٧١).

يحجزه شيء عن أن يكون هذا أو ذاك، بحسب تصرفه الشخصي من ناحية، وبسبب حركة المواريث الدائمة التي تفتت الثروة من مكان تجمعها إلى مكان آخر، وحيث يشتد الظلم فيثور المسلمون.

ولقد حدث هذا أكثر من مرة في التاريخ الإسلامي، فهو ليس صراعاً طبقياً بالمعنى الذي يشير إليه التفسير المادي للتاريخ لأنه لا توجد طبقة تريد الإطاحة بطبقة أخرى لتأخذ مكانها في السلطة التشريعية إنما يطالب الثائرون بالعدل، أي بتطبيق شريعة الله في المواضع التي خولفت فيها شريعة الله، وما أبعد هذا عن الصراع الطبقي كما يفهمه التفسير المادي للتاريخ، إنما يوجد الصراع في النظام الرباني على أسس مختلفة تماماً عن الصراع الطبقي الذي هو محور الحياة في الجاهلية.

ما مفهوم الصراع في النظام الرباني؟

الصراع في المفهوم الرباني صراع لا علاقة له على الإطلاق بالطبقات ولا بالملكية الفردية إنما هو صراع الحق والباطل الذي يقول الله فيه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾[1]»[2].

مفهوم الصراع عند أصحاب النظريات الحديثة والفرق الكبير بينه وبين النظام الرباني:

يترجم هذا المفهوم أحد الفلاسفة المحدثين ـ هيجل ـ:

لقد جعل النصر يبرر الحروب دون نظر إلى قيم إنسانية يراد نشرها أو منع ظلم لحَقَ بمظلوم بل يرى أن الخيرية تكمن في أن يغلب الإنسان غيره؛

---

(١) سورة النساء: الآية (٧٦).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب، (ص٣٧٢- ٣٧٤).

فالغالب دائماً خير من المغلوب، وهو بذلك لم ينظر إلى ما عند المغلوب من خير أو حق ولا إلى ما عند الغالب من شر، ولم يكتف بذلك بل جعل حكم الله وقضاءه هو ما قاله، أي: خيرية الغالب على المغلوب أياً كان نعته: «إن التاريخ يظهرنا على أنه يوجد في كل عصر من عصوره دولة مهيأة لأن تتزعم سائر الدول وتفرض ما بلغت إليه من تقدم في الحضارة، هذه الدولة واجبها الفتح، وانتصارها يبرر حروبها، الدولة الغالبة خير من المغلوبة بدليل غلبتها نفسها التي يجب أن تعتبر حكم الله».

ويرى هيجل أن الجرمانية خير ممثل للحضارة المسيحية[1] وهذا يذكرنا بما ذاقته البشرية على يد النازية من دمار وإزهاق للأرواح ونكبات فادحة، وقد خاب ظنه حين ذهب إلى أن الحضارة المسيحية تعد الجرمانية خير ممثل لها، وبواسطتها سيتحقق النصر النهائي في التاريخ، فلم تنتصر الألمانية على العالم بل انهزمت شر هزيمة، لكن ما هي نظرة الإسلام إلى الحروب؟ هل هي موافقة لنظرة هيجل حيث يرى أن القوة والنصر مبرر ودافع لإحداث الحروب، وإنزال الويلات وما يصاحبها من القتل والسلب والنهب والدمار؟

كلا، إن نظرة الإسلام وتشريعاته الحكيمة تختلف اختلافاً كلياً عن نظرة هيجل وأضرابه، إن القتل والحروب في الإسلام لم تكن قط إلا في سبيل الله لإعلاء راية الإسلام، ولنشر دعوته والدفاع عن حزبه، والمحافظة على المسلمين عامة وبلادهم وممتلكاتهم من الطامعين في اغتصاب خيرات بلادهم، أو انتهاك مقدساتهم وأعراضهم، فهو دفاع عن العقيدة والشرف وإحقاق للحق وإبطال للباطل لا لمجرد كون المسلمين سينتصرون على مَن يقاتلونهم، أو أنهم أقوياء على مَن جاورهم، والإسلام لم يفرض على الناس أن يعتنقوه بالقوة كما قال

---

(١) بتصرف وإختصار من: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، ص(٢٧٢).

تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ . .﴾(١) الآية. وإنما يكتفي من العالم بإتاحة الفرصة له ليختار مَن يختاره عن بينة، وألا يمنع دعاته من نشره بين العالمين وتعليمه لمن يشاء، وقد بين ﷺ دستور القتال في الإسلام، وهو بحق يعتبر منهجاً سديدًا على مر الأزمنة والدهور.

أخرج مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «**اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا(٢) ولا تغدروا ولا تمثلوا(٣) ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث - أو: خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل وكف عنهم، فإن هم أبَوا فاستعن بالله وقاتلهم . .**»(٤) الحديث.

ولقد حرم الإسلام محاربة غير المحاربين، وهو لا يُجيز قتل المرأة والصبي والشيخ والعجزة أو مَن انقطعوا للعبادة، فعن أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**انطلقوا بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً،**

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(٢) لا تغلوا: أي لا تخونوا في الغنيمة.

(٣) لا تمثلوا: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان ونحوهما.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٣/ ٣٧-٣٨- ٣٩).

ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا إن الله يحب المحسنين»[(١)].

والحرب والجهاد في الإسلام لا يمتد إلى القتل الحيواني، أو تخريب البيوت، أو قطع الأشجار ما لم تكن هذه الوسائل لكسب المعركة كالحيوانات التي تساعد على القتال، أو الأشجار والبيوت التي تتخذ حصوناً ومعاقل.

ثالثاً: الجانب الاقتصادي - الملكية الفردية وحق التملك -:

المباديء التي يقوم عليها النظام الاقتصادي:

قبل أن أشرع ببيان المباديء الاقتصادية في النظام الإسلامي لابد أن أشير إلى أن الفرد الذي يعتبر قوام المجتمع الإسلامي مكون من جسم ونفس وقد أودع فيه خالقه - جل وعلا - غرائز طبيعية، وخصه بالعقل الذي يتميز به عن الحيوان، والإسلام - كما سبق أن ذكرت - يعتبر شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شئون الحياة، فلقد وازن بين القيم الروحية التي يجب على الإنسان أن يتحلى بها وبين غرائزه الطبيعية الأصلية، فلم يأمر بطغيان النواحي الروحية وإرهاق الجسم وحرمانه من طيبات الحياة على حساب الروح والعقل، كما لم يأمر بكبت الغرائز وعدم إروائها بالطريق الحلال الذي لا لوم فيه ولا تفريط، بل نراه يوازن بين المطالب الروحية ومطالب النزعات الإنسانية من شهوات الحياة، فيبيح التمتع بالطيبات مما تشتهيه النفوس والتزين من غير إسراف يخرج عن الاعتدال المشروع، يقول - تعالى - في السورة التي نحن بصدد دراستها سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ

---

(١) رواه أبو داود بسند صالح، (٢/ ٣٦).

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا . . ﴾[2] الآية.

وأكثر من ذلك أننا نرى الإسلام يمتن على الإنسان بما يتمتع به من أسباب النعم، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[3]

والمتأمل في المنهج الذي سلكه الإسلام في صياغة الجانب الاقتصادي داخل المجتمع الإسلامي يجده بلاشك انقلابًا في المفاهيم والأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في ما قبل.

لقد حث الإسلام على العمل باعتباره إحدى الوسائل لتملك المال، وأجاز حق التملك جاعلاً الملكية وظيفة في المجتمع، ثم عمل في ذات الوقت على تحقيق التوازن المالي بين أفراد المجتمع حتى لا تتكدس الثروات في يد فئة دون أخرىٰ، وفي كل ذلك كانت العدالة سمة بارزة فلم يطغَ حق الفرد على الجماعة، ولم يطغ حق الجماعة على الفرد.

وسأكتفي بذكر ثلاثة مبادىء تعتبر في نظري هي أهم المبادىء التي يقوم عليها النظام الاقتصادي:

١ ـ **أولاً** : حرية العمل.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٣١، ٣٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) سورة النحل: الآيات من (٦) إلى (٨).

٢ ـ ثانياً : حق التملك.

٣ ـ ثالثاً: التوازن المالي بين أفراد المجتمع.

أولاً: حرية العمل :

الإسلام حث على العمل بكافة أنواعه وصوره وأشكاله حيث إنه سبب من أسباب الحصول على الأموال وتملكها، فالزراعة والتجارة والصناعة والصيد كلها مجالات للعمل حث عليها الإسلام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[2].

والأنبياء وهم أصحاب السلوك الأمثل، وقد كُلِّفوا بتبليغ شرع الله للناس، ومع ذلك كانوا يعملون ويأكلون من كسب أيديهم، قال ﷺ: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ كان يأكل من عمل يده**»[3] وقوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[4].

فالإسلام ليس مجرد إقامة شعائر وإنما هو عبادة وعمل في نفس الوقت، والإسلام لم يميز بين عمل وآخر لأن قيمة الإنسان في نظر الإسلام بمقدار ما

(١) سورة الملك: الآية (١٥).

(٢) سورة الجمعة: الآية (١٠).

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب البيوع، (٥/ ٢٠٩).

(٤) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الزكاة، (٤/ ٧٨).

يتقن عمله، وفي الحديث: «إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»[(١)].

وحرية العمل في النظام الاقتصادي مكفولة، فكل فرد له الحق في اختيار العمل المناسب له، وله أن يباشر كافة أوجه النشاط الاقتصادي دون إكراه أو إجبار أو منع بشرط أن يكون هذا النشاط مأذوناً به شرعاً؛ فلا يجوز للمسلم أن يتخذ الربا عملاً لتنمية أمواله، ولا أن يتجر في الخمر ولا في الخنزير ولا الميسر وسائر ما حرمه الله ـ تعالى ـ وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقه وكتب السنة من البيوع المحرمة وسلوك الوسائل غير الشرعية للاسترزاق كالاحتكار، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة حددت ذلك وبينته، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾[(٢)] فهذه الأشياء حرم أكلها وحرم الاتجار فيها، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾[(٣)].

فقوله تعالى: ﴿مما في الأرض﴾ صريح في أن بعض ما فيها مأذون وأن بعضه غير مأذون فيه، وأن المأذون فيه هو الحلال الطيب الذي أذن الله فيه ورسوله، وإذا وازنت بين العمل في النظام الإسلامي سترى أن العمل عند مَن لم يتخذ النظام الإسلامي منهجاً له في بعض المجتمعات مباح في كل شيء ولو ترتب عليه إضرار الفرد والجماعة[(٤)] وأن المحرمات قُنِّن جوازها بقوانين تجعلها

(١) رواه البيهقيُ في شعب الإيمان.
(٢) سورة المائدة: الآية (٣).
(٣) سورة البقرة: الآية (١٦٨).
(٤) كالاتجار بالبغاء وعمل مراكز رسمية تشرف عليها الدولة كما هو الحال في معظم الدول الغربية.

كالحلال سواء بسواء، بل لا يرى مَن أجاز ذلك فرقاً بين ما هو حلال وما هو حرام ، وفي مجتمعات أخرى كالمجتمعات الاشتراكية يفرض على الناس الالتزام بعمل معين لا يتجاوزونه إلى غيره، فإن هم تجاوزوه كانوا تحت طائلة العقاب حتى ولو كان هذا العمل في نفسه طيباً كريماً وأراد به الفرد تنمية نفسه وزيادة دخله ونفع مجتمعه، وكلا الفريقين يشتركان في تجويز العمل في المحرمات ولا يرون في ذلك بأساً.

ثانيا: حق التملك:

مفهوم الملكية:

الملكية تفيد معنى الاحتواء والقدرة على الاستبداد بالشيء(١) ويراد بها حق الفرد في احتواء شيء ما، وتمكينه من الانتفاع به بكل الطرق الجائزة شرعاً بحيث لا يجوز للغير الانتفاع بهذا الشيء إلا بموافقة المالك الأصلي(٢).

ولقد أقر الإسلام حق الملكية للفرد والجماعة على السواء، وتقريره حق الفرد في التملك أظهر من تقريره لحق الجماعة باعتبار أن ملك كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية هو في النهاية كأنه ملك لكل الأمة، وقد قرر الله هذا الحق لما أودعه في فطرة الإنسان من غريزة التملك والسعي إلى ذلك بفطرته، ومقاومة كل مَن وما يحول بينه وبين ذاك، وإنك لترى ذلك واضحاً في سلوك الأطفال أول ما يدركهم شيء من الوعي فترى الطفل يمسك الأشياء النافعة والضارة وإن قاومته احتج على ذلك بشدة صراخه، وكثرة عويله، وهذا منه توضيح لما

---

(١) انظر: ترتيب القاموس المحيط (٤/٢٥١).

(٢) أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع ـ القسم الثاني، إعداد/محمد فاروق النبهان، الأستاذ بكلية الشريعة والحقوق بالكويت، ص(٢٩٧).

جعله الله في فطرته وتكوينه؛ لأنه يفعل ذلك قبل أن يدري أن البيئة التي تحيط به تجيزه أو تمنعه، تحِلّه أو تحرمه وهكذا تنمو هذه الغريزة، إلا أن الإسلام وإن أباح التملك فإنه قنّنه بقوانين حتى لا يطغى الفرد على المجتمع أو العكس، فهو لا يعترف لك بملك شيء إلا إذ وصلك عن طريق مشروع كالذي تكتسبه بجهودك وعملك، أو بما ورثته عن مورثيك الشرعيين إلى غير ذلك من أسباب التملك المختلفة في الإسلام كالهبة والهدية والوقف ونحو ذلك.

وقد صان الإسلام الملكية الفردية والجماعية أتم صيانة، فحرّم التعدي على أموال الفرد والجماعة بأي شكل من أشكال التعدي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩﴾[2] والمراد بالباطل في الآية الأخيرة المكاسب غير الشرعية كأنواع الربا والقمار وماجرى مجرى ذلك من سائر أصناف الحيل، وقد أحل الله التجارة وأذِن للبائع أن يبيع بأكثر مما اشترى به لما في ذلك من منافع عظيمة للبائع والمشترى معاً ليس هنا مكان سردها.

وإذا عرفت أن المحرمات التي لها في الإسلام عقوبات دنيوية محصورة تبين لك عناية الإسلام بالملكية الفردية والجماعية، لذلك شرع قطع يد السارق والسارقة فيما سرقاه إذا بلغ المسروق النصاب الشرعي إلى آخر الشروط التي يجب توفرها في السرقة لإقامة الحد، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٢٩).

﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾(١).

وشرع أيضاً العقوبات الزاجرة لمن يقطع الطريق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾(٢).

روى الشافعي في مسنده عن ابن عباس في شأن قطّاع الطريق، وهو تفسيرٌ للآية الكريمة السابقة أنه قال ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا قتلوا وأخذوا المال قُتِّلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يُصَلَّبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض»(٣).

وجهة نظر النظام الاشتراكي للملكية الفردية:

أولاً: القضاء على مظاهر الملكية الفردية كافة:

يرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية هي سبب كل الشرور التي حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية(٤) فتلغيها وتلغي معها الشرور الناشئة عنها.

وينشأ الشر ـ من وجهة نظرهم ـ من أن الذي يملك هو الذي يحكم،

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣٣).

(٣) انظر: الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ/ محمد أبو زهرة ـ قسم العقوبة القاهرة: دار الفكر، ص١٥١.

(٤) انظر: ص (٥٥٠) من بحثنا هذا.

وحين يحكم فإنه يضع التشريعات التي تخدم مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات[١].

وللرد على وجهتهم هذه: يحدث هذا الظلم في نظام الجاهليات التي تحكم بشرائع البشر ولا تحكم بشرائع الله.

ثانياً: ويرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية بدليل فترة الشيوعية الأولى التي لم تكن فيها ملكية فردية إنما هي أمر مكتسب اكتسبته البشرية بعد أن تعلمت الزراعة حيث أدى ذلك إلى انتهاء فترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتي الرق والإقطاع، ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية، ويرون أن الصراع لا يزول من الأرض إلا بإزالة البشرية للملكية الفردية في جميع صورها.

وللرد على وجهتهم هذه نقول: أما رأيهم بأن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية، وأن الزراعة هي التي كانت السبب في نشأة الملكية الفردية فقول ساذج عارٍ عن الصحة لا يقره البحث العلمي إنما الذي يناسب البحث العلمي أن نقول إن الأرض كانت موجودة من قبل ولكنها لم تَستثِر حاسة الملك عند الناس لأنه لم تكن هناك فائدة تتحقق من امتلاكها، وبمجرد ظهور الفائدة تحركت الحاسة التي كانت موجودة من قبل في حالة كمون، فنشطت وتحركت.

والخلاصة: إن الشيوعية الأولى ـ على فرض وجودها ـ ليست دليلاً على عدم وجود نزعة فطرية للتملك إنما هي دليل فقط على عدم وجود نشاط ظاهر لهذه النزعة في تلك الفترة لأنها نشطت بالفعل بمجرد وجود حوافز تستثُيرها،

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة ص، (٣٧٢).

ويمكن لهذه النزعة أن تُهذَّب إلى درجة عالية جداً توشك أن تحولها إلى نزعة جماعية كما صنع التهذيب الإسلامي بالأنصار حتى جعلهم يُؤْثِرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويقتسمون معهم كل ما يملكون من متاع الحياة الدنيا حتى قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]

ولكن هذا التهذيب لا يلغي النزعة الفطرية من أساسها إنما يرفعها إلى أنبل صورها مع الإبقاء على أصلها، ولو كان الله ـ جل وعلا ـ منزل هذا الدين الذي هذب النفوس إلى هذا الحد الرفيع يعلم ـ سبحانه وتعالى ـ أن إلغاءها بدلاً من إبقائها وتهذيبها أنفع للإنسان أو أنسب لطبيعته لشرع ـ سبحانه إلغاءها، ولكنا نجد التشريعات والنصوص كلها تؤكد وجودها في فطرة الإنسان[2] قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾[3].

أما زعمهم أن الصراع سيتوقف حين تزول الملكية الفردية، فنقول لهم: إن الشيوعية قد ألغت الملكية الفردية فلماذا تقوم المؤامرات الدائمة التي يعلن عن تصفيتها والتغلب عليها بين الحين والآخر أو تكون نتيجتها الإتيان بزعيم آخر بدلاً من الزعيم الهالك أو المدحور؟ وفي الصراع بين شقي المعسكر

---

(١) سورة الحشر: الآية (٩).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب، ص(٣٦٨، ٣٦٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤).

الشيوعي: روسيا والصين، أولم تُلغَ الملكية الفردية؟ فلماذا إذن بقي الصراع؟[١].

ثالثا: التوازن المالي بين أفراد المجتمع:

من المباديء الاقتصادية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الإسلامي التوازن المالي بين أفراد المجتمع، وهذا التوازن لا يعني انتفاء التفاوت في الثراء بين أفراد المجتمع، فهذا مستحيل لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[٢] وإنما يعني التوازن في الإسلام أن يؤدي كل فرد من أفراد المجتمع العمل الذي يحسنه والذي يتلاءم مع جهوده، في حين أوجب الإسلام على الأغنياء حقوقاً رتبها في أموالهم وجعل بعضها أمراً إلزامياً لا يستطيع الغني الفكاك منه بحال من الأحوال، فإن راودته نفسه على التهاون في ذلك الواجب بإنقاصه أو التخلي عن أدائه قام الإمام بمحاربته والضرب على يده حتى ينصاع لأمر الله، ومن هذه الواجبات التي رتبها الله ـ جل وعلا ـ في المال ما يلي:

أ ـ أداء الزكاة المستحقة في كل مال بلغ النصاب الشرعي وحال عليه الحول بالشروط المنصوص عليها في كتب الفقه في كل نوع من الأنواع التي فرض الله ورسوله ﷺ الزكاة فيها، وهذا الموضوع ليس من صميم البحث وإنما سقته كمثال على التوازن المالي بين أفراد المجتمع الإسلامي، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بأداء الزكاة في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز، قال تعالى:

---

(١) انظر: مذاهب فكرية للشيخ / محمد قطب ص، (٣٧٥).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠﴾(١) كما بيّن مصارفها فلم يترك تبيينها لأحد، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾(٢) فهؤلاء لهم حقوقهم في أموال الزكاة وإذا كُفي هؤلاء الأصناف فلن يبقى في المجتمع مضطر ولا محتاج.

ب ـ ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للبخل والبخلاء، وحضه على التصديق والإنفاق في سبيل الله، وإغراؤه على ذلك بوسائل مختلفة لا يسمح الموضع باستيعابها، وحسبي أن أذكر بعض الآيات التي تذم البخل وأهله، والتي يفهم منها أن هلاك المال وذهابه إنما هو بسبب بخلهم وشحهم، وأن أموالهم ستكون عليهم حسرة وندامة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾(٣) وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾(٤)

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا

---

(١) سورة البقرة: الآية (١١٠).

(٢) سورة التوبة: الآية (٦٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

(٤) سورة التوبة: الآيتان (٣٤، ٣٥).

يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾(١) .

جـ ـ ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للإسراف ، فكما ذم الإسلام البخل ذم الإسراف الذي يؤدي إلى ضياع المال في غير وجوه النفع ، وكلاهما يؤدي إلى سوء العاقبة ، وتتولّد عنهما في نفوس الفقراء الضيق والضجر والكراهية ، قال ـ تعالى ـ يحذر من التبذير والإسراف : ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾(٢) .

د ـ ومن وسائل التوازن المالي في الاقتصاد الإسلامي حضه على الصناعة وترغيبه فيها وجعلها مفخرة وذكراً عظيماً لبعض أنبياء الله كداود ـ عليه السلام ـ حيث يقول ـ جل وعلا ـ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾(٣) .

والمراد بقوله تعالى : ﴿أن اعمل سابغات﴾ أي : دروعاً واسعة تامة من السبوغ ، وهو أول من اتخذها ، وقد علّمه الله هذه الصنعة ليستغني وليأكل من عمل يده .

وقوله : ﴿وقدر في السرد﴾ أي : لا تجعل المسامير دقاقاً فتفلق ولا غلاظاً فتفصم الحلق ، و﴿السرد﴾ نسج الدرع(٤) . وقوله ـ تعالى ـ في حقه أيضاً ـ عليه السلام ـ : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾(٥) .

---

(١) سورة محمد : الآية (٣٨) .

(٢) سورة الإسراء : الآية (٢٧) .

(٣) سورة سبأ : الآيتان (١٠ ، ١١) .

(٤) انظر : تفسير النسفي (٣/٣١٩) .

(٥) سورة الأنبياء : الآية (٨٠) .

وأيضاً كانت الصناعة مفخرة لابنه سليمان ـ عليه السلام ـ يقول جل شأنه: ﴿ولسليمـٰن الريح غدوها شهر ورواحُها شهر وأسلنا له عين القطر﴾ أي: معدن النحاس، فالقطر هو النحاس وهو الصفر ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ أي: مساجد أو مساكن ﴿وتماثيل﴾ أي: صور السباع والطيور، وكان التصوير حينئذ مباحاً ﴿وجفان﴾ جمع جفنة ﴿كالجواب﴾ جمع جابية وهي الحياض الكبار، قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل ﴿وقدور راسيات﴾ ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها، وقيل إنها باقية باليمن(١) ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾(٢).

هـ ـ ومنها حضّه على الزراعة والتجارة وتسخير الأموال في اكتشاف المعالم في البر والبحر وصنع كل ما يعود على الإنسان بالنفع مع تجنب الإجحاف على أصحاب الأموال من مصادرتها أو النَيل منها بأخذ بعضها ما داموا يستخدمونها محكومين بمباديء الإسلام وشرائعه بأصليه العظيمين: الكتاب والسنة، وكذلك تجنب الإجحاف على العمال بإنقاصهم بعض أجورهم أو التسويف في أدائها إليهم أو استغلال حاجاتهم وضعفهم فيعطون الأجر الزهيد في العمل الكثير المضني.

هذه مباديء الإسلام وهذه شرائعه في التوازن المالي بين المسلمين، ولو طبقت تطبيقاً صحيحاً لعاش أفراد المجتمع في حب ووئام، إذ لكل إنسان متطلباته ومقتدراته، وإنما دخل الخلل على المجتمعات الإسلامية باستغلال القوي للضعيف وحرص أصحاب الأعمال على إنجاز أكبر قدر منها بأزهد

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٣٢٠).

(٢) سورة سبأ (١٣).

الأجور، وحرص العاملين على النيل من القادرين متى وجدوا السبيل إليه.

ومن هذا البـاب دخلت علينـا نظريات خُدعنا بها ووقعنا في شراكها كالتـأمـين وتحـديد الملكية والاشـتراكية وغير ذلك مما ولّد صراعاً بين طبقات المجتمـع أدى إلى تخلخل كبير، وغرس الأحقاد والأضغان بين الناس حطّم قدرات مَن لهم قدرة على العمل والإنتاج، واضطرت المجتمعات الإسلامية إلى التعامل بالربا والوقوع فريسة في أيدي المحتكرين العالميين من الكفرة الذين يأخذون أموالنا ويردونها إلينا أسوأ رد مما لا يخفى على متأمل، ولو طبقنا الإسلام تطبيقـاً صحيحـاً وأخـذنا الزكاة من الأغنياء ورددناها على الفقراء، وأنصفنا العامل من صاحب العمل وبالعكس، وأمَّنا كل مسلم قادر على ماله، وأعطيناه حريته في استثماره كما يشاء محكومًا بالشرع لما وجدنا بيننا صراع، ولما كان لهذه المباديء الهدامة بيننا رواج، فالعيب فينا وفي تهالكنا على ما عند غيرنا مع أنه ظاهر الفساد، وتَرْك ما عندنا مع أنه صواب محض.

الفصل الثاني عشر
عاقبة الصراع
بين الحق والباطل

الفصل الثاني عشر
عاقبة الصراع بين الحق والباطل

في ضوء دراستي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم ممن ذكرتهم سورة الأعراف بصفة خاصة ومن خلال تأملي وتفكري في سير الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وأتباعهم - رضي الله عنهم - وجهادهم الطويل من أجل نصرة الحق، وإعلاء كلمة الله، وعاقبة جهادهم مع أقوامهم، ولأجل تجلية عاقبة الصراع بين الحق والباطل رأيت أن أقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: النصر محتم من عند الله للمؤمنين.

المبحث الثاني: هذا النصر له وجوه متعددة.

المبحث الأول
النصر محتم من عند الله للمؤمنين

إن النصر محتم من عند الله للفئة المؤمنة، ويوضح ذلك ما يلي:

أولاً : ثبوت الحق وانمحاق الباطل.

ثانياً : انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له، وجعل ذلك النصر حقاً عليه أوجبه على نفسه وكتبه عليه.

ثالثاً : حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم.

رابعاً : استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله، الثابتين على الحق، النابذين للباطل، العاملين للصالحات وتمكينهم في الأرض.

وإليك تفصيل ذلك:

أولا : ثبوت الحق وانمحاق الباطل :

قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

يخبر ـ جل وعلا ـ في هذه الآية الكريمة بأن الحق هو الثابت الباقي وأن

---

(١) سورة الرعد: الآية (١٧).

الباطل هو الذاهب المحروق، وقد ضرب الله - جل وعلا - مثالين في هذه الآية بيّن فيهما ثبات الحق وزوال الباطل.

أولهما: قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي: من السحاب، ونكَّرَ ﴿ماء﴾ لكثرته وانتشاره في جهات مختلفة ﴿فسالت أودية﴾ والوادي: الطريق بين جبلين، وهذه الأودية تحفظ الماء لينتفع منها كل مَن هو في حاجة إليه من الإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1] ولذا قال: ﴿بقدرها﴾ أي: بالمقدور من الماء الذي يفي بحاجات من يرد هذه الأودية ليشرب منها ويسقي مواشيه، ويزرع حولها ﴿فاحتمل السيل﴾ أثناء اندفاعه من أوديته زبداً رابياً، ظاهراً معتلياً وجه الماء، والزبد هو الغثاء الذي يحمله السيل على وجه الماء ثم ما يلبث أن يزول وينمحي في وقت قليل، وذلك بدفع الماء له على الشاطيء فيتلاشى ويضمحل، والـ ﴿ماء﴾ كناية عن الحق الثابت الذي يسعف من يتمسك به ويحفظه من الزيغ والشبه، و﴿زبداً رابياً﴾ كناية عن الباطل الذي هو سريع الزوال، والذي لا ينتفع منه المتمسك بشيء ما، وهذا المثل يتلاءم مع الناس بعامة وأهل الزراعة خاصة.

ثانيهما: المثل الثاني في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متع زبد مثله﴾ وهذا المثل يتلاءم مع أهل الصناعات وسكان المدن الذين قلما تقع أبصارهم على الزبد الرابي فوق الماء.

ومعنى الآية الكريمة: ومما يوقد الناس عليه نيرانهم من الذهب والفضة تطويعاً لهما ليشكلوا منها ما يشاءون من الحلي التي يتحلون بها أو غيرهما من

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).

الحديد والنحاس والفلزات المختلفة، ابتغاء المتاع والانتفاع بأشكال مختلفة لا تدخل تحت الحصر كصنع الأسلحة والمعدات الصناعية المختلفة وصنع الأواني المنزلية التي هي وسيلتنا لإنضاج الأطعمة وحفظها . . إلخ . لذلك كله زبدٌ كزبد الماء يطفو ويظهر على وجه تلك المعادن عندما يُحمى عليها وتصل إلى درجة الغليان، فيظهر على وجه تلك المعادن زبد هو عبارة عن خبث وشوائب عالقة في تلك المعادن، فيزيلها الصانع لتلك الحلي والمعادن لأن في بقائها تأثيراً في جودتها، وتبقى المادة صافية خالصة يشكل منها الصانع ما يشاء من الحلي والمتاع، فالباطل مهما علا وظهر فهو مثل الزبد الذي يعلو ويطفو على سطح تلك المعادن أثناء غليانها، وسرعان ما يقذف به الصانع خارج الوعاء دون الانتفاع به.

ولذا عقّب الله على هذين المثلين بنتيجة حتمية، قال تعالى: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ أي: متلاشياً، وهو ما يقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان، والجفاء: الرمي، وجفأت الرجل: صرعته.

﴿وأما ما ينفع الناس﴾ من الماء والحلي والأواني ﴿فيمكث في الأرض﴾ فيثبت الماء في العيون والآبار يُنتفع بها في سقي الحبوب والثمار. وتصفو الحلي والمعادن لينتفع بها في الزينة والتجارة وغيرها. . ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليظهر الحق من الباطل[1].

ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً

(١) بتصرف من تفسير النسفي (٢/٢٤٧).

ولكنـه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه ، والحق يظل هادئاً ساكناً وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو ضاع أو مات ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي ، والمعدن الخالص ينتفع الناس به(١) وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا أنها في الآخر تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق راسخاً لا يشوبه شيء من الشبهات ، لأنه لا بقاء إلا للنافع ، وما تصارع الحق والباطل إلا وفاز الحق بقرنه .

ثانيا : انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له ، وجعل ذلك النصر حقا أوجبه على نفسه وكتبه عليه :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٢) .

لقـد تكفّـل الله ـ سبحـانـه ـ في كتـابـه العـزيز بنصر عبـاده المؤمنين الصادقين ، وذلك من خلال تسخير أسباب النصر لهم وتيسيرها عليهم ، وهذه الآية الكريمة صريحة في أن أهل الباطل لما كذبوا ما جاءهم من البينات على ألسنة الرسل تولى الله الانتقام منهم بذاته ـ جل وعلا ـ مع بيان سبب ذلك التشديد عليهم وهو إجرامهم ومعاندتهم لأهل الحق : ﴿فانتقمنا من الذي أجرموا﴾ .

كما بينت هذه الآية أن نصر المؤمنين وهم حزب الله وخاصته حق عليه ، أوجبـه ـ جل وعلا ـ على نفسه تفضلاً وتكرماً ، فكلمة ﴿حقا﴾ معناها هنا : واجباً وفرضاً ، والله لا يجب عليه شيء ، والنصر ربما تأخر لكنه لا بد أن يأتي لأنه

(١) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٨٥) .

(٢) سورة الروم : الآية (٤٧) .

وعد مقطوع به، مؤكد لا يقبل الخلف، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك؛ لقد حقق الله وعده فنصر عبده، وأعز جنده، وملّك المسلمين ما لم يكن يخطر لهم على بال، ملكهم ملك كسرى وقيصر، وفتح لهم البلاد، ودانت لهم رقاب العباد، وصاروا في عز مكين وجاه عظيم بعد أن كانوا في الذل والهوان مصداقاً لقوله - تقدست أسماؤه -: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾(١).

وما كان هذا العز والتمكين إلا تحقيقـًا لوعد الله القاطع ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٢) وقوله - تعالى -: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾(٣) هذه الآية الكريمة تعني أن الله إذا تكرم بنصره للمؤمنين فلن يغلبهم أحد مهما جمع - الغالب - لهم، وأنه - تعالى - إن خذلهم فلن ينصرهم أحد مهما جمعوا من أسباب النصر، فليوالوه وليتوكلوا عليه، وليعملوا بما أمروا به ولينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب في هذه الآية للمؤمنين سيما مَن ذاق منهم مرارة الهزيمة في غزوة أحد، والعبرة بعموم اللفظ فهي درس قويم للمؤمنين إلى يوم القيامة.

وقال - جل شأنه -: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾﴾(٤).

هذه الآية تشير إلى أنه - جل وعلا - قد كتب نصرة الحق وأهله منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يغير ولا يبدل، فالغلبة وإن تأخرت ستكون في النهاية

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

(٢) سورة الروم: الآية (٤٧).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٦٠).

(٤) سورة المجادلة: الآية (٢١).

لأهل الحق؛ يظهرهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علوا في أمرهم، وقد أكد - جل وعلا - ذلك بنون التوكيد، وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿إن الله قوي﴾ أي: على نصرة رسله وأوليائه، لا يعجزه شيء ﴿عزيز﴾ أي: لا يقهر ولا يغلب، ولا يدفعه أحد عن مراده.

ثالثا: حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم:

يجتهد أهل الباطل في نصرة باطلهم بكل الوسائل المتاحة لهم، فما من طريق لِبثّ باطلهم إلى غيرهم إلا وسلكوه، ومن تلك السبل إنفاقهم الأموال الطائلة لنشر رذائلهم ومبادئهم وسمومهم ليصدوا عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ[1] ﴾

هذه الآية الكريمة نزلت في المطعمين يوم بدر من أهل مكة عندما خرجوا لمقاتلة المسلمين في بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش، وقيل: نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب رسول الله ﷺ يوم أحد وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية[2] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد بينت الآية الكريمة مقصدهم وهدفهم من ذلك الإنفاق ألا وهو صدهم عن سبيل الله، سيما صدهم عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان برسالته، وأخبر - جل وعلا - أن ذلك الإنفاق سيكون عليهم في النهاية حسرة وندامة، وسبب تلك الحسرة لأنه يذهب المال ولا يتحقق مقصودهم بل يصيرون مغلوبين في آخر الأمر.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٦).

(٢) أسباب النزول للواحدي، تحقيق/ السيد صقر (٢٣٣، ٢٣٤).

رابعا : استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله، الثابتين على الحق، النابذين للباطل، العاملين للصالحات وتمكينهم في الأرض :

ومن عواقب الصراع بين الحق والباطل استخلاف الله ـ تعالى ـ للمؤمنين وذلك بعد حصول النصر كما وعد به ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وقد وعد الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بالنصر والاستخلاف والتمكين إذا أخلصوا في عبادتهم لله وحده، فقال جل شأنه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2]

قوله: ﴿وعد الله الذين ءامنوا منكم﴾ هذا وعد من الله لا يتخلف، والوعد إذا كان من المعهود منه الصدق والوفاء تستريح له القلوب، فما بالك إذا كان الوعد من الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ والاستخلاف ليس مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليفة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

(٢) سورة النور: الآية (٥٥).

والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان[١].

(١) بتصرف من: في ظلال القرآن لسيد قطب (١٨/ ١١٨، ١١٩).

المبحث الثاني
تعدد وجوه النصر الالهي للمؤمنين

إن المتمعن لسير الأنبياء والمرسلين عبر تاريخهم الطويل يتبين له أن النصر الذي وعد الله به الفئة المؤمنة كان يتجلى في عدة صور، وليس كما يتبادر لأول وهلة للذهن أن النصر دائمًا حافل بالنصر العسكري المادي، إن النصر في الفكر الإسلامي معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكل إعلاء لكلمة الله هو نصر لدين الله، وكل إحطاط من كلمة الكفر هو هزيمة للكفر وأهله، سواء تحقق ذلك بالصراع الفكري والعقدي بالحجة والبرهان، أو بإفشال مخططات العدو وكيدهم للنيل من الإسلام وأهله، أو بإنزال العقوبات الربانية لإهلاك طائفة من أهل الكفر، أو بالمواجهة العسكرية بين معسكر الإيمان والكفر، كل هذه وجوه للنصر لأن فيها إعلاءً لكلمة الله وإبطالاً لكلمة الكفر، وإعزازاً للحق وأهله وإذلالاً للباطل وأهله(١).

ويمكن أن نقسم وجوه النصر الإلهي للمؤمنين إلى أربعة وجوه:

الوجه الأول: النصر الفكري العقدي بالحجة والبرهان:

لقد أرسل الله رسله للناس مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأيّدهم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة والحكمة

(١) انظر: أساليب النصر والهزيمة في الكتاب والسنة، رسالة ماجستير للزميل/ طالب أبو شعر، جامعة أم القرى ١٤٠٨.

والموعظة الحسنة، وأيدهم ـ جل وعلا ـ أيضاً بالمعجزات الباهرة وقوة الصبر والتحمل والترفق ولين الجانب، والأمثلة على النصر الفكري بالحجج والبراهين كثيرة في القرآن الكريم، وأذكر على سبيل المثال محاجّة نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ للنمرود[1] قال تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[2].

الوجه الثاني: النصر بإنجاء المؤمنين من كيد الأعداء:

ما من نبي إلا ولاقى من قومه صدوداً وعناداً وكيداً، والله ـ جل وعلا ـ يؤيد أنبياءه بالنصر والحفظ والتمكين، وإليك بعض الأمثلة توضح ذلك:

قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذين ألقوه في النار ظناً منهم أنها تحرقه بعد أن قيدوه وأحكموا وثاقه، فنصره الله، ورد كيدهم في نحورهم:

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[3].

---

(١) ملك بابل: نُمرود بن كنعان، وقد أنكر أن يكون ثمّ إلّه غيره، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أنـه استمر في ملكه أربعمائة سنة، وقد تمادى في كفره وطغيانه وتجبره، وقد دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له لكنّ جَهْلَهَ وطول آماله دفعاه إلى إنكار الخالق. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١/١٤٨).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

(٣) سورة الأنبياء: الآيات من (٦٨) إلى (٧٠).

وقال - تعالى - حكاية عن قوم لـوط: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[2].

وكم لاقى نبينا ﷺ من الكيد والأذى، وقصة هجرته ﷺ واستخلافه عليًا - رضي الله عنه - على فراشه وخروجه من بيته وأعداؤه محاصروه مشهورة[3] ومما نزل من القرآن في تربص المشركين به ومكرهم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[4].

ولم ينته الأمر بكيد المشركين فقط بل انضم إليهم بعد الهجرة المنافقون واليهود لكن الله قنّط أعداءه منه، وقرر أنه كتب عليهم الذلة والهزيمة وكتب لنفسه ولرسله الغلبة والتمكين، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[5]

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٤، ٧٥).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٦، ٧٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٢٣-١٢٧).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(٥) سورة المجادلة الآيتان (٢٠، ٢١).

الوجه الثالث : نصر المؤمنين بإهلاك أعدائهم بالمهلكات الكونية:

ويعتبر هذا النصر من أشدّ أنواع النصر وضوحاً لسحقه للباطل والقضاء عليه، وهو سنة الله في الأمم السابقة التي طغت وتجبرت، وحادَّتِ الله ورسله، وأمعنت في ضلالها وُفسقِها، ولم تستجب لنصح رسلها بل قابلوا ذلك بالعناد والتحدي، والسخرية والاستهزاء والإعجاب بقوتهم، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠ ﴾[1].

وكانت الريح الشديدة الباردة سبباً في نصر المؤمنين يوم الأحزاب؛ أرسلها الله على أعدائهم فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ ﴾[2].

الوجه الرابع : النصر العسكري ويمكن أن نقسمه إلى قسمين:

أ - نصر مباشر :

وقد سطر التاريخ أمثلة رائعة للنصر العسكري المباشر للمسلمين وذلك يتجلى واضحاً في غزوة بدر وفتح مكة . . . إلخ .

---

(١) سورة العنكبوت: الآيات من (٣٨) إلى (٤٠).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٩).

ب ـ نصر غير مباشر :

وهي الغزوات التي كان ظاهر أمرها أن الباطل قد انتصر على الحق لكن ذلك انتصار للمسلمين بوجه غير مباشر، ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ **غزوة أحد** : التي انهزم المسلمون فيها على أرض المعركة، وكان ذلك انتصاراً لهم بوجه غير مباشر لأنهم انتصروا على أنفسهم بأن تعرى لهم الباطل وتبينوا أنهم إذا لم يطيعوا أوامر الرسول ﷺ أصابتهم الهزيمة وانقلب النصر الـذي حصل لهم أولاً إلى أعدائهم؛ فقد خالف المسلمون توجيهات نبيهم في بداية وأثناء المعركة؛ وهي:

أ ـ مخالفة بعض المسلمين لنبيهم في بداية المعركة: وذلك أن رسول الله ﷺ كان من رأيه أن لا يخرج المسلمون لمقاتلة المشركين خارج المدينة بل يتحصن المسلمون في داخل المدينة لإرغام قريش على مهاجمتها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة إلى استخدام تكتيك حرب المدن والشوارع في مكان يعرفه المسلمون ويجهله المشركون، ويمكن للنساء المسلمات من المساهمة في المجهود الحربي مساهمة فعالة في حدود طاقتهن إضافة إلى إمكان المشاركة الفعلية في القتال برشق الحجارة من سطوح المنزل وإقامة المتاريس وسدادات الطرق في الشوارع[1].

وقـد عبّر ﷺ عن رأيه بقوله: «**فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها**»[2] ولكن بعضـاً من الصحـابة كانوا متحمسين للخروج ومقاتلة المشركين خارج المـدينة، وكان على رأسهم حمزة بن عبد المطلب الذي قال لرسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: الرسول العربي وفن الحرب للواء الركن/ مصطفى طلاس ص(١٥٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٦٩).

«والـذي أنـزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة» وأيد هذا الرأي عدد كبير من الصحابة الذين لم يكن لهم شرف الجهاد في معركة بدر[1] وقد قال أحد الصحابة: «يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا».

فمخـالفتهم لرأي الرسول ﷺ كانت درساً تلقنه المسلمون وعرفوا أن ذلك سبب انهزامهم، ولكن كيف يصلون إلى ذلك لو لم يحدث ما حدث؟

ب ـ مخالفة المسلمين لنبيهم في أثناء المعركة: وهي أن رسول الله ﷺ أمر خمسين من الصحابة على رأسهم عبد الله بن جبير بأن لا يبرحوا الجبل الذي يعلو المعركة ـ جبل الرماة ـ وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكـانكم هذا حتى أرسـل إليكم، وإن رأيتمونا هَزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»[2].

وحصل ما حصل من مخالفتهم لرسول الله ﷺ عندما رأوا انهزام المشركين وإقبال إخوانهم الصحابة على جمع الغنائم فتركوا ذلك الموضع[3].

فهذه المخالفات هي في الواقع كانت دروساً عظيمة كشفت عن الباطل وعرّته، ولولا الهزيمة لما استطاعوا أن يفهموا حقيقة هذه الأمور.

٢ ـ **غزوة حنين**: وفيها كان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وهذا العدد الكبير لم تبلغه غزوة قبل ذلك حتى قال أناس من المسلمين: «لن نغلب اليوم من قلة، وأعجبتهم كثـرتهم»[4]. لكن كثرتهم لم تُغن عنهم من الله شيئاً

---

(١) انظر: الرسول العربي وفن الحرب للواء الركن/ مصطفى طلاس، ص(١٥٤، ١٥٥).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الجهاد (٦/٥٠٣).

(٣) انظر: المواهب اللدنية للإمام أحمد بن محمد القسطلاني، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٩٣/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري، (١٠/٦٢، ٦٣)، وفتح الباري، (٩/٨٨).

فهزموا في أول المعركة، وفرَّ الكثير منهم، وكانت الهزيمة هنَا نصرًا للمؤمنين على نفوسهم، فحين شاهدوا رسولهم ﷺ يتقدم في الصفوف لا يبالي بالسهام الموجهة إليه ويقول:

أنا النبي لا كذب　　　أنا ابن عبد المطلب[1]

واجتمع الناس بعد أن ناداهم عمه العباس: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة[2] فأجابوا: لبيك لبيك. والتف المسلمون حول رسول الله ﷺ وأمدهم الله بجنود من عنده، وحصل النصر وتمت هزيمة هوازن.

ونزل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[3].

وقد تعلم المسلمون درساً لا ينسونه أبداً، تعلموا أنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، وأن النصر من عند الله، وهذا هو النصر الحقيقي.

وصلىٰ الله على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وآلهم وصحبهم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب قوله تعالى: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾، (٩/ ٨٩- ٩١).

(٢) أصحاب السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، وأراد العباس أن يذكرهم ما بايعوا عليه يومئذ لأنهم بايعوا يومئذ أن لا يفروا. انظر: بهجة المحافل، (١/ ٤٢٠).

(٣) سورة التوبة: الآيتان (٢٥، ٢٦).

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد أن أكرمني الله ـ عز وجل ـ بدراسة سورة الأعراف والتعرف على ما جاء فيها من صراع بين الحق والباطل يطيب لي أن أبين أهم النتائج التي تَوصَّلتُ إليها:

١ ـ إن مفهوم الصراع بين الحق والباطل هو: غلبة الحق على الباطل بالبراهين والحُجج التي لا تدع مجالاً لذي لب في ظهور الحق على الباطل، ومدافعته له بالشرائع الإلهية التي أنزلها الحق ـ جل وعلا ـ في كتبه على أنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

٢ ـ الحق ما جاءت به الشرائع الإلهية ورضيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ديناً لعباده، وهو شامل للعقائد والأحكام على سواء وإن نفر منه أكثر الخلق، والباطل ما ذمه الله ـ تعالى ـ على لسان رسله وأنزل ذمه في كتبه، ولم يرضه ديناً لخلقه وإن جنح إليه أغلب الخلق وحرصوا على إعلائه على الحق.

٣ ـ إن الصراع الذي أمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل في أمرين:

أولاً : مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق وأن يظل الانتصار له قوياً في نفوسهم لا يضعف.

ثانياً : مجاهدة أعدائهم بالحُجة والبرهان، فإن عجزت الوسائل الإقناعية وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ اللجوء

إلى القوة لإزاحة الطغاة، وتأمين دعوة الله للناس وإقامة العدل والأمن والسلام، وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

٤ - إن أهل الباطل لهم وسائل خاصة بهم لنشر باطلهم، وهم يبذلون كل وسيلة متاحة لهم لنشر باطلهم مهما كلفهم الأمر، وإن الفواحش والمحرمات هما في مقدمة وسائلهم التي يتصيدون بها من أرادوا إضلاله.

٥ - إن غاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية وإسعادها وترغيبها في الخضوع لخالقها - عز وجل - وأن تعبده بما شرعه لها، وأن تنبذ العداوات ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس.

٦ - إن غاية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية، وإضلالها عن الحق، وتجهيلها بربها - عز وجل - وتجهيلها بآخرتها دار القرار التي هي صائرة إليها لا محالة، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن.

٧ - إن سورة الأعراف كغيرها من السور المكية دعت إلى تثبيت الإيمان في النفوس، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة، لذلك أمرنا الله - عز وجل - في الآية الثالثة(١) من هذه السورة أن نتبع ما أُنزل إلينا من ربنا، مُجانِبين أن نتبع من دونه أولياء هم وسيلة الشيطان إلى الإغواء، ثم بيَّن - تعالى - في ختام هذه الآية أن تلك الحقيقة بشِقّيها تغيب عن كثير من الناس، وأن أغلب البشر في ذهول عنها، وأنهم لا يتذكرونها إلا تذكراً لا يوصلهم إلى المطلوب.

٨ - إن الإنسان بطبعه حريص على الاستكثار من عَرَضِ الدنيا، غيرَ مُبالٍ بما يضره منه وبما ينفعه، وإن صدقَ الإيمان ولزوم التقوى يحققان للإنسان ما

---

(١) قال تعالى: ﴿اتَّبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون﴾ الأعراف الآية (٣).

يبتغيه من كثرة الأشياء لديه، وإن الله سمى ما يؤتيه المؤمنين ﴿بركات﴾[١] فلا حدود لهذا الجمع، وغيرُ خافٍ أن البركة هي النماء والزيادة، فما بالها إذا كانت بركات فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقَوا؟ ولكن أهل القرى أمعنوا في الكفر والتكذيب.

٩ - عداوة إبليس لبني آدم وتوعده بإضلالهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فهو لا يدع ولا يُقصِّرُ في وجه من الوجوه الممكنة البتة إلا سلكها، لذلك كله جاء التحذير لبني آدم من الشيطان ووسائله الخادعة، وأنه لا سبيل لدحره إلا بذكر الله، والإكثار من الاستعاذة منه، والتحصن بالمأثورات النبوية الواردة في هذا الشأن.

١٠ - التحذير من التساهل في كشف العورات لما يجر ذلك إلى الفواحش فإن كشف العورات أساس كل فتنة.

١١ - بينت خطورة المعاصي على بني آدم وأنها تجلب عليهم الشؤم وخسران الدنيا والآخرة.

١٢ - التحذير من سوء الأخلاق كالكيد والحسد والكذب والغرور... إلخ.

١٣ - طول الفترة التي ظل نوح - عليه السلام - يدعو فيها قومه، والتي أخبرنا القرآن الكريم عنها عند قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[٢].

١٤ - اتهام الأقوام لأنبيائهم بالضلال أو السفاهة أو الكذب فيه درس عظيم للدعاة بأن يتحملوا كل إساءة أو إهانة، وحسبهم في ذلك ما لاقاه

---

(١) قال تعالى: ﴿ولو أنَّ أهلَ القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بَركات من السَّماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ سورة الأعراف: الآية (٩٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (١٤).

الرسل من أممهم، وما لاقاه رسول الله ﷺ من المشركين في مكة حيث وضعوا سلا الجزور على رأسه وهو يصلي حول الكعبة، وقذفوه بالحجارة حين ذهب إلى ثقيف لدعوتهم حتى سال دمه الزكي، واتهموه بالسحر والجنون. . . . إلخ.

١٥ ـ إن الباطل وإن طال أمده زاهق، والحق مهما عُورض وحُجِبَتْ أنوارُه فهو مزهر ثابت، ولا يضر الحق قلة أهله، ولا ينفع الباطل كثرة أعوانه.

١٦ ـ إن الله ـ عز وجل ـ وعد بنصر رسله والذين آمنوا، ووعدُ الله هو الحق، ولا تستطيع أية قوة مهما كانت أن تنقض هذا الوعد.

١٧ ـ إن من سنن الله ـ تعالى ـ في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأُعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله ـ تعالى ـ[١] ولذلك لم تُجبْ قريش في ما اقترحت على سيد الخلق ﷺ لأن الله ـ جل وعلا ـ لم يُرد إهلاك هذه الأمة ومعاملتها بما عومل به الأولون.

١٨ ـ بعض الناس قد يحدثون شراً لا عهد للبشرية به من قبل فيبقى داء وبيلاً مهلكاً لكل مَن يتعاطاه مِن بعدهم فيدمره تدميراً، يتضح ذلك من قبح فاحشة اللواط وخطورته على البشرية وما تمخض عنه في عصرنا من مرض الإيدز الذي أعجز العلماء في معاملهم وصيّر الأطباء حيارى أمام هذا الخطر الفتاك، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[٢].

---

(١) قال تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم ءاية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾. الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٠).

١٩ - إن كثـرة الأمـوال لدى أية أمـة إذا لم تضبط بقواعد الشرع قادتها إلى المهلكــة، وإن أولي الأمــوال الــذين لا يُخضعـون سلوكهم للشرع يستخـدمـون أموالهم في جلب الشرور والصد عن سبيل الله وإعجاز المصلحين عن إصلاح نفوسهم التي أفسدها الشرَه فأصبحت حريصة على جمع المال دون مبالاة بسلامة الوسائل إلى ذلك، قال ـ تعالى ـ على لسان شعيب: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا...﴾(1)

٢٠ - إن البـاطـل قد يسحـر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الزمن، ويستولى على أفئدتهم ومضة من الوقت حتى لَيُخيّل لضعاف القلوب أنه غالب وحق، وهذا ما حدث لقوم فرعون عندما شاهدوا السحرة يلقون حبالهم وعصيهم وقد تحولت إلى حيات تسعى.

ولكن ما إن يواجه ذلك الباطل الزائف الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول، وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذُعر والذل وهم يرون صروحهم تتهـاوى وآمـالهم تتداعى أمام نور الحق المبين، وإذا بتحدِّيهم الصريح وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين.

٢١ - إن رسوخ الإيمان في نفوس أتباع الحق يجعل من أتباع الحق القدرة على تحمل جميع المشاق مهما كانت ولو أودت بحياتهم، وفي هذا الاستنتاج درس قويم للدعاة إلى الله، قال ـ تعالى ـ حكاية عن سحرة فرعون وهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥، ٨٦).

يخاطبون فرعون الذي هددهم بتعذيبهم وصلبهم: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ . . . . ﴾ الآية[1].

٢٢ ـ تخاذل الباطل واضمحلاله أمام الحق، فأهل الباطل يتبجّحون بباطلهم ما فقدوا الرادع القوى، فإذا رُدِعوا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكادت قلوبهم تبلغ الحناجر.

٢٣ ـ أسوأ ما يبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة، ولذا قال ـ سبحانه ـ في شأن ذلك الإسرائيلي بلعم بن باعوراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ . . . . ﴾ الآية[2]. فعلى العاقل أن يلاحظ هواه، فإن كان تبعاً للكتاب والسنة متنه واجتهد في تمتينه، وإن كان على خلاف ذلك فليعلم أنه مريض بمرض عضال يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغالٍ حتى يرد إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها.

٢٤ ـ إن الله ـ جل وعلا ـ كتب نصرة الحق وأهلِهِ منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يُغيَّرُ ولا يُبَدَّلُ، فالغلبة وإن تأخرت ستكون لأهل الحق؛ يظهرُهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علَوا في أمرهم.

٢٥ ـ إن النصر في الفكر الإسلامي ليس محصوراً بالنصر العسكري المادي فحسب بل إن مفهوم النصر في الفكر الإسلامي معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكلُّ إعلاءٍ لكلمة الله هو نصرٌ لدين الله.

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٢، ٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

اللَّهمَّ انصر الإسلام والمسلمين، وأهلك الكفرة أعداء الدين؛ اللَّهمَّ إنك تعلم ما نزل بالمسلمين من الضعف والهوان، وتكالب الأعداد عليهم.

اللَّهمَّ، كلُّ مَن أراد الإسلام والمسلمين بسوءٍ أو كيد أو إيذاءٍ، فاجعل اللَّهمَّ كيده في نحره، وتدبيره تدميره وخذه أخذ عزيز مقتدر.

وكل من أراد الإسلام والمسلمين بخير وصلاح ونفع فوفقه لكل خير، وأيِّده بنصرك وتأييدك وحفظك، يارب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الفهـــارس

فهرس المصادر و المراجع

(أ)

١ - **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود:
- آثار البلاد وأخبار العباد. (بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ).

٢ - أثر تطبيق النظام الأقتصادي الإسلامي في المجتمع:
- من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقة الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦هـ، (الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ).

٣ - **الغزالي**، محمد بن محمد، (ت٥٠٥هـ):
- إحياء علوم الدين. (القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي، د.ت).

٤ - **الدمشقي**، ابن العباس أحمد بن يوسف أحمد الشهير بالقرماين، (ت١٠١٩هـ).
- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ. (بيروت: عالم الكتب).

٥ - **الأزرقي**، أبو الوليد محمد بن عبد الله:
- أخبار مكة المشرفة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة).

٦ - **الشوكاني**، محمد بن محمد:
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الطبعة الأولى، (القاهرة: مصطفى الحلبي، ١٣٥٦هـ)، الباب الأول.

٧ ـ **الواحدي**، أبو الحسن علي:
ـ أسباب نزول القرآن، تحقيق السعيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، (جدة: دار القبلة، ١٤٠٤هـ).

٨ ـ **الغزالي**، الشيخ محمد:
ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر. الطبعة السادسة، (القاهرة: المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٩٦هـ).

٩ ـ **دارون**:
ـ أصل الأنواع.

١٠ ـ **الشنقيطي**، محمد الأمين:
ـ أضواء البيان، (بيروت: مطبعة عالم الكتب).

١١ ـ **الشافعي**، الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، (ت٤٠٥هـ):
ـ أعلام النبوة. الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٣هـ).

١٢ ـ **نخبة من العلماء الأمريكيين**:
ـ الله يتجلى في عصر العلم. ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، (بيروت: دار القلم).

١٣ ـ **البار**، محمد علي:
ـ الأمراض الجنسية. (جدة: دار المنارة).

(ب)

١٤ ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل:
ـ البداية والنهاية. الطبعة الثالثة، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨٠م).

١٥ - **البلخي**، أبو زيد أحمد بن سهيل، (ت٣٠٢هـ):
- كتاب البدء والتاريخ، يباع عند الخواجة أرتشف كرو الصحافي بمدينة بايرز سنة ١٨٩٩م، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب.
١٦ - **الزركشي**، بدر الدين محمد بن عبد الله:
- البرهان. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٩١هـ).
١٧ - **ابن يعقوب**، أبو الطاهر محمد، (ت: ٨١٧هـ):
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق عبد العليم الطحاوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئوون الإسلامية).
١٨ - **طنطاوي**، محمد سيد:
- بنو إسرائيل في القرآن والسنة. الطبعة الأولى، (القاهرة: دار حراء، ١٣٨٨هـ).
١٩ - **العامري**، عماد الدين يحيى بن أبي بكر:
- بهجة المحافل وبغية الأماثل. (المدينة المنورة: المكتبة العلمية).
٢٠ - **نوفل**، عبد الرزاق:
- بين الدين والعلم، القاهرة.

(**ت**)

٢١ - **الزبيدي الحنفي**، الإمام محب الدين أبي الفياض السيد محمد مرتضى الحسيني الوسطي، ت(١٢٠٥):
- تاج العروس. الطبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ).

٢٢ - **النجار**، محمد الطيب:
- تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ).

٢٣ - **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، ت(٣١٠هـ):
- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، (بيروت: دار سويدان).

٢٤ - **كرم**، يوسف:
- تاريخ الفلسفة الحديثة، (القاهرة: دار المعارف).

٢٥ - **ابن عبد السلام**، أبو محمد عبد العزيز:
- ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام. تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي، (بيروت: مكتبة المنار).

٢٦ - **الكلبي**، محمد بن أحمد بن جزي:
- التسهيل لعلوم التنزيل. (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ).

٢٧ - **زينو**، حسن:
- التطور والإنسان.

٢٨ - **الحميدي**، عبد العزيز:
- تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة. (مكة المكرمة مركز البحث العلمي، بجامعة أم القرى).

٢٩ - **الملا**، حمد بن أبي بكر:
- تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق، أحمد بن أبي بكر الملا، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى.

٣٠ ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل، (ت: ٧٧٤):
ـ تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر).
٣١ ـ **العمادي**، أبو السعود محمد بن محمد، (ت٩٥١هـ):
ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المعروف بتفسير أبي السعود، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٣٢ ـ **الألوسي**، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، (ت: ١٢٧٠هـ):
ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المعروف بتفسير الألوسي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٣٣ ـ **الأندلسي** ، أبو حيان بن محمد بن يوسف، (ت: ٧٤٩):
ـ تفسير البحر المحيط. (بيروت: دار الفكر).
٣٤ ـ **البقاعي**، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم، (ت: ٨٨٥هـ):
ـ نظم الدر في تناسب الآيات والسور، والمعروف بتفسير البقاعي.
٣٥ ـ **البيضاوي**، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشافعي، (ت: ٦٨٥هـ):
ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والمعروف بتفسير البيضاوي، (بيروت: مؤسسة شعبان).
٣٦ ـ **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ):
وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، (ت: ٨٦٤هـ).
ـ القرآن الكريم وبهامشه التفسير المعروف (تفسير الجلالين)، (القاهرة: المكتبة الشعبية).
٣٧ ـ **العجيلي**، سليمان بن عمر:
ـ تفسير الجمل (الفتوحات الإلهية)، . (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٢٠٤هـ).

٣٨ ـ **البغـدادي**، علاء الـدين بن محمـد بن إبـراهيم الشهرياني: (ت: ٧٢٥هـ):
ـ تفسير الخازن، وبهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل، لأبي محمـد الحسيني بن مسعـود الفـراء البغوي (ت: ٥١٦هـ): الطبعة الثـانية، (القـاهـرة: مصـطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).
٣٩ ـ **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن، (ت: ٩١١هـ):
ـ تفسـير الدر المنثور في التفسير المأثور. الطبعة الثانية، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ).
٤٠ ـ **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت: ٣١٠هـ):
ـ تفسـير الـطبري (جـامـع البيان عن تأويل آي القرآن). الطبعة الثانية، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٨٨هـ).
٤١ ـ **القاسمي**، محمد جمال الدين القاسمي، (ت: ١٣٣٢هـ):
ـ تفسير القاسمي (محاسن التأويل) تعليق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر).
٤٢ ـ **القرطبي**، أبو عبد الله محمد أحمد، (ت: ٦٧١هـ):
ـ تفسـير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٤٣ ـ **فخر الدين الرازي**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين:
ـ التفسير الكبير، (طهران: دار الكتب العلمية).
٤٤ ـ **الزمخشري**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، (ت: ٥٣٨هـ):
ـ تفسير الكشّاف (حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). الطبعة الأولى، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٧هـ).

٤٥ ـ عبده، محمد (ت: ١٣٢٣هـ)، ورضا، محمد رشيد، (ت: ١٣٥٤):
ـ تفسير المنار، تفسير القرآن الكريم، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة المنار ١٣٤٦هـ).
٤٦ ـ البهي، محمد:
ـ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. تفسير سورة الأعراف. الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٠هـ).
٤٧ ـ النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد:
ـ تفسير النسفي. (بيروت: دار الكتاب العربي).
٤٨ ـ النيسابوري، :
ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق إبراهيم عطوة عوض، الطبعة الأولى، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٨١هـ).
٤٩ ـ طنطاوي، محمد سيد، الكومي، أحمد:
ـ تفسير سورة الأعراف. (القاهرة: دار الجيل، ١٣٩٢هـ).
٥٠ ـ العسقلاني، ابن حجر:
ـ تقريب التهذيب. تحقيق عبدالوهاب عبد اللطيف، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٩٧٥م).

٥١ ـ إسماعيل، عماد الدين، صاحب حماة، (ت: ٧٣٢هـ):
ـ تقويم البلدان، (باريس: الطباعة السلطانية، ١٨٣٠م).
٥٢ ـ العسقلاني، ابن حجر:
ـ تهذيب التهذيب. الطبعة الأولى، الهند، ١٣٢٧هـ، تصوير، (بيروت: دار إحياء، ١٩٦٨م).

٥٣ ـ **الأزهري**، أبو منصور محمد بن أحمد:
ـ تهذيب اللغة. (القاهرة الدار العربية للتأليف والترجمة).
٥٤ ـ **النجري**، محمد أمين بن محمود، (ت: ٩٨٧):
ـ تيسير التحرير على كتاب التحرير. (مصر: البابي الحلبي، ١٣٥٠هـ).

(ج)

٥٥ ـ **أبو زهرة**، محمد:
ـ الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي. (القاهرة، دار الفكر).

(ح)

٥٦ ـ ابن القيم **الجوزية**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت: ٧٥١هـ):
ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. (بيروت: دار الندوة الجديدة).
٥٧ ـ **الشيباني**، ابن الديبع:
ـ حدائق الأنوار ومطلع الأسرار. تحقيق عبد الله الأنصاري.

(خ)

٥٨ ـ **أبو العلا**، عادل محمد صالح:
ـ خصائص السور المدنية ومقاصدها. رسالة ماجستير مكة المكرمة: (جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ).

(د)

٥٩ ـ **وجدي**، محمد فريد:
ـ دائرة معارف القرن العشرين. (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ).

(ر)

٦٠ ـ **طلاس**، مصطفى:
ـ الرسول العربي وفن الحرب. (دمشق: مطابع الإدارة السياسية).

(ن)

٦١ - ابن الجوزي، أبوالفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي، (ت: ٥٩٧هـ):
- زاد المسير في علم التفسير. الطبعة الثالثة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ).

(س)

٦٢ - المغيري، ، أبو علي زين الدين علي المغيري:
- سراج القلوب وعلاج الذنوب، على هامش قوت القلوب لأبي طالب الملكي.

٦٣ - ابن ماجه القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، (ت: ٢٧٥هـ):
- سنن ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي).

٦٤ - أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي:
- سنن أبي داود. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ).

٦٥ - الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:
- سنن الترمذي. تحقيق محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٦٦ - ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك، (ت: ٢١٨):
- سيرة ابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٦٧ - ...... ، :
- السيرة الحلبي. إنسان العيون في سيرة المأمون، (مكة: دار الباز، ١٤٠٠).

٦٨ ـ **أبو شهبة**، محمد:
ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٣٩٠هـ).

٦٩ ـ **الندوي**، أبو الحسن علي الحسيني:
ـ السيرة النبوية، الطبعة الأولى، (جدة: دار الشروق، ١٣٩٩هـ).

(ش)

٧٠ ـ **ابن أبي المعز**:
ـ شرح العقيدة الطحاوية. حققها جماعة من العلماء، الطبعة الرابعة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ).

٧١ ـ . . . . :
ـ المحلى على جمع الجوامع، بحاشية البناني، (القاهرة: مصطفى الحلبي).

٧٢ ـ **البيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسيني علي، (ت: ٤٥٨هـ):
ـ شعب الإيمان.

(ص)

٧٣ ـ **الصاوي**، (ت: ١٢٤١):
ـ الصاوي على الجلالين على تفسير الجلالين. (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية لأصحابها البابي الحلبي.

٧٤ ـ **العيني**، بدر الدين بن محمد:
ـ شرح صحيح البخاري مع شرح عمدة القارىء، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٧٥ ـ **العسقلاني**، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر:
ـ صحيح البخاري مع شرح فتح الباري. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ).

٧٦ - **الإمام مسلم :**
- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار إحياء التراث.

(ظ)

٧٧ - **قطب**، سيد:
- في ظلال القرآن الطبعة السابعة ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٣٩١هـ).

(ع)

٧٨ - **سويدان**، عبد الحليم :
- علم الحياة الحيوانية.

٧٩ - **البوطي**، محمد سعيد رمضان:
- العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر. (دمشق، جامعة دمشق).

(ف)

٨٠ - **الشيباني**، الإمام أحمد بن حنبل:
- الفتح الرباني لترتيب مسند ابن حنبل، تحقيق أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، (القاهرة: دار الحديث).

٨١ - **الشوكاني**، ، محمد بن علي بن محمد، (ت: ١٢٥٠هـ):
- فتح القدير. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٣هـ).

٨٢ - **الديلمي**، أبو الشجاع شيرويه :
- الفردوس بمأثور الخطاب. تحقيق السعيد بن بسيوني، الطبعة الأولى، (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ).

٨٣ - **الظاهري**، ابن حزم الأندلسي:
- الفصل في الملل والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

(ق)

٨٤ ـ **الصابوني، محمد علي:**
ـ قبس من نور القرآن الكريم. الطبعة الأولى، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٧هـ).

٨٥ ـ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، (ت: ٧٧٤هـ):
ـ قصص الأنبياء. تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الثانية، (بيروت: المكتبة الإسلامية، ١٤٠٢هـ).

٨٦ ـ **بليخانوف:**
ـ القضايا الأساسية في الماركسية.

(ك)

٨٧ ـ **ابن حنبل الإمامأحمد:**
ـ كتاب السُنة، تحقيق محمد بن سعيد القحطاني، (الدمام: دار ابن القيم).

٨٨ ـ **الميداني**، عبد الرحمن حبنكة:
ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، الطبعة الأولى، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٥هـ).

(ل)

٨٩ ـ **ابن منظور الأفريقي**، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم:
ـ لسان العرب. (بيروت: دار صادر).

٩٠ ـ **(جمع) محمد فؤاد عبد الباقي:**
ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.. (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٩٧هـ).

٩١ ـ رسالة ماجستير، مقدمة لجامعة أم القرى بعنوان: (لوط عليه السلام) على ضوء الكتاب والسنة:

(م)

٩٢ ـ **ابن تيمية**، ابن العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت: ٧٢٨هـ):

ـ مجموع فتاوى ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد القاسم العاصبي، (الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ).

٩٣ ـ **قطب**، محمد:

ـ مذاهب فكرية معاصرة، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٧هـ).

٩٤ ـ **البغدادي**، صفي الدين عبد المؤمن، (ت: ٧٣٩هـ):

ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق محمد علي البجاوي، الطبعة الأولى، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ).

٩٥ ـ **النيسابوري**، أبو عبد الله الحاكم، (ت: ٤٠٥هـ):

ـ المستدرك على الصحيحين. (بيروت: دار الكتاب العربي).

٩٦ ـ **الشيباني**، الإمام أحمد بن حنبل:

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، (بيروت: دار صادر).

٩٧ ـ **الديلمي**، عبد الوهاب:

ـ معالم الدعوة، (جدة: دار المجتمع).

٩٨ ـ **إشراف**، مجموعة من الباحثين بمجمع اللغة العربية:

ـ المعجم الوسيط. الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٣هـ).

٩٩ - **الأصفهاني**، ابن القاسم الحسين بن محمد الراغب، (ت: ٥٠٢هـ):
- المفـردات في غريب القـرآن. تحقيق سيد كيلاني، (بـيروت: دار المعرفة).

١٠٠- **السخاوي**، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن:
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة.

١٠١ - **الزرقاني**، محمد عبد العظيم:
- مناهل العرفان. الطبعة الثالثة، (القاهرة: البابي الحلبي).

١٠٢ - **الهيثمي**، نور الدين:
- موارد الـظمآن على زوائـد ابن حبـان. تحقيق عبـد الرازق حمزة، (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٣ - **الأبجي الشـافعي**، عضـد الـدين الأيجي معيني الـدين محمـد بن عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني، شرح للشريف الجرجاني (ت: ٩٠٥هـ):

١٠٤ - **القسطلاني**، أحمد بن محمد:
- المواهب اللدنية. (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٥ - **يـودستنيك وياخوت** :
- الموجز في المادية الديالكيتكية.

١٠٦ - **الطويشة**، أحمد:
- موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ. (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٢هـ).

(ن)

١٠٧ - رسالة ماجستير، مقدمة لجامعة أم القرى، للصادق المنا محمد بعنوان:
- (نبي الله شعيب على الكتاب والسنة).

١٠٨ - البوطي، محمد سعيد رمضان:
- نقض أوهام المادية الجدلية. الطبعة الثانية، (دمشق: دار القلم، ١٣٩٩هـ).

١٠٩ - التويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت: ٧٣٣هـ):
- نهاية الأرب في فنون الأدب. (القاهرة: دار الكتب).

بالإضافة إلى غير ذلك من مراجع تم الاستعانة بها

فهرس الأعلام المسلمين المترجم لهم

فهرس الأعلام غير العرب المترجم لهم

صدر من هذه السلسلة

١ ـ **ولاية اليمامة**: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، تأليف صالح بن سليمان الوشمي (رسالة دكتوراة) الطبعة الأوى ١٤١٢هـ.

٢ ـ **أسس تنظيم المكتبات والمعلومات**: تأليف روزي بنهام، كولن هاريسون، ترجمة سناء محاسني ـ ناصر السويدان ـ حمد عبد الله عبد القادر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣ ـ **لغة العرب**: دراسة تاريخية وكشاف موضوعي، إعداد أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، أمين سليمان سيدو، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٤ ـ **السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات**، إعداد ناصر السويدان، محمد الربيع، محمد السويل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٥ ـ **النشاط الأقتصادي في عصر الإمارة**، تأليف خالد البكر (رسالة ماجستير) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦ ـ **الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري**، تأليف محمد إبراهيم أبا الخيل (رسالة ماجستير) (تحت الطبع).

٧ ـ **الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين** (رسالة دكتوراة) د. يوسف بن إبراهيم العريني.

٨ ـ **زواهر الفكر وجواهر الفقر**، مخطوط لابن المرابط، دراسة وتحقيق حسن فليفل.

٩ - **الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف**، تأليف عادل محمد صالح أبو العلا.

١٠ - **السجل العلمي لندوة الأندلس**: قرون من التقلبات والعطاءات (الجزء الأول).

١١ - **تقييم الأداء في المكتبات ومراكز المعلومات**، تأليف ف. و. لانكستر ترجمة الدكتور حسني الشيمي والدكتور جمال الفرماوي.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع **الصفحة**